

تقى محمد الجارسة

أوراق صوفية

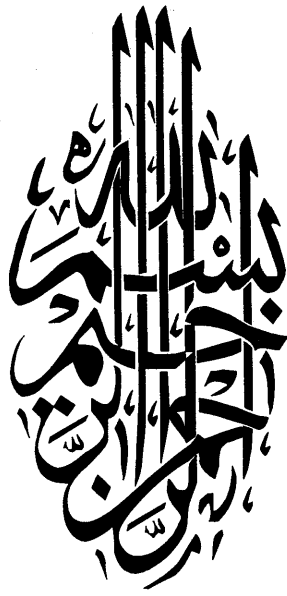
- البحرين في الزمان الأول
- أحاديث مسانر
- أوراق أربية
- أوراق إسلامية

مكتبة فنراوي





أوراق مملوكة



أوراق ملونة

البحرين في الزمان الأول - أوراق مسافر
أوراق أدبية - أوراق إسلامية

تقي محمد البخارنة

مكتبة فزاوي

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

مكتبة فخر أوي

البحرين - المنامة هاتف: ٥٥٣١٣٣ - ٢٣٢٨٤٩ فاكس: ٥٥٢١٨٢ ص.ب: ١٦٤٣

لَا تُفَرِّقْ

بَيْنَ رُوحِ وَوَلَدِي
وَجَدِي ...
الَّذِي تَعَلَّمَ مِنْهُ
وَكَلَّمَ بِي ...

وَأَوْلَيْتَ

تقديم

بقلم

الأستاذ إبراهيم العريض

(لقد وجدت مكان القول ذا سعة)

فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

المتنبي

بإدارة طيبة

بقلم الأستاذ إبراهيم العريض

إنني أرحب بهذه البادرة الطيبة، من ولدي «تقي» مع العلم أنني أتوخي فيها لشباب الجيل أيضاً خيراً كثيراً، فطالما تلفتُ الى السنوات الاولى من نشاطي في البحرين فكان لهذا الشاب المهذب الصورة المثلى في كل ذكريات تمتدّ بشريطها منذ ذلك العهد الى اليوم، مشرقة بكل زواياها وحافلة بالقيم الغنية.

إنّ عشريتي بتقي البحارنه، كطالب تبدأ - أول ما تبدأ - في المدرسة الثانوية التي التحقت بها خلال الحرب العالمية الثانية في الاربعينيات، كأستاذ معار للتدريس من قبل شركة P.C.L فوجدت فيه روحاً متطلعة للمعرفة، متفتحة للحياة، مطمئنة الى نفسها، تحاول ان تجمع بين الوساطة والغاية من اوسع الطرق ولا تتخلى عن موضوعيتها في اشدّ الحالات عتمة. كأنما يقترن عندها ما يراه البصر بما تدركه البصيرة، اقتراناً يغمره الهدوء في جميع الأحوال.

فتقيّ عندما يتناول الكتابة عن أيامه الدراسية او ما تلاها لا يقتصر في حديثه على نفسه، كما يفعل الآخرون، بل تعمل ريشته في اللوحة على إظهار الظروف المحليّة وأجواء الفترات الزمّية التي وقع فيها الحدث - مجسّماً للمعاني تجسيماً بكل ابعاده. أننا نعيش معه في تلك الظروف التي مرّت بالبحرين، ونتنفس هواء معاناتها التي رافقتها ثانية

ثانية - ليلاً او نهاراً - كما لو أننا نعيشها من جديد في هذه الساعة .

إنّ كل حادث عند تقي، بالأضافة الى كونه عامراً بالوصف، يتجاوز قيمته المحليه عندما تهتم ريشته بإخراجه الخاص، فيصبح وكأنه صفحة ناطقة في سفر «الحياة البشرية» بحيث أنك - يا من يقرأ - خلال تحريك تلمس «الماهية» في صورة رسمها توّأ بقلمه، تظل تعايشها على طول الخط، منبهراً ب «كيفية» إخراجها في إطارها .

إنّ تقي يذكرني بأيام دراسته في الثانوية . فأجد نفسي من زاويتي اعيش معه هناك . . . مُجدداً، وبعد ذلك يذكرني بالندوات الأولى التي حضرتها في نادي العروبة، فأرى وكأنني أعود بحسني كذلك لتلك اللحظات المتوّهجه من جديد بين المحتفلين .

لكأنّ هذه الصفحات فاتحة لتلك الحياة الحافلة المعبرة التي عشناها مرّة، ولكن بسحر ساحر عاد هذا الفنان بريشته يخلقها واذا بنا اليوم جميعاً نظلّ نعيشها معه . . . كما عشناها . . . مذهولين .

واذا تأملنا ملياً، فلا يقتصر الأمر علينا وحدنا ولا على تاريخ البحرين . فقد ارتفع الأثر - بما يزخر به من قيم - بحيث يرى كل أديب جدير باسمه في الخارج، ممّن غابت عنهم تلك الظروف بأجوائها، عوداً على بدء، كيف اقترن الصدق في التعبير عنها، بالجمال الذي يكتنفها من كل صوب في التصوير . . . في لوحة فنيه رفيعة . وهذا هو الشيء الذي ينفرد به اليوم هذا العبقريّ بين كلّ الذين لمعت اسمائهم في كتابة الذكريات عن الآخرين سواء هنا او هناك .

فحسب تقي انه لم يتحدّث أبداً الا بما رأى وما سمع بنفسه، ولا يعوّل مطلقاً على ما يروى على الألسن، عاش منذ صغره بموهبة غنيّة بين الناس كواحد منهم ولكن بكامل وعيه لما يختلج حوله في النفوس . . . محتفظاً بوقاره .

إنني انتهز هذه الفرصة فرحاً، لأعبر لتقيّ عما كنت أحسّه قديماً،
ولا زلت أرى دليلاً من جديد ازاء كل بادرة يقوم بها. وآخرها، بالاضافة
الى هذه الذكريات، الشعر بصفته الحقيقية الذي ظلّ يرافقها، منظوماً
ومنشوراً، طوال حياته. إنني أضّمّه الى صدري كزميل. جعل الله حياته
روضة للأخزين ومصدراً لتزويدهم دائماً بأطيب الثمرات.

ابراهيم العريض

حرر في ١٠ محرم ١٤١٨ هـ

الموافق ١٧ مايو ١٩٩٧

البحرين

كَلِمَةُ الْكُلْفِ

بين دفتي هذا الكتاب، ينظم شمل مجموعة من
الذكريات والمقالات، والدراسات والأفكار، بحكم
كل منها طابع عصر، وظروف زمانه ومكانه.

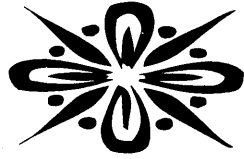
وقد سمعت حوافر الزمن آتالها على مدى سنواتٍ
من العمر بين مد الكتابة وجزرها بأيقاع متنوعٍ من
تموج الأفكار والمواضيع.

إنها أوراق شتى، يتأرجح ظلها بين الأدب والسيرة
الذاتية، والأسفار وشئون الفكر والاجتماع.

وقد آرت أن أضمرها بين يدي القارئ الكريم على
طبيعتها، دون تصريف أو تغيير إلا في موارد التصحيح
والتوضيح، والله الموفق.

سقي الجارنة
١٥ مايو ١٩٩٧

البحرين
في الزمان الأول
١٩٣٠ - ١٩٥٠



الورقة الأولى

- ١ -

تشوقت في البحرين داراً وعشرة
ووجهاً نماه العزّ فهو طليق
وقبرة تشدو على غصن أيكّة
وروضاً كساه الحسنُ فهو أنيق
وبحراً على شطآنه ملعب الضبا
ومنعطف من حوله وطريق
وإخوان صدق كالنجوم وحبهم
تمكّن في الأحشاء فهو عريق

المؤلف

- ١ -

ذكريات الجناح الطائر

عندما تفتح الطائرة أبوابها لاستقبال المسافرين، ويشقّ كل منهم طريقه وسط الزحام الى المقعد المخصص له، خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة التي تعد بالدقائق أو بالثواني، تتصارع في نفس المسافر مشاعر ونزعات تذكّيهما الغريزة ويؤججها القلق وعدم الاستقرار، ولا تزول إلا بعد أن يستقرّ في أحشاء ذلك المقعد الصغير، وتستقرّ معه حاجاته من حوله وتحت قدميه أو من فوق رأسه. عندئذ ينتاب المسافر شعور من قام بترتيب البيت وتنظيم الأولويات التي تتوارد على ذهنه.

وعندما يربط الحزام من حوله، فأنه يختلس نظرات جانبية نحوالجالسين عن يمينه وعن شماله - وهو يسترجع انفاسه اللاهثة - محاولا ان يقيم علاقة ما، بينه وبين ما يدور حوله من حركة وتموّج واضطراب. وقد فعلت كلّ ذلك، لكنى لم أدرك أن الشخص الجالس بجانبي على المقعد المجاور غريب الطباع، شاذ التصرف، إلا حينما رفع عقيرته بالغناء بصوت فاضح فتلقّت الركّاب نحوه مندهشين وارتعشت أطباق الطعام في أيدي المضيفات. . ولم ينس أيّ منهم ان يسترد نظراته الحائرة تجاه هذا المشهد، بالتفاتة سريعة نحوي تحمل معنى الرثاء. والغناء بصوت أجشّ ضريبة لا يتحملها الإنسان، فكيف به اذا جاء بلغة غريبة كالصينية، ونبرات «متحشجة» ثقيلة على السمع.

وشخصية هذا الصيني الذي ناهز بعمره الستين وطاول بجسمه
التنين، أثارت لديّ الحيرة والفضول... فهو يقرأ دائماً في نفس
الصفحة من جريدة مطوية... ثم يكتب شيئاً، وتخاله مستغرقاً في
شأنه... حتى تبدو منك بادرة أو تصدر حركة، فيتوقف عما هو فيه
متلفتاً، ويتخذ وضعاً كأنه في حالة دفاع عن النفس.

لقد أقام من حوله سياجاً وهمياً، وحدوداً مصطنعة وصرت اتوقع
منه هجوماً مضاداً كلما أوشكتُ على القيام بحركة تخرق جانباً منذ ذلك
الحاجز الوهمي وسرعان ما يسألني بلهجة حازمة: ماذا تريد أن تفعل!؟

ذكرني هذا الجار المتربص بحرية الجالس بجنبه بما قيل في تعريف
الحرية بأنها تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين، وتصورت كيف يكون وضع
البشر لو تمسك كل واحد منهم بما يعتبره حقاً له، لا يحيد عنه قيد
شعرة. ثم أدركت ما يفعل التسامح بالناس حين ينزع عنهم ثوب التنمر
ويقيهم شرّ النزاع فيما لا يجدي ويوفر عليهم حدة القول وغلظة التصرف
وتعب الأعصاب. واجهته مبتسماً وسألته ان كان مثلي قاصداً «سنغافورة»
فأجاب أنه ذاهب الى اليابان لكثته نزل معي من الطائرة ثم اختفى.



وتكلم مرافق لي في سنغافورة عن المجتمع هناك، فهو خليط من
أصول وأجناس وطوائف يغلب عليها الطابع الصيني، فالماليزي،
فالهندي، فأقليات صغيرة. ودار الحديث عن أهمية التعايش والأنسجام
بين كافة الجنسيات والأديان في المجتمع الواحد، بل يخيل اليّ أن
التوازن هو العنصر الاساسي في الاستقرار الاجتماعي والسياسي
والاقتصادي والثقافي، الذي يعيشه المجتمع في سنغافورة. فهم يتمسكون
بالنظام القائم كنوع من الاعتراف بالجميل لانه في نظرهم، النظام الصالح
الذي حقق انجازات واسعة في شتى الميادين.

وإذا تدخّلت الدولة في شئون أية طائفة لتحقيق مصلحة عامة، فإن هذا التدخّل يكون غالباً من خلال مصلحة تلك الطائفة ذاتها. وقال لي مرافق آخر من المسلمين، إن الدولة حفاظاً منها على حماية المسلمين من اللجوء الى جمع التبرعات من الخارج لبناء المساجد والمؤسسات الاسلامية، قد فرضت على كل مسلم دولاراً من راتبه شهرياً تضيف اليه من عندها المثل، وان المسلمين تجاوباً منهم مع هذه الخطوة التنظيمية يفكرون في رفع هذا الرسم الى الضعف. وتفرض الدولة رسوماً على الدخل الفردي ورسوماً كبيرة على السلع الاستهلاكية والكمالية لاسيما الخاضعة منها للحماية التشجيعية بينما تعفى باقى السلع - والاطعمة خاصة - من الرسوم.

ويمكن للمتتبع ان يكتشف جوانب كثيرة من ظاهرة المحافظة على التوازن الاجتماعى سواء في الأمور الهامة، أو العادية. . وأنت اذا أدرت جهاز التلفاز مثلا ستلاحظ أن البرامج تختتم بثلاث لغات: الصينية والماليزية والهندية، وفيما تتلى للمسلمين آيات من القرآن الكريم.

ويلاحظ الزائر قلة الفوارق وانعدام المشاعر العدائية بين السنغافوريين رغم اختلاف أصولهم وأديانهم، ويكتشف بسرعة طغيان المصالح التجارية والمنافع المتبادلة على القضايا السياسية العامة، لكأن السنغافوري منزوع الهوية منزوع الأنتماء. إنه تاجر او بيّاع او مستثمر او صاحب مهنة، والآخرين زبائن، والبلد حانوت كبير، والدولة مؤسسة ادارية حازمة وهم مستخدمون فيها، ولهذا فالدولة يهتمها المحافظة على النظام والانسجام ورعاية هؤلاء العاملين فيها والاعتراف بحقوقهم ورغباتهم المشروعة لكي يواصلوا العمل بأطمئنان ولكيلا يهتز النظام من أساسه او يلتهمه الحوت، اذ ان سنغافورة يجاورها عدد من الدول الكبيرة تفوقها حجماً وقوةً وسكاناً، ولكنها تتخلف عنها بدرجات متفاوتة في ميدان التقدم. ويصوّت المواطنون كلما جاءت مناسبة

للتصويت غالباً بجانب الحزب الحاكم ويؤيدون مرشحي الحكومة في نقابات العمال والمجالس الأخرى. . وينتهي كل شيء هكذا ببساطة وينصرف كل مواطن بعدها الى عمله. لا مطامح سياسية بعيدة، ولا انتماءات خارجية معوقة للمسيرة، حتى ان الصينيين وهم الكثرة الغالبة يكتبون بالطابع الثقافي والاجتماعي والعلاقات الطيبة مع الجيران، وعلى شاكلتهم يفعل الماليزيون وهجرتهم مستمرة من ماليزيا المجاورة للعمل او للإقامة كما يكتفى الذين هم من أصول هندية والاقليات المسلمة والعربية الأصل وغيرهم بما في أيديهم.

إن مهندس هذا النظام الفريد والساھر عليه هو رئيس الوزراء الوحيد المشهور «لي كوان يو»، فهو في سنغافورة قد صار رمزاً وطنياً خالداً، وفي خارجها نموذجاً للكياسة والحكمة وأستاذاً في السياسة الداخلية والدولية، حسب اعتراف زعماء السياسة في العالم. وحينما تقرأ عن اختصاصات مكتب رئيس الوزراء في سنغافورة فأنت تجد انها تشمل: جهاز مكافحة التلوث، مكتب التحقيقات لمكافحة الفساد الاداري، أمناء مكاتب المقاطعات، ثم ادارة الانتخابات. وتهتم تلك الدوائر والمكاتب بشئون مجلس الوزراء، والشئون الدينية والعدالة والسلام، ونظام الأسبقيات، والأوسمة، والعلم الوطني ولجان المواطنين الاستشارية واخيراً مجلس المنافع العامة. ويباشر الوزراء مهامهم الوزارية الموكلة اليهم. . كما يحكم سنغافورة برلمان ديمقراطي ورئيس جمهورية.



وبعد - فقد كانت تلك الملاحظات هي مما دونته عن سنغافورة في احدى زياراتي لها منذ ثمانية أعوام تقريبا، كان مبعثها تصرفات ذلك الصيني الذي شتف الآذان بالغناء في الطائرة، وهي لاتعنى اننى أكتب عادة ملاحظاتي أثناء السفر، كما لاتعنى أيضاً اننى سيء الحظ دائما مع من يجاورنى... ففي إحدى المرّات قبل ذلك بخمس سنوات تقريبا وجدت نفسي في المقعد المجاور لسيدة امريكية اثناء سفري في امريكا.. كانت مديرة مدرسة. لم نتحدث لفترة طويلة لكنى كنت اختلس النظر الى كتاب في التربية كانت عاكفة على قراءته، ولعلها كانت تختلس النظر ايضا الى ورقة كنت أشغل بها وقتى، ثم وضعت الكتاب الضخم وكأنها ملّت كثرة القراءة فأستأذنتها في تصفح الكتاب، ثم قلت : اذا كان حدسي صحيحاً فأنت مدرّسة، فقالت نعم، مديرة مدرسة لكنى لن احتاج الى الحدس وانا انظر الى حقيبة يدك، فهي حقيبة تاجر أو رجل اعمال. وظننت ان جوابي بالايجاب سيعجبها او يثير فضولها لكنها هزت رأسها بتعجب وقالت ان آخر ما تصورته رجل اعمال يهتم بقراءة كتاب في التربية، وشرحت فكرتها عن رجال الأعمال فهم يعيشون في عالم ضيق لا تهمهم إلا المادة والمصلحة، لغة الأرقام هي التى يفهمونها، أما شئون الفكر والأدب والثقافة فهي على الهامش من تفكيرهم، ثم استشهدت بالورقة التى اكتب فيها وقالت لابد اننى أدون فيها تقارير عن الصفقات التجارية، لكنى اوضحت لها اننى لست من امريكا وان أحكامها لا تنطبق على المحيط الذى عشت فيه، وان من بين التجار ورجال الاعمال في بلادنا نسبة كبيرة من المهتمين بالثقافة والادب وشئون الفكر، كانت في يوم من الأيام رائدة اليقظة الأدبية ومسيرة التطور. أما انا فقد كنت منذ برهة

مشغولاً بكتابة أبيات من الشعر ليس الا... وكان ما قلته مفاجأة لم تتوقعها فطلبت مني ان اقرأ عليها ما كتبت. وقرأت ابيات الشعر على مهل - وهي تكتب بالانجليزية ما حسبته بعض الملاحظات، ولما انتهيت لم تسألني عن معناها بل عن اسم قائلها...

فأخبرتها انها لشاعر مشهور في لبنان هاجر الى امريكا اسمه «ايليا ابو ماضي» فكتبت اسمه ثم قالت: «سأعيد عليك قراءة الأبيات بلغتكم ثم اعطى العلامة التي أستحقها». ودهشت حين سمعتها تقرأ الابيات كما قلتها بحركات الاعراب ذاتها وهي:

وطن النجوم أنا هنا حدّق أتذكر من أنا؟
المّخت في الماضي البعيد فتى غريراً أرعنا
جدلان يمرح في حقولك كالنسيم مدننا
يتسلّق الاشجار لا ضجراً يحسّ ولا ونى
ويعود بالاغصان يبريها سيوفاً أو قنا
ويخوض في وحل الشتاء مهلهلاً متيمّنا
لا يتّقى شرّ العيون ولا يخاف الألسنا..
ولكم تشيطن كى يدور القول عنه: تشيطنا..

ثم شرحت لها - ما وسعنى الشرح - معاني الابيات فراحت تكتبها بشغف بالغ وكأنها تستكشف ماضى طفولتها من خلال معاني الشعر الشفافه..

ثم قلت: ان كان ذلك منك لاطهار موهبة فأنت استاذة بحق، وان كانت مجاملة فأنها خير من ألف اعتذار ثم نزلت وواصلت سفرى والأبيات عالقة بذهني ومازالت، أرددها كلما حانت مني التفاتة الى عهد الصبا وزمن الطفولة.



من المؤكد ان جمال الطبيعة في لبنان لا يقارن بالبحرين، ومع ذلك فان الطبيعة لم تبخل بجمالها على البحرين، فقد كتب احد المؤرخين البرتغاليين في القرن السابع عشر عن البحرين وذكر أنه كان فيها ثلاثمائة قرية وهي غنية بالتمر والتين والرمان والخوخ والينابيع العذبة. كما تكلم آخر عن استخراج اللؤلؤ منذ ذلك الوقت وانه كان في البحرين انذاك ستمائة سفينة. ومعظم هذا الوصف ينطبق على البحرين خلال الثلاثينات حينما كنت صبياً، ولا أبالغ اذا قلت اننى انذاك - ومن هم على شاكلى من الاطفال - كنا نعمل ما فعله الشاعر ايليا أبو ماضي في صباه بما في ذلك الخوض في وحل الشتاء.. وكانت مدينة «المنامة» التى نشأت فيها مرتمية في احضان هلال خصب يسندها تجاه البحر من حافتها الجنوبية. بل ان المنامة نفسها كانت تنتشر بين بيوتها جزائر من الواحات والبساتين تعرف «بالدالية» أمثال دالية كانوا والمؤيد وبن رجب وذلك بجانب حديقة الحيوان المشهورة «الباغشة».

وبينما كان أهل المنامة المقيمين تجاه الساحل يهرعون الى هذه الدوالي في معظم الأوقات بترحيب من اصحابها، فان الاخرين كانوا يفرعون الى ذلك الهلال الخصب من البساتين وعيون المياه بعد انتهاء اعمالهم. وكان حيناً «الفريق» يعرف باسم «المشبر» نسبة الى جدول صغير من الماء يصله من القلعة «ماء شبر» اى بعمق شبر واحد كما تذهب التسمية. وكانت تلك البساتين على مرمى حجر تقريبا، فكنت اذهب اليها كلما سنحت الفرصة فرداً او مع مجموعة من الأولاد. كنا نلوح بالعصي ونردد ما كان يردده آنذاك مجموعات البدو «الفداوية» في «العرضة»: علموني «التفك» وانا صغير (أى استعمال البندقية).

ولم يكن المازة ولا راكبوا الحمير المحملة بمحاصيل المزارع، ولا

الفلاحون داخل المزارع نفسها مرتاحين من هذا المشهد، فلم ينظروا الى الأمر على أنه مسيرة طفولية ساذجة بل مسيرة شياطين يستحقون التأديب. ويستمر هذا الاختراق الصبياني حتى غايته عند عين «أم الشعوم» مروراً بصخرة «أم حمار» التي تكثر الخرافات عنها، وكان متداولاً انها تنقلب الى حمارة تطرق الابواب في الليل وتأخذ الاولاد الشياطين، لذلك كان التوقف عند هذه الصخرة هادئاً اشبه بمراسم أداء السلام والتحية إتياءً لشربها. ومثل ذلك كان مشوار العودة لكنه يتسم بالعدوان على ما يسنح من الثمار والمحاصيل لاشباع البطون الصغيرة الجائعة.

ومزرعة «العريض» في طريقنا كثيراً ما كانت تتيح للاطفال أكل الخس والطماطم والرطب دون مقابل إلا أن صاحبها الكبير منصور العريض كثيراً ما يوبخنا ويحذرنا من الاعتداء على الهنود «البانان» الذين كانوا يغتسلون عادة من الغدير «الكوكب» القريب منها، كما يؤنب على مرافقة جنائز الموتى منهم المتجهه نحو «المحرقة» والتشنيع عليهم بعبارات مثل «رام رام مركيا» . . . أما ملاذي المفضل فقد كان بستان «المديفع»، كنت ازوره بمفردي دون معارضة الحراس بسبب العلاقة العائلية . . . وكنت احياناً اقضى فيه اليوم بكامله مستمتعاً بالمرح واللهو في احضان الطبيعة الهادئة وبين وشوشات الطير. لقد شب في هذا الميل منذ الصغر حتى اصبحت ولا ازال اتعمد اختيار المصائف الهادئة على ما عداها. وحتى هذا اليوم كثيراً ما يتتابنى ذلك السرور الطفولي الغامر في احلام اليقظة والمنام.



- ٢ -

أولاد الحارة

وصف الشاعر الجاهلي (إمروء القيس) في معلقته المشهورة حصانه المشهور بالكرّ والفرّ... .

(مِكْرٍ مَقْبَلٍ مَدْبِرٍ مَعَاً كَجَلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ)
كما وصف سرعة عدو الحصان في اللحاق بالصيد بقوله:

(فَأَلْحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرَهَا فِي صِرَّةٍ لَمْ تُزِيلِ)
ويتعلم التلامذة ذلك في المدرسة وقد يصعب على عقولهم الناشئة فهمه وتصوره على حقيقته... . اما انا فلم أجد صعوبة في استيعاب هذا الوصف العجيب وتصوره على الطبيعة. اما السبب فهو: «أبو عبود».

ففي حارتنا، حينما يشعر الصبية الصغار - فجأة - وهم في غمرة انغماسهم في اللعب، أن الارض أخذت ترتج بهم، وان ظلاً لآدمى عملاق يتجه نحوهم من جهة الغرب ويغلفهم بسحابة تحمل معها نذر البرق والرعود، فأنهم يدركون أن موعد التفرق قد حان باقتراب (حزّة المغرب) أي وقت الأذان.

وينتشر الذعر بين الصبية ويبادر كلّ منهم بجمع ما تفرق في ميدان اللعب من أدوات ليفرّ من الزقاق الضيق الى الساحة الواسعة قرب المسجد، ولكن خطوات (ابو عبود) المتسارعة الجريئة تقودها عصا

طويلة من الخيزران وهو مغمض العينين - لا تتيح لأغلبهم فرصة للافلات. وسرعان ما تتحول الساحة الصغيرة الى ميدان كَرّ وفرّ... وقد يمسك بواحد أو اثنين من الصبية وتتعثّر رجلاه ببعضهم فلا يكتفى بما توفر له من صيد، بل يمد ذراعه وعصاه الطويلة لتتال من الباقين الذين يصطفون امامه فى الساحة الواسعة للترتبص به والتشفى منه.

وكثيرا ما كنت واحداً من الذين لا يفرّون من أمامه، فيعرفنى بمجرد ان يضع كف يده العريضة الجافة على رأسى فينتابني الوجمل، ثم يتركنى لشأنى وكأنه قد اقتنع - وهو بمحاذات بيتنا - اننى فعلا لست واحدا منهم... اى الاشرار الذين يتهكمون عليه ويستثيرونه مستغلين عجزه عن اللحاق بهم لكونه ضريراً، لا يرى رغم انه يتمتع ببصيرة نافذة ويقوم فى حارتنا بدور المبلّغ وناقل الاخبار... والمؤذن احياناً. فأما من تعثر بهم فيتركهم لشأنهم مكتفياً بما نالوه من اذى...

وأما المتربصون به وبعضاه الطويلة فانه يميز كل واحد منهم من صوته ثم ينسبه الى أبيه ويتوعده بان يشتكيه عند والده بعد الصلاة فى المسجد.

هكذا كان يمر النهار على الصبية الصغار فى حارتنا مليئاً بالاثارة مفعماً بالمفاجآت. انهم لا يفهمون معنى للحياة الهادئة الرتيبة، واذا افتقدوا عنصر الاثارة لفترة وجيزة اختلقوها فيما بينهم بالشجار افراداً، او جماعات. وتتضايق ربوات البيوت فى الحارة من ضوضاء الصبية وشجارهم فيلقين على رؤوسهم من أعلى السطوح - وهم غافلون (الخُمرة) اى خميرة القهوة الفاسدة، او بقايا الطعام او ماء قدراً من اى نوع... فلا يجد من تتوسخ ملابسه منهم شفاعة عند والديه غير الدموع والتنهدات الحزينة.

ويختلف تصرف ربوات البيوت تجاه مرح الصبية وعبثهم من بيت لآخر. فحينما تنحرف الكرة الى سطح احد المنازل يتطوع بعضهم

لاستعادتها، فاذا وجدوا قبولاً وفتح الباب للدخول اضافوا الى ذلك مطلباً اخر هو شرب الماء. فاذا ازداد التسامح تباطأت خطوات الصبية فى أرجاء المنزل لاشباع الفضول. فتلك هى الفرصة للتعرف على أجواء اخرى فى غير بيوتهم ومشاهدة طرائف مما تضمه بيوت الاخرين فى الحارة. وتستأثر باهتمامهم غالباً زرائب الغنم والبقر وحظائر الدواجن والحيوانات الاليفة وابراج الحمام وأقفاص الببغاء والطيور وما شابه ذلك. وفى أحيان اخرى تبهرهم الطرائف من المقتنيات والادوات والمعدات المتصلة بعمل صاحب الدار. ففى بيت (الصيرفى) حجرة مليئة بساعات الجدار، وفى غيره مجموعات من السجاد وفى بيت ثالث غرفة عروس مزينة جدرانها وسقفها بالمرايا والمزركشات اللامعة، وفى بيت (زليخ) دور وممرات حافلة بالسيوف الصدئة والاعلام الملونه وبقايا ما يستعمل فى المواكب الدينية والمواسم الشعبية.

ويجتمع نساء المنزل وزائراتهن من الجيران عادة فى صحن الدار لتنظيف الرز والمساعدة فى اعداد الطعام او تحميص القهوة ودقها... او عجن الدقيق او تحضير الحناء او اشغال الابرة. ويشغلن وقتهن حتى اذان الظهر فى (السوالف) اى الاخبار والحكايات المسلية او (المعاياة) اى المماحكة فى الجدل فى أي امر، وقد يتطور الجدل تدريجياً مع التعصب للرأى فيصل الى حد (المعايرة) وهو مزيج من العتاب اللاذع والتشهير. وربما علت الاصوات بعدها وتناولت اللسن وتوالت حركات الرؤوس والاذرع والعيون بعصبية بالغة حتى يستسلم الأضعف منهن، فتنهمر الدموع وتغسل الاحزان لتعود سيرة الاجتماع كما بدأ... او ينفض ليستأنف فى اليوم التالى.

وينتهز الاولاد انشغال النسوة لاشباع الفضول، حتى يتنبه اهل المنزل لوجودهم، على صوت رضيع استفزته الحركة من نومه، او اهتزاز السقف وسقوط شىء من الغبار، او دخول السقاء او ما شابه،

فيكون مصيرهم الطرد العاجل مقرونا بالاهانة. ولا ينجو اواخرهم عادة وهم فى مسيرة الهرب، من ضربة على الرأس او الكتف (بالمخمة) وهى المكنسة المصنوعة من عذوق النخيل. والمنازل التى لا تسمح للاولاد بالدخول، لا تمنع عادة فى احضار الماء الذى يعتبر طلباً مشروعاً وتقليداً شائعاً. وكثيراً ما يحسم النزاع حول استرجاع الكرة المفقودة، حين تعود محذوفة من المنزل سليمة او مبقورة الجوف بالسكين. عندها يندب صاحب الكرة تعاسة حظه معبراً عن سخطه بحذف المنزل بالحجارة بينما ينصرف الباكون الى لعبة اخرى مثل (كب كلين) وهى عبارة عن مضرب خشبى وقطعة خشبية صغيرة على المنافس ان يتلقفها قبل ان تسقط الى الارض والا حسبت عليه غلطة. وكل غلطة تستحق رمية من حامل المضرب تجاه (البر). وكثيراً ما تتجمع تلك الاخطاء حتى يصل اللاعبون الى البرية خارج الحارة عند ملتقى البساتين. ويتعين على الخاسر ان يبدأ بالركض رجوعاً الى موقع اللعب من حيث انتهت مسافة الجزاء وعليه ان يحدث صوتاً عالياً حتى اذا انقطع نفسه استحق ضربة جزاء اخرى.

ولكن منظر البر القريب من المقبرة والبساتين الملتفة حوله، كثيراً ما يغرى الصبية بالتوقف لرصد شىء مما يجرى هناك او المشاركة فيه. فينصرفون عن لعبتهم مع من يقابلونه هناك من الاولاد الى (الحداق) اى صيد الطيور. وعليهم قبل ذلك المساعدة فى استخراج (العنجوش) وهو دود الارض لاسخدامه طعاماً فى الفخاخ. ويحصلون على دودة الارض بادخال رأس خوص النخل فى ثقب الارض واستخراجها بسرعة ومهارة وتكون الدودة متمسكة بها.

«والمشاوير» التى كانت تشغل صبية الحارة كثيرة ومتنوعة بتنوع الاحداث التى تستجد كل يوم كالاعراس والمآتم، والولادة، والبيوت التى تقام فيها مآدب (عزائم) حيث تنقل فيها ادوات الطعام من قدور

وصوانى من منزل الى اخر. كما تنتقل فى حفلات الاعراس المرايا الكبيرة وأطباق الحلوى على رؤوس النسوة... هذا بالاضافة الى المواسم العامة فى رمضان والعيد والمولد وغيرها. ولا يحتاج الصبية الى من يدعوهم فهم دائما هناك حيث يقع الحدث، ويتيح لهم ستهم ومعرفة ذويهم حرية التجول حيث شاءوا بين مجتمع الرجال والنساء على حد سواء ولا تعدل هذه المباحج بهجة دخول السوق ليلا... فيترب الأولاد ليلة (الزينة) احتفالا بجلوس سمو الامير - بشوق بالغ حيث تأخذ الاسواق زينتها بالالوان والانوار والاعلام واوراق الزينة... كما تفرش الطريق بالسجاد وتقدم الشربات والقهوة والحلاوة كما يرش ماء الورد ويتعطر الهواء بدخان البخور ويتزاور الناس ويسهرون شطرا من الليل فى فرح غامر.

ويأنس الصبى الى هذا المشهد الفريد من نوعه. فالاسواق التى يتوقف فيها دبيب الحياة وتقفر عرصاتها من الناس تعود فى ليالى الزينة بكل زخمها ومباهجها سوى انه لابيع فيها ولا شراء. وحتى عازف الطنبورة المعته بهجسه الأسمر النحيل وطوله الفارع لا ينسى ان يعود الى السوق كما يفعل فى كل نهار مستغرقا فى شبه غيبوبة وهو يدندن بصوته الناعم الخافت: (سالم ضرب سلومة... سالم يقول)!

المسمار... والفلك الدوار

يذهب الاولاد الى السوق لتحصيل (الخرجية) من الاباء او لشراء الحلويات او تفصيل الملابس عند الخياط او شراء ادوات اللعب كالكرة (والتيلة) او (الدوامة) وغير ذلك. والدوامة يبيعتها تجار (البهرة) مع الخيط (المشبل) بدون مسمار، ويسمى الشاعر امرؤ القيس (الدوامة) بخذروف الوليد وان كان وصفه ينطبق على (الحنبوص) اكثر وهو بدون مسمار وذلك فى قوله:

(دريـر كـخـذروـف الـولـيد أـمره تتابع كـفـيـه بـخـيـط مـوـصل)
وتركيـب مـسـمار (الدوامـة) عـند الحـداد تجـربـة حـافـلة بعـنـاصـر الاثـارة
واشـباع الفـضول. والطـريق الـى الحـداد مـن مـنـفذ الحـارة يـخـترق فـى بـدايـة
المقـاهـى الشـعـبـيـة العـامـرة باجـنـاس مـن البـشـر. . . ورغـم ان دـخولـها مـحـرم
عـلـيـه الا انـه لا يـسـتـطـيع مـقاومـة اغـراء التـوقـف قـرب الحـاكـي (الفونوغـراف)
وتأملـه مليـاً كـلـما مـر بـقـربـه جيئـة وذهابـا.

وتتفرع دروب السوق عند هذا المدخل وتتعدد أسماؤها تبعاً لنوع
المهنة او التجارة. والمدخل الى سوق الاقمشة والملبوسات (البز او
القماش) يمر عبر محلات تنديف القطن، ولشد ما استأثرت بفضول
الصبي تلك الآلة الكبيرة التي يمسك بها النداف ليعزف عليها أغنية
القطن البيضاء. ويتطاير رذاذ القطن فى الهواء ثم ينزل ليرسم على محيا
النداف حواجب واهداباً وشوارب كالثلج ناصعة البياض.

ويسلك الصبي الى سوق البهرة، ذلك الفناء الواسع فى قلب
السوق وهو اشبه ما يكون بمهرجان او بمعرض مقيم ومتنقل فى آن
واحد لكل ما لا يوجد فى الاسواق الاخرى من سلع وخدمات. ففى
هذا الفناء (فرشات) على الارض للنسوة المقنعات يبعن الأبر والخيوط
والمقصات والازرار الى غير ذلك، ودكك لباعة الكعك والخبز والحلوى
والاشربة، ومخابز على كل طراز وباعة متجولون، والبياعون
بالمزادات، وعروضات يتسابق فيها المتراهنون، ومطاعم شعبية تفوح
منها الابخرة وروائح الاكل، مع حشد كبير من المتسولين والمتسكعين.

ويحتل الحلاقون والحجامون واجهة المدخل. ويتعمد الصبي
المرور بين صفوف المحتجمين ورؤسهم منكسة الى الارض فلا يروونه
محاولاً عبثاً ان يعرف سر تلك الكاسات والاكواب الدموية ومعنى
الدوائر الحمراء والانتفاخات التي تخلفها على ظهور ورؤوس اولئك
المستسلمين للحجام المسن الذى يجلس القرفصاء متنقلاً على هذه

الهيئة بين زبائنه ليغيز الكاسات - على مهل - وكأنه يتسلى بتعذيب طابور من المذنبين .

يشترى الصبى الدّوامة ويتجه الى سوق الحدادين مارًا بسوق (الصفافير) فيتوقف لمشاهدة عملية تصفير القدور التى يشترك فيها اكثر من شخص . فالمعلم (الاب) يتولى ترقيق القدور بالمطارق التى تحدث على جدرانها بلورات لامعة تشبه الوشم وتجعلها تدور بقدرة خافية حول السندان على نغمات من الايقاع تختلف شدة ولينا . ويقوم الآخرون وهم غالبا ابناء معلم الصنعة بعملية التنظيف ، بالوقوف على اقدامهم داخل قدر النحاس المقعر بعد وضع حجارة التنظيف فى جوفه ثم يقومون بحركات راقصة تشبه (التويست) ولا تغرى عملية التصفير والتبييض بالمواد التى تتطاير فى النار خلال سحب من الدخان والروائح الخانقة بالبقاء اكثر من ذلك ، وما هى الا دقائق حتى يكون الصبى فى سوق الحدادين فيجلس القرفصاء (ودوامته) بيده من جهة (منفاخ النار) يتقى الشرر المتطاير فى (الكور) على الجانب الاخر . ويأخذ الحداد (الدوامة) ويتفحصها ثم يههمم بعبارة استحسان او استهجان لجودتها ، والاستهجان أغلب .

ولا يحول ذلك بينه وبين وضعها الى جانبه علامة على القبول وانتظار الدور . حتى اذا حانت اللحظة الحرجة وجهاز المسمار فى النار الحامية امسك الحداد الدوامة بيده اليسرى المتسخة بالرماد وتناول المسمار فأثبته فى موضعه فاذا نجح ولم تحترق الدوامة او تتشوه ، طار الصبى فرحاً باللعبة الجديدة وغمرته بهجة ساذجة بريئة ورغبة جامحة لاختبار جودتها .

وفى اثناء فترات الانتظار والترقب يتلفت الصبى من حوله وينصت لما يدور من كلام فى مجتمع الكبار . لكن ذاكرته لاتتسع لحفظ كل ما يسمعه او استذكاره ، فيرسخ فى ذهنه ذلك الشئ الطريف من الحكايات

والاوصاف والامثال الشعبية . فهذا بائع عند مدخل السوق يشكو دهره
وسوء حظه لمن حوله مردداً: (ومن الحظ لو نشرت ثيابي) . . . فيتطوع
جاره لتكملة البيت . . . (في حزيران . . . صار يوماً مطيراً).

كما يسمع قصة الاب الذي جاء يشكو الى الحداد مشاجرة بين
ابنيهما فقال الحداد للشاكي: (ان كان ولدكم ضرب ولدنا لازم
يؤدب . . . وان كان ولدنا ضرب ولدكم . . . انفخ ياصبي - أى لا يهم)
كما يتذكر جيداً ما يقوله الحداد للجالس بقربه (من يجلس عند الحداد
يتوطى الشرر) . . . ولهذا فهو يقوم من عنده فرحاً متجاهلاً بعض الثقوب
التي احدثها الشرر فى ملابسه، فينصرف الى سوق الماء العذب
(الحيني).

يفتش الصبي عن العميل ثم ينقل اليه طلبات المنزل بحسب ما
أملى عليه والده، ويتجرع شربة من الماء العذب من فم القربة ويسيل
شئ منه على جيوبه فيبترد بها قلبه، ثم يركب الحمار تصحبه القربة
وبائع الماء من خلفهما، فاذا صادف فى طريقه بعض من يعرف من
اخذانه وهم يلعبون تغافل عنهم متعالياً، فرحاً بمركبه. وقد يسمع غير
بعيد عنه نقرات الخباز بمحوّر العجين على المنضدة ويشم رائحة الخبز
تناديه فيتجاهلها متعللاً بما سيلقاه فى المنزل، لكنه لا يملك مع ذلك الا
ان يسرح بفكره فيتذكر موقعه المعتاد من تلك المنضدة العريضة الضخمة
التي تسمح رغم انخفاضها للاقدام الصغيرة ان تمتد من تحتها، بينما
تلهى الاصابع بقطع الاجزاء الجيدة من الخبز التالف ومضغها بمنتهى
التأني دون احداث صوت، وكأنها مجهولة المالك. ويكون الخباز
منهمكا فى سباق محموم بين سرعة تحوير العجين دون الاخلال بقاعدة
النقرات على الطاولة - وبين المناورة لادخاله فى التنور المسجور القابع
بجانبه فى مستوى الارض فاتحا فمه الوحشى وكأنه احد الجلساء لولا ان
هذه المجالسة حميمة لا تطاق، فهو يتقبلها على مضض ويصبر على

وهج النار فى وجهه، وضرر الاصابع وتلف الخبز وتزاحم الزبائن وكثرة الديون... ثم لا يشغله كل ذلك عن مقابلة الناس كلاً بما يليق بمنزلته وقدره.

وحينما يصلان المنزل، يبادر بائع الماء الى طريق البوابة الكبيرة ذات المسامير الضخمة فلا ينتظر الصبى حتى يفتح الباب بل يندس فى الفرجة الصغيرة (فرخة الباب) ويفاجىء اهل البيت بالنبأ فيشيع بينهن الارتباك حيناً، حتى يستعد اهل المنزل لمرور الغريب، الذى ينطلق الى حيث يصب الماء فى الزير (الحب) مكملاً من (التنحنج) بصوت مسموع مبالغه منه فى اظهار الاحتشام... لكنه يتباطأ قليلاً حين يصل الى بهو المدخل حتى يسمع من يطلب منه الترتيب، فيجلس على الحصيصة فوق الدكة المواجهة عادة لحجرة الضيوف فيقدم له شىء من شراب وطعام، تفصله عن المنزل ستارة كثيفة من الخيش او قماش ثقيل.

ويحار الصبى كيف يمضى الوقت انتظاراً لمجىء رب العائلة، ويستولى عليه الشعور بالملل فليست فى المنزل ألعاب، ولم يكن جلبها للمنزل واستعمالها امراً مألوفاً، وعلى الصغار ابتداء وسائل التسلية لانفسهم... وهو اذ يحس بالجوع يدس فى النار تحت احد القدور - خلصة - شيئاً من «البطاطا» فيتذكر نثذ تشوقه «للبطاطا» المشوية عندما هرع كغيره من الصبية الى موضع الحريق الكبير فى سوق الخضار وشاهد مخزناً للبطاطا وقد شوتها النار ثم لم يجرؤ احد على الاقتراب منها. وفيما هو كذلك يجىء السقاء بعربته وهو يوصل ماء الشرب من العيون والابار، ويشعر الصبى بمجيئه وكذلك اهل البيت من نهيق الحمار الذى يجيرها، وصرير عجلتيها الكبيرتين. انها تحمل برمبلا خشبياً ضخماً مشدوداً باطواق من الحديد... ثم ينفتح الباب على مصراعيه كيدخل السقاء المشهور بنشاطه وقوته حاملاً قربة على كتفه والاخرى تحت ابطه ثم يتهى من صب الماء بسرعة ويتوقف بدوره لدى

الباب قبل الخروج لا انتظارا لطعام او شراب وانما لكى يرسم على صفحة الجدار من سواد شحم العجلات خطين يضبط بهما حساب الاستهلاك الشهري ثم ينصرف .

ويعود الصبى للتسكع داخل المنزل فان لم يصل الى الباب من يشبع فضوله كالبقال الذى يبيع محصول المزارع نقدا او مقايضة بحفنة من خبز أو رز أو دقيق أو تمر أو «الطعام» - او جامع (الزرى عتيق) وهى الملابس القديمة المطرزة بخيوط الذهب - او تاجر الاقمشة من اليهود، او بائع (منجوس) وهو السمك الصغير او غير هؤلاء... وان لم يسمع جرس الحريق حيث يهرع الناس وقد طارت عقولهم... فإنه يعمد الى التحرش والعبث بكل ما تطاله يده... وقد يتظاهر بانه يغتسل عند البئر التى لا يكاد يخلو منها منزل، ثم يتسلى بالدلاء وسكب الماء هدرا... او قد تقع فى يده بعض اوانى الصين او الفخار فتكسر... فيتوعده اهل البيت بالشكوى..

ويستمر فى عبثه... حتى اذا احس بان ما يشبه حالة الاستعداد قد عمّت ارجاء المنزل وسمع كلمة (يا أله..) مراراً تيقن ان اباه قد عاد لتوه فيحتضنه لدى الباب ويرافقه الى الداخل متشبثا بملابسه حتى يستقر، ثم يترك كل منهما الاخر لشأنه. حتى اذا خلا والده للصلاة، عاد متسللاً على اطراف أصابعه - امعانا فى المفاجأة - وهو اذ يجد والده مستغرقا فى صلاة او فى دعاء وعيناه تفيضان من الدمع من خشية الله لا يحيد عن عزمه الا ان يعتلي ظهره - حتى اذ فرغ من صلاته، ضمه الى صدره واسمعه من كلمات الحب والحنان ما يطمئن اليه قلبه ويرتوى به عطش نفسه فتلمع عيناه فى فيض من الحبور والغرور... انه يحس انه الان فى بيته مع من يحبهم ويحبونه فيتذوق حلاوة الرجوع فى نهاية المطاف، ونشوة الانتماء بعد شعور الضياع والتشتت بين دروب الحارة، ومسالك الأسواق ورحلة التطفل فى مجتمع الكبار.

الثواب والعقاب

ولكن الصبي الغرّ سرعان ما يتعلم وهو في ذروة نشوته بالحب، درساً من دروس الحياة هو ان الفرحة لا تدوم وان حياة المنزل كواقع الحياة - ذات وجهين.

ان ربة الدار عليها ان تقدم تقريراً بوقائع اليوم وما جرت فيه من أمور فان فعلت ذلك عند وصول رب البيت - لضيق صدرها ذلك اليوم - انقلبت الآية، فيدرك ان صبر ربة الدار على مخالقات الصغار قد بلغ حده، فان كانت عصاة التأديب لا تزال في موضعها قريباً من متناول يده فإنه يمسك من يطاله منهم، بينما يهرب الباقون الى سطح المنزل، وان امتدت الملاحقة فالى اسطح بيوت الجيران.

ولا يغفل رب العائلة وهو يوقع العقاب، ان يتلو لائحة المخالقات اجمالاً وهو يمسك بالصبي، ثم يفصلها واحدة واحدة مع كل ضربة بالعصا وكانه يقرأ كشف حساب... بينما يبالغ الصبي في الصراخ والاستغاثة مكرراً القول: أتوب... أتوب... والله العظيم... حتى يبيح صوته، أو تذبل اصابع الأب، أو تتدخل الأم، أو الجيران أحياناً اذا جاوز العقاب حده.

ويؤدب الاولاد عادة على المشاجرة وعدم الطاعة والتقصير في الواجبات وترك الصلاة، وازعاج الجيران واهل الحارة، وكذلك على التهرب من نوم الظهيرة (القيلولة) ومصاحبة رفاق السوء. وتتوقف مظاهر النشاط في المنزل والحارة عامة عند موعد القيلوللة فتخمد الاصوات وتنشل الحركة ويتوقف غسل الاواني عند البئر وتسدل الستارات، كما ينفي الديك والدجاج النقاق الى موضع قصي... ساعة الحائط وحدها تعمل بدون اعتراض، واذا كان رقاص الساعة المتمايل ذات اليمين وذات الشمال، يحدث وقعا رتيباً يستجلب النوم للعيون النواعس فان دقائقها

تتحدى - دون ريب - قرار الصمت وكأنها تقول ان الزمن لا بد وان يعلن عن وجوده ويسير .

وفي المساء يعود الاب محملا بالاصناف المستطابة من الحلوى والمكسرات والخبز المحلى بالتمر او اى شىء اخر مما يسمى بـ(الهجور) وذلك للشروع فى مراسيم المصالحة وهى ان يقبل الولد يد والده طالبا العفو معلنا التوبة فيشمله بالعطف والرضا ليتعشى ثم ينام قريير العين هانئا .

وفي ليلة صيف يسترق الصبى السمع وهو فى فراشه على سطح المنزل، متظاهرا بالنوم، لأحاديث الوالدين حيث تستكمل بقية احداث الحارة واخبار الجيران ويقرر رب العائلة خطة التدبير المنزلى ليوم الغد وما بعد الغد ومشاريع الصيانة والسفر واستقبال الضيوف القادمين . اما اخبار اعمال التجارة فتقتصر على الاخبار الهامة فقط، لان التجارة «أسرار» فى عرف التجار . وكان من بين تلك الاخبار الهامة الحريق الكبير فى سوق الخضار . فيسمع الصبى التفاصيل المثيرة لهذا الحريق الذى تجاوز سوق الخضار الى ما حوله لكنه لم يصل بحمدالله الى (المتجر) وبما ان الاحتياط واجب، فقد عهد والده الى ربانة السفن (النواخذة) والبحارة من اهل عمان وسواحل المملكة بنقل دفاتر الحسابات و(الاموال) وخزنة النقود والامانات الى موضع آمن . ثم يسهب فى الثناء على ما اظهره من نخوة وشهامة وكيف انهم هبوا للنجدة عند سماعهم الخبر . وهكذا يستعيد الصبى وهو بين اليقظة والمنام ذكرى البحارة من اهل عمان وهم يتنافسون على اصطحابه معهم الى البحر فى مراكبهم الكبيرة التى يسمونها (السنبوك) وكيف كان يقضى نهاره مستمتعا بحياة البحر وتقاليد العمانيين التى تختلف نوعا ما عن المألوف فى هذه السواحل . واكثر ما كان يشد ولعه ذهابه واياهه معهم فى جمع كبير تقله زوارق مستطيلة تنفرد من حافيتها المجاديف وكأنها

لكثرتها وتناسقها زعانف لاسماك كبيرة، وعلى كل مجداف بحار يشارك مع المجموعة فى الانشاد بصوت واحد ونغمة رتيبة وايقاع يزداد سرعة مع ازدياد الحماس للتجديف وهم يرددون (خير نصلة بيد نوبي) أو غير ذلك، مما يدل على الشجاعة وقوة العزيمة.

ويغالب النعاس المتسلل مع النسيم المشبع بقطرات الندى، الاجفان الصغيرة فتستسلم للنوم على خيال البحر ورؤى الامواج وخفق الأشرعة والمجاديف... فيفوت عليه ذلك الاستماع الى خبر يهمه كثيرا...

من علمني حرفاً...

أما الخبر المهم فقد انتظر دوره... فلما حان الوقت امر الوالد ذات صباح بان يلبس الصبى الملابس التى احضرت للمناسبة ففعل، ثم ارتدى فوقها (صدرية) من الحرير المزركش ولبس خاتما وانتعل النعال النجدية التى يفضلها، وحين وضع والده فى يده اليمنى كتابا مجلدا قليل الصفحات عرف أنه (جزء عم) من القرآن الكريم وانه فى طريقه الى معلم القرآن (المعلم او المطوع).

امسك الوالد بيد الصبى ليسيير معه الى المعلم وكان من عادة الصبى الذى تقصر خطاه عن والده ان ينتظر حتى تتراخى قبضة الوالد اثناء المشى فيسلّ يده بخفة ليتأخر عنه فى المشى ويتسلى بمشاهد الطريق. فقد كانت مسارح للقطط والدواجن الهاربة، ومواضع جلوس للسائلين، ومناسبة للتشبه بالكبار فى التقاط بقايا الخبز من وسط الطريق ودسها فى التراب بجانب الجدار وشقوقه - حيث تكثر بيوت النمل - مراعاة لحرمة (نعمة الله) الا ان قبضة الوالد فى هذا اليوم ظلت محكمة ولم يجد الصبى مناصا من ان يتجاهل كل ذلك ويلحق بخطوات والده الحثيثة... حتى لقد نسي - من فرط انشغاله بما يبّيت له والده فى هذا

الصباح من أمر - أن يمارس عادة محببة مألوفة من توقّف عند جدار منزل جار البيت المقابل لبيته، لكي يحفر في (الأساس) أي أساس الجدار، حيث تعود أن يكتشف كنزه المعتاد. وهو عبارة عن بعض من (الآنات) النقدية عوّده ذلك الجار الطيّب الوقور (السيد حسين) أن يدسّها له في التراب تحت موقع النافذة اكرامية له كلما خرج في الصباح ذاهباً إلى عمله وكأن هذا الرجل الفاضل من فرط أدبه وتواضعه - يتحرج أن يظهر بمظهر المعطي أو المانح لهذا الصبي الذي يحبه كأحد أبنائه، تقديراً له واکراماً لصداقة والده. فهو يهيبء لهذا الصغير شعور الفرحة باستخراج كنزه بيده، بعد أن يشير إليه من بعيد بالموقع المعين ثم لا ينسى أن يوصيه بالكتمان بلغة الإشارة دون الكلام!.

ويبادر الوالد الى إحكام قبضته على يد الصبي - كلما تراخت قليلاً وهو يذكره بمخاطر التباطؤ في السير مستشهداً بآخر مرة حين تمهل الصبي وهو ينكش بعصاه أحد الجحور في جدار قديم وسقطت على راسه حية كانت متدلّية من مزارب فوق رأسه وكادت الحية أن تلتفت حول رقبتة أو تلدغه وهو مذعور لولا ان حانت التفاتة من والده فانقذه منها.

واستقبل المعلم الأب بما يليق به من احترام وترحيب ثم استدار للصبي وعلى وجهه مشروع ابتسامة وهو ينتظر من الأب ان يبدأ بالكلام ليعرف كيف يتصرف مع (البضاعة) الجديدة!

ولم يطل انتظاره فقد فاجأه الأب بان اوصاه بابنه خيراً وكرر بعض الآيات القرآنية وعبارات من مثل القول المأثور (ربه سبعاً وأدبه سبعاً وعلمه سبعاً... ثم اترك حبله على غاربه) ولم يسمع المعلم ما كان يتوقع ان يسمعه أسوة بالآباء الاخرين (اعطيتك ابني لحماً، وأريده منك عظماً) اي لكثرة الضرب والتأديب. لهذا وتجاوبا مع التوجيهات، فقد نحى المعلم جانباً عصاه الطويلة الملمعة من كثرة مسحها بالدهن حفاظاً

على طراوتها، واقبل على الصبى بابتسامة صفراء متكلفة وكسر تحت قدميه بيضتين تيمّنا أو دفعاً للأرواح الشريرة! وهو يقرأ سورة الفاتحة..

وسرعان ما ذهب الوالد، فجرّ المعلم الصبى معه الى فناء الدرس، وصراخ الاولاد فى غيبة المعلم - يشق عنان السماء، ولم يشفع لهم سكوتهم المفاجىء لدى وصوله اذ سرعان ما انزل بهم العقاب دونما تمييز، بينما استقر الصبى فى المقعدة الجديدة وهى من الخوص - مترقبا المصير المجهول.

وافتقد الصبى تلك الابتسامة وبشاشة الوجه من المعلم بدخوله فى زمرة الصبيان وجرى عليه ما يجرى بشأنهم، ثم لم يعهدا الا حينما كان يأتى المعلم لقبض راتبه الشهرى او عند اجراءات الاستلام فى (مشاركة البيض) حيث يستولى على الثلثين منه، لقاء قيامه بصبغ البيض بالألوان وأخيراً عندما حان موعد الاحتفال بختم القرآن الكريم.

وفيما عدا تلك المناسبات المعدودة، فالعلاقة بين المعلم والصبيان إنما تسير وفق ذلك القول المشهور الذى يتردد فى كل مناسبة (من علمنى حرفاً... صرت له عبداً)....



- ٣ -

حديث المدرسة

قلعة البرتغال

كانت قلعة البرتغال المكان المفضل لدي لقضاء عطلة الاسبوع، او «للتزويغ» من المدرسة في بعض الاحيان. وكلما عدت بذاكرتي الى أيام الطفولة وجدت قلعة البحرين - كما كنا نسميها - تستأثر بمكان بارز من تلكم الذكريات. فمن فوق ابراجها العالية كنت اشعر وكأنني أطل على العالم كله. . ومن خلال الفتحات المشقوقة في جدرانها بعناية واحكام، كانت تتراءى لي القدرة الفائقة على التلصص ومراقبة القادمين، والحقاق الأذى بأي منهم، لو أردت. وكنت اختار طريقي في القلعة، نزولاً أو صعوداً بحذر شديد فلم أكن أشك آنذاك، في أن «القلعة» كانت مسكونة «بالارواح الشريرة». وأنها علاوة على ذلك مسرح لكثير من اللصوص والمجرمين. وكلما تعثرتُ بحجر من احجارها وأضطرب تحت قدمي، خلته يتشاءب كمن أفاق من سبات طويل.

وكثيراً ما كنت أهدق في الصخور ذات التجاويف المستديرة والملتفة بصمت كئيب، فأتذكر ما يقال من انها كانت تضم كنزاً فتحه اللصوص فتتراءى لي تلك التجاويف وكأنها افواه توشك ان تصرخ مستعدية على ما فعله اللصوص والجناة من سرقة كنوز الاجداد الذين استودعوها الصخر.

وبعد ان أسرع في النزول متحاشيا ما امكن - المسالك غير المطروقة فى الحفرة العميقة المحيطة بالقلعة خوفا من الحيات والعقارب، أتفياً ظل احد الابراج الكبيرة المتآكلة حيث يبدولي الزمن وكأنه غول لا يشبع، ينهش من تلك الابراج يوما بعد يوم. أما سر هذه القلعة التى تستقبل القادمين بوجه كالح يتطاير منه البارود والشرر، ثم لا تجرؤ على ان تستدير لما حولها من بشر وارض وحياء إلا من خلال جدران سميكة من الخوف والوجل فهو ما كنت اجهل سره آنذاك.

ورحلة العودة من القلعة كان لها ايضا جو وطعم. وكنت اتعرف على موقعي من الطريق عبر البساتين والقرى، عند اجتياز اشجار الفاكهة المطلة على الشارع. فمن موقع اشجار الليمون (الانترنج). ابتداء، الى المواقع الاخرى الحافلة بالرمان، والكنار واللوز وكان منظر الفواكه المتدللية على جانبي الطريق والتفكير فى التحرش ببعضها احيانا يحجب رويداً رويداً خيال القلعة وتتلاشى في نفسي تلك المشاعر المتمازجة ليحل محلها شعور لا مثيل له من الزهو. فلقد كانت القلعة بمثابة المدى الأبعد الذى يمكن ان يصل اليه ولد صغير لا يملك من وسائل المواصلات غير عجلة «دراجة» كثيرا ما كانت تعطل به اثناء الطريق. عندها يتسرب الخوف الى نفسي ويستبد بي الجزع..

ولكن كثيرا ما تأتى النجدة على يد «أبوداود».. وابوداود هذا - كما كنا نلقبه - هو قصاص الحارة.. ورائد المخاطرات وبطل العاب القوى ومهندس العجلات.. ومستحضر الجن والارواح. وقد تعلم مهنة الصياغة من والده.. واصبح يتردد على «القلعة» كلما وجد الى ذلك سبيلا كأن له فيها إرثاً يخشى عليه من الضياع. وابوداود هذا صار يعرفه معظم السالكين ويتلفت صوبه المزارعون ويشير اليه الصبية بالبنان كلما مر جيئة او ذهابا. وذات مرة أسرّ التى أبو داود - والاهتمام باد عليه، بأمر خطير.. قال انه وجد الكنز الذي يبحث عنه في القلعة.. وهو

بحاجة الى من يكتم الخبر ويحمل معه هذا الكنز.. . وعدنا الى المدينة
وانا احتضن «جفيرا» من الخوص مهترىء الاطراف.. . يضم قطعة كبيرة
من حجر احمر وقطعاً صغيرة منه كانت تتساقط بين الحين والآخر على
احدى قدمي فتدميها، فاتجلد بالصبر مخافة ان يتنبه ابوداود لسقوطها
فيعود ادراجه لالتقاطها من جديد.. . ولكن سرعان ما تلاشت الفرحة
بالكنز بعد أيام.. . وجاءت نتيجة الفحص مبددة للأحلام. وها هو
ابوداود يستعمل خبرته فى الصياغة ليميز أخيراً بين التبر والتراب.



التعليم الأهلي والحكومي

بعد ختم القرآن الكريم، رافقني اخي الاكبر الى المدرسة الأهلية - مدرسة الاستاذ عبدالرسول التاجر. وكان الوضع مختلفا كثيرا عما ألفته عند «معلم القرآن». فلأول مرة أدخل صفاً كبيراً يعج بتلامذة من مختلف الأعمار والمستويات التعليمية والاجتماعية. وتتفرع عن هذا الصف الطويل حجرة ثانية على شكل زاوية يجلس فيها المتقدمون في المدرسة والمتدربون على الآلة الكاتبة.

ويجلس الاستاذ التاجر على طاولة مستقلة تشرف على الجانبين، وهو المدرس الوحيد لكل ذلك العدد المتماوج من الناس! وكان جلوس التلاميذ امام الادراج، ومن خلفهم خزانات زجاجية مغلقة ورفوف عليها اعداد كبيرة من الكتب المجلدة منظراً غريباً ومثيراً ونقله مفاجئة بالنسبة لي عما كان مألوفاً من بساطة وبدائية عند معلم القرآن. كما ان حرية الدخول والخروج متاحة لمن يريد وكأنها مدرسة مفتوحة. . ولا يدرس التلاميذ ضمن مجموعات أو صفوف وانما ينتقل من يريد أخذ الدرس مباشرة الى مكتب الاستاذ وينتظر دوره. ويتقبل الاستاذ تدريس اي عدد يجلس في مواجهته كلاً على انفراد، ويبدأ بأحدهم ويستمع اليه يقرأ الدرس بينما هو منشغل في تصحيح الكراسات أو كتابة درس جديد، ولا يحول ذلك، بينه وبين الانتباه لتصحيح اخطاء التلميذ بين حين وآخر.

ثم ينتقل الاستاذ بين هذا العدد من الطلاب مستفيداً من تداخل الوقت، بمهارة لاعب الشطرنج الاستاذ، في مواجهة مجموعة من اللاعبين.

هذا الاسلوب التعليمي الذي يشبه مطاعم الوجبات السريعة لم تعهده المدارس النظامية بطيئة الحركة، لهذا كان الاقبال على مدرسة التاجر كبيراً يتماشى مع طلبات الوظائف لاسيما إبان نشوء شركات النفط، والشركات الاجنبية وتوسع الدوائر الحكومية التي فتحت مجالات جديدة للتوظيف.

لقد تخرج من هذه المدرسة جمهور غفير، ولا شك ان جلهم إن لم يكن كلهم - يذكرون لهذا الاستاذ المتفاني في عمله، فضله في نشر التعليم وتضحيته بوقته وصحته وراحته وهو اسعد ما يكون بذلك. أما اجر الدراسة تلك الايام فكانت روبيتين في الشهر ولا تدفع بانتظام! لقد اكتشفت في نفسي شوقاً عارماً للتعلم فلم اقنع بدرس واحد في اليوم، وصرت احضر مبكراً لاخذ الدرس، ثم اقوم بتحضير الواجبات المطلوبة، واتحين الفرصة حتى اذا فرغ مقعد للدراسة جلست من جديد لاخذ درس آخر. وقد يتكرر ذلك عدة مرات في اليوم فلا اجد من الاستاذ غير الترحيب ونظرات افهم منها ان ذاكرته لا زالت بخير.

وبجانب دروس العربية والانجليزية والحساب، كنت أتسلى كثيراً بدرس تحسين الخط. وأتطلع الى ما يكتبه في أعلا الصفحة باللون الاحمر وبخط الرقعة الجميل من أبيات الشعر التي تتجدد مع كل درس من مثل: «هي الاخلاق تنبت كالنبات.. اذا سقيت بماء المكرمات».

كما حفظت منها هذا البيت الساخر:

«يمشي وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لکن فوق تل نفاق»
لقد ايقظت هذه الاشعار أول ميل في نفسي لقراءة الشعر وتذوقه.

صادفت رغبتني للانتقال من مدرسة «التاجر» الى «المدرسة الخليفية بالمنامة للبنين» كما كانت تسمى آنذاك، قبولاً عند والدي رحمه الله. فبالاضافة الى كون المدرسة قريبة من منزلنا فان والدي كان يحمل لهذه

المدرسة ذكرى خاصة. لقد كان من بين مؤسسيها الاوائل خلال عام ١٩٢٧ حينما كان اسمها «المدرسة الجعفرية». وساعد الوالد ايضا في التعاقد مع مديرها الأول الاستاذ محمد سعيد بن جمعة وعدد من الاساتذة العراقيين. وتولى امانة صندوقها حتى تم انتقالها بعد بضع سنوات الى الادارة الحكومية، وطالما روى لنا قصة قيامه بتصفية ديون المدرسة ثم زيارته بعد ذلك للمستشار الحكومي السيد «بلجريف» وتسليمه المبلغ المتبقي من رصيد حسابات المدرسة، الأمر الذي اثار دهشة المستشار واعجابه. ثم تغير اسم المدرسة خلال الأربعينات الى «الغربية» ثم الى «ابي بكر الصديق».

وقد قيل ان مدير المدرسة وزملاءه من المدرسين العراقيين كانوا متشبعين بروح «الفتوة» والحماس الوطني الذي كان سائدا في العراق آنذاك فأنشئوا فرقة كشافة وجهازها بالآلات الموسيقية وصارت تطوف في الأحياء والاسواق مرددة بعض الاناشيد الوطنية مثل:

«يا بني البحرين هبوا للعللا وارفعوا أروسكم بين الملا» الخ ولم يكن شىء من ذلك موجودا عند دخولي المدرسة لكني اتذكر وجود حجرة مغلقة كنا نتلهف لمعرفة ما بداخلها حتى جاء يوم شعرنا فيه بحركة في فناء المدرسة الداخلي ولما خرجنا من الصفوف شاهدنا مجموعة من الشرطة تخرج أعدادا من الآلات الموسيقية النحاسية وقد علاها بعض الصدا بينما انهمك آخرون في تنظيفها والنفخ فيها واخرجت آثار اخرى من الحراب والعصي وما يخص الكشافة وهكذا اختفت تقريبا ملامح الماضي ولم يبق سوى اثر واحد هو درع الفتوة الذي ظل معلقا على الحائط في موقع بارز من الفناء ومكتوب عليه كلمة: «وأعدوا». لقد كان من المناظر المألوفة ان تجد مجموعة من التلاميذ امام هذا الدرع في مختلف الاوقات وكل واحد منهم يريد ان ينطق هذه الكلمة او يفهم معناها.

بعد مضي أقل من سنة في مدرسة «التاجر» وحينما جاء موعدى للحضور الى المدرسة الخليفية قابلت فى الادارة احد المساعدين الذى هم بادخالي فى الصف الثانى لولا ان المدير دخل فجأة، وكان هو الاستاذ سالم العريض رحمه الله، فلم يحل صغر سنى لديه من امتحاني بشكل سريع قرر بعده ان التحق بالصف الرابع، وكنت فى التاسعة من العمر، ومن سوء حظي انني دخلت اثناء حصة الاملاء العربى، وقد مضى على افتتاح الموسم الدراسى اكثر من شهرين، ولم يكن ترتيب دفتر الاملاء بكتابة الأسم والتاريخ والصف مألوفاً في دراستى السابقة، فأثار ذلك حفيظة الاستاذ المهزج فكتب في اعلا الصفحة بالقلم الاحمر «٢٩ شعبان سنة ١٣٥٧هـ».. ولعله اراد عن غير قصد ان يخلد هذا التاريخ في ذاكرتي جيداً فأشفع ذلك بصفعة قوية فكان له ما أراد.

ولم اتمكن من استيعاب التغيير المفاجيء فى الدروس والانظمة التعليمية فخرجت بنتيجة مخيبة للآمال. واستلمت دفتر النتائج - وكان صغيراً فى شكل جواز السفر - ويحتوي على النتائج الفصلية. وعلى صفحاته الاخيرة نتائج السنة الدراسية بمجموع ٥٥٪! وكان عدد طلاب الفصل يربو على ٦٤ طالباً.. وقد كتب تحتها المدير سالم العريض بالخط الاحمر عبارة «اجتهد لا تندم».

لكنني فى العام التالى وقد دخلت الصف الخامس حققت نجاحاً باهراً وصرت الاول على الصف، ولم اترك فرصة للندم عملاً بنصيحة المدير، فحافظت على هذا المركز طوال سنى الدراسة الابتدائية والثانوية. ولما كنت اصغر الطلاب سناً فى كل صف دخلته فقد كانت هذه المفارقة موضع التعليق. والدروس فى الابتدائية كانت تقتصر على العربية بفروعها، والانجليزية والحساب والتاريخ والجغرافيا والرياضة والدين. ولم تكن المدارس آنذاك تعرف رياض الاطفال او التربية الفنية والموسيقى، او الاشغال اليدوية او وسائل الايضاح. وبسبب ظروف

الحرب العالمية الثانية كانت الكتب المدرسية شحيحة وكذلك (الكراسات). وقد درست على ايدي اساتذة فلسطينيين منهم الاساتذة عارف محمود وعمرو شحذة و يوسف الدجاني ونديم الحلاق. واما باقي المدرسين فكان منهم الاساتذة: أحمد المهزغ و خليل زباري وأحمد جاسم و عبد علي عباس وشاوؤل، وعلى المدني، كما ان المدير سالم العريض كان يدرسنا حصة الحساب من كتاب ضخم باللغة الانجليزية! واثناء درس الدين يخرج اليهود وغير المسلمين من الصف، ويتوزع الطلاب بين حلقتين دراستين لكل منهما مدرس خاص.

ومن الامور التي اتذكرها ان مدير المعارف الانجليزي المستر (والاس) كان نزقا طائشا لا يعبأ بمراعاة التقاليد المحلية وانه فاجأ المدرسة احد الايام قبيل الظهر ومعه مجموعة من الاطباء واستدعى جميع طلاب المدرسة للفحص الطبي بدون استثناء. وتخرج معظم الطلاب من الفحص امام اعين الاخرين وأثار ذلك بينهم الشغب والتذمر. . فعاملهم المدير بقسوة. وحين تأخر موعد رجوعهم للمنزل عن حدّه، تداعى كثير من الابهاء الى المدرسة محتجين ولم يقتنع معظمهم بالمبررات التي قدمتها الادارة لهذا التصرف الأرعن.

واما «المستشار» فقد امر (أثناء الحرب العالمية الثانية) بحفر الخنادق حول ساحات المدرسة وتدريب الطلاب والمدرسين على استعمالها ملاجئء خلال غارات موهومة ترافقها صفارة الانذار. . وكان الجميع ينزل الى هذه الخنادق على قذارتها حتى تنتهي الغارات!

وزارنا يوما سمو الامير المغفور له الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة - وكنت فى الصف السادس - ووقع علي الاختيار ان ارسم خارطة للخليج والهند ثم «أسافر» من البحرين ماراً بأهم المدن فى شبه القارة الهندية شارحا ما تشتهر به كل منها. وشعرت بسرور بالغ للثناء الذي نلته من سمو الامير ومن الادارة. ومن المفارقات انني قد زرت فيما بعد

معظم مدن العالم ما عدا تلك المدن الهندية!

وتذكرني أعوام الحرب العالمية الثانية في هذه المرحلة بالفيضان الغامر من وسائل الدعاية الحربية الذي كان يوزع في صفوف الدراسة ومعها بعض الصحف، واتذكر مجلة «المستمع العربي» سريعة الانتشار، كما أتذكر مظاهر الرعب لدى النسوة والأطفال حين يعبر الجنود «السيخ» الأزقة والحارات وهم يهرولون فتوصد دونهم الأبواب وتوقف «الحارة» انفاسها حتى يختفي آخرهم عن الأنظار، وأخيراً لا يكاد أحد ينسى أيام التموين بالبطاقات والنقص في الاطعمة والضروريات.

وكنت في تلك الفترة مغرماً بالمطالعة والقراءة. فقرأت في الصف الرابع والخامس جواهر الأدب، وكليلة ودمنه، والف ليلة، وفي فترتي الخامس والسادس الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك، وروايات المنفلوطي، ومؤلفات لسلامة موسى، والمازني، وشعراء المهجر وأخيراً جمهورية افلاطون!



- ٤ -

كل الطرق تؤدي الى الثانوية

كان اسمها حين التحقت بها في عام ١٩٤١ «المدرسة الخليفية الثانوية». وكانت لا تزال حديثة العهد. ذلك انه بينما كنت في السادس الابتدائي جاء من «دا ئرة المعارف» من يختار عددا من طلاب الصف لم اكن من بينهم لصغر سني . . ولكن كان من بينهم اخي حسين، ويفترض انه جرى مثل ذلك في سائر المدارس الحكومية الاخرى. ثم ضمت هذه العينات المختارة الى بعضها واكتملت في شكل صفيين دراسيين ليطلق على ذلك اسم «الكلية» بكل ما يحمل هذا الاسم من بريق ولمعان وامتياز كبير. واختير للكلية موقعا «مقر البنك الشرقي القديم» أو بناية القصبي القريبة من السوق.

ثم خبا نجم الكلية بعد سنتها الاولى والاخيرة . . وانضمت اليها حصيلة الصفوف السادسة والسابعة ليصبح اسمها (المدرسة الخليفية الثانوية) وتفرق بقية الطلاب وانضم بعضهم الى مدرسة الصناعة التي كانت بدورها حديثة العهد. لقد كانت بداية الاربعينات مرحلة مخاض وولادة في تاريخ التعليم في البحرين، تشهد لمدير المعارف الدؤوب «المستر ويكلن» بنشاطه وحيويته تحت رعاية سمو امير البلاد وتوجيه وزير المعارف المغفور له الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة.

ووقع الاختيار على منزل كبير يملكه التاجر الوجيه منصور العريض على شارع الشيخ عبدالله بالمنامة ليصبح مقراً للثانوية. وكان بجانب المنزل مجمع صغير لنفس المالك يضم مشغلاً للصياغة وتجارة اللؤلؤ وملتقى لأهل الصنعة. ولم يلبث ان تحول هذا الجانب الى قسم داخلي ثم انتقلت اليه مكاتب مدير المعارف فالمكتبة العامة فيما بعد.

وكانت الثانوية تشتمل على ثلاثة صفوف، احدها يطل على حديقة الحيوان (الباغشة) بمنظرها الساحر، والآخران على شارع الشيخ عبدالله. ويقع في الوسط، مكتب المدير وغرفة للمدرسين كان كل منهما يتمتع بميزة هامة هي وجود مراوح كهربائية سقفية!..

كان معظم الوجهاء والتجار - ما عدا قلة منهم - يمشون الى السوق من منازلهم القريبة. وربما خطر على بال احدهم فجأة ان يزور المدرسة الثانوية في طريقه الى السوق سواء للاطمئنان على ولده او لمجرد الاطلاع على معالم هذا الصرح التعليمي الجديد، او للتبرع بشيء من المال. وكانت مراسم الاستقبال تتم على الوجه التالي: يقرع الجرس ويستدعى الطلاب الى باحة المدرسة للانتظام في صفوف طويلة ثم يسير المدير برفقة الضيف الزائر، مستعرضاً الطلاب بما يشبه مراسم تفتيش الحرس، ثم يقفان في وسط الساحة فيلقي المدير كلمة ترحيب مناسبة، ثم يتقدم من الطلاب من يلقي نشيداً مثل «عليك مني السلام يا ارض اجدادي الخ» ويأتي آخر فيلقي قطعة شعرية، ثم يصفر المدير فيهرع عدد من الطلاب لتشكيل هرم آدمي، يتسلق فوقه طالب يلقي بيتاً من الشعر. ثم يتكلم الضيف بما شاء، وقد يمر ببعض الصفوف، او ينصرف مودعاً الى الباب. فأما المنشد فكان احد اثنين: عبد الرحمن الشيراوي او حسن المدني وكلاهما امتازا بجمال الصوت. واما ملقي الشعر فغالباً ما كان الشيخ خالد بن محمد آل خليفة. كان يمسك المسبحة الكبيرة بين اصابعه، ويتمايل وهو يلقي أبيات الشعر من نظم

الشاعر علي الجارم مستغرقا في أدائها بالقاء رصين:

«من سلب الأعين أن تهجعا وبث ذات الطوق ان تسجعا
ومن رمى بالشوك فى مضجعي فبت مكلوم الحشا موجعا»
الى آخر القصيدة.

ويبدو ان الشاعر نظم الابيات فى أعقاب الحرب العالمية الاولى، لكنها ظلت تعبر بنفس الجودة عن مآسي الحرب العالمية الثانية التي كان أوارها مستعرا آنذاك. اما من يتسلق الهرم بخفة ظبي رشيق فلم يكن سوى اخي حسين.. كان يلقي دائما هذا البيت «العلم يرفع بيتا لا عماد له.. والجهل يخفض بيت العز والشرف». ثم ينزل بسرعة قبل ان تندق اعناق من يحملونه من كبار الطلاب. وعندما يقوم الضيف بزيارة الصفوف كنت غالبا ما استدعى للقاء بعض الدروس أو المحفوظات.

المدرسون... يمتنعون

أفاد اول تقرير رسمي صدر عام ١٩٥٠ عن «أحوال المعارف بأمانة البحرين» ان عدد طلاب وطالبات البحرين سنة ١٩٤٣ كان ٢٢٥٣ تلميذا وتلميذة، وان ميزانية المعارف كانت آنثذ ٢٤٣ الف روبية كما اشار التقرير الى ان دائرة المعارف كانت تلاقي صعوبة في توفير المدرسين سواء منهم المحليون او المنتدبون من الخارج بعقود خاصة، ولم ينتظم سلك التدريس الا بعد مجيء أول بعثة دراسية مصرية في سنة ١٩٤٤.

كنت عندها في الصف الثالث وكان هو الصف الاخير. ومن بين المدرسين المصريين الاوائل الاستاذ صبحي دحلة ذلك المدرس الساخر الذى لا تفوته نكتة ولا غمزة. وقد تولى الاستاذ يوسف الشيراوي مهمة

نظم أبيات الترحيب الساخر بهذا الاستاذ وترويجها . تماما كما كان ينظم حرس الاستقبال الخاص للمدرس «ناير» عند الدخول الى الصف . واستعمل الاستاذ صبحي مع صفنا اسلوبا جديدا لحفظ دروس الحساب . فطبع لنا نحوا من مائة مسألة من مقرر الحساب قبل نهاية العام وواعد ان تكون اسئلة الامتحان النهائي من بينها وهكذا ضمن الطلاب النجاح في المادة، وضمنت المدرسة استيعاب الطلاب للمقرر . .

وعلى خلاف الاستاذ صبحي كان الاستاذ عبدالله عبدالأحد البيضاوي من لبنان - مدرس العربية والانشاء - معروفا بالفصاحة وحسن الخطاب، يأخذ الامور بالجد ويصدق ببساطة وعفوية كل ما يقال له . . ويأمرني ان اضع «علامة عاطلة» للطالب الذي يتجاوز الحد في قول او فعل او اهمال للدرس، ثم يخصم من علامات الطالب بقدرها، وأتواري انا خوفا من انتقام الطلاب .

ومن المدرسين المصريين مدرس العربية والبلاغة الاستاذ محمود عبدالغني . كان اول مجيئه الينا يفتتح حصة الدرس بمحاضرة عن مصر وروعيتها وجمالها ويقول ان مصر هي ام الدنيا . . وقلب العالم العربي، واراض الكنانة . إن صلة اهل البحرين بالثقافة المصرية والصحافة والازهر ومتابعتهم للاحداث السياسية في مصر امر ظاهر للعيان . ويبدو ان الاستاذ الكريم قد توقف عن تلك الدعاية حين اطلع على مدى معرفة اهل البحرين بمصر وما يكونه لها من حب وتقدير .

اما مدرس الرياضة البدنية كمال عبده فقد استغرب أول مجيئه منظر الطلاب بالدشداشة التي كان يسميها «بيجامة» واصر على استبدالها في درس الرياضة بالقميص و (الشورت) وحاول ايضا - باعتباره ملاكما - ادخال دروس الملاكمة واشترى لذلك مجموعة من القفازات الجلدية . . لكنه لم ينجح . وتكونت في عهده فرق للاستعراضات الرياضية والمبارات والعباب القوى والقفز وركض المسافات وسباق الدراجات . .

الخ. . وكان بطل القفز العالي بالعصا هو الاستاذ يوسف الشيراوي.
والمبرز في سباق الجري اخي حسين.

لم يتردد مدير المعارف آنذاك السيد «ويكلن» ان يقوم بملء
الحصص الفارغة بعد استقالة بعض المدرسين وسفر غيرهم. . وكان
يعلمنا درس الطبيعة بالانجليزي في حجرة ارضية مظلمة وكان ينكب على
التدريس بصبر وجد وهو يتصبب عرقا من شدة الحر، و يمسك بقطع
الثلج التي سرعان ما كانت تذوب قبل ان يكمل الشرح عن خواص
«الماء».

واهتم السيد ويكلن بتطوير اساليب التعليم وعلى الاخص منها
اللغة الانجليزية فادخل نظام لغة الاساس (البيسك) وتولى الاستاذ ابو
القاسم فيضى تدريس اللغة الانجليزية وكان يتمتع بخلق رفيع وصبر
عجيب على تحمل مشاكسة الطلاب وفي مقدمتهم الشاطر على بن
الشيخ الذى طالما أزعج بسكينه الطلاب واغضب المدرسين بدخوله
الصف من النافذة بدلا من الباب. .! وقد ساعد اسلوب الاستاذ فيضى
واصراره على التخاطب باللغة الانجليزية على تحسين مستوى اللغة
الانجليزية كثيرا لكنه ترك التدريس بعدما اشيع من انه يدعو الى
البهائية ثم سافر.

لقد تركت شخصيات أولئك المدرسين بصماتها في توجيه
النشء، كما ساهم عدد منهم في المجالات الاجتماعية والثقافية
لاسيما في حفلات المولد النبوي والاسراء والمعراج التي درجت على
اقامتها الاندية الوطنية في البحرين. . ثم انعكس ذلك على النشاط
المدرسي في الثانوية فصدرت فيها صحيفة الحائط ومجلة شهرية باسم
(وحي الثانوية) وانشئت فيها مكتبة عامة وقام طلابها بتمثيل رواية (في
سبيل التاج).

العريض ونجوم الليل . .

السماء . . عالم قائم بذاته، له جماله وسماته ومعناه . . ومع ذلك فلعل القليل من الناس من تعود ان يقلب طرفه في صفحة السماء ليستمتع بصفائها او ليواكب نجومها الزهر اللوامع في مساراتها النافذة في عتمة الليل، أو المتوارية حياء في كنف قمر منير، وقديما اشاد بهذا المعنى ابو العلاء المعري، بهدي من بصيرته وشفافية روحه حين قال:

رب ليل، كأنه الصبح في الحسن وان كان اسود الطيلسان
فكأنني ما قلت والبدر طفل وشباب الظلماء في عنفوان
ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان
وكان الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان
وسهيل كوجنة الحب في اللون وقلب المحب في الخفقان
يسرع للمح في احمرار كما تسرع في الملح . . مقلة الغضبان
قدماء وراءه، وهو في العجز كساع، ليست له قدمان

ولا شك ان الشعراء والفلاسفة والعشاق هم بعض اولئك نفر من الناس. اما علماء الفلك فهم ينظرون الى الاجرام السماوية نظرة علمية مجردة لا علاقة لها على الارجح، بالشعر او الجمال.

وفي مرحلة دراستي الثانوية شغفت حبا بعالم السماء ومسار النجوم . . وكان من وراء ذلك استاذنا الكبير الشاعر ابراهيم العريض، ولا يستقيم الحديث عن الثانوية دون الأشادة باستاذنا العريض، الذي جمع في شغفه بالنجوم بين جهد العالم، وتأمل الفيلسوف، واحساس الشاعر المرهف.

ومن قبل، عرفت من نجوم السماء النجم القطبي، وعبثا حاول زميل الدراسة عبدالعزيز القاضي تعريفي بما دون ذلك من كواكب ونجوم، فلم يفلح . . حتى جاء الاستاذ العريض الى الثانوية مدرساً معاراً

فأفدت من شرحه الكثير عن عالم السماء الدنيا. وما كانت حصة الدروس عند العريض لتنتهي بانتهاء الوقت كنت أسأله دائما وكان يجيبني دائما، حيثما لقيته. وقد ألف الطلاب وألفوه من اول درس وكأن له مع كل منهم معرفة سابقة. وياشر بتدريس الرياضيات باللغة الانجليزية ابتداء، فلم يعسر فهمها على معظم الطلاب بفضل اسلوبه في التدريس.

وقد أحببت كثيرا الهندسة النظرية وكنت مغرما بالفرضيات والادلة المنطقية التي وضعها فلاسفة الاغريق وكنت اسبق طلاب الصف في تعلم الدروس الجديدة بنفسي قبل ميعادها حتى اذا صادف درس الهندسة فترة ما بعد الظهر والبطون لما تزل متخمة.. غلبني التثاؤب أو النعاس ثم سرت العدوى للاستاذ بعد ان تشاءب طلاب الصف او تظاهروا بذلك.. فاستشاط الاستاذ غضبا علي وخيرني بين ترك الصف او الانتقال الى المؤخرة ففعلت.. ولا اذكر انني عدت لمثلها ثانية. لقد سمعت عن الاستاذ العريض قبل مجيئه الينا ممن درسوا عنده من قبل وقالوا انه على ما به من رحابة صدر، يضيق ببلادة الفهم والاحساس، وسخافة السؤال، وشروود الذهن، وانه اذا غضب حري بان يريك نجوم السماء في الظهر!

وقد سعدت بان اكون اثيراً عند الاستاذ العريض حين قال: «يا بني لا بد وان ترى على الطبيعة نجوم السماء في الليل في اوقات مختلفة منه لتكمل معرفتك بها». وضرب موعدا لذلك خلال رحلة المدرسة الى «البديع» في موسم الربيع وممن كان يرا فقني في رحلات الفضاء هذه الاستاذ سعيد طيارة واخي حسين وحسين منديل وطلاب آخرون تناقص عددهم بعد ذلك لان الموعد الاول مع النجوم لا يحين الا مع موعد طعام العشاء! اما الموعد الثاني فهو اثناء النوم!

وكأنما تأبى نجوم السماء المتغيرة في مواقعها وكواكبها السيارة آناء

الليل ان تطلع او ان تغيب، دون نظرة وداع او ضمة لقاء مع عشاقها فلا عجب اذا كلف الاستاذ العريض نفسه مشقة النهوض في الليل والمجيء متعثراً بأطناب الخيام ليوقظ النائمين من سبات عميق بعد نهار حافل بالتجول والارهاق. ولا شك ان كل سهر يهون من اجل ترصد ميعاد في اواخر الليل مع «عروس من الزنج عليها قلائد من جمان».



الحرب.. ومواسم العطاء

مع بداية الحرب العالمية الثانية، يتذكر الناس صوت المرحوم محمد دويغر وهو يعلن افتتاح اذاعة البحرين أول اذاعة في الخليج. واتذكر صوت المرحوم الاستاذ سالم العريض وهو يذيع حديث التعليق على الانباء أو «خطابات المستر تشرشل» البليغة وفيما عدا نشرة الاخبار والتعليق على الانباء - وكلاهما يعتبران امتدادا لاذاعة لندن العربية - فقد كان الجمهور يتابع بشغف الاخبار المحلية والعربية، والاحاديث الادبية، والاغاني الشعبية والتمثيلية الأذاعية. وانشغل الناس في شراء اجهزة الراديو او تحسين اداء وشكل الموجود منها لديهم. ولم يكن جهاز الراديو شائعاً في كل بيت فكانت زيارة الجيران للاستماع الى الراديو أمراً مألوفاً اثناء الحرب تماماً كما اصبح الوضع فيما بعد بالنسبة لجهاز التلفاز وهو في اول عهده.

ويتحكم صاحب المجلس عادة في اختيار المحطات ويستسلم المستمعون لهذا الاختيار فتارة هنا لندن، وطورا هنا برلين، وأنا هنا البحرين وكأنهم تنازلوا طوعاً عن حرية الاختيار. وقد كان لاذاعة برلين وبطلها يونس بحري، بريقها ممزوجاً بالحذر اذ بينما يخفض الصوت تقترب الاذان من الراديو وتزداد حدة الانتباه، فيتحلقون حوله وكأنهم يستعدون للتهام خروف محشي، حتى يشعر من تبادره السعلة منهم

بالحرج او الذنب فقد يفوت ذلك على المستمعين خبرا عن زحف «رومل» على الصحراء الغربية، او استيلاء الالمان على موقع مهم.

وسرعان ما تبدأ مرحلة التعليق، بعد نشرة الاخبار ويحلل كل منهم الاخبار حسب فهمه ومزاجه وتختلط الاصوات في مزيج من دخان «القدو» . . و أعواد الطيب ولا تخمد تلك الاصوات المتعالية والانفعالات الا اذا جاءت نشرة اخبار ثانية، او اذا حضر الى المجلس احد ممن اشتهروا بمعرفة الاخبار وتحليلها . . وهو عادة ما يكون شخصا متخصصا في الاستماع الدائم الى الاذاعات وقراءة الجرائد والمجلات، والتجول بين مجالس الاستماع ليلاً، والمكاتب والاسواق نهارا وقد عرفت من هؤلاء المرحومين محمد صالح الشيراوي والسيد مصطفى العلوي . . وكذلك السيد يوسف زليخ. ومن طريف ما سمعته عن الاخير انه كان يطرق الابواب في منتصف الليل اذا سمع خبرا جديدا اذ لم يحتمل صدره الصبر والانتظار حتى يأتي الصباح. فاذا استجوبه حراس الليل زعم أنه يفتش عن «نعجة» هاربة!

أما من فاتته مجالس الليل فكان باستطاعته اشباع تعطشه للاخبار من جريدة «البحرين» للمرحوم عبدالله الزائد حيث يستغرق وقته في قراءة صفحة كاملة عن «حديث اذيع من محطة البحرين البارحة» فاذا لم تتعب نظره حروف الطباعة الخشنة الصغيرة واللوان الورق الرديء فبأمكانه الاستمرار في قراءة باقي الصفحات مع الاخبار والشعر والادب . . وسيقع نظره حتما على جانب من المعارك الادبية التي كانت محتدمة آنذاك بين «ابن العميد» و «ابن الرومي» وغيرهما من ذوي الاسماء الصريحة او المستعارة.

ولم اكن أفقه الكثير آنذاك عن هذه المعارك الادبية لولا ما سمعته عنها بعد ذلك بحيث خيل الي ان معظمها كانت اصداء للمعارك الادبية المشهورة على صفحات الرسالة وغيرها من الصحف المصرية التي

احتدمت بين العقاد، والمازني وطه حسين، والرافعي وزكي مبارك وغير هؤلاء.

وقد كنت مهتما بأذاعة البحرين لأسباب أخرى غير نشرة الاخبار.. .
فقد كان المرحوم احمد يتيم منشغلا بالتمثيل فى الاذاعة، ودعاني مع
أخي وعبدالعزیز القاضى للمشاركة فى التمثيل حيث كان سنى يسمح
بتقليد الاصوات الناعمة.. . وربما كانت التمثيلية التى اشتركت فيها
الاولى فى الاذاعة وعنوانها «كسرى والعرب» جرى التدريب لها فى
مدرسة التاجر. ثم انتقلنا بعد ذلك الى منزل عبدا لله بشمي وانضم اليها
راشد قراطة. ولم يكن التدريب مقتصرًا على حفظ الادوار والاداء، بل
استغرق استحداث المؤثرات الصوتية معظم الوقت.. . حيث كان احمد
يتيم يروح ويجىء كل مرة مصطحبا ما تيسر من ادوات المنزل والمطبخ
لتقليد وقع حوافر الخيل، والمبارزة، واحتدام الحرب الى غير ذلك.. .
وكان البث المباشر على الهواء يتطلب الاتقان، وتحاشي الخطأ.. . وكنتم
الانفاس! وسرعان ما بادرت الاندية الثقافية بعد ذلك بالنزول الى
الجمهور على خشبة المسرح.. . ولم تكن المسارح جيدة الاعداد من
حيث «الديكور» والاضاءة والمؤثرات السمعية البصرية لكنها أدت دورها
بنجاح واجتذبت جمهورا غفيرا من الناس.. . ومن الغريب انه حينما
انتظمت المسارح بعد ذلك واستكتمت شطراً من بهارجها فقدت
جمهورها الغفير.. .

ثم خبت شعلة المسرحيات وانصرفت الاندية الى «اليانصيب»
وحفلات استعراض القوى وحمل الأثقال ثم الى لعبة «الهوزي» بعد
ذلك.



- ٥ -

مع نادى العروبة

لم أكن عضواً في نادى العروبة أثناء الدراسة الثانوية، لكن ذلك لم يمنعنى من زيارة النادي، وقراءة الصحف، والاستعارة «المقنعة». من المكتبة وحضور حفلات النادي الأدبية الشائقة. . وكانت القاعات في النادي تكتظ بالحضور من الوجهاء والاساتذة وأفراد الجمهور المدفوع بالأعجاب أو الفضول..

ويفتتح رئيس النادي المرحوم محمد دويغر هذه الحفلات - عادة - بإسداء النصائح بأسلوب اذاعي رصين والتشديد على اهمية الاخلاق في نهضة الامم وواجبات الشباب والمعلم تجاه المجتمع، فيتقبلها الحاضرون بالرضا وبهز الرؤوس بين حين وآخر. وسرعان ما يعقبه امين السر الاستاذ حسن الجشي فيساهم اسلوبه المتقن وافكاره المعارضة للجمود الداعية للتطور والانفتاح على مفهوم العروبة الأوسع في رفع درجة الحماس عند البعض وتوتر الاعصاب لدى الاخرين. فاذا صادف وان تلاه في الخطاب الاستاذ على التاجر خيّل الى الحاضرين عندئذ أنهم يواجهون بركانا يقذف بالحمم، من جراء صراحة الالفاظ والنقد اللاذع ودفقات الحماس كالموج العاصف يغشاه موج من فوقه موج اكبر منه اتساعا. . ويقدر ما تتوالى الصدمات، تتسع الافواه المشدوهة حتى اذا اكمل حديثه لم يجد منظمو الحفل بدأ من تلطيف الجو باستراحة

للمرطبات، أو قصيدة «رومانسية» من شعر المرحوم الاستاذ السيد رضى الموسوى من مثل:

«انثروا فوق صفحة الدهر أزهارا.. يفتح ريحها مع الاشراق..»
والاستاذان حسن الجشي والموسوي غنيان عن التعريف.. اما الاستاذ علي التاجر فلم يعرف عنه انه كان يقول الشعر ايضا.. لولا ما سجلته حفلات نادي العروبة - على حد علمي - ومما وجدته في مناسبة من هذه المناسبات قوله في سنة ١٣٦٠ هجرية (١٩٤٠م):

نحن في مهمه تهاجمنا الاحداث فيه بكل باغ غدور
عزل لا نطبق أن ندفع الضيم فنلوي بشره المستطير
خنع لا طموح للمجد يحدونا فنطوي برد الخنوع المرير
خمدت في صدورنا جذوة الدين فتاهت عقولنا في القشور
وتلاشى الأباء فيها تلاشى النور في لجة من الديدجور
آه لو تبعث الحياة ضياها ثانياً في نفوسنا والصدور
لجعلنا هذي الحياة نعيماً وفضحنا اسرارها بالثور

ولم تكن المشاركة الادبية مقصورة على اعضاء النادي فقد كان يشترك فيها بين الحين والآخر عدد من ادباء البحرين وشعرائها واساتذة من البعثات التعليمية كالاستاذ شحذه عمرو، والبيضاوي وغيرهما.. كما يتولى التعليق والنقاش الحاضرون من اصحاب الفضيلة علماء الدين والضيوف.

وكان الاستاذ الكبير الشاعر ابراهيم العريض النجم اللامع في معظم حفلات النادي، اذ كانت تفرد له في العادة، أمسيات خاصة بكاملها يستغرقها في القاء الجديد من شعره القصصي محفوفاً بأعجاب الحاضرين وتصفيقهم. فقد التقى بين عام ١٩٤٠ و ١٩٤٣ عدداً من قصائده مثل «قبلتان» و «التمثال الحي» و «التوأمان» و «اسطورة الخيام» و «قلب راقصة.. وغيرها..».

كنت اتابع حفلات النادي بشوق واحضرها فأجلس بين الصفوف المتراصة محشورا في مؤخرتها لا يحفل بي أحدا! لكنني اتجاسر على الوقوف بين الحين والآخر لمتابعة حركات الاستاذ العريض التعبيرية.. ولم يكن ليعكر صفو هذه السعادة شيء سوى قلقي من الرجوع بمفردى الى المنزل خلال الأزقة الموحشة المظلمة، تتجاوب عبرها أصداء من أصوات النواطير المفزعة، تجرح صمت الليل وسكونه.. وسرعان ما يصرخ احدهم فجأة من آخر الزقاق «شنت» فأجيبه بصوت مبحوح من الخوف: «صديق!» كما انه كان علي ايضا ان أجيب والذي بعد ذلك عن أسباب التأخر..

لقد كان الأستاذ العريض استاذي فترة من الزمن اثناء الدراسة الثانوية، كنت أحسد النادي به، ولكن في مثل تلك الأمسيات كنت أغبطه على كل ذلك الحب والإعجاب الذي يناله من النادي.

ويمضي الزمن، فإذا بالطالب الذي ما انفك يحرص على حضور حفلات النادي، ويلجأ لاستعارة الكتب بإسم غيره من الأعضاء - يصبح عضواً فيه، بل ويعهد اليه في احدى الفترات، ان يكون مديرا للمكتبة، فلا يلبث ان يلفي نفسه منهمكا في ترتيب الكتب ليكتب تقريرا بكل ذلك يرفعه الى مجلس الإدارة. يفعل هذا ولا يكاد يصدق ان العمل الرتيب الذي يستغرق منه جهداً لا يقوى عليه عوده الطري هو ذاته مصدر سعادة ورضى لأنه يضعه وجها لوجه مع المراجع والمؤلفات الكبرى التي سمع بها من اساتذته في المدرسة او أثناء المحاضرات أو من خلال المطالعة، من أمثال تاريخ الطبري، وصبح الأعشى، ومعجم الأدباء والبلدان، وكتب الأدب الأربعة: الأغاني، والعقد الفريد، والأمالى، والكامل ثم دائرة معارف وجدي وغيرها. وهكذا تأخذ النشوة إذ يجدها بين يديه، يتصفحها على عجل وكأنها زاد المسافر لأنه أول من يعلم بأن النظام يمنع استعارة المراجع، فيعيدها، ويترك أمر قراءتها للأيام.

ثم ان العمل في تنظيم المكتبة لا يكاد ينتهي حتى يبدأ من جديد فقد كان من عادة الأعضاء القدامى وممن لهم حظوة في العلم والثقافة - ان يبدأ معظمهم زيارته للنادي بالدخول الى المكتبة والتجول بين رفوفها المكشوفة ثم لا يغادر الحجرة إلا بعد ان يعبث بشيء من الكتب والمراجع، فيعيد بعضها الى غير موضعه على عجل - ويترك الباقي في مكانه منصرفا الى قاعة الجلوس لقراءة الصحف. وكأنه بهذا العمل قد أرضى غرورا في نفسه، او اشبع فضولا، أو اظهر للأعضاء المستجدين صفة من الإهتمام الفكري، يتميز بها عنهم.

صفة النادي القديم

كانت للنادي بوابة قديمة ذات مصراعين، منهكة الأطراف، لا سيما في الأجزاء السفلى حيث يلتقي المصراعان بسدة الباب المتآكلة التي تنفرج عنها فتحة على شكل هلال صغير يسمح لحركة الجرذان جيئة وذهابا، وتتكفل أسنانها القارضة في هدأة الليل توسعة تلك الفتحات كلما ازداد العدد أو كبر الحجم.

وترتفع فوق البوابة لوحة من الخشب السميك مكتوب عليها اسم النادي وتحتته اسم كاتبها الخطاط احمد العثمان بحروف في منتهى الوضوح، ويقال ان مناسبة تعليق هذه اللوحة رافقها احتفال متواضع على قارعة الطريق أثارت حماسا لدى المارة، وأوحت الى بعضهم وهو الأستاذ عبدالله الكردي بارتجال خطبة حماسية قصيرة نالت الأعجاب.

والداخل الى النادي يجد نفسه في دهليز صغير شبه مظلم ينتهي بفتحة من اليسار تطل على فناء مكشوف مستطيل يؤدي من جهة الغرب الى الحجرة الرئيسية المستطيلة التي تستخدم للجلوس والمطالعة وإقامة الحفلات العامة وبعض الأعمال الإدارية. ثم تتصل بها من جهة الجنوب حجرة المكتبة. وهناك حجرة ثالثة مصممة الجدران علي امتداد الدهليز

ليس فيها سوى باب يطل على الفناء من جهة الغرب.

ولقد اتيت - ما وسعتني الذاكرة الطرية - فيما سبق، على ذكر الحجرة المستطيلة الرئيسية التي كانت تقام فيها الحفلات، ولا أتذكر زيادة على ذلك، إلا انها كانت أكثر الحجرات في النادي بهاء، وانها كانت من الكبر بحيث تتسع في الأيام المعتادة لمن يطالع الصحف، ولمن يجلس للحديث، أو لتناول المرطبات، ولمن يؤدي عملا اداريا وذلك في الوقت الذي تتسع فيه ايضا لمجموعة اخرى من المثقفين دأبهم النقاش واستعراض عضلات الفكر، أو اطلاق سراح الذاكرة في مجالات الشعر والأدب والتاريخ وهلم جراً حيث تختلط الفصحى بالعامية، وتمتزج كلاهما بكلمات ومصطلحات من الأنجليزية في منتهى السلاسة.

وإذا كنت غافلاً تقرأ في صحيفة دون ان ترفع رأسك، وسمعت صوتاً عصبياً عالياً، موسيقى النبرة، فذلك صوت الأستاذ حسن الجشي. اما إذا سمعت جملاً قصيرة ضخمة ينتهي معظمها بكلمة «هامبغ» الأنجليزية، فذلك هو الأستاذ علي التاجر. اما صوت الأستاذ ابراهيم العريض ونبراته فهما مميّزان لدى معظم الأعضاء من اسلوبه الهادئ الحاني الرقيق تتخلله عبارة «يا ابني» والأستاذ نادراً ما يغضب. . فإذا فعل فإنه يزأر زئير الأسد فيصمت المتجادلون!

ومعظم أعضاء مجلس الإدارة كان دأبهم النقاش دائماً، والخصام أحيانا ولا يجمعهم رأي واحد اللهم إلا في مواجهة الخطر المشترك، وهو في الأغلب أحد الأشخاص من المتعصبين للرأي القديم، أو احد (المعممين) أي رجال الدين الذين يأتون لزيارة النادي، أو يضعهم حظه في طريق أحد الأعضاء وهو داخل الى النادي، فيعزم عليه بالدخول معه.

ومن بين العلماء الذين كانوا يحظون بتقدير خاص واحترام من قبل

اولئك الأعضاء، فضيلة المرحوم الشيخ عبدالحسين الحلبي اذ كانت افكاره ذات شباب وحيوية وعنفوان، فيروق للأعضاء كل ذلك. وممن اذكرهم من العلماء الاخرين فضيلة المرحوم الشيخ عبدالله محمد صالح، فقد كان يحظى بالإحترام اللائق عند زيارته للنادي، فلا يمنع ذلك الأعضاء من التمادي معه في حرية النقاش، فتصطدم الآراء وترتفع الأصوات!

فأنت تجد اذن ان هذه القاعة كانت تعج بالأنشطة المتنوعة - على صغر حجمها. وهي لا تصبح قاعة موحدة النشاط ترصّ فيها الكراسي صفاً بعد صف إلا في مناسبة الإحتفالات العامة والأمسيات الأدبية من النوع الذي ذكرته في أول الحديث. وقد مر بنا أيضا وصف حجرة المكتبة ولم يتبق من حصاد الذاكرة ما يضاف لذلك سوى ان جدرانها كانت رطبة يطفح منها الملح فيسيء الى الكتب، وأن الغبار يدخل من نوافذ الطريق المترب فيتراكم على السطوح، كما ان الإنارة فيها لم تكن كافية للقراءة. ومدخل حجرة المكتبة المطل على الفناء على جوانبه دكة مبنية للجلوس، ولكن احدا لم يكن يهتم بالجلوس عليها، فهي من بقايا مجلس المرحوم الشيخ خلف العصفور ولا شك انه كان لهذه الدكة شأن كبير فهي بمثابة مجلس الشرف و الحظوة لمن يجاور الشيخ في مجلسه المشهور.

اما تلك الحجرة المظلمة التي ذكرتها - وهي ثلثة الحجرات - فقد كنت اخاف من دخولها وأنا تلميذ، فلما صرت عضوا في النادي وأوكل الى إعادة افتتاح فرع التعليم، توكلت على الله ودخلتها فلم يكن في النادي مكان آخر غيرها. وما بقي في ذاكرتي عنها لا يعدو ثلاثاً: الأولى: ان قاع الحجرة كان متربا، بل قل منجماً من ذلك التراب الناعم المسحوق والثانية: ان لوحة «السبورة» كانت لا تجري عليها الطباشورات بسهولة لخشونتها وتشقق ألواحها. والثالثة: ان التعليم استمر عاما او

بعض عام ثم تفرق الطلاب ولم يبق منهم إلا واحداً استمر لوحده نحواً من شهر وانا في حجرة المطالعة، أعرف مجيئه من صوت نعاله يسحبها على الأرض سحباً. إذ كان شاباً من اطراف المنامة وذات ليلة افتقدت صوت مشيته، وطال بي الانتظار فأدركت ان نهاية فرع التعليم اصبحت وشيكة لا يمكن تجاهلها، فأغلقتنا فرع التعليم. وكانت تلك حسبما علمت المحاولة الثالثة والأخيرة.

ويترامي الى سمعك وانت تصعد بشيء من المشقة درجات السلم العالية، الصراخ متعالياً من غرفة السطح المخصصة لمزاولة الألعاب الداخلية. وأول من يواجهك عادة في هذه الغرفة الأستاذ علي التاجر والسيد عباس العلوي في صراعهما الأبدي على لعبة «نرد الطاولة». وهما يلعبانها بمهارة وسرعة نادرتين. ولا يمنع ذلك أحدهما او كليهما من مشاركة الآخرين في تناقل الأخبار او تشجيع اللاعبين او تحدي من يلاعبه.

والأستاذ علي التاجر كان يحتفظ بمناقشاته التي لم تكتمل على ما يبدو في قاعة الجلوس، الى هذه الفرصة إذ يقوم بمجادلة جمهرة من الأعضاء وهو بمفرده، فيستدير لكل منهم على حدة حتى يسكته بكلمة «طق» ثم يعود للآخر وهكذا دواليك. ومواضيع الساعة التي غالباً ما تكون مثاراً للجدل هي من مثل الملك فاروق واحزاب مصر، والعرش الهاشمي واحداث فلسطين، ونوري السعيد والهلال الخصيب. فإذا استنفذت الأحداث السياسية فهناك ايضا النقاش حول المفهوم الحقيقي للدين، وتأييد آراء مجلة الأنصار المصرية حول العروبة والإسلام الى غير ذلك.

وكان الأستاذ علي يلعب الشطرنج في بعض الأحيان وقد تعلمت هذه اللعبة بسببه. اما الآخرون في غرفة الألعاب فتجدهم منشغلين بلعبة (الدامة) او «الدمينو»، ولكن اللعبة المفضلة لدى جمهور رواد النادي

وكان بطلها احد ابناء التاجر دونما منازع هي طاولة «الكيرم» وهي لعبة لا يميل إليها المفكرون عادة كالأستاذ علي التاجر لما تثيره من شغب وعبارات صبيانية وكانت تسبب لإدارة النادي صداعا مزمنا وقد استقال بسببها الأستاذ علي من النادي حتى تم اقناعه بالعدول عن الإستقالة. ومن مرافق النادي التي كانت مسرحا للنشاط ايوان صغير، وسطح ممتد، وغرفة مجاورة في جزء منها الإدارة والاخر مخصص لتنس الطاولة. انها جميعا عبارة عن مساحات ضيقة فصلت على حجم اسرة كبيرة، ولم يجر على البال ان تصبح مسرحا لنشاط ناد يعج بالرواد. ولكن ما كان ضيق المكان يوماً بمانع من حرية الحركة لمن دأبه النشاط. لذلك فقد كان لسطح النادي وذلك الأيوان الصغير شأن أي شأن!

سطح النادي، كان المفزع للأعضاء من الحرّ في العصريات والأمسيات. شهد الدروس الثقافية وما تجره معها من مناقشات ومناظرات كما شهد الحفلات الداخلية أسبوعية وشهرية. وشهد كذلك بداية التدريب على التمثيل الداخلي للأعضاء والخارجي للإذاعة وللجمهور. وعند التحاقه بالنادي كانت الأمسيات الأدبية الداخلية تكاد تقترب من نهايتها مع نهاية العقد الخامس ولا يعلق بذاكرتي الشيء الكثير عن هذه الإجتماعات ما عدا العبارات الرئيسية التي سمعتها في كل مناسبة من رئيس النادي وأمين السر تحت الأعضاء على الحضور، ومن كان في النادي وتخلف عن المجيء كان «يستجلب» قسراً او عن شبه قسر لحضور الإجتماعات ويتكفل بذلك عادة الأستاذ حسن الجشي يساعده نفر من ذوي الجرأة واللسان.

ومعظم المتكلمين في تلك الحفلات الداخلية كان يبدأ حديثه عادة، بالتقليل من شأنه في صياغة الكلام ويبالغ في ذم أسلوبه الركيك وأفكاره السقيمة وقد يشير الى نفسه بكلمة الحقير على اسلوب الآباء ثم يختم تلك الديباجة قائلاً: أنه وافق على المشاركة تحت ضغط من أمين

السر او رئيس النادي ولو لا إلحاحها لما وقف هذا الموقف الصعب!
ويكثر الأعضاء اذا تضمن البرنامج شيئاً من المشوقات كالمسابقات
او الجوائز او التمثيل او الموسيقى او الغناء، وأحياناً يكفيهم للحضور،
الكرم غير المعتاد في الضيافة او وجود زائر غريب، ويقل عدد الحضور
منهم حين تقتصر الحفلة على كلمات موضوعة او مقتبسة ويبدو التذمر
على الحاضرين، من ظاهرة الوشوشة فيما بينهم، او التملل في
الجلوس، او التثاؤب بصوت مسموع.. وكل تلك الأمور تسبب لأمين
السر الغيظ والإحراج.

وأذكر انني كتبت كلمة تعالج ظاهرة التهرب من حضور
الاجتماعات لا تخلو من صراحة ونقد لكل من الإدارة والأعضاء. فلما
رأى الأستاذ حسن الجشي قلة عدد الأعضاء الغى الاجتماع بحجة ان
كلمتي طويلة جدا وان علي ان اقسما قسمين واوزعها بين اجتماعين
وفي احدى الأمسيات حدث لقاء مهم على سطح النادي ضم مجموعة
كثيرة من الشباب المتعلم ومن الوجهاء والمصلحين وذلك لوضع حد
لفتنة طائفية ولجمع الشمل في جو من التواصي بالأخوة والإخلاص
للوطن والأمير، ثم مناقشة المسؤولين مباركة هذه الجهود.

الرحلات.. من أمتع الذكريات

دأب نادي العروبة على تنظيم رحلات ترفيهية للأعضاء الى الجزر
والشواطىء البحرية والبساتين، وعلى الأخص جزيرة «النبية صالح» قبل
ارتباطها بالبر، والى سترة حين كان منفذها الوحيد الجسر الذي اقامته
شركة النفط «بابكو» والى جزيرة «أم النعسان» وبستان سمو الأمير في
الوسمية، وغير ذلك من المنتزهات والبساتين وكان موسم معظم تلك
الرحلات خلال شهور الصيف القائظة، وموعدها من الأسبوع ظهر
الخميس حيث يستمتع المشتركون بالنوم على شواطىء الجزر الرملية او

في البساتين. ثم يهرعون صباح الجمعة الى العيون الطبيعية فيها مثل عين الرحي، والسفانية. وحيث لا توجد تلك العيون الطبيعية توجد الآبار الإرتوازية في البساتين واحواض السباحة التقليدية، ومن حولها بعض الأبنية القديمة ومرافقها. اما المناطق ذات العيون الطبيعية فلم يكن حولها أي بناء، وكانت ظلال النخيل والأشجار هنا وهناك هي الملجأ الوحيد من وهج الشمس. ويكون موعد الرجوع عادة مساء الجمعة. وقد يجنّ الليل اثناء الرجوع إذا حدث لأحد الزوارق عطل في الطريق أو اذا تاه عن مسلكه الربان.

والقيام برحلات من هذا النوع الى تلك الأماكن كان أمراً مألوفاً في البحرين، فما هو إذن الشيء الذي يجعل رحلات اعضاء نادي العروبة أمراً مميزاً وذا معنى خاصاً؟ وكيف تصبح لهذه الرحلات الترفيهية دلالات اجتماعية ونفسية وعاطفية تجعلها تحتل مساحة واسعة في سجل الذكريات؟

ان الجواب ليس بسيطاً، وهو يذكرني بقصة قرأها في المدرسة عن شخصين الأول متعلم والثاني أمي حينما ركبا لجة البحر في زورق وسأل المتعلم الأمي ان كان يجيد القراءة والكتابة فلما أجابه بالنفي قال له: «لقد خسرت نصف عمرك». فلما أشرف الزورق على الغرق سأل الأمي رفيقه المتعلم ان كان يحسن العوم فأجابه بالنفي فقال له: «لقد خسرت عمرك كله».

وقد شاهدت المتعلمين وخبرت الأساتذة والمثقفين في تلك الرحلات فوجدت معظمهم أعجز ما يكونون عن الإعتماد على انفسهم وأقل قدرة عن مساعدة الآخرين اللهم فيما عدا اصدار الأوامر. ان عدداً من غير المتعلمين او من انصافهم كان يستأثر بالإعجاب في تلك الظروف ويحظى بالسلطة في تسيير امور تلك الرحلات بعد ان تخلى لهم الأساتذة وفرسان الكلمة عن الميدان طائعين.

وأنت تجد ان أمثال هؤلاء يمتازون بالبساطة والطيبة، وهم أبصر بمسالك الطرق، واعرف بالمواضع والأشخاص، واقدر على التعامل مع أفراد الشعب. وهم يهبون للنجدة بوازع من حب المساعدة.

وحالما تحطّ الرّحال، تراهم يعملون كخلية النحل، في اعداد الوجبات، وتوزيع المرطبات، ثم تجد منهم من يفرش الأرض، ومن ينقل الماء، ومن يطبخ ومن ينفخ ومن يصب القهوة والشاي ويلاطف الناس مشرق الوجه مبتسما مسرورا بما فعل. وكأني لحد الآن أسمع في هذه اللحظة ضحكات المرحوم جعفر الناصر ونكاته، وأشاهد ابتسامة المرحوم نوح قاسم وسروره كلما خاطبته قائلا: «عليك ناح غراب البين يانوح. أين السفينة بل أين الملايح» فيعجب للشعر ثم لا يغضب لمعناه! وكأني بالمرحوم السيد عباس العلوي يتبادل الأدوار مع غيره من أمثال رشيد الماحوزي، ورضي القميش وعبدالله الوطني والمرحوم ايوب حسين وكاظم العصفور حتى إذا صب الطعاب وجهزت المائدة وجدتهم أكثر الناس سرورا وأقلهم شراهة وأكلا، وأوسعهم صدرا للدعابة وأكثرهم صبرا على النقد وجوارح الكلام.

ويختلط في هذه الرحلات الترفيهية اعضاء النادي، صغارا وكبارا، ويأتي مع بعضهم اقاربهم أو اخوانهم أو آباؤهم فيتعايشون على ما بينهم من فوارق - كمجتمع صغير. وفي مجالات مثل تلك، حين يعطي أولو العزم والهمة لإخوانهم خير ما يتمتعون به من مواهب انسانية، فإن ما يسمعونه من كلمات التقدير والاعجاب يعطيهم تعويضا نفسيا يغمرهم بالرضى والسعادة، ويجني النادي من ذلك كله الشيء الكثير!

إتفاق أدبي من عشرين بندا..

كان من رأى زميل المدرسة الثانوية.. عبدالعزيز محمد القاضي، أن تبادل الافكار في أمور الثقافة والمعرفة، والأدب والشعر، أمر بالغ

الجديّة ويحتاج الى توقيع اتفاق بيننا يقول: «لقد عزمنا نحن الاثنين الموقعان ادناه ان نقوم بعون الله - في تبادل آراء وأفكار تتضمن نواحي علمية وأدبية واجتماعية تعود علينا بالنفع المأمول!.. الخ». ثم يعقب هذه المقدمة تنظيم كيفية التعاون في عشرين مادة!.. وقد سقط التاريخ سهوا لكنه كان على الأرجح خلال عام ١٩٤٣م - حينما كنت في سن الثالثة عشر. ثم تداولنا ردحا من الزمن في تبادل آراء وأبحاث تتضمن الشعر والأدب، والفلسفة، والأخلاق والعادات وفقه اللغة، ومعنى السعادة وغير ذلك.. وكتبنا بها محضرا يتضمن الرأي المشترك. أو تسجيلا لموقف كل طرف عند الاختلاف.

وكان من سوء حظي عند الاقتراع ان اكون البادىء بالحوار، ولم اجد شيئا سوى ان اشهد القريحة لنظم أبيات من الشعر كانت اول تجربة في هذا المجال:

نظر البدر من خلال السحاب فرأى الماء كاللّجين المذاب
فأتى كي يبلّ جسما نحيلاً هذه السير في الفيافي الرحاب
فرمته الحراس، وهي ظلال رسمتها البيوت فوق الحباب
برمّاح طويلة وسهام وسيوف قواطع وحراب
فاعترته انتفاضة الذعر لما لامس الماء، فانبرى للأياب

وبقدر ما كان سروري بنظم تلك الابيات عظيما لكونها تجربة في استقامة الوزن والقافية على اقل تقدير، وتصويرا ساذجا لاضطراب وجه القمر على صفحة الماء فان عبد العزيز لم يترك سهما في جعبته الثرية برصيد أدبي جيد وذوق ناقد إلاّ وروماني به حتى عزفت عن النظم فترة من الزمن بينما قرر هو استبعاد القطعة وعدم الاعتراف بها. ولم استنكر منه ذلك فبالاضافة الى فارق السن بيننا فقد كانت لديه موهبة ادبية راسخة. وحين قرأ علي ما نظمه بعد ذلك بزمن غير طويل، واتى علي وصف «البدر» في السماء كانت ترافقه بسمات الظفر وهو يقول فيها:

«قد انهد جلاباب الظلام وجفنه وأطبق ستر حالك اللون فاحمه
 فيالك من مرأى ويالك من دجى أهضت بقلب الصب . . ما هو كاتمه
 وان ضاء بدر واجتلى ظلمة الدجى فلاح كوجه واهن الطرف ساهمه
 فيالك بدرأ، كدت من روعة له أطيير كأني بين صدغيه لاثمه
 يضاحك سربال الظلام فينتضي عن الركب بؤساً . . طالما التج عارمه»

وبعد مرور سنة أو تزيد من المحاورات والمناظرات . . والاتفاق
 والاختلاف . . دب الملل الى نفسين ناشئتين تتشوقان الى المعرفة
 وتتطلعان الى الجديد . . واتخذ الاتفاق سبيله الى زاوية النسيان . . فقد
 طرأ على الساحة عنصر جديد استحوذ على الاهتمام . . انه مجلة
 «الانصار» القاهرية، مجلة «الفكرة العربية والثقافة الاسلامية» .



- ٦ -

دعوة الأ نصار

تولت آخر مقالة في مجلة «الانصار» القاهرية في سنتها الرابعة عام ١٣٦٣هـ. قبل ان تتوقف نهائيا عن الصدور، شرح تاريخ الحركة وبداية فكرتها، فهي «مجهود قلة مناضلة وراء الحدود والقيود، غير منظورة ولا مسموعة ولا ذات خطر.. وهم في مصر لم يتجاوز عددهم احد عشر رجلا». والبداية كانت عام ١٣٥٩هـ حين عقدت الجمعيات الاسلامية في مصر ثلاثة اجتماعات لمؤتمر عام بقصد الوصول الى «جبهة اسلامية» حيث حضر هذه الاجتماعات نحو ستين جمعية! لكنها انتهت جميعا الى الفشل بسبب الاحقاد والتنافس الشديد على الرئاسة والمراكز والاختلاف على صيغ العبارات.. والالفاظ البراقة!! وقد شهد صاحب الانصار «أحمد صبرى»، تلك الاجتماعات وتأكد له عدم جدواها، فأسس هيئة «للتوجيه الثقافي» أساس عملها «تقريب الثقافة الاسلامية الحقيقية لاذهان المثقفين، ودعمها قانونها الغاء نظام «الرياسة»، وان لا يزيد عدد الجماعة على خمسة وعشرين، وان لا يقبل فيها المشهورون المعروفون من الادباء والكتاب الذين تحددت ميولهم واهدافهم» ثم انضمت الى تلك الهيئة اسماء معروفة مثل حسن عبد المقصود المحرر بجريدة الاهرام، ومحمد محي الدين استاذ العمارة بالمعهد العالي للفنون، ومحمد ابو بكر ابراهيم، مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف،

وشاعر لم يذكر اسمه، وعدد من رجال التربية في الجامعة ودار العلوم والجهات الثقافية الاخرى منهم:

حامد عبد القادر استاذ علم النفس واللغات السامية بدار العلوم والدكتور احمد فكرى واثنان من الصحفيين المعروفين فبلغ مجلس الانصار احد عشر عضوا.

ثم صدرت مجلة «الانصار» لتحمل صور هذا التوجيه الثقافي، ورسائل الانصار باعتبارها مادة هذا التوجيه ومرجعه، وصدر من تلك الرسائل: كتاب «النظريات العلمية في القرآن» ثم «قناع الفرعونية» ثم «ضوء في تاريخ التوحيد».

أما المجلة فقد ابتعد بها احمد صبرى عن توجيهات الهيئة ومجلسها حتى لاتقع مشاحنات، وارتضى «حسن عبدالمقصود» صاحباً لامتياز الانصار. وقد أقامت اسرة الانصار ثلاث حفلات تعارفية في ثلاث سنوات متعاقبة شهدها كثير من الاصدقاء الشخصيين، يصفهم صاحب الانصار بأنهم صفوة من الرجال المعروفين في المجتمع بالامانة والجهود الثقافية.. وبهذه الاجتماعات وحدها - على انها مجرد مظهر تافه - تهيّب الانصار كثير من اعدائها الألداء. يقول أحمد صبرى عن قصة البداية: كان كل شىء حولنا في سنة ١٣٥٩ كما هو اليوم شبيها ببرج بابل.. على ان اكبر خطوة اصلاحية قمنا بها في اثناء العام الاول هو شل حركة هؤلاء (العلماء ذوي المؤهلات) الذين طمعوا في الانتفاع من موجة اصلاحية حديثة كالانصار فيها عزم وطرافة، ولها منهج وصحيفة. فخفت حدتهم بالتدرّج حتى انتقلوا من مؤسسين في حركة الانصار الى مساهمين مثابرين في قراءتها، ومبايعه نشاطها ومعاونتها من جهة نفوذهم بقدر الامكان.

وبعد مرور نحو سنة على الهيئة الثقافية، ضاعت في المناقشات والاقتراحات، صدرت الانصار وصدرت ابحاثها عن الفرعونية،

ومقالاتها في الحملة على طه حسين وسياسته «في مجاهل وزارة المعارف» فاضطرب لذلك اصدقاء الانصار العلماء، وجزع رجال الفن، ورجال اللغة العربية ورجال الدين ايضا.

. . ثم واصلت الانصار مسيرتها في وجه التيار اربع سنوات باقلام كتابها غير المشهورين واقتصرت الاقلام المعروفة على عدد قليل من الاسماء والمقالات من بينهم محمد سعيد العريان، ومحب الدين الخطيب، وفريد الراوي، ومحمد محي الدين، ثم فهد الريمائي، ومحمد اسعد راجح، وصاحب الامتياز حسن عبدالمقصود، وكأنما كانت المجلة تتخلى عن تلك الاسماء المعروفة أو كانوا يتخلون عنها مع بداية كل عام جديد حتى اقتصرت على الاسماء الثلاثة الاخيرة، لقد كانت مسيرتها تشبه انطلاقة صاروخ ذي اربع مراحل . . تنفصل الواحدة تلو الاخرى بتعدد المحطات، فلا يكون هذا الانفصال سبباً في ضعف، أو انحرافاً عن خط سير . . وانما هو . . مبادرة مقصودة لا يصال «المركبة» وملاحيتها القلائل الى مدارها المطلوب في الفضاء الواسع وراء الحدود والقيود . . المدار الذي رسمه صاحب الانصار وسعى اليه.

الانصار . . والشمس الغاربة

«تقوم القصور وتقع، وتشاد البواذخ ثم تنهار، ولكن صروح الدول التي أقامها العرب باسم الله عشرات المرات ليست كالقصور والصروح. فكل حجر منها كان خليفة من الخلائق الطيبة، وسجية من السجايا الكريمة، وشرعة من الشرائع الخالدة، فوقوعها وتفتتها بانهايار هذه الدول قد ترك على الارض أطلال الدين لا اطلال الملك، وشواهد العدل لا بقايا الجبروت، ومعا لم الوعي والرغد والرخاء، لا آثار الذل والخنوع والخوف. فأى رجل لا يبكى كثيرا بهذه الاطلال، ولا ينشج طويلا عند هذه الدوارس!!».

تلك الكلمات لاحمد صبرى صاحب «الانصار» المجلة التى وقف بنا حديث الذكريات عندها، فيما سبق. ولو قدر لانسان اليوم ان يعود خمسة واربعين عاما الى الوراء، ليقابل افرادا من المعجبين بالانصار، او المتحمسين لها، لوجدهم على هيئة تقرب من الوصف المذكور. . لقد كانوا حقاً فتية تبدو على وجوههم ملامح الجدّ إن وقفوا لسؤال، واذا ساروا فكأنما هم - على طراوة اعوادهم - يحملون معهم ماضى أمة، وطموحات جيل. . تأمل ما قاله ذلك الفتى الذى قصر باعه في تجربة الشعر فعزف عنه على نحو ما سبق ذكره، كيف يعود بعد شهور - فينظم على نفس الشاكلة:

حنّ الفؤاد وهاجه الوجد وصبأ، فليس لوجده حدّ
وشجاه ربيع، كان منتجعاً للعزّ، أبلى رسمه العهد
فلو ان أطلالاً تقاذفها ريح تروح، وديمة تغدو
لبدا بها الرّسم المُحيل وما رباعي يكاد من البلى. . يبدو
أو كلّما ساءلت دمنته عزّ الجواب. . وأبطأ الرّد
داعي الهدى، والشرع منفطر والجور يستشرى ويشتدّ
لبّتك متاً أنفس كرهت ضيماً. . وطعم حمامها شهد
(تلك النفوس على بدواتها لكن تحضر دونها الجلد)

ثم تأمل ما قاله شاعرهم عبدالعزيز القاضي، في اكثر من مناسبة. .
فى التحسّر على الامجاد الذاهبة:

شجى الربيع صبأ لم تهجه طواسمه بل الأرت مسلوبا، وقد عزّ ظالمه
حنانيكما روّعتماه وقلبه تظل على الذكرى الشجون تقاسمه
فقد سلب المجد الذي شاد سمكه أباة من الآباء. . لاعزّ هادمه
ألا كفكف الدمع الهتون أخا الحجى فما الدمع شافي الخائرات عزائمه
لأنت الفتى فانهض كفيت اذى العدى وشمرّ فان الجور هبّت سمائمه
فما عازبات المجد إلا روائح وما يفتلى المربعاع إلا سوائمه

ومثل قوله من أبيات مشبعة بأنفاس من البيداء:

أهيجا فؤاداً كاد أن يتأزسا يؤزقه هم.. إذا الليل عسعسا
برته يد الاحداث - إلا صبابة - فما جس نبض فيه.. إلا تنفسا
أربع العلى والمجد قد كنت عامراً فما لك أذ ناجيتك اليوم أخرسا
أكفكفه دمعاً اذا سال غربه فما انقاد لي صبر، ولا الدمع أسلسا
أهجت دفيناً أيها الربع اذ غدا مقامك بعد العز، أشقي وأعسا
خليلي ان ترقأ على الدار عبرتي فجودا بدمع منكما ليس أبخسا
اذا الدهر لم يوردك للخير مشرعا فكن أنت للخير الغداة.. مؤسسا
وان جابهتك النائبات بنكبة فجاهه بها نفساً لدى الكرب أمرسا

ثم يتردد مثل ذلك لدى «أنصار» الشام ولسان حالهم يقول:

الرمال السمراء ظمئى الى الماء وتسقى الدنيا إباءً ومجدا.
كما يشارك شاعر الانصار فى العراق الاستاذ هلال ناجى متجاوبا
مع أصداء الانصار..

أقلّي العتاب، وكفّي الملاما وخلي الشجون تزيد اضطراما
الام السكوت وذا موطني يسام نكالا ويشكو الطغاما
ومن يعرب أمة للخلود تنازعها الكيد.. عاماً فعاما
تقطع أوصالها بالظباة وتأبي المقاطع فيها انفصاما
فما للشباب أطاع الخنوع وما للكمي.. أضلّ وهاما!!

وحين نعود بعد ذلك الاستعراض السريع الذي لم يشمل كل مواطن الانصار على امتداد الوطن العربي، لنستزيد صاحب الانصار في شرح موقفه من صروح واطلال حضارة الشرق التى سبقت ظهور الاسلام، نقرأ ما يلي عن حضارة مصر الفرعونية: «حقا لقد كان المصريون القدماء في عهد الفراعنة اقوياء، ولكن جزئى هذه القوة كان مركباً في ذرتين: احدهما عبوديتهم لأربابهم، والأخرى جهلهم

بحقوقهم، لقد كانت قوتهم المظلومة اشبه في تدفقها بعصارة الزيت، ولا تظهر في الوجود الا من طواعية المعصرة، وانقياد الثور!!

ولمن يسأل عن حقيقة أحوال العرب والمسلمين في هذا العصر يجيب: «والآن بعد ألف ومئات من السنين يعود العرب والمسلمون في أوطانهم التي صغرت، الى فقر الموارد، وفاقه العيش، وهذه العودة المخزية هي ابسط ما يفرضه الله من العقوبات على المفرطين في مواهبهم وفضائلهم».

الانصار . . والفكرة المستجدة

نقرأ للانصار هذا الاستهلال: «الاسلام والثقافة العربية كما يجب ان يعرفهما الناس معرفة الفهم والافتناع يحتاجان في هذا العصر الى عرض الايمان بهما عرضا صحيحا، يستند الى العلم والمنطق والذوق، استناده الى الاعتراف بجميع التطورات التي اتسعت بها معرفة الناس في هذه الايام الاخيرة، والى الاقناع العقلي بأن اكثر ما خرج من هذه التطورات من تلبسات الحياة وبوارقها انما هو لغو بالنسبة للانسانية عامة، وخطأ في الاتجاه بالنسبة للمسلمين خاصة» ويضيف صاحب الانصار في موضع آخر موضحاً: «فالعلم المعاصر الذي استطاعت أدواته ووسائله ان تمكن للعين الاوربية الباهتة الحولاء من الاستطلاع في خفايا تاريخنا، وأحوالنا، واسرار نهضتنا، هو بنفسه الذي يعيننا بهذه الادوات، نحن العرب، على رد هذه الزيارة الاستطلاعية للشرق والغرب معاً، فتحت يدنا الان من وسائل الاطلاع على شتى حوادث التاريخ، وتموجات العقل، وتقلبات المذاهب، واصطراع الرغبات، ما يجعلنا بالمقارنة، وبالتجربة، نستخلص الرأي الذي نراه في قوانين السلوك والاعتقاد التي تدور عليها رحى النضال الحى في حياة الأمم التي نراها، والتي يرتبط مصير مجهودنا الحيوي بها، ونحن نعيش مع هذه الأمم

عيشة التبادل والتجاوب والتعاقب في داخل هذا الجسم البشري الواحد، الذي لا فكاك لنا في حدوده وقوانينه وارتباطاته، او في المقدور لنا في آخرته وغايته ومستقبله».

وبعد: فلا اذكر على وجه التحديد متى واين كان لقائى الاول مع مجلة الانصار والارجح اننى اطلعت عليها لأول مرة من بين المجلات التى كانت معروضة على المائدة الثقافية فى نادي العروبة، من اعداد السنة الرابعة والاخيرة فى عام ١٣٦٣هـ. وسرعان ما وجدت ان عبدالعزيز القاضي يشاركنى هذا الاعجاب بالانصار.. ثم اكتشفت ان دائرة المناصرين والمعجبين بها كانت اوسع مما ظننت فقد شملت الاستاذ ابراهيم العريض، وحسن الجشي وعلى التاجر، وابراهيم الصباح وعددا من الأدباء والمثقفين. ومن زملاء الدراسة والطلاب الشيخ خالد بن محمد الخليفة و الشيخ دعيج بن على الخليفة، والشيخ عبد الرحمن الجودر، ومطر على مطر وفهد الظاعن وغيرهم.

أما سبب هذا الاعجاب المتنامي يوماً بعد يوم، بالمجلة ومواضيعها وترقب اعدادها الجديدة في مطلع كل شهر هجري.. فهو بدوره أمر يستعصى على التحديد والحصر..

والحقيقة ان «الانصار» بذلت كل ما في وسعها لشرح تلك الافكار والدفاع عنها بجرأة نادرة، على امتداد السنوات الأربع من عمرها، وهي افكار كانت تنطلق من آفاق جديدة تختلف عما ألفه القراء، في المجلات أو في بطون المكتبات، حتى لقد تحير الكثيرون في تصنيف الانصار وموضعها بين «التقدمية» أو «الرجعية»، وكانت الانصار تنشر رسائل المادحين وأقوال القادحين ثم ترد عليها بأسلوب «جامع مانع» كما يقول المعجبون.. أما قول الكارهين لها فمن مثل ما نشرته نقلا عن مجلة الصباح الدمشقية تحت عنوان «مدرسة جديدة» قولها: «يحرر هذه المجلة كتاب لم يشتهروا بعد واثقون من انفسهم، يدعونك الى الثورة

على المجتمع الحديث (المجتمع المظلم)، كما يسمونه، والعودة الى نظم بسيطة من الحياة، ويسبغون على دعوتهم، ونقاشهم، وعلى شتائمهم التي يوزعونها بين كل الناس، مظهراً من العلم عفيف الحجة، ماهرة في الاقناع، لانهم يحاربون الحياة التقدمية الحديثة وهم مطلعون على كل دخالها».

وهكذا بين أقوال المادحين، واصوات الكارهين كانت الانصار تستقطب من حولها عددا من رجال الثقافة والفكر الذين وقفوا عند حد الاعجاب، ومجموعة من الشباب المثقف المتحمس الذين تجاوزوا دائرة الاعجاب الى حد المناصرة والتأييد والحوار المستمر. وقد جرى مثل ذلك في البحرين، وقد كنت مع اولئك الزملاء من الطلاب ضمن تلك الدائرة الاقرب الى الانصار.

واتذكر اننى على محدودية ثقافتى في المرحلة الثانوية، وضغط الدروس كنت ارافق مجلة الانصار حيثما حللت لاستكمال قراءة مقالاتها قبل ورود العدد الجديد في مطلع كل شهر هجرى. . وكان أخي الاكبر يشتري الانصار ولكن سرعان ما اتلقف العدد منه ثم احتفظ به لنفسى. ولم اعرف طوال تلك الفترة ولا اخال ان زملائي كانوا يعرفون، الكثير من الاسماء المشهورة اللامعة في عالم الرياضة أو السينما أو التمثيل أو الفن أو الغناء على نحو ما يفعل الشبان الناشئون. فقد كانت أدمغتنا الفتية واخيلتنا الجامحة منشغلة باسمااء اخرى تملأ فراغنا بالجد، وعبثنا بالاهتمام، كما تستحوذ على قدر غير يسير من مساحة اللهو واللغو في حياة كل منا.

ولربما كنت مطالبا أن أقف قليلا للتعريف بتلك الاسماء واصحابها، وهو امر غير يسير لما قد ينطوي عليه من ايجاز واجحاف.

أحمد صبرى

ولكننا وقد ركبنا قطار الزمن مع الانصار فلا بأس من ان نتعرف على تلك الوجوه والاسماء، قبل ان يقف بنا في محطته الاخيرة، و سيكون هذا التعريف مجرد لقاء عابر في مسرح الذكريات لا شأن له بالدراسة الجادة، او النقد والتحليل. ولا بد ان نبداً بصاحب الانصار وحامل فكرتها «أحمد صبرى شويمان» ولا شك ان دوره يتجاوز كثيرا المقالات الموقعة باسمه أو باسم الانصار والكتب التى صدرت باسمه، فانت تشعر بان روحه وفكره يسريان في جميع المقالات، رغم تعدد الاسماء.. وخصّ احمد صبرى نفسه بكتابة الافتتاحيات وسلسلة مقالات متصلة في كل عدد تلقى اضواء على تاريخ التوحيد في حياة العرب قبل الاسلام وتبين انهم وان كانوا وثنيين في الظاهر فهم موحدون بالفعل. وتنضوي تلك الافكار تحت نظرية «أثر البيئات في العقائد» فهو يدل على ان بيئة الصحراء العربية التى عاشها البدوى قادت الى معرفة الله.

ويستشهد في دعم ذلك براء من سبق من المفكرين، وعلماء الاجتماع والمتخصصين في دراسة الهجرات العربية التى انبعثت من جزيرة العرب وتاريخهم وخصائص حياتهم الاجتماعية والعقلية. وبسبب هذا الاستعداد الفطري والخلقي كان اصطفاء الله الأمة العربية لحمل رسالة الاسلام «والله اعلم حيث يجعل رسالته».

ولهذا يستنكر صاحب الانصار مارسخ في الادمغة عبر التاريخ من اقتران مدح الاسلام بدم العرب والحط من شأنهم وتضخيم الجوانب السلبية التى سادت مجتمعهم قبل الاسلام. دون الاهتمام بتحليل اصولها ومعرفة منشأها، ويعتبر ذلك من فعل الشعوبيين الحاقدين.

محمد ظافر

ثم نلتقى بكاتب آخر وهو «محمد ظافر» وموضوعه الدائم الذي يكتب فيه تحت عنوان «المجتمع الاسلامي المنشود». وهو يجيب على سؤال «كيف كنا نعيش لو تصورنا استمرار الحضارة العربية الاولى!!» فينتقد من يتصور امكانية اقتباس خير الحضارة الغربية دون شرها لانهما كما وصلا الينا اليوم متلازمان. فاما العمل الصحيح فهو عزل التطور العلمى عن الثقافات المتزامنة معه، فيبقى العلم وهو تراث انساني عام، ونستعيز عن الثقافات المستوردة بثقافتنا العربية الاسلامية.. فالمسألة هي ان كل العلوم باقية لان أية حضارة في الدنيا لا تقوم بالتأخر عنها، ولكننا سنستخدمها بحسب حاجاتنا واذواقنا لا بحسب حاجات الآخرين.. فلا يكون مجتمعنا هجينا خليطا مرقعا، وانما يكون مجتمعنا ذا تيا اصيلا متمائلا، فيه من كل صور الحياة، وليس لحياة الاخرين صورة فيه.

وفي جانب اخر من المجتمع الاسلامي المنشود يتكلم محمد ظافر عن العوامل الاقتصادية في المجتمع وتأثيرها على دور كل من الرجل والمرأة فيه. وهو يرى ان نظام الاسرة يلقي الضوء على النظام المالي، وان الشريعة العادلة للمرأة ليست الحجاب ولا السفور.. وان الالات ليست هي التى استعبدت الناس، وليس العلم هو الذى أدى الى تظالم الأمم.. ثم يقول: اصبح البحث في نظام الاسرة في حضارة الفقهاء الاسلاميين يدافعون عنه بالحجج القديمة التى في أيديهم، وعلى ألسنتهم وفي كتبهم.. وصار النظام الاقتصادي بجميع مسائله ومشاكله بعيدا عن تناول ايديهم، لانه يتراءى لهم هناك على الزبد العالي فى موج البحر المتلاطم الذى لم يركبوه بعد.. ولكن من الذى فصل بين نظام الاسرة وقواعد تركيبها الاجتماعي وتوجيهها الفكرى، وبين القوانين الاقتصادية التى تضع الدرجات لهذه الاسرة فى مجال الانتاج والكسب والاستهلاك

والتي تحدد لها مسالك التعامل الصحيح في كافة نواحي النشاط، أخذاً، وعطاءً، واستفادة؟! الذي قرر هذا الفصل تأخر الدعاة الاسلاميين عن الانتهاء من الكلام في مسائل السفور وتنظيمه، ومساواة المرأة بالرجل وحدودها، وإباحة الرقص الافرنجي او استنكاره، ومشكلة ازياء النساء على البحر وحلّها، وهل يجوز الزواج من اربع فى هذا العصر الآلي او لايجوز؟!.. ولذلك مرت الشئون الاقتصادية - باصطلاحاتها المعاصرة - دون ان يتبينها الرأى العام الاسلامي، وكأنها بجميع مؤثراتها القوية لا تمسه بشيء!!

حامد ابو العطايا

وتحت عنوان «نظرات فى حياتنا العقلية» يعالج حامد ابو العطايا ظاهرة تدنيّ مستوى ومضمون النتاج الفكرى والثقافي في المجتمع العربي، ويعتبر كثرة انتشار الجمعيات والنوادي والمؤسسات الاصلاحية، بصورتها الحاضرة، ظاهرة مرّضية خطيرة تشير الى وجود الداء، اكثر من توفر الدواء.. لان العلاج لا يكون في تناول ايديها وهي على تلك الصفة من تصارع الاهواء و تعارض الرغبات والاهداف فيقول تحت عنوان «ماذا تحب ايها القارىء.. اننى اريد ان اربح منك..» فارشدني الى ما تحبه وترضاه».. ان معظم الكتب والمجلات اصبحت الان منبهات عضوية شديدة لا أكثر ولا اقل فتناول قطعة من كتاب كذا، او ازدراد موضوع من مجلة كيت يفيد بحسب تجارب العارفين في تنشيط بعض الغدد أو اخماد بعض المشاعر الانسانية الطيبة!! او احداث الانفصال العقلي عن كل مسئولية ادبية ليتم اندماج القارىء في عالم اللهو وغيوبه الاستهلاك الجسدى، ولم يعد غريبا من طول تملق هذه المجلات والكتب لأهواء القراء، وتعقبها لاجسامهم تعقب كلاب الصيد، ان نجد عددا كبيرا من الشباب يصابون بداء الخضوع للعادة في شراء

هذه المجالات، حتى بعد زهدهم فيها، وسأمهم لحاجتها.. فهم يشترونها ليطرحوها ارضاً!! ماذا تحب أيها القارئ.. اننى رهن اشارتك!! هذه لغة الناشر، وليست لغة المفكر! ولعله قد ذهب المفكرون من زمن بعيد.. وبقي الناشرون وحدهم؟! كما انه ينتقد انتشار الجمعيات الاصلاحية التى لا تسمن ولا تغنى من جوع حيث تكون فارغة البال تتربص للمناسبات فتحتفل بها، وتعتقد للتفاهات فتجادل عنها، والتى لا يكون العضو فيها اكثر من مجرد اسم مجوف على ورقة، او رقما مسجلا فى قائمة، أو مبلغا زهيدا من المال يدفعه اشتراكا فى كل شهر فلا يرى له اثرا يظهر فى غير اضاءة المكان، او فى تسديد البعض من أجور الموظفين والخدم، او فى شراء ممسحة جديدة لاحذية الداخلين والخارجين.. ويصف المجالات التى تصدرها تلك الجمعيات بأنها مجلات خرساء!!

صادق الحكيم

أما حامل لواء الانصار فى مواجهة الفن القصصي فهو «صادق الحكيم» انه يؤكد ان الفن القصصي ليس عربيا ولا اسلاميا، وهو يتعقب بمهارة العالم وحذق المطلع الخبير منشأ الفن القصصي والمسرحي فى بيئة المجتمع الغربى حيث الضباب والبرد والمطر والثلوج فيراهما أثرا من آثار تلك البيئة ومظهرا من مظاهر التفكير والتعبير لدى الفرد والمجتمع فى تلك البيئة. وهو لا يصلح لمجتمعنا ولا يتناسب مع تفكيره. فلقد كانت القصة عند العرب مقتصرة على السيرة الحميدة والقدوة الصالحة والعمل الطيب والبطولات فى ميدان المكرمات.. ولما جاء الاسلام اصبح هذا المعنى راسخا فى الاعجاز القرآنى فى «أحسن القصص» واصدقها. فاصبح قصص القرآن هو النموذج السامى الواجب إتباعه ومعالجة القصة حسب أصوله لتصبح فى المجتمع أداة بناء

لا هدم، ومصدراً لا يقاظ المشاعر الطيبة، لا تخدير الحواس!! و يشرح صادق الحكيم هذه الآراء على امتداد اعداد الانصار. . ومما يقول فيها:

«يرجع شبه الفن في كل شعب الى أمته الطبيعة. فالطبيعة حول العرب تلد الادب الصادق والطبيعة حول الاوربيين تلخ عليهم بفكرة التعويض القصصي. والطبيعة الشرقية.. لا وجود غرسها الا بالاساطير.. لقد عرفنا ان القصة في أوروبا نشأت لتحقيق غرضا اجتماعيا عاما. ولذلك كانت التطورات القصصية مقياسا للتطورات السياسية والاجتماعية. ولم يحدث ان شاع مذهب سياسي او اجتماعي في احد الدول الاوربية الكبيرة كفرنسا وانجلترا وروسيا قبل ان يسبقه مذهب قصصي يمهد له تمهيدا طويلا، ومن يراجع تاريخ المذاهب الاجتماعية الواسعة النطاق التي تصطرع اليوم في نواحي العالم يجد من ورائها جبهة من الصور القصصية التي تمثل اتجاهاتها وتشرح مقاصدها وتجمع اسرارها و رموزها..».

ويقول ايضا. . «ان الطبيعة الجليدية المظلمة المخوفة الكثيرة الاحتمالات في الغرب اصبحت في مادتها عقلا باطنا لهذه الشعوب تستمد منه الرجاء في فن التعويض بالقصص والمسرحيات..»

والخلاصة ان الكاتب يؤكد أن الفن القصصي عندنا لا يستطيع ان يقوم بالمهمة التي يؤديها في الغرب سواء في توجيه المذاهب السياسية والاجتماعية او احداث تغيير جذري فيهما ولهذا فهو محكوم عليه بالفشل.. الا ان تكون مهمته تخدير المشاعر والحواس ونسيان المتاعب والهموم وهو ما يؤديه بالفعل.

محمد أسعد راجح

أفسح صاحب الانصار أحمد صبرى المجال على مصراعيه لمحمد أسعد راجح ليكتب عن التصوف، فكتب متناولا الموضوع من الناحية

العملية في دنيا الواقع وسيرة رجال التصوف المعروفين وندد بأساليب الحرمان والرياضات الصوفية ودعواهم التي تصل الى حد إدعاء الولاية والنبوة!! وعند البعض الى التقمص الروحي!! ولم ينس صاحب الانصار ان يحتفظ لنفسه بمدخلات متعددة عن التصوف تضمنتها مقالاته وابحائه وردوده في مجلة الانصار، صادرة عن نظرة شاملة لمعنى التصوف وتصور اوسع واكثر بعدا. بل ان الاهمية التي برزت في موضوع التصوف وصلته بالبحث في تاريخ التوحيد جعلته يفرد لذلك كتابا خاصا تحت اسم (التصوف في نظر الاسلام - الرسالة الثالثة للانصار..). حيث يشرح اغراض الكتاب فيقول:

«على ان هذا الكتاب الشامل الذي يقدمه الانصار ليكون مرجع الثقافة العربية في موضوع التصوف، يتجاوز في نسقه واغراضه البعيدة مجال تلك المقالات الاولية التي مهدنا بها في المجلة لهذا البحث، ذلك ان هذا الكتاب لا يدور في موضوعاته حول اشخاص الصوفية واحوالهم في الممالك الاسلامية، وانما هو يستوعب حقيقة التصوف العامة في العالم كله، ويعمد الى تفسيرها، وتجلية غوامضها، وتعقب عواملها واعراضها بين مختلف الشعوب».

ثم يلخص أحمد صبرى تعريف التصوف في مختلف حالاته بانه (انقطاع اسباب الوصول الى الله، ثم توهم الوصول اليه، بلا وصول). وهو يرى ان التصوف في نظره الشاملة (سلوك عالمي) لا تحده حدود الطرق والمذاهب الجزئية التي يتألف منها. وانه موقف سلبي من الحياة يتسم بالوقوف عند الوسائل ونسيان الغايات، وان التصوف لا يقتصر على الدين فقط بل يتعداه الى الجوانب الاخرى فهناك صوفية الفن للفن، وموجات الصوفية الادبية والفنية والبوهيمية التي تحفل الصحف والكتب برسومها ورموزها، ثم يضيف قائلا: «والان فلننظر الى الزمن القديم والحديث في الشرق والغرب، وفي الدنيا الجديدة نفسها التي

فاضت فيها هذه المعتقدات في طوفان الاجناس، فسجد حركة صوفية تشمل طرفي الارض.. فهذا الشوذي العابد للطبيعة في الشرق الاقصى، هو بعينه الدرويش الغريب الاطوار في الشرقين الخائرين الاوسط والادنى، وهو هو البوهيمي، الافاقي المتربص، المنطوي على ادق الاسرار، مجتازا سهول اوربا المثلوجة متدثرا بظلامها، فمن هؤلاء الهائمين الذين لا يتلاشون ولا يستقرون في خضم الحياة البشرية المتدفقة تنبعث الاف الصور في السلوك الصوفي عبر الأزمان والأمكنة، حاملة نفس الأطوار والغايات.. على انه ثمة مكان واحد في الارض لم يخرج منه صوفي قط: هو الجزيرة العربية».

واخيراً بريد الانصار..

وختام لقائنا مع كتاب الانصار هو بريد الانصار ورسائل القراء. وهو منبر ادارت من فوقه الحوار الفكري مع القراء في أمور شتى، ومن أبرز تلك المواضيع النزاع على الخصائص بين العقليتين العربية والآرية. وبين الساميتين العربية والعبرية. ننقل من ذلك فقرات بقصد التعريف نشرتها الانصار بتوقيع «حسام» من بحث مفصل:

«نعتقد ان أمر العالم في توحيده وتعقيده، وفي خيره وشره، هو تداول مستمر بين سيطرة العقلية السامية باحد فرعيها عليه، وهما العقلية العربية والعقلية اليهودية.. وهذا واضح لنا نحن العرب كما هو واضح تماما لبني اسرائيل! ولكن هذه الحقيقة ما تزال بعيدة جدا عن مدارك المنتمين الى العقلية الهندية الاوربية، أو الآرية أو الاعجمية اطلاقا كما نسميها».

وفي بريد العدد التالي من المجلة تزيد الانصار تأكيدها على هذا الاعتقاد بتسجيل الحقيقة التالية، ننقل منها هذه الفقرة: -

«لقد انقسم العالم في تأثيره بين رسالة العرب في الدين، ورسالة

اليهود في الدنيا. وان الدنيا لتشهد في هذا العصر واحدة من المعارك الدورية الشديدة بين هذين الشعبين، والعقليتين والرسالتين للسيادة على ابواب بيت المقدس، وان الامم كلها لتقدر مدى الاثر الكبير الذي سيتركه نهاية هذا الصراع العنيف في مصير العالم. فالعرب قلة فقيرة مستقيمة، واليهود قلة موسرة ضالة. وثقافة كل منهما عامة في الارض، فليست متكثلة في مكان واحد، ومعنى هذا ان مصير ثقافة الامم في خيرها وشرها مرتبط بهذه النهاية التي يترقبها الجميع باهتمام وجزع. وهو اهتمام نراه عند العارفين بتاريخ العالم أكبر من الاهتمام حتى بنتيجة الحرب الحالية. ذلك ان مصير (بيت المقدس) الذي هو الباب الخارجي الكبير لبيت الله في مكة، وأحد الموانئ الرئيسية على محيط وطن التوحيد في صحراء العرب - هو الذي سيحكم باتجاه العالم في تيار احدى العقليتين المتنازعتين في خاتمة هذا الصراع، فيمضى العالم بعد الحرب الى الهاوية والصهيونية.. أو الى الأمن والعروبة!!.

الأنصار وحديث الهجرة

استغرق الحديث عن مجلة «الانصار» حيزاً من هذه الذكريات. ابتداءً من قصة نشوئها وانتهاء بقاء سريع مع كتاب الانصار ونماذج من افكارهم وآراهم سواء منهم من كان معروفاً باسمه في دنيا الكتابة او من كان مجهولاً غير معروف. لقد كانت الانصار مجلة جادة فيما تكتب.. وافكارها التي عبرت عنها بجرأة وصراحة وصدق في شتى المجالات كانت تمتاز بالجدة، والخروج عن المسلمات المألوفة.. ولعل تلك الظواهر - مضافاً الى ما سبق شرحه من اسباب - كانت وراء تعلقنا بها واهتمامنا بمتابعتها في مطلع كل شهر جديد..

كنا نلتقى في مواضع متعددة لتدارس تلك الأفكار.. في المدرسة، أو في النادي أو في السوق. ولكن أجمل اللقاءات ما كان يتم

فى مجلس الشىخ خالد بن محمد الخليفة الذى كان كالجذوة المتأججة فى حماسته وصراحته وقوة بأسه . وسواء كان مجلسنا عنده فى «العمر» حيث تتهامس الرمال والكثبان، ويتعاقب الظل والحزور تحت فىء شجرة برية قرب نبع ماء تحوم حوله الابل والشيءاء، وتستنزف جوفه ايدى السقاة والرعاة . . . أو كان ذلك على «دكة» فى كنف الدار يمتد عليها الظل، والشمس تميل نحو المغيب . . . أو كان فى موضع آخر فى «البدعة» فوق الرمال البيضاء على حد السيف من البحر - فقد كانت الأحاديث تبدأ دائماً بالانصار ثم تتراخى أطرافها لتفسح المجال أمام حديث البادية وأخبارها، والأشعار ورواتها، يتخلل كل ذلك فيض من كريم الضيافة، وجميل المشاعر، وفصول لتناول القهوة، وترويح النفس .

كما كنا نجتمع أحياناً فى المكتبة الخليفة بالمحرق أو فى مجلس المغفور له الشىخ على بن خليفة وأبنائه الطيبين فى المحرق أو على ساحل «الجابور» قبالة قلعة البحرين . وكان الشىخ دعيج بن على دائب الحركة والنشاط لا تعيه الحيلة فى تبديد الصمت بحديث مثير، وتعكير الهدوء بالأحداث الصغيرة .

وكان جلوسنا على مقربة من الشاطيء يتيح لى فرصة للتفرس فى ملامح المارة وحركاتهم . فالمشاة من المزارعين والصيادين الذين أنهمكهم عمل اليوم، وعاجلت خطاهم الحاجات الملحة، يلقون السلام وهم مسرعون حتى ليكاد يفوت عليهم ذلك سماع رد التحية . . . وآخرون ممن يتسلون بالقاء التحية على مهل، والمشاركة بنصيب من الضيافة وتبادل الحديث . . . حديث مجاملة عابرة أبعد ما تكون عن الجو الذى نحن فيه .

أما مجلس المساء فينعقد فى البيت الكبير بالمحرق، ويتفق فى مجرى الأحاديث ونسقتها مع مجالس النهار، لولا ان الحضور يزداد

بمجالسة عدد من الاصدقاء كالشيخ عبدالله بن خالد والشيخ عمر، ونفر من افراد البادية، وليف من حملة صقور الصيد «الطيور». والصقر الذى لا يجد الذراع المهياً لحمله، لايعجبه الانتصاب إلا على قاعدته قبالة صاحبه المكلف به. لذلك تتكاثر الحفر والثقوب فى ارض الغرفة مع كل من يرد اليها من حملة الصقور، فى موسم الربيع. والصقر لا يكف عن الحركة برأسه أو بجناحيه، والتلفت باستفزاز وشموخ عدوانى يستجلب الحذر، بقدر ما يستولى على الاعجاب والزهو. . فلا يصرفه عن ذلك الا اغراؤه بازدراد قطع من اللحم. . أو التحايل لوضع الغشاوة على عينيه، وبعدها يستطيع صاحبه أن يدلى بدلوه ويشارك فى الحديث. ومن المستجدات فى مجالس المساء مسائله اعراب البادية عن أمر «الربيع». وهى صفة جامعة للعشب والمطر والكمأة ومراعى الابل والأغنام، وعن أخبار المقيمين والظاعنين. . ويمتد الوقت بانشاد شعر البادية حيث يتمتع الشيخ خالد بذاكرة خصبة. ولا يفوته حينما «يعد» من اشعار محمد القاضى فى وصف القهوة ان يتلفت صوب عبدالعزيز القاضى الذى يرد عليه بالايجاب والاعجاب. ولا ينشد عبدالعزيز - وهو شاعر الجماعة دون منازع - شعره بنفسه إلتادرا. فهو يكتبه ويلقيه الي فأنشده بين الاصدقاء. و يقوم بالقائه الشيخ خالد كلما حانت مناسبة لذلك.

كنا على شىء من تلك الحال سنة أو تزيد خلال صدور مجلة الانصار حتى حدثت «المفاجأة». . ثم عدنا لمثلها بعد ذلك على الوصف السابق بعد سنة أخرى أو تزيد. . حدث خلالها تغير كبير. .

وحديث تلك المفاجأة يشتمل فى واقع الأمر على ثلاث مفاجآت بدلا من واحدة: الأولى. . ان مجلة الانصار قررت فجأة التوقف عن الصدور بعد عدد ذى الحجة من عام ١٣٦٣هـ - والثانية ان المجلة كشفت سرا عن حقيقة كتاب الأنصار مفاده ان محمد ظافر، وحامد ابو العطايا، وصادق الحكيم، وحسام ليست سوى اسماء مستعارة، وان كل

ما تم نشره من مقالات مطولة وأبحاث تحمل هذه الاسماء انما هو من كتابة ومجهود أحمد صبرى نفسه صاحب الانصار. . وبذلك يكون قد تحمل بنفسه عبء تحرير المجلة واصدارها اربع سنوات متواصلة اضافة الى ما صدر عن الأنصار من «رسائل» - وذلك فما عدا المقالات القليلة نسبيا التى شارك فيها كتاب حقيقيون.

أما المفاجأة الثالثة. . فهى ان صاحب الانصار ومن معه من افراد أسرة الأنصار قد قرروا الهجرة من عالم المدن الضيق الى فضاء الصحراء الواسع. . . «وانها لأيام تخرج بعدها أولى طلائع الأنصار (المهاجرين) الى حيث يعتزون بدينهم واخلاقهم. لا يخرجون بطرا ولا رياء ولا تشردا فى الأرض - وانما يهاجرون الى الله ورسوله اعتصاما بالحق، واباء للدين والحرمان».

ولهذا السبب أصبح عدد الانصار الأخير هو عدد (الهجرة) والعنوان العريض لكلمة الافتتاح (ليك اللهم ليك) ورد فيها: اللهم ولا عذر لنا، فامنن علينا فانه سبحانه أنت المنذر بقولك: «ان اللذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم - قالوا فيم كنتم: قالوا كنا مستضعفين فى الأرض - قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا». . ومما ورد فى عمود «بشائر الهجرة». «لقد تكلم لسان الانصار بالحق فيكم، وجرى شراع دعوتها على ثبج الموج فى محيطكم، ليبلغ صوتها بين العسر والمشقة اليكم. وان المؤمنين بهذا الحق الصريح لناجون به ان شاء الله. ثم يضيف. . . أما فى هذا العدد فقد جعلنا ختام الكلام بشرى البشرىات لاخواننا وأصدقائنا، ولخصومنا أيضا! . . .»

أسف قراء مجلة الانصار لتوقفها عن الصدور. وتوالت الدهشة ممزوجة بالاسى والمرارة عند جماعة الانصار ومؤيديها، وكأنهم لم يتوقعوا ان يسكت هذا الصوت الجرىء، وتنقطع تلك الومضات

الصريحة المضيفة في يوم من الايام ..

ثم ذهبت الحيرة، وخف اثر المفاجأة فانقسموا فريقين: فريق أثنى على التجربة، وفريق أظهر التأثر، ثم أمسك عند هذا الحد. والاستاذ حسن الجشى فى مقدمة هؤلاء، اتاح له وجوده فى القاهرة فى اعقاب توقف مجلة الأنصار، الفرصة للتعرف على أحمد صبرى، وعن طريقه اتصل الاستاذ ابراهيم العريض بصاحب الانصار، فاهدى اليه هذه الأبيات من الشعر الصادق المعبر:

الى الاستاذ أحمد صبرى:

يا عبقرى العصر غير مدافع والكوكب الوقاد في ظلمائه
مضت القوافل وهي تخط في الدجى حتى استضاء، فكبرت لضيائه
ما سررتي مدحيه إلا بعد أن ألفيته للشرق، باب رجائه
تلك القرون... كأنما هي ليلة أسفر صبحها بذكائه
ان الذي برأ العقول سما بها صعداً.. وخضك دونها بسمائه
فاسلم، فما هذا الزمان سوى فم يشكو، وتعلم أنت موضع دائه
ما كان للصحراء أن تظما وفي أعماقها هذا الغدير بمائه

٤ صفر ١٣٦٤هـ

الموافق ١٨ مايو ١٩٤٥م

وقد أجاب عليها أحمد صبرى برسالة وصف فيها وقع تلك الأبيات فى نفسه بقوله: «فاما قصيدتك فقد رسمت لى بها هدفا بعيدا ما زلت افتح عيني وأعقد أجفانها عليه».

وفريق آخر تحمس للمسيرة الجديدة و رأى الاستمرار معها...

... على انه بقى مع ذلك هذا السؤال الكبير: وماذا بعد الهجرة؟... دون ان يجد الجواب الشافى.. وكلما تجاوز السؤال الملح

الهدف القريب للهجرة وهو «تطهير النفس» - الى الغايات البعيدة، فان المستقبل المجهول يبدو وكأنه مغلف بالغموض.

وهكذا استبد حديث «الهجرة» بمجلسنا عند الشيخ خالد الذي كان متحمسا لها. فذهب مع البعثة الدراسية الى مصر. . ثم سارع في العودة وشد الرحال بعد ذلك الى مضارب بنى خالد - شرقي الجزيرة العربية، فجادت قوافي الشعر في توديعه بكل شاردة وواردة. . . ثم عاد بعد ست سنوات تقريبا واستمعنا اليه وهو يعرب عن شعوره بالسعادة، ويعتبر تلك السنوات تجربة مفيدة لاغنى عنها. وممن خرج الى البادية أيضا من انصار العراق الأديب الشاعر هلال ناجي. فارتحل الى اطراف البادية وهو يهجو حياة المدن قائلا:

«بأرض التارُسِ تذوى النفوس وتفنى الجموع هوى وانقساماً. .»
ثم رجع منها بعد سنتين أو ثلاث ولسان حاله يقول:

أسفى على عمر تقضى نصفه فى خيبة المسعى الى الآمال
وبنات أفكار لنا عربية رخصت لدى الأعجام وهى غوالي



- ٧ -

بغداد.. دار السلام

ولقائنا (دار السلام) وكم لها في القلب ذكرى
 أضفى عليها دجلةً من حسنه فتناً وسحراً
 والباسقات من التخيل تمد في الأعماق جذراً
 وجنائن تهندي الى المشتاق أنساماً وعطراً
 والبدر يقتحم الظلام يشق للسايرين فجراً
 قمم من الأمجاد شيدها بناء الحق قسراً
 خلعت فؤاد الروم من هلع ودكت عرش كسرى



حديث الدراسة في العراق له مكان أثير في نفسي . والأبيات من
 الشعر المذكورة التي نظمتها في الثمانينات تكاد ان تشي بذلك الحب
 وتلك المنزلة .. ولكل في حياتي اليافعة قصة، لا يكتمل حديث
 الذكريات بدونها:

قرر مدير المعارف الانجليزي الذي خلف السيد «ويكلن» فجأة
 ترشيح بعثة كبيرة الى مصر... يبدو من سرعة استدعائها فيما بعد - انه
 لم يحسب حساباً لتكاليفها... وكنت وأخي حسين على رأس قائمة
 المرشحين لها. واذكر اني حملت الخبر الى والدي بهجا مسرورا فما

راعنى منه إلا جدار من الصمت العميق . فلما خرج عن صمته قال : هذا الأمر لا يصير . فأظلمت الدنيا فى عيني ولم يشرق من نورها بصيص حتى مع الجهود من جانب أخى الأكبر صادق فى تأليب الوسطاء من ذوى الحظوة والنفوذ . . فقد أصر والدى - رحمه الله - على موقفه الرافض بحجة الخوف على الدين والاخلاق .

وقد ركبني من جراء ذلك هم كبير . . . حتى جئت ذات يوم القى عليه تحية الصباح وأنا أهم بتقبيل يده . . متوقعاً منه الأعراض ، واذا بي أفاجأ به يبتسم منشرحا ويضمنى اليه ثم يقول : لقد قرأت فى بعض «التفاسير» أخيرا فى شرح قوله تعالى : «ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق» . . ان حرمان الأبناء من طلب العلم هو نوع من القتل لنفوسهم لا يرضى به الله . ولهذا فقد وافقت على سفرك مع أخيك حسين للدراسة ليس الى مصر . . ولكن الى العراق . . على نفقتنا بدلا من الحكومة ، لأن العراق اقرب موقعا من مصر . وفيها من الاقارب والاصدقاء من يستطيع ان يتعهدكما بالرعاية .

واستبد الفرح بأخينا صادق وحسم ترددنا بأن تطوع للقيام بمهمة ولي الأمر . ولعل هذه المعالجة منه للوالد كان مبعثها خوفه من ان تقع عين الوالد على شرح آخر يقصر طلب العلم على دراسة الفقه والشريعة دون غيرها . وقد أوفى أخونا الأكبر مشكورا بما تكفل به ، بل وأضفى عليه المزيد من فنون الكياسة وحسن التصرف ، ومكابدة العناء . ولم ينس فى ذروة انهماكه بانجاز معاملات السفر أن يوجهنا لاستصدار كتاب توصية من وزارة المعارف . فذهبت برفقة أخى حسين للسلام على المغفور له الشيخ عبد الله بن عيسى آل خليفة وزير المعارف ، فى مجلسه بمبنى بلدية المحرق . وبفضل المساعدة والاهتمام من قبل الرجل الطيب الشهم الاستاذ ابراهيم حسن كمال ، حصلنا على الخطاب فى مدة وجيزة . . ثم سافرنا متوكلين على الله .

وصلنا بغداد وكانت السنة الدراسية قد بدأت . ثم ذهبنا الى وزارة المعارف - ووزيرها آنذاك محمود الالوسي - وكان بناؤها على الطراز القديم على شكل حوش كبير تحيط به مكاتب المسؤولين والموظفين ، وفي ساحتها بدأت أول مواجهة بيننا وبين الاجراءات (الروتينية) العريقة المتأصلة . ! وكفانا أحد كتاب «العرضحال» عند المدخل مؤنة اعداد العريضة على الأسلوب الموروث من العهد التركي . واستغرق تسجيلها وترقيمها بضعة أيام ، وبعدها بدأت مع الاخ صادق مهمة التنقل بالعريضة ومرفقاتها بين المكاتب والردهات ، وكان عليه أن يتزاحم مع المراجعين ويسترضى البوابين ، ليحظى بفرصة المثول أمام المسئول المختص ، بعد ساعات من التمرين فى مواجهة السؤال والجواب ، واستجماع الشجاعة ازاء هيبة الموقف امام المسئول الذى كثيرا ما كان يكتفى بالقاء نظرة عجلى ثم يؤشر عليها ويلقيها الى البواب فى أحسن الحالات ، أو يزيحها جانبا مرددا العبارة المألوفة . . «تعال بكرة» . حتى وجدنا أنفسنا وقد تخطينا منتصف الشهر الثانى من الموسم الدراسى ونحن لم نعرف مصير القبول .

وذهبنا لاستشارة بعض العارفين فذهلنا حين اكتشفنا اننا لم نزل فى أول الطريق ، وسألنا عن الحل فقبل لنا لا بد من واسطة مباشرة مع الوزير ليختصر المراحل فى مسألة هذه الأوراق . وجاءنا المنقذ فى شخص الاستاذ سلمان الصفوانى . فقد كان على معرفة بالوزير ، وله مركز قيادى فى حزب الاستقلال ويصدر جريدة «اليقظة» المعروفة . . كما كان أيضا من أصدقاء الوالد .

قام الاستاذ الصفوانى مشكورا - بالمسعى الحميد ، وطلب سعادة الوزير أوراق المعاملة وصار يقلبها بانفعال وهو يتعجب من اخضاع معاملات طلاب عرب الخليج لهذه الاجراءات الطويلة وهم ضيوف على العراق . ولما كان مجمل القضية هو القبول فى المدرسة والقسم الداخلى فقد كلم الوزير هاتفيا مدير الثانوية ومدير القسم الداخلى وانحلت

المشكلة. ذهبنا لمقابلة مدير ثانوية الاعظمية فاستقبلنا ورحب بنا،
وشعرنا منه لأول وهلة بدفء العاطفة التي يتميز بها الوجه العراقي
الأصيل وخيرنا في الالتحاق بالصفوف التوجيهية العلمية أو الادبية،
وكانت نظرة منا سريعة على المنهج الدراسي العلمي كافية لصرفنا عنه
واختيار القسم الادبي.. فقد اكتشفنا ان دراستنا العلمية دون المستوى
المطلوب بكثير.. وعلى العكس من ذلك كان شأن المستوى الأدبي...
لدرجة انني أعفيت بموجب النظام المعمول به في اعتماد علامات
الفترات - من تقديم الامتحان النهائي فيما عدا مادتي الرياضيات وأحوال
العراق. وانضم معنا في الدراسة بعد أيام الشيخ دعيج بن علي
الخليفة.. الذي انقذه بدوره، قرار الوزير. أما شأن اوراق المعاملة فانها
بعد ان استفاقت من سباتها فجأة فوق مكتب الوزير، أعيدت لكي
تستأنف سيرتها الأولى، ولم تصل مؤشرة بالقبول الى ادارة المدرسة
والقسم الداخلى الا بعد ما يقرب من ثلاثة شهور!

رحب الطلاب العراقيون بوجودنا معهم، ونمت بيننا وبين عدد
منهم أواصر من الزمالة والود لم يعكر صفوها نوعا ما الا تحفظنا تجاه
ما الفوه من مغادرة الصفوف الدراسية لأسباب معظمها سياسى. فقد كان
مألوفاً أن يقف أحدهم على حين غرة فيصفق بيديه هاتفا «مظاهرة»..
فيتبعه الآخرون ويخرجون من الصفوف أثناء الفسحة، وأحيانا خلال
حصص الدروس، فلا يكون من المدرس، الا أن يجمع أوراقه ويغادر
الصف على عجل.

وكنا نحن الثلاثة نبقى في الصف مجاملة وحذرا باعتبارنا
«أغرب»... لكن مدير الثانوية الطيب نصحننا بعد ذلك بالخروج مع
الآخرين تجنباً لنقمتهم.. ففعلنا. وبعد ان نعود ادراجنا الى القسم
الداخلى ينشغل كل منا بشأنه. لقد كان الشعور الوطنى على اشده في
النصف الثانى من الأربعينات لاسيما مع تجدد الأخبار عن المفاوضات

مع بريطانيا لانتهاء المعاهدة العراقية وعقد معاهدة جديدة.

وكنا نستمع الى اخبار المظاهرات الصاخبة ونقرأ عنها فى الصفحات الأولى من الجرائد اليومية، وكنت كثير الاعجاب بالقصائد الحماسية التى تنشر من آن لآخر لاسيما قصائد محمد صالح بحر العلوم الذى حضرت له أحد الاحتفالات فى فناء مشهد الكاظمية، وكان لتوه خارجا من الاعتقال. فلم يكن منه الا أن توجه بخطابه مؤشرا بيده الى حيث يجلس عبدالاله ونورى السعيد وهو يقول: «هذى قصور الخائنين وحولها... للأبرياء مشانق وقبور».. ويقال انه بعد هذا الاحتفال اعتقل وتمت اعادته الى السجن!. كما اعجبت أيضاً بالشاعر محمد مهدي الجواهري.

وفى ذلك الوقت كانت الاحزاب والصحف الناطقة باسمها تتبارى فى المزايدة على كسب الجماهير واثارة مشاعرهم الوطنية - فى الوقت الذى تسعى فيه للحصول على مكاسب سياسية تجاه الحكومة أو تجاه الاحزاب الأخرى. وفى مقدمة تلك الاحزاب، حزب الاستقلال ورئيسه مهدي كبة، وأمينه العام فائق السامرائى وجريدته «الاستقلال» أما سكرتير حزب الاستقلال فكان الاستاذ سلمان الصفوانى.. وجريدته «اليقظة» كما كان هناك أيضا الحزب الوطنى الديمقراطى ورئيسه كامل الجادرجى، وصحيفته «الأهالي». ثم حزب الاحرار لصالح جبر، وجريدته «الزمان» - وهو بطل معاهدة «بورتسموث» المشثومة، ظاهريا، اذ كان معروفا ان بطلها الحقيقى انما هو نورى السعيد. ثم هناك الحزب الشيوعى السرى، وغيره من الاحزاب الصغيرة، كما تأسس حزب البعث سنة، ١٩٤٧.. ولم يكن له ذلك الوقت الصوت المسموع. ونتيجة للشعور العام ضد بريطانيا أصبحت تهمة التعاون مع الانجليز أمرا شائعا. وصرنا نتوقع ممن نتعرف عليهم من الاصدقاء العراقيين - بعد انتهاء عبارات الترحيب والثناء على عروبة البحرين.. هذا السؤال دائما: ماذا ستفعلون مع الانجليز!.

ومن أطرف تلك المشاعر التي اتذكرها ان نوري السعيد أمر بتخصيص مدرسة بأسم (كلية العلوم) تقع قبالة القسم الداخلى لدار المعلمين الذى كنا نسكن فيه، ويقال ان الغرض منها تدريب أوائل الطلبة وتقوية لغتهم الانجليزية وتعليمهم أصول «الأتيكت» . . وذلك تمهيدا لابتعاثهم لاتمام الدراسة الجامعية فى بريطانيا. وكانوا يرتدون زيا خاصا شبيها بزى طلاب الجامعات الانجليزية. فتعرض هؤلاء الطلاب «المرفهون» لنقمة الطلاب العراقيين وسخريتهم حيث كانوا يتجمعون من حولهم عند الدخول والخروج ويسمونهم - تجنياً - بأذنان المستعمرين. وكان يربط الكاظمية بالأعظمية عبر النهر جسر خشبى متأرجح محمول على حاويات صغيرة، منذ عهد الاتراك. وذات يوم مر على الجسر قطع كبير من الجواميس الضخمة، ثم انفلت زمام سيرها فانطلقت تثير الهلع والخوف ولم يقف بها المسير المجنون الا عند تلك الكلية سيئة الطالع، فدكت أسوارها وعصفت بما فى الحديقة من أشجار ونبات. . فقال المتجمعون: حتى الجواميس العراقية تكره الاستعمار!

فى هذا الجو السياسى المشحون كان القصر الملكى يحاول جاهداً اشغال الناس بأخبار التشريعات الملكية والزيارات والحفلات والمبرات، واقامة مواسم الافراح والأنراح. ففى فناء مشهد الكاظمية أقيم مأتم «ملكى» واستقدم لقراءة القرآن مشاهير من القراء من بينهم ابو العينين شعيش والشعشاعى وغيرهما فانشغل الناس زمنا - ثم جاء موسم الافراح الملكية، وحضرت أم كلثوم فتقاطر العراقيون على بغداد، وعمت مظاهر الزينة والافراح، وفرشت بعض الشوارع بالسجاد، وسهرت بغداد حتى الصباح! . على صوت أم كلثوم. .

الطلاب . . والأضراب!

كان من الصعوبة بمكان الحصول على سكن في القسم الداخلي لولا تدخل وزير المعارف شخصياً. واستقبلنا مدير القسم الداخلي لدار المعلمين الابتدائية بالترحاب، وأوجد لنا مكاناً للسكن في ردهة البعثات العربية، وهي صالة كبيرة مستطيلة تتسع لأكثر من عشرين سريراً، كان موضعنا فيها - انا وأخي حسين - قريباً من الوسط ومعنا طالب ثالث من الحجاز اسمه حسين الدباغ. وعلى يميننا تمتد أسرة الطلبة المبتعثين من جنوب الجزيرة العربية واندونيسيا وجاوه ومعظمهم من أصول عربية. أما عن الشمال فكان موضع الطلبة العرب من سوريا والاسكندرونه التي سمعنا بها لأول مرة وعرفنا أنها تسمى «باللواء السليب» . . ولكل جانب زعيم يتكلم باسمه فأما زعيم الطلبة الجاويين فكان اسمه «ابو بكر» وأما زعيم الجانب الآخر فكان الأستاذ فايز اسماعيل الذي أصبح فيما بعد وزير دولة في سوريا. ويجتمع كلا الزعيمين في ميزتين: الأولى اجتهادهما في الدروس والمراجعة، والثانية أن كلا منهما يمتاز بشخصية جذابة، وأدب جم، وبراعة النكتة وخفة الروح . . لكنهما يختلفان بعد ذلك في كل شيء . . . وقد أصبح موقعنا بين تلك المجموعتين وكأنه بمثابة حاجز مادي. ولطالما خامرني العجب من تلك الظاهرة كلما وجدت ان الجماعتين تسكنان في ردهة واحدة بينما يعيش كل منهما في عالمه الخاص. وتراءت لي عندئذ طبيعة العلاقات البشرية، وخاصة النفس الانسانية حيث يصبح من الممكن أن يشكل الحاجز النفسى والثقافي سوراً من العزلة أسمك من الجدار وذلك بمحض الخيار والقرار.

ومن المفارقات أنه بينما كان ابو بكر مولعاً بالموسيقى والرقص الافرنجي ودعوة رفاقة لمشاركته في ذلك، فان فايز اسماعيل كان يصرف وقت فراغه في تدارس مبادئ وأفكار حزب البعث مع رفاقه. وبينما كان

يشفع لأبوبكر أدبه واعتذاراته في تخفيف حدة احتجاجاتنا عليه لا يقاظنا في الصباح الباكر على صوت الموسيقى من اسطوانات الحاكي الذي يعتز به.. فان فائز اسماعيل كان ينسحب مع رفاقه الى ركن قصي من القاعة خلال الساعات الهادئة من الليل او النهار.. ثم يتناقشون في سكينة وهدوء. وقد قيل ان الاستاذ ميشيل عفلق يشارك في تلك الاجتماعات.. وليس من المستبعد أن تكون الزاوية الهادئة في ردهة البعثات العربية قد شهدت بداية مولد حزب البعث العراقي، قبل اعلانه ببضع سنين.

كانت علاقتنا بالجميع علاقة ود واحترام متبادل. ومع ذلك فلم أكن مرتاحاً من الرقص الافرنجي ولم يستهوني من الموسيقى إلا تلك الأنغام الاسبانية الرقيقة.. التي سمعتها بعد ذلك كثيراً وذكرتني - ولا تزال تذكرني كلما سمعتها - بتلك الأيام. وعلى الجانب الآخر فقد شغلتنى فكرة الانصار عن أفكار حزب البعث العربي - وكان فائز اسماعيل يفهم هذا فجنبنا ذلك كثرة المناقشات.

كانت الأعظمية منطقة سكنية جميلة وهادئة تجمع بين حياة المدينة، وجمال الأرياف. علاوة على أن فيها مرقد الأمام «أبو حنيفة» ومزاره، من جانب والمقبرة الملكية بهندستها البديعة على الجانب الآخر مما يلي النهر بالقرب من القسم الداخلي. وحينما أذهب في الصباح الى المدرسة كنت أتجنب الشارع المعبد حيث حركة المرور والازدحام، وأسلك طريقاً مختصراً عبر المزارع وبساتين النخيل، فأجد على جانبي الطريق المترب المتعرج ظاهرتين متناقضتين: فعن يساري تتناثر بيوت السكن الفارحة بحدائقها الجميلة حيث تكثر الورود والازدهار وتتدلى خلف أسوارها أغصان أشجار البرتقال. أما على الجانب الأيمن فتتمدد بساتين النخيل فارعة الطول تتخللها مجموعات سكنية صغيرة للفلاحين وأسرهم. وهي بيوت من الطين الأسمر في المنخفض مما يلي سدة النهر فتتعرض قبل غيرها لأخطار الفيضان، واذا سلمت فانها تتعرض حتما

لنزير الماء المتسرب فتغرق فيه أو تكاد. وتخال هذه البيوت الطينية لصغرها وانخفاضها وكأنها بنيت على مقاس الأقدام حيث تستطيع ان تشاهد على البعد رءوس الاشخاص الذين يعيشون فيها - فاذا ما أخذك الفضول الى الاقتراب منها غير مبال باستفزاز الكلاب النباحة - فباستطاعتك أن تراقب معظم ما يدور بداخلها من نشاط منزلي ريفي وكأنك تتفرج على مسرح مكشوف.

والقسم الداخلي بموقعه الجميل هذا كان يضم بالاضافة الى ردهة البعثات العربية، مجموعة كثيرة من حجرات السكن. وقد تعرفنا على عدد من الطلاب العراقيين القادمين من كافة انحاء القطر العراقي، من العرب والاكرد، ومن أهل المدن والأرياف والعشائر.. وشاركناهم في حياة القسم الداخلي بحلوا ومرّها.. ففي المناسبات السعيدة يوجد الطبخ وتمتلىء الاطباق بالأصناف الشهية.. ولكن عندما يختل ميزان الطعام ويخلد مقاول التجهيزات الى الاطمئنان في غفلة من الرقيب، تقل جودة الأكل وكميته، فيشيع التذمر ويضرب الطلاب عن الأكل فنتضامن معهم أيضاً.. ولا تجد الادارة في قاموسها مادة تفضّل كيفية التصرف مع كميات الأكل الهائلة اذا أضرب الطلاب عن الطعام.. فتعتمد الى التخلص من الأكل بالقائه في المجاري أو مع النفايات تشيّع عيون متوثبة مشبعة بالاستفزاز.. ولا تنتبه الادارة العليا للأمر إلا بمرور عدة أيام قد تتجاوز الاسبوع أحياناً، فتتراكم في جنبات الحديقة تلال من الرز واللحم والخضار والزبدة تتناول مع كل وجبة جديدة.

وفي أيام كهذه من الاضراب عن الأكل، كنت أخرج من القسم الداخلي برفقة الشيخ دعيج بن علي كعادتنا دائماً الى مقهى الرصافة، وننتظر في الركن المعهود فيأتي خالد الضائع ونفر من الاصدقاء. أما هلال ناجي فيأتي متأخراً بعد أن ينزع عنه الزي الافرنجي ويلبس لباس أبناء العشائر العراقية، فيأخذ مكان الصدارة مهلهلاً منشرحاً. وننشغل

في هذه الجلسات بحديث «الانصار» وما يرد من البحرين من أخبار الشيخ خالد بن محمد وقصائد عبدالعزيز القاضي، والاحبار العامة، ثم ينبرى هلال لأسماعنا من شعره الجديد أو المعاد وهو يلقيه مستغرقاً بحركات تعبيرية يكاد يغمض معها عينيه، مبالغة في التعبير والتأثر، ثم يتوقف عند آخر المقطع على هيئته من التعبير وكأنه يقول: مالكم لا تقولون أحسنت.. فنقولها ونطلب المزيد: فإذا أنهى المجلس حلف علينا بالطعام، فلا يسكن روعه ولا تهدأ أقسامه المغلظة إلا اذا وافقناه على المسير الى منزله القريب، أو مرافقته - وهو الاغلب - الى موضع على جانب المدخل من شارع الرشيد، حيث يأخذنا الى دكان «لبان» مشهور يرفدنا بالتمر والحليب، واللبن ومشتقاته.. فذلك هو الغذاء المثالي الذي تصفه «الأنصار» بالغذاء الكامل.



بدايات.. الأعمال الحرّة

إنقطعت عن الدراسة في العراق بعد السنة الأولى . وكذلك فعل الزميل دعيح بن علي ، ثم أخي حسين الذي لم يلبث أن عاد الى بغداد لاستكمال دراسته في كلية الحقوق . ومما زهدني في مواصلة الدراسة الجامعية عزوفي عن المراكز الوظيفية فأتجهت لمزاولة التجارة منذ أواخر عام ١٩٤٦ وأنا على مشارف السابعة عشرة من العمر . وكان الواجب يقتضي مساعدة الوالد في أعماله التجارية ، والتعلم منه فقد كان يعمل في تجارة الاستيراد والتصدير والبيع بالعمولة (السعي) في مجال الاطعمة الجافة والمواد التموينية . لقد كان طريق البحر هو المصدر الرئيسي للاستيراد والتصدير ، وللسفر كذلك . أما وسائل النقل فهي السفن الشراعية الكبيرة وتعرف بأسماء متميزة وكانت تمخر عباب البحر بين أفريقيا وسواحل الهند والخليج - أما السفن ذات المحركات (اللنشات) فكانت - لصغر حجمها - تقتصر في الغالب على التنقل بين سواحل بلدان الخليج .

والاسم الدارج لجميع تلك السفن هو «الخشب»! أما البضائع المشحونة فهي «الحمّال» وإذا وصلت المخازن فهي «الأموال» ويسمى المسافرين «بالعبرية» .

والوسيلة الاخرى الرئيسية لنقل البضائع والمسافرين كانت السفن

التجارية ومعظمها يعمل بين الهند والخليج، وقليل منها يصل الى البحرين مباشرة من المرافئ الدولية البعيدة. لهذا كانت معظم تلك البضائع تأتي عن طريق الهند على البواخر الهندية التي تسمى بحسب وجهتها «بالمعلّي» اذا كانت متجهة للبصرة، «والستان» اذا كانت عائدة الى الهند. وفي ذلك الوقت كان أهم ما يشغل بال التجار والمسافرين هو السؤال عن موعد وصول (المعلّي والستان)، ويهرع معظم الناس الى ساحل الفرضة ليتأكدوا من وصول المركب بالمشاهدة على البعد ويؤثر وصول كل مركب على حركة أسعار المواد التموينية فتتخفّض ثم تعود الى الارتفاع اذا قل المعروض منها في السوق.

ويستلم والدى بالبريد «تعريفاً» من المصدرين عن شحن البضائع من الهند بالبواخر أو من ساحل عمان على السفن الشراعية، فيستعد لاستقبالها، ثم يستمر السؤال عن موعد وصول «الخشب» حسب توقعات الطقس والرياح «الولم» ولا يهدأ البال الا بعد وصولها. أما اذا اضطربت الأنواء، وتجهم البحر بفعل الرياح والأمواج العاتية، فإن ربانة السفن والملاحين يبادرون بتخفيف الحمولة ورمي جزء منها في البحر. وكان مألوفاً ان تغرق السفن لاسيما اذا اصطدمت بالصخور (الفشت) وكثيراً ما سببت هذه الكوارث إفلاس التاجر صاحب الحمولة، أو مالك السفينة، وتقتضي الأعراف من التاجر المنكوب - اذا كان ذا مركز مرموق - التجلد أمام الناس حتى لا يفقد ثقتهم، وان يبدأ بالسؤال عن سلامة النفوس قبل سلامة الأموال. . . لقد كان والدي يملك عدداً من السفن ويستعملها في نقل البضائع التي تخصه، او المرسله اليه. وفي عدد من المرات كنت حاضراً حينما بلغتة أنباء غرق السفينة بما فيها من بضائع تخصه، فكان يتصرف على النحو المألوف فيحتفظ بهدوئه ولا يجهر بالشكوى، وكان رحمه الله معجباً بترديد هذا البيت من الشعر: (اذا سلمت روس الرجال من الأذى... فما المال إلا عدة للنوائب)

... حينما تصل السفن الى الميناء ينزل منها الربان (النوخذا) مع حاشية من بطانته والبحارة المقربين اليه في ازيائهم العمانية المحتشمة وهم يلبسون العمائم والثياب الملونة وفي يد كل منهم عصا طويلة من الخيزران.. أما ربانة الخليج وبحارتهم فملابسهم أكثر بساطة ويحملون في أيديهم مسبحات «الكهرب» بدلا من العصى. وربما تزامن وصول «الخشب» من جهات متعددة، فتجد بجانب العماني، البحار البصراوي، والكويتي، والسعودي وأحيانا الهندي - الذي يأتي ببعض البضائع لكي يشحن البلح الجاف «السلوق» الى الهند فيأخذ سبيله الى المعابد الهندية حيث يستعمل بكثرة في طقوس الأفراح والأحزان على السواء. وهكذا يمتلىء دكان الوالد (الصغير نسبياً) بتلك الأفواج فتختلط الأنفاس الساخنة وتتصاعد روائح الثياب المصبوغة وتتعدد اللهجات والألسن.. ويشتد بي الأمر من جراء ذلك لاسيما في الظهيرة من ايام القيظ الحارة، فأحس بالاختناق واتجلد على مضض حتى يفرج الحال.

يتسلم الوالد المكاتب (الخطوط) وبداخلها كشوف البضائع «وتعريفاتها» فيفتح لكل واحدة منها حسابا في دفتر «صوافي الاموال» وحالما تنتهي الاجراءات البسيطة لتخليص البضائع من الميناء والجمرك، ينقلها المتعهدون الى المخازن على ظهور الحمير أو في عربات صغيرة يجر كلا منها حمار كبير! لقد اشتهرت حمير البحرين قديما بالقوة، والجمال وبياض اللون.. وكانت في يوم ما من السلع المرغوبة في البلدان المجاورة - فكان أصحابها يصدرونها الى الخارج بعد استيفاء المواصفات المطلوبة، واستحصال إذن خاص باخراجها من البلاد.

ولو تصورنا ان «الأموال» التي وصلت لتوها الى الميناء تتكون من الف أو الفين كيس، فان ما يتبع هذا التصور سيكون ولاشك منظر قافلة طويلة من هذه الحمير البيضاء الكبيرة المصبوغة أرجلها بالحناء، وهي تسير وسطاً بين الهوادة والركض وكل منها يحمل على ظهره إثنين أو

ثلاثة من تلك الأكياس، بينما تتدلى الأجراس الصغيرة المعلقة في رقبة كل منها لتنبه الغافلين بمسيرها في الطريق، ولا بد بين الحين والآخر أن تغشاها العصى على الظهر لتحثها على المسير، او على جانب من الرقبة لتغير وجهة المتقدم منها الى منعطفات السوق وطرقاتها الضيقة «المتربة» وقد ألفت «أهل السوق» هذه المناظر يومياً وتعودوا على رؤيتها، فأنزعت منهم العادة عنصر التشوف والفضول.

ويتمتع الشيالون (ويسمون بالحمار) بمهارة فائقة في معالجة ورفع الأكياس من الأرض بمفردهم أحياناً - ثم شدها الى أحد جانبي الحمار بنصف ربطة من الحبل الذي يتدلى الباقي منه لاستلام كيس ثان على الجانب الآخر ثم يتم حزمهما بتوازن على ظهر الحمار المسكين، فاذا كانت بالحمار عافية وقوة وضع عليه كيس ثالث! . . كل ذلك والحمار الصبور فاتح أبواب أذنيه الطويلتين، وأطراف عينيه على العصا - حتى لا يفوته شيء من تعليمات صاحبه وهي عبارة عن مجموعة أصوات و اشارات وأوامر يصاحبها التهديد باستعمال العصا، فيفهم الحمار ما يراد به - فيقف دون حراك - باستثناء حركات من الذيل تنبئ عن ملل الانتظار او القلق المكتوم - ثم يتحرك بعد ذلك على هوى سائقه ويميل معه يمناً ويسرة حيثما أراد. ولا يزعج صاحب الحمار شيء اكثر من توقف الحمار لمزاولة شيء من حقوقه الطبيعية، او حرته في الوقوف وتجربة صوته بالنهيق . . واذا حرم من ذلك وكان به من ثقل الحمولة إحتجاج صارخ، وقف بها حارناً عن السير فلا يثنيه عن ذلك ضرب ولا توبيخ.

فاذا وصلت طلائع قافلة الحمير الى «المخزن» أعاد «الحمار» فك الجبال بحذر بمثل تلك المهارة في شدها - ثم يستلم الكيس الأول على كتفه ويمشي به على عجل - قريباً او بعيداً - حيث المخزن (ويسمى بالبخار) الذي يشبه في أغلب اوقات النهار حماماً للبخار لما فيه من وخامة وحر - ويتجنب في طريقه خطورة التعثر بما يعترضه من أحجار

وموانع، ودكك وأعتاب - ثم اذا وصل الى المكان استعمل احدى قدميه مؤشرا عند الموقع المناسب لرص تلك الأكياس في صفوف متجاورة يسهل عدّها (وتسمى أقلام) فاذا ما ألقى الكيس من على كتفه عن جنب، أصاب موقعه فلا يعدو عنه، ولا ينال قدمه أي سوء. . فذاك ما أصبح اليوم أثراً من الماضي لا تكاد تسترجعه الذاكرة في زمن الحاويات والقاطرات والشاحنات.

وأذكر أن أحد الأجانب سألني يوماً وهو يمزح، اذ كان يشاهد عند المساء قافلة من الحمير وهي تخوض مياه البحر لتنقل السمك من المصائد فيما اذا كانت الحمير تعمل أيضاً وقتاً إضافياً بعد الظهر، أو أنها تعتبر من وسائل النقل البرمائية. . .

ومن الامور الأخرى التي جرى التعلم عليها في محل الوالد أصول البيع والشراء، ويتم معظم البيع بالجملة بواسطة السماسرة (الدالين) وذلك بالهمس في الأذن - حفاظاً على السر - وترتسم على قسماوات وجه الوالد مظاهر الانفعال بالرضى اذا كانت الصفقة مقبولة، او العبوس والاشمئزاز. فاذا تم الاتفاق أصرّ الوالد على أثبات تفاصيل الصفقة في دفتر اليومية، وطلب من «الدال» ان يوقع عليه عن الجانب الآخر الذي فوضه ومن كان لا يجيد التوقيع والكتابة، أخذ الوالد بأبهام يده اليسرى ليبصم بها بعد قراءة النص عليه.

وكان يحضر الى الدكان جماعة من تجار التجزئة او الموزعين فيساوم واحد منهم على السعر وهو يتشاغل بفحص بعض العينات وتضخيم عيوبها، فاذا وافق على السعر طلب فحص البضاعة وأخذ عينات منها، فيأتي دورنا - أنا وأخي - في مرافقة المشتري الى المخازن، ويتطلب اختيار المفاتيح ذاكرة قوية لشدة التشابه بينها، وتتوزع مواضع تلك المخازن في كل حدب وصوب ومعظمها في منعطفات الشوارع ودروب السوق والأزقة حيث يساهم سكان أعالي السوق من الهنود في

تلوين القمامات والأوساخ فيها، بما يلقونه عليها من النوافذ من بقايا الأكل وفتات الموائد.

ولا يتقيد معظم التجار الصغار بأسلوب الوالد في تحرير محضر البيع وتوقيعه، ويفضلون دفع مبلغ مقدماً (عربون) ريثما يتم استلام البضاعة. ويصر الوالد على التوقيع لكنه يقبل بالعربون على مضض. . فهو كما أخبرني لا يعتد بالعربون أنفاذاً للبيع، فاذا تراجع المشتري، فان الوالد لم يكن يجيز مصادرة العربون!.

وكان عليّ أيضاً أن أمرّ يوم السبت من كل اسبوع على عملاء الوالد لاستحصال المسابغة وهي الديون. . وان أقوم بعدّ النقود من العملة الفضية (الروبيات) واختبار جودتها بالقائها على حجر صلد أملس وأستبعاد الرديء منها تبعاً لصوت الرنين - وهناك أيضاً طبع نسخ من الرسائل الصادرة والفواتير باستعمال «المكبس» على دفتر النسخ (بالكوبيا) بواسطة قطعة قماش مبللة، وكذلك ترجمة الرسائل والبرقيات من الانجليزية واليها. ومن التجارب المضحية وزن الأكياس بميزان (القبان) وتتم هذه العملية البطيئة بالقرب من المخازن، او في الفرضة، او على سطح السفينة في عرض البحر، دون اعتبار لظروف العمل الشاقة، ولا لأوقات الراحة والطعام فالمهم ان يتم الاستلام او التسليم بأسرع ما يمكن!..

الوالد.. مباركة وتشجيع

في اواخر عام ١٩٤٧ قررت السفر الى باكستان والهند، وكانتا في أول عهدهما بالتقسيم.

كان معي على الباخرة الى كراشي عدد من صغار التجار من الكويت والبحرين ودبي، ومظمهم ممن يطلق عليهم بتجار الذهب..

وكان معي في دار السكن في كراتشي واحد من أولئك الشبان من البحرين، وجدته يقتر على نفسه في المعيشة لدرجة أنه يعمد الى اغراء الحمام بالدخول الى الحجرة، ثم محاصرته واصطياده، بدلا من شراء اللحم! ثم لم تلبث ان تواردت الاخبار في الصحف عن تصرفات مهربي الذهب المشينة، فهمت معها سر التزاحم بينهم على دورات المياه في الباخرة قبل وصولها الى الميناء.

زودنى والدي رحمه الله بتوصيتين: الأولى موجهة الى التاجر الوجيه سعود عبدالعزيز الفليج، حيث زرته في مكتبه في كراتشي الذي يضم أيضاً المجلس ودار السكن - فوجدته إنساناً شديداً الاتزان قليل الكلام منصرفاً عن الفضول، ولما لم أجبه الى السكن عنده، أصر على أن أتناول معه الوجبات فوافقت على تناول الغذاء معه يومياً، ولم أندم على ذلك فقد كان الطعام شهياً وصرت ازوره في المساء للاستماع الى المذياع (الراديو) ولاسيما أخبار الحرب الفلسطينية ومشروع التقسيم. وكان يتحكم في خفض صوت المذياع لدرجة تضطرنى لتقريب أذني من الجهاز فيذكرني ذلك بأيام الحرب الماضية، واذاعة برلين الممنوعة..

والخطاب الثاني من الوالد حملته الى التاجر الباكستاني (حاج جيتا باي كوكل) ومكتبه في كراتشي في دور علوي من بناية في السوق القديم وسط طريق ضيق، فركبت الأدراج المرتفعة حتى وصلت الى مكتبه بعد ان اجتزت عددا كبيرا من الموظفين كل منهم مكب على صندوق أرضي للكتابة على الاسلوب الهندي الشائع يفترش سجادة او مقعدة رقيقة على الأرض. وبعضهم يعالج صفحات من دفاتر محاسبية سميقة او عريضة الصفحات ويكاد يغرق في جوفها لضعف نظره.. ثم استقبلني الحاج جيتا بشيخته الوقورة وجسمه الناحل، كما يستقبل تاجراً من عملائه المعروفين.. فكان لهذا الاستقبال وقع جميل في نفسي بلغ ذروته حين

دعاني للغذاء في اليوم التالي على مائدة كبيرة حضرها جمع من اصدقائه ومعارفه.. لقد أصبحت بين عشيه وضحاها ضيف شرف على مائدة رجل ثري ومشهور يملك أسطولا من السفن يناهز المائة او يزيد.. وقارنت بين هذا الاستقبال الذي يجلب الثقة ويؤكد الشعور بالمسئولية في مرحلة من إثبات الذات، وبين مقابلة الدكتور البلوشي المعروف، فقد كان بدوره صديقاً مقرباً من الوالد وطبيباً لعائلتنا.. ولكنه عاملنى وكأني لم أزل في نظره ذلك الولد الصغير.

ومن كراتشي قررت السفر الى بومبي وفوجئت يوم السفر حين وجدت أن جميع البواخر ووسائل النقل أصبحت مسخرة لتبادل الهجرة السكانية بين الهند وباكستان وكان من حظي أن أسافر مع اعداد غفيرة من المهاجرين تعد بالآلوف لا يهمها إلا أن تجد لها مكاناً يسمح بالجلوس في أي موضع من الباخرة حتى هممت بالعدول عن السفر لو لا أن صادف مرور جماعة من البحارة العمانيين فعرفوني وقالوا : هذا ولد الحاج محمد نوخذانا - فما كان منهم إلا أن حملوني على أكتافهم مع أمتعتي وشقوا لي بمنابهم موضعاً على سطح السفينة بين تلك الجموع من الهندوس ثم نصبوا عليه السرير فكنت كلما رفعت رأسي قليلاً شاهدت حولي بحراً لحيًا من رؤوس الهندوس، وعمائم الشيخ ولم تكن لي حاجة الى زيارة بومبي غير حب الاستطلاع والتعرف على أصدقاء الوالد ومشاهدة الاسواق، وكان معروفاً عنها آنذاك ان ماءها وهواءها غير صحيين على العكس من كراتشي.

ونزلت ضيفاً عند الوجيه الحاج جعفر عبدالرحيم في منزله، وكان معه كل من الحاج أحمد والحاج حيدر درويش والحاج ابراهيم محمود وكلهم من مشاهير تجار الخليج، ولم يطل بقائي فرجعت على عجل ولم اعد اذكر من تلك الزيارة سوى كثرة ازدحام البشر والمواصلات العامة وغلاء البترول، وحرية الابقار في التجول فتزاحم المارة على الأرصفة

وتعطل المرور عند الاشارات دون ان يحتج احد.. كما شاهدت في ذروة الزحام أناساً يلطخ اجسامهم الطين والأصباغ يمشون وهم عراة.. عرفت بعد ذلك أنهم من رجال المعابد وشاهدت إنتشار الفقر واستعمال الأرصفة للمعيشة والنوم. على ان اهم ما تركز في ذهني من الوجهة التجارية، زيارتي لأول مرة في حياتي - معرضا صناعيا وتجاريا وأدهشني تطور الصناعة في الهند منذ ذلك التاريخ.. وأهم من ذلك كله إحتفاء العارضين بنا وتبادل البطاقات والعناوين!

رحلة الرجوع من بمبي الى كراتشي كانت تجربة معاكسة تماماً لرحلة المجيء.. لقد حصلت على مكان في الدرجة الأولى فاستمتعت بما فيها من امتيازات ووسائل راحة. ولكن المئات من الباكستانيين العائدين كانوا يحملقون فينا من وراء الزجاج الملون ويركزون نظراتهم واشاراتهم عليّ دون سائر المسافرين ووجدت الخلاص في تغيير ملابسني العربية، لكنني لم اجد معي من اللباس الافرنجي غير بدلة قديمة من لباس الكشافة المدرسية فلبستها، ولكنها أثارت فضول من معي من المسافرين ومنهم سيده كبيرة السن تبدو عليها ملامح الثراء وفي معيتها عدد من السيدات والوصيفات ينادونها «البيجوم» ولا أتذكر من أحاديثها وقصصها الكثيرة سوى انها تملك مصانع ومزارع وأنها تعرف الزعيم «غاندي» جيدا وتعرف عن حياته الكثير! كما تعرفت على ثري انجليزي يملك مصانع للسكر في باكستان.. واعجبني هذه المعرفة مع كل هؤلاء، فقد كانوا يخاطبونني وكأنني فعلا رجل اعمال لا ناشئا في أول عهد بالتجارة.. وذكرني ذلك بما ورد في احدى رسائل الوالد من نصائح يقول فيها: «... اشارتكم الى حدوث مرض كوليرا في البلاد غير صحيح نحمد الله البلاد نقيه - لا تقصر على نفسك وكن في راحة واستراحة.. وأحسن السلوك، واستعمل الرزانة مع التجار تكون مقدراً عندهم وأخبرني عن أيهم أحسن أخلاقاً معك»..

وصلت الى كراتشي فلبست ثيابي العربية ونزلت . . فلما وصلت عند مدخل البناية استوقفني باكستاني وصار يقلب نظره في ملابسي ويستأذن بلمسها ويسألني اذا كانت هذه هي ملابس العرب منذ عهد الرسول (ص) والصحابة . . فترددت في الجواب وأشفتت ان يؤدي به حب التبرك الى أن يستوهبها مني . . فأعود الى البحرين لابساً بدلة الكشاف! وحين خلوت الى نفسي شعرت كم هو مشين بالعربي ان يسيء التصرف في هذا البلد المسلم وهو يتزيا بزبي العرب الذي يعتقدون أنه زي الرسول الأعظم وصحابته ويتبركون به! .

رجعت الى البحرين في أوائل عام ١٩٤٨ وعرفت المزيد عن أخبار المظاهرات الشعبية بمناسبة تقسيم فلسطين، وقد وصلتني بعض أخبارها في كراتشي. هذه الأحداث التي لم أشهدها بنفسي والتي استمرت ثلاثة أيام متواصلة وشاركت فيها مختلف فئات الشعب لتأييد نضال الشعب العربي الفلسطيني تعتبر أكبر تجمع شعبي من نوعه خلال سنوات النصف الأول من هذا القرن. ومن الواضح إنه لم يكن مقدراً لتلك التظاهرات ان تؤدي الى احداث العنف والاعتداءات التي تزامنت معها في اليوم الثالث . . حتى جاء بعد ذلك المستشار تشارلس بلجريف ليكشف في كتابه من واقع معاشته لتلك الحوادث، بأن الاعتداءات المذكورة إنما قامت بها جموع غوغائية من بحارة السفن الراسية في الميناء، وأسقاط سكنة «الحي الغربي» بالمنامة وعدد من صغار الباعة المرتزقين في الوقت الذي قام فيه المواطنون الطيبون بما تقتضيه المروءة والشهامة.

ثم سرعان ما قررت السفر في أثناء حرب فلسطين الى العراق هذه المرة، وكنت مثل غيري، متحمساً لتحرير أرض فلسطين عاقداً الأمل على الجيوش العربية . . فرسمت خارطة لفلسطين وضعت عليها اشارات بالأسهم الحمراء تبين مواقع تلك الجيوش وتقدمها في زحف التحرير، ثم

ذكرت تاريخ دخول الجيوش العربية أرض فلسطين.. وموضعاً فارغاً لاضافة تاريخ الفراغ من تحريرها.. ثم علقته على الحائط قرب الفراش، فلما طال بي الانتظار لم أجد بدأ من السفر، وحين رجعت من السفر وظهرت للعيان مهزلة «ماكو أوامر» نزعت تلك الخارطة في ذروة من الانفعال والحسرة. وتذكرت ما جرى بالأمس القريب في بغداد حين كانت قطع من الجيش العراقي تمر من بعض شوارع العاصمة في مسيرة استعراضية وهي في طريقها الى فلسطين (كما قيل) وهتاف الجماهير يرتفع من حولها عالياً وهي تقول: «أجعلوا (تل) أييب، (وادي) أييب»!..



إشتركت مع أخي صادق بتشجيع من الوالد في عدة صفقات خارج المؤسسة لحسابنا، فلما تيقن بقدرتنا على العمل المستقل، منح كل واحد منا عشرة آلاف روبية، وفتحنا باسمنا محلاً تجارياً تحت اسم (مخزن العاصمة) للاستيراد والتصدير والعمولة. في ذلك الوقت كانت اوربا وأمريكا واليابان واستراليا هي المصدر الرئيسي للسلع الكمالية والكهربائية والأطعمة المعلبة وشراب الفواكه وغيرها من السلع التي طال انتظار جمهور المستهلكين لها بسبب انقطاعها عن الأسواق خلال سنوات الحرب. وكان المستهلك يقبل على تلك السلع بشراهة استهلاكية فيشتري كل ما تصل اليه يده لاسيما اذا عرض تحت اسم «التموين» ولو كان مما لا يحتاج اليه كثيراً. كان الحد الأعلى للربح هو من ١٥ الى ٢٥ بالمائة حسب نوع السلعة - أما المصاريف والإيجارات والتكلفة العامة فكانت زهيدة، مما يحقق للتاجر مبلغاً جيداً من الربح فأدت هذه المعادلة الثلاثية الى تنشيط التجارة في الداخل وكذلك بالتصدير الى أسواق الخليج، فالحكومة تراقب الاسعار، والتاجر يربح بسبب حجم المبيعات وقلة الاكلاف، أما المستهلكون فهم بما تناله أيديهم من سلع مستوردة، فرحون!

ووجدت وجوه جديدة تركت الوظائف العامة، أو غامرت إبتداء في ممارسة هذا النوع غير التقليدي من التجارة. . فرصة للظهور والنمو بشكل طبيعي متدرج. . وأمثال هذه الطبقة الوسطى من التجار عملوا الكثير لتحقيق فرص النجاح بمجهود ذاتي، وطرقوا أبواب الثروة الموصدة بيد من حديد. . اذ لم يكونوا من بين أثرياء الحرب او المتلاعبين ببطاقات التموين ابتداء، كما لم يصبحوا من أثرياء النفط ومنتهزي فرص الثراء المشبوه - فيما بعد ذلك.

التجارة مقبرة المواهب

خلال عملي في التجارة لم تنقطع صلتي بأسرة الانصار، ولا برجال الفكر والادب ونشاطات الاندية الثقافية. كان يجتمع في محلنا لفيف من الادباء والكتاب والشعراء على رأسهم استاذنا الكبير ابراهيم العريض، الذي كان يخصنا بالزيارة يومياً في أغلب الاحيان ثم علي التاجر، وحسن الجشي ودعيج الخليفة وعبدالله الطائي، وأدباء من المملكة في القطيف والخبر والاحساء منهم احمد الراشد المبارك، وعبدالعزیز القاضي، ومحمد سعيد المسلم، وعبدالرسول الشيخ على الجشي، واحمد المصطفى وغيرهم.

وكنت أخرج مع بعضهم نتمشى مساء خارج المدينة، ثم الاستراحة في بعض المقاهي الشعبية وأتذكر ان الاستاذ علي التاجر كان لا يفتأ يحمل تحت أبطه في كل مرة يخرج معنا كتاباً ضخماً باللغة الانجليزية هو كتاب «كفاحي» لهتلر على اعتبار انه يقوم بدراسته في مجال أبحاثه عن الصهيونية - حتى كادت نسخة الكتاب ان تبلى وتمزق. وكان يؤكد لنا دائماً وهو يعرض على شفثيه بعصبية وبأسلوب التحدي - ان اليهود هم مصدر الشرور في العالم وان وراء كل ظاهرة تبدو للناس غريبة وغامضة، أيد يهودية تحركها وتوزع على مسرح العالم أدوارها بخبث

ودهاء.. وذلك ابتداء بأسرار السياسات العالمية والمحافل الصهيونية والتآمر على الشعوب والحكومات.. وانتهاء بتصدير برتقال يافا الى البحرين! ولكونه ماهراً في الاقتناع، قوياً على المجادلة فقد كنت آخذ الكثير من آرائه على محمل الجد وأجامله في غيرها، لكنني لا أعتبرها من قبيل المسلمات. وممن كان ينسحب من ساحة الجدل ويخرج متأثراً الاستاذ معن العجلي.. لكنه يعود في اليوم الثاني حتى اذا حضر علي واحتدم النقاش خرج فجأة كما دخل وهو لا ينسى في خروجه او دخوله محلنا، أن يوجه اليّ كل مرة تلك الكلمات ذاتها «يا أخي حرام عليك - اترك التجارة واتجه للأدب، ألم أقل لك مراراً من قبل ان التجارة هي مقبرة للمواهب»؟

تلك الجلسات في الدكان ايام الاسبوع لم تكن بمثابة المجالس المنظمة بل كانت أقرب الى اعتبارها محطات في الطريق، ولم يكن محلنا يخلو في الغالب أيضاً من تواجد قاض، أو فقيه او رجل دين معمم كفضيلة الشيخ المرحوم عبدالحسين الحلبي. كانت حصيلتنا المعنوية من هذه الزيارات لمحلنا كبيرة ومشرفة، أما الحصيلة المادية فكانت صفراً.

أما جلوسنا لاستقبال الاصدقاء أنا وأخي صادق وأحياناً الأخ حسين، فكان في يوم الجمعة فيأتي لزيارتنا إضافة الى من ذكرت، عدد من الاساتذة وخريجي الجامعات والدارسين من الشباب من بينهم السيد رضي الموسوي وقاسم احمد فخرو وماجد جواد الجشي، ورسول الجشي ويوسف احمد الشيراوي وعلي محمد فخرو، وابراهيم يعقوب وراشد فليفل ومحمد قاسم الشيراوي وآخرون.

صوت البحرين

ساهمت تلك الأسماء التي ذكرتها، معظمها ان لم يكن كلها - في الكتابة في مجلة «صوت البحرين» التي صدرت اواخر عام ١٩٤٩. واذا اضفنا اسماء الادباء والشعراء والكتاب الاخرين في البحرين امثال محمود المردي، وعلي سيار وابراهيم حسن كمال ومحمد دويغر واحمد يقيم وعبدالعزیز الشمالان ويوسف زباري وعبدالرحمن المعاودة وعبدالعزیز الشيخ على، واحمد سلمان كمال، وناصر بوحميد، واحمد الخليفة، وكثير غيرهم - ادركنا مدى القاعدة الادبية والثقافية العريضة التي انطلقت منها صوت البحرين. لقد استقطبت خيرة المواهب والامكانات الادبية المتوفرة لخلق مجلة رائدة في تاريخ صحافة الخليج بأجمعه، ولقد ساهمت في صوت البحرين ايضا اقلام عربية من بلدان عربية متعددة، فاصبحت هذه المجلة بمثابة الوجه المشرق للثقافة والفكر والادب، للبحرين وللخليج في كافة أرجاء الوطن العربي الكبير.

عالجت صوت البحرين هموم المواطن العربي بأمانة وصدق، وجدية والتزام، وقد جاء صدورها بعد سنوات من توقف مجلة الانصار وبعد ان خفت اصداؤها، ولكن روح الانصار واسلوبها اثرا في اتجاه المجلة فيما يتعلق بالتوعية والتوجيه الثقافي والفكري. . فكان لها طابع عربي قومي اسلامي مميز. . واسلوب صريح.

ومن اهم ما كرست صوت البحرين جهودها له بعد التوجيه الثقافي، معالجة الاصلاح الاجتماعي وانصاف الفئات العاملة وتبني قضايا العمال - وفي جانب آخر الدفاع عن عروبة البحرين وتفنيده الادعاءات الاجنبية بالسيادة عليها، وفي هذا الصدد قامت المجلة بترجمة ونشر كتيب للاستاذ مجيد خدوري عن «البحرين وايران» وقدمت له بكلمة شاملة. . وادى الاقبال الشديد على شرائه الى اعادة طبعه مرة

ثانية، ولا غرو فقد كان الاقبال على المجلة ذاتها كبيرا، وفي تقديري ان فجوة الفراغ الثقافي والادبي التي خلفها توقف صوت البحرين ماتزال قائمة بعد مرور ما يناهز ٣٧ عاما شهدت خلالها البحرين قفزة في مضمار التعليم والتخصصات الجامعية في مجالات الادب والثقافة والعلوم والفنون.

ومما تجدر الاشارة اليه ان العبء الاكبر في تحرير صوت البحرين واصدارها - بالرغم من وجود اسرة تحرير لها ومجلس ادارة - قام على مجهود ثلاثة: هم الاستاذ حسن جواد الجشي، ثم ابراهيم حسن كمال، وعلي التاجر. أما دوري في المجلة فكان لا يتعدى كتابة عدد من المقالات وسد الفراغ في بعض الأبواب حينما تكون المجلة ماثلة للطبع، ثم المساهمة في توزيعها ومدتها ببعض الاعلانات وكان مألوفا عندنا في «المحل» أن يجد المشتري اعداد صوت البحرين بجانب المراوح الكهربائية والمعلبات وزجاجات شراب الفواكه صيفا، والملابس الجاهزة والاصواف شتاء. ويقبل الناس على شراء المجلة قبل ان تنفذ، إقبالهم على شراء الحلويات من محلنا بسعر التموين!

وختاماً..

فعند هذا الحد ونحن على مشارف الخمسينات من السنين نقف مع هذه الذكريات في حلقتها الاخيرة.. لقد شهدت الخمسينات وما تلاها أحداثا جساما في تاريخ البحرين وارهاصات متباينة لجميع العوامل السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية التي انسابت في شرايين المجتمع منذ أوائل القرن العشرين على شكل روافد صغيرة متشعبة لتصب بكل زخمها في خزان كبير تجمعت فيه مجاري السيل فامتلاً وأوشك على الفيضان.. في انتظار الأيدي الأمينة الواعية المخلصة لتوجيه الماء المتدفق نحو الارض المتعطشة لانتاج الأمن والخصب والرخاء.

وليس العهد بالتطورات التي جرت في الخمسينات وما بعدها ببعيد جداً، ولهذا فإن هذه المرحلة من التطور لمواكبة المسيرة المتقدمة للعالم العصري الحديث حرية بأن تكون موضوعاً للدراسة بأدوات التاريخ وشواهد المذكرات، وهي بذلك لا تدخل ضمن اختصاص هذه الذكريات الشخصية العابرة.

(*) ١٩٨٧



(*) نشرت في حلقات بمجلة «بانوراما» البحرينية ابتداء من العدد ٤٥ السنة ١٩٨٧.

أوراق مسافر



الورقة الثانية

٢

قد همت بالأسفار أعشقتها
.. غراماً فستحيلها
كم سابت خطوي الشموس
فكنت أسبقها ووصولاً
ولكم تحملت الفراق
ولم أطغ فيه عنوناً
حتى إذا هاج الحنين
بخاطري.. وبكى طويلاً
بادرت يا وطني إليك
فلم تكن عني بخيلاً
ونهلته حُبك مورداً
عذباً.. وماء شربياً..

المؤلف

خواطر من الفردوس المفقود

جاءت زيارتي الأولى للأندلس في شهر اغسطس من عام ١٩٦٧ في اعقاب شهر «النكسة» كما اخترنا تسميتها. وكانت مفاجأة الهزيمة ومرارتها وحرارة الصيف حافزاً ملحاً تحدو بي رغبة لزيارة الأندلس تذكراً للماضي الجميل ونسياناً للواقع المؤلم.

وقديماً شد الرحالة والشعراء من أمثال البحتري وسواهم، رحالهم تسلياً عن الهموم، حيث يقول البحتري في سينيته المشهورة:

«حضرت رحلي الهموم فوجهتُ الي «أبيض المدائن» عنسى
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحلّ من آل ساسان، درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب، وتنسي»

كانت زيارتي للأندلس هي الأولى وقد بدت لي فيما تبقى لها من زيتها العربي كالعروس الجميلة المحنطة في ثوب زفافها الأول ولم تكن لي معرفة تفصيلية بأحوال الأندلس آنذاك سوى مارسخ في ذهني من أن بلاد الأندلس هي الفردوس العربي المفقود.

وكتبتُ هذه الخواطر والأنطباعات اثناء تجوا لي الذي استغرق اسبوعاً، ولم يسعف ذاكرتي بحث أو كتاب. وقد دهشت بعد كتابتها حين وجدت أن بعضاً مما دار في خيالي كان له شبيه فيما ذكرته كتب التاريخ. فالحسنة التي كانت - تمشى على شاطئ نهر الوادي الكبير بأشبيلية لها شبه بقصة اعتماد الرميكية. وجامع قرطبة كان يسرح فيه بالفعل في كل يوم ألف سراج. وتخيلت في قصر الحمراء نساء يطلن

من خلف المشبكات . . الى غير ذلك .

فهذه الخواطر الأدبية المتناثرة ليست موضوعاً متكاملأً، ولا قصة ولا قصيدة، والشئ الذى يجمع بينها هو خيط رقيق من مخيلة صاحبها الذى اختار ان يعيش فى ماضى الأندلس العربية دون ان يكون له شأن بأسبانيا المعاصرة كما يراها السائحون .

أتذكر أنني ذات مرة صادفتُ فى زيارتي الأولى لاسطنبول سائحة أجنبية تتجول باهتمام كبير فى جامع (أيا صوفيا) ثم تكتب أو ترسم، وخلتها معجبة بالفن الاسلامي، فلما سألتها عن موضوع اهتمامها قالت: انا لا أرى بعينى الا الحضارة البيزنطية فهى موضوع اهتمامي ولا شأن لي بما عداها .

وقد كنت فى تلك المشاهدات الأندلسية مثل تلك السائحة . وكان انشغالي بتدوين ملاحظاتي إثر كل زيارة، موضع غرابة واحراج فى بعض الاحيان . أذكر اننى سألت موظفاً فى فندق (مدريد) بأشيلية عن سبب كل ذلك الوجوم والحزن البادي على المستخدمين فى هذا الفندق فأجاب قائلاً: أنك آخر من يسأل هذا السؤال ولعلك كنت شارداً الذهن . . ثم شرح لي سبب تلك الكآبة ومما قاله: إن أحد الاثرياء الامريكان تعاقد مع شركة الفندق على تفكيك جميع سقوف حجرات الفندق وقاعاته وهى من الخشب المزخرف والمنقوش بالفن الإسلامى والعربى وبعضه كان مستورداً من بيوت دمشق القديمة - على ان يتم شحنها بعد ترقيم القطع التى فيها الى امريكا ليتم تركيبها من جديد . . . وفى زيارات لاحقه سألت عن هذا الفندق فلم أجده ولعله غير إسمه . .

والآن ماذا تقول تلك الخواطر . . التى ابتدأت بمدريد العاصمة الاسبانية، وانتهت بغرناطة، اجمل مدن الأندلس . . .

رياح الأندلس.. تهبُّ من الجنوب

١ - مدريد:

... سألت عن مدريد اهلها فقالوا:

اسمها القديم «مجر يط»، واطول شوارعها القلعة «الكلا»،
وكلاهما من أصل أندلسي.

... ثم سألت عن الأندلس فقيل لى: ربح الأندلس تهب من
الجنوب...

ولكنى صعدتُ شمالاً، فعبرتُ جسر «القنطرة» الى الأسكوريال.

وفي مكتبة الأسكوريال قرأتُ المصحفَ الشريف مكتوباً بخط
مذهب جميل..

... ومن النافذة أطللت،

فترأى لى بعيداً جبل عبدالرحمن..

... ونزلت ببصرى من قمم الجبال الى منحدراتها،

فاذا بـ«وادي الرمة» يمتد مترامى الاطراف مخضراً الجبين...

... وتولانى شعور لا يوصف أدركت معه لماذا اختار «ارنست

همنغواى» صخرة في وادي الرمة وكتب عندها «لمن تدقُّ الاجراس»..



... وفي مدريد حضرت مصارعة الثور..
... شاهدت لعبة الموت البطيء، والقتل على مراحل، وعطش
المتفرجين للدماء!
... والمتفرجون عادة من فئتين: واحدة مع الثور، والأخرى
عليه..
والذين معه يُثيرُ أعصابهم ويهزّ انفعالاتهم منظر الثور المسكين.
الحراب المغروسة في كتفه والدم الجارى على نحره،
وهو يبدو أمامهم كالطفل الساذج حين يتكرر منه الخطأ وتعييه
الحيلة.
وحين يأخذ به الأعياء كلّ مأخذ، وتستنزف الجراح معظم قواه
يتدلى لسانه اطول ما يكون فيتجسّم في شحوبه وجفافه لون الموت، لمن
فاته الطعام!... المصارع مغامر حذر يسعى لشهرة،
وهو فى الاغلب ينالها ليس لمجرد قتل الثور ولكن لكيفية تنفيذ
القتل حسب الأصول!
وهو ينالها ايضا اذا صرعه الثور بقرنه فأرداه،
فهناك في المتحف المجاور مكان مناسب لتخليد ذكرى «بطل»
جديد..... وللمصارع أعوان يبدون وكأنهم يتآمرون معه على الثور.
يسدون عليه المنافذ، ويسببون له الحيرة والارتباك.
ثم يستعجلون المصارع لقتله فيغرس فى ظهره نصلاً يربو على
المتر، يخترق صدره وقلبه، فاذا تهاوى على الارض طعنه بمديّة حادة
في موضع من رأسه يفارق معها الحياة.
... وفى الوقت الذى يكون فيه الجمهور مشغولا بالهتاف
والتصفيق للمصارع،
وهو بدوره ينحنى للجمهور مع كل هتاف جديد،

يهرع المكلفون بنقل الثور، فيربطونه من قرنه الى عربة تجرها ستة
جياذ.

ثم يسحبونه من الساحة كما تسحب الكلاب الميتة!
... وحين تساءلت عن السبب فى استعجال الموت للثور قبل
مضيتي وقت طويل،

قيل لى ان وراء قرن الثور قوة مدمرة هائلة، ولكنها لحسن الحظ
غبية جاهلة..

واذا طال الزمن وتكررت التجربة ذا تها، فقد يتعلم الثور،
فيتجاوز الرداء الاحمر الى من يحتمى وراءه فيصرعه فى غمضة
عين.

انهم اذن يخشون قوة الثور، ولكنهم يستغلون غباءه!
وعندما اخطأ احد المصارعين فى التقدير وفارقه الحذر، شكه الثور
بقرنه فرفع محمولا على الأعناق الى حيث يتوفر له الاسعاف.
وعندما أغمض الناس عيونهم من هول المنظر ودعوا للمصارع
بحسن العاقبة،
تقدم الدليل المرافق يشرح للحاضرين أصل هذه الهواية الغريبة
وأصولها.

وكان مما ذكر قوله ان مصارعة الثيران رياضة سنهًا أهل
الأندلس، وكانت تجرى عندهم على الخيل.

وتساءلت بينى وبين نفسي...

ترى هل هانت الجياذ على أهل الأندلس فرضوا بتعريضها للموت
على قرن ثور جموح؟..

٢ - طليطلة:

... و طليطلة بدت كحسنا فقدت مجدها الغابر وشوّهت محاسنها

الأيام

وبقى لها من سمات الجمال سحر العينين... ومن معالم الزينة
سورها القديم كأنه ثوب زفافها الأول،
وعقد من الماس الازرق يحيط بجيدها المشربب،
وقناطر راسخة يعبر عليها التاريخ مكدود الخطى واهن العزم...
... وبقيت لها أيضا صنعة قديمة... يسمونها الفن الدمشقي.

٣ - أشبيلية:

... عبرت «الوادى الكبير» في أشبيلية، وتملكنى شعور من يعبر
«بردى» الى دمشق.

... وعلى الشاطئ حسناء تلهو وتمرح،

عرفتها من ملامحها فأنكرتنى، ورمقتها بنظرة عتاب،

لكنها مرّت من امامى مطرقة

كأنها تحاول ان تتذكر شيئا، او تبحث فى التراب عن سرّ
دفين^(١)... وعلى قاع صلبة مصقولة سمعتُ مع غيرى،

(١) قيل فى اخبار الأندلس، أن المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية كان يتمشى مع وزيره ابن
عمار على جانب نهر الوادى الكبير، فلما شاهد ماء النهر قال: نسج الرّيح على الماء
زرّذ... ثم طلب من وزيره أكمل الشطر الثانى من هذا البيت.. فعجز وزيره،
فاستدارت نحوها جارية كانت تمشى أمامهما، واكملت البيت قائلة: «أي درع
لقتال.. لو جمد» فاستحسن المعتمد قولها.. واعجب بها ثم تزوّجها وصارت تعرف
«باعتقاد الزميكية» نسبة الى سيدها السابق (زُمَيْك).

وقع حوافر الخيل يأ تي من الأفق البعيد
ثم يقترب رويداً رويداً...
ايقاعاً منتظماً يبدأ خفيفاً ثم يتدرج صارخاً عنيفاً..
إنها أختها الاخرى تمارس فنّاً نمى وترعرع فى احضان الوادى
الكبير.

أما اخوها، ذاك الذى يغصّ بأهات شجيّة،
إنه يضع يده على كبده من الألم..
وحين تنطلق منه «الآه» تسبح يده الاخرى خلفها فى الفضاء.
لكأنه يحاول ان يدرك زفرا ته الشاردة ويرجعها الى مكانها الاول..
فى قلبه؟

... وفى أشبيلية القصر «الكازار»
وبقره بقايا سور متهدم لجامع مقوّض، ونصف مئذنة تنعى نصفها
الاخر.

... وهناك على الشاطيء منارة مغمضة العين
كانت قبلا جوار «دار الصناعة» ترشد الضال وتهدى العابرين..
... وتذكرت، وانا اعبر الفراغ بين هذه المعالم لأؤلف بينها،
رائعة من الشعر القديم عبث الرواة بصدور أبياتها والأعجاز،
ونحلوها من عندهم ما شاءوا، ثم ظلت على روعتها وارتفع عنصر
الأصالة فيها فوق مستوى الزيف!..... وبالقرب من القصر روض
مجاور شممت فيه رائحة ورد محجب أليف!

قيل لى انها بقاياها تصان هنا اكراما لهذا المكان،

وقد كان قبلا في كل مكان، ثم تغير الذوق وتمنعت التربة عن
قبوله!



٤ - قرطبة:

... وقفت في الطريق الى قرطبة عند انقاض المدينة الزاهرة
والقصر الشامخ... ولقيت صغاراً يلعبون، صبية وصبايا.
كانوا يعجنون الطين المتخلف من آثار الحفر ثم يصنعون منه
اشكالا..

اقتربت منهم فتطلع اليّ أحدهم وابتسم فأبتسمت له كأنى اعرفه.
وتجراً آخر فأقترب منى وفي مظهره ما ينم عن تعاسة وبؤس
.. رثيئ لحاله وتذكرت قصة رواها التاريخ وقلت سبحان
الله^(٢)..



(٢) اشتهد اعتماد الرميكية على زوجها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ان تمشى في
الطين، وكان لا يرد لها طلبا، فأمر وسحقت لها انواع الطيوب وصب فيها بماء الورد
ثم عجت بالايدي حتى عادت كالطين وخاضته مع جواربها. ثم دارت الايام وقلب
الدهر للمعتمد ظهر المجن، فنفى الى مراكش واعتقل في (أغمات) وكبل بالحديد
حتى مات. وكانت معه زوجته اعتماد وبناته فكن يغزلن للناس ويعشن على الكفاف
(تاريخ العرب - حتى). والمعتمد هو القائل من أبيات يصف فيها دفاعه عن اشبيلية:

مُلْكِي وتسلمني الجموعُ
لن تسلم القلب الضلوع
أيسلَبُ الشرف الرفيع؟
والأصل تتبعهُ الفروع

«ان يستلَب مني الدنا
فالقلبُ بين ضلوعه
لم استلَب شرف الطباع
شيمُ الأولى أنا منهمو

... وفي جامع قرطبة الكبير الف شمعة لا تضيء^(٣)،
ومن منافذ الهواء والنور يتسلل الشتاء والبرد،
وعلى البلاط العارى تقشعر أجسام المصلين وهم جلوس فى انتظار
الإمام...



... وزعموا أن فى المحراب مزاراً يُطاف من حوله،
ومصحفاً ينؤ بحمله أربعة.
... وقالوا انه كان للحروف المزخرفة الجميلة المحيطة به فعل
السحر فى النفوس.
واقتربت من تلك الايات وقرأتها، وقلت «صدق الله العظيم»..
لو بعث الله أهلها من جديد ماذا عساهم سيصنعون، وبأى لسان
سينطقون^(٤)؟..

... وللجامع «كنيسة» تستقر منه فى القلب!
لمحت فيها قسماً يسير بخطى وثيدة كأنه ينؤ بما يحمل.

(٣) وقد بلغت قرطبة أوج مجدها فى عهد الناصر، فقد كان سكا نها نحو من نصف مليون، وكان فيها سبعة مائة مسجد وثلاثمائة حمام، وبلغ دخل خزانة الخليفة ما يقارب ستة ملايين ومئتين وخمسة وأربعين الف دينار، وكانت بها سبعون مكتبة، وزهت بشوارع تمتد بضعة اميال مضاءة بالقناديل. أما جامع قرطبة الكبير فقد وضع اساسه عبد الرحمن الاول عام ١٥١ هـ (٦٨٧م) وكان يدعم سقفه ٣٩٢١ عموداً، وتحت كل قوس من اقواسه مصباح من النحاس وقيل من الذهب، وانير فضاء المعبد بشريات نحاسية كبيرة منها واحدة كان يوقد فيها الف مصباح. (تاريخ العرب - حتى).
(٤) كانت الآية الكريمة المكتوبة: ﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير أنك على كل شىء قدير﴾.

كلمته فلم يفهمنى،
لكنه شتيعنى الى الباب ثم اشار بيده الى الطريق.
وعند الصباح تبينت أثار أقدام تتجه نحو الجنوب، فتبعتها وسرت
حيث أشار... .



٥ - غرناطة:

... ودخلت غرناطة من الوادى الكبير...
تسلقت اليها الجبل الأشم،
وحين ضللتُ الطريق أرشدنى راعٍ كان حاسر الرأس كاسي
القدمين!

قال لى بلهجة الأليف:
أمن أهل اندلوسيا انت؟
قلت لا.. ولا أفهم لغتهم،
قال العفو اذن..
عليك بهذه القلاع الشامخة ان ضللت،
فهى تنتشر جنوبا على طول الطريق،
وهى أيضاً لا تخلو من بقية ماء وظل... .

٦ - الحمراء:

... نزلت فى غرناطة قصر الضيافة مع النازلين، ثم ذهبنا نزور
الحمراء... .

... وكما يطوف الحلم الجميل خفيفا بالاجفان النواعس فلا
تستيقظ ولا تنام،

طفنا بأجمل قصرين فى أجمل موضعين .

أحدهما لسكنى الصيف والآخر للشتاء .

... فما كان للصيف فليست له جدران ولا سقوف .

وانما هى الطبيعة الفاتنة بأشجارها وازهارها وحشائشها ومياهها،

نسقتها يد الانسان وجعلت منها مجلساً ومسكناً ومنظراً . .

ولم تنس موضع النجوم فى سمائه، ولا مسير القمر فى أرجائه . .

... وحين يأتى وقت الصلاة يرقى المصلون الى الجامع سُلمًا

يغمر الماء درجاته . .

فيترد به من يشاء، ويتوضأ منه من يشاء .

... أما قصر الحمراء فأية حسنه سقوف وجدران

اجتزنا «باب العدل» و«ساحة الريحان» ثم رافقنا الحراس الى بهو

السفراء وقد انهك بصرنا الشعاع المنعكس من فناء البركة فلم نتبين فى

البهو شيئًا .

وحين استراح النظر رأينا من الجمال عجباً لم نصدق معه

العيون . . .



... واستقبلنا الأمير ابو الحجاج^(٥) فسلمنا عليه وقدمنا له آيات

(٥) الأمير ابو الحجاج . . هو الأمير ابو الحجاج يوسف صاحب غرناطة . وقد نقش اسمه

على جدران قاعة «بهو السفراء» مشفوعاً بالدعاء له بدوام الملك والعز والمنعة .

الشكر ثم دعونا له بالرفعة والمنعة ودوام الملك،

واستئذناه في التطواف بالقصر فأذن،

ورافقنا الدليل يطوف بنا اروقة القصر وحجراته واجنحته ونحن
نستمع الى شرحه والعجب والدهشة يأخذان منا بمجامع القلوب.

... ثم سبقنا الحارس الى «حرم النساء» وصفق بيديه فاخفت
الضجة في لحظات وساد الهدوء حتى بدت الدار وكأنها قد هجرت منذ
امد، لولا عيون تراءت لنا وكأنها تطل من وراء المشبكات المزخرفة
والشرفات المستورة.

تشبع الفضول وتتقضى ملامح الغرباء..

... وفي تطوافنا بعجائب الزخرفة والنقوش في السقوف
والجدران قرأنا آيات في مواضع الآيات، ومدائح في مواضع التعظيم،
وتاريخاً عند مداخل الأروقة، وأشعاراً حول برك المياه^(٦)..

وتحاشى الدليل المرور بنا في قاعة بنى سراج بعد ان شاهدنا على
ارضها نقطا من آثار الدم^(٧)، واقتادنا الى حمامات السلاطين، ووقفنا في
المدخل عند نافورات الماء التي كانت حركاتها تنسجم مع رنات
الموسيقى التي كانت تهبط من المشارف وقد جلس القيانُ بها يغنين
ويعزفن..... وسمعنا الضجيج يعلو في الحمام، ولم نشأ ان نفسد على

(٦) من بين الأشعار المكتوبة هذه الأبيات:

به القبة الغبراء قلّ نظيرها ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمدّ لها الجوزاء كفّ مُصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ولم تك في أفق السماء جواريا
ولم نر قصرأ منه أعلى مظاهراً وأوضح آفاقاً وأفسح ناديا
ولم نر روضاً منه أنعم نضرة وأعطر أرجاء وأحلى مجانيا

(٧) اشاره الى مذبحه «بنى سراج» المشهورة.

من فيه متعتهم، فسلكننا مخرجا يؤدي الى حديقة القصر.
ولم ننس قبل الخروج ان نرتشف من ماء بركة السباع قطرات قيل
انها تحفظ الشباب وتكسب الخلود.

... وفي الحديقة مررت بفنان يعرض للبيع روائع من فنه، وقفت
عند منظر من أشبيلية فيه ذلك القصر وتلك الحديقة وبقايا سور الجامع
وما حوله من آثار عافية..

... قلتُ هلاً أكملتَ منظر الجامع ورسمته كما تتصور الأصل،
فاشتره،

... قال حسناً سأفعل وأجدك في الدار قبل رحيلك.



... وكان علينا ايضاً ان نزور «الكاتدرائية» الكبيرة في غرناطة..

... وفي طريقنا اليها مررنا «بالقيصرية» وهي سوق كانت للحريز
الموصلى، وتشابهت علينا في الكاتدرائية الصور والرسوم والتمائيل
المذهب منها والمفضض او المجصص، وهي تنؤ بما يزيئها من حلى
وجواهر ثمينه... ولم انس فيها صورتين زيتيتين الأولى تستقبل
الداخلين بمنظر فارس اسباني يصرع عدواً له على الارض، يغرس حربته
في صدره ويزرع حوافر خيله في حشاياه، وعدوه مكب على وجهه يحيط
به ظل قائم يكاد يذهب بمعالمه كلها..

... سألت عن معنى الصورة بسذاجة بدت وكأنها نوع من
التغابي،

... فقال الدليل يصعب الشرح، ولكن أتذكر المحراب في قرطبة
والآيات التي قرأتها من حوله؟ قلت نعم،

قال: هناك فى جامع قرطبة الشطر الاول من الآية، وهنا شطرها
الثانى^(٨).

... قلت وانا اتمالك نفسى، اجل كان على أن افهم دون سؤال.
... أما الصورة الاخرى فتودع الزائرين بمنظر مؤثر لحاكم غرناطة
فى ثلة من حاشيته وهو يسلم مفتاح المدينة الى خصمه المنتصر..
ثم قال الدليل معلقًا:

«روى ان الدموع انهمرت من عينه وهو يسلم مفتاح غرناطة،
فقلت له أمه - حق لك يابنى ان تبكى كالنساء على ملك لم تدافع عنه
كالرجال..... وتخلفت عنى معى اتأمل الصورة..

انهم يسمونها «آخر حسرات العربى».

... ثم رجع الدليل واخذ بيدى وهو يقول: «انه منظر مؤثر،
اليس كذلك»؟

قلت بلى ولكن أصدقنى - ما هو شعورك؟ قال أجل..
ما مررت بهذه الصورة مرة (وما اكثر ما أمر) الا وانتابنى ما يشبه
الشعور بنكران الجميل.



... ثم استدار مخاطبا الاخرين.

«بهذا تنتهى جولتنا فى الكاتدرائية وهى ايدان بانتهاء برنامج الرحلة
فى ربوع الأندلس..

نرجو ان تكونوا قد استمتعتم بها ونأمل ان نراكم مرة اخرى»..

(٨) الآية المشار اليها فى الملاحظة - ٣ أعلاه.

... قلت أجل وانها لخاتمة المطاف ..

... وحين عدت الى الدار وجدت صاحب الرسم فى انتظارى .
مررت بالصورة على عجل... ولم اكن قد صحوت بعد من مشهد
الكاتدرائية والصورتين،
وجدت فيها الجامع بسوره المنيع ومئذنته الشامخة يشرف على ما
حوله،
وخلفه من طبيعة الأندلس بساتين فاكهة وحقل زيتون ..

وحين مررت بناظرى على قبة الجامع تسمرت عيناي عند منظر
مريع،
فسألت غاضباً «أين الهلال يطلّ من وراء القبة كما أوصيتك؟»
قال: «حسبتك انما طلبت نجمة فقط» قلت لا نرسم النجمة هكذا
أبدأ..

إنها تبدو هنا شوهاء لكأنك تعمدت بها الأساءة الى جلال المنظر
وجماله، قال أبدا..

ألم تجد هذه النجمة فى القصر الذى زرته، والدار التى تسكنها
قلت نعم، وفوق الفراش الذى فيه أغفو..

... بلى لقد وجدتها فى كل مكان وأضعثُ نفسى وهى تتجسّد
امامى الآن بشكل مريع..

بودى لو مزقت هذه النجمة والمنظر الذى رسمته كله ..

... قال: «أنقذنى باقى الثمن، ثم اصنع بها ما تشاء».

سفير القلوب

. . اشتهر الشعر في بلاد الأندلس، وكان من رواده الأمراء والوزراء والسفراء ومن طرائف ما ورد عنهم قصة يحيى بن حكم الملقب «بالغزال» .

كان الغزال شاعرا اندلسياً ظريفاً لقب بالغزال لجماله، ومن نوادره انه ارسل مرة سفيراً الى بلاد اسوج ونروج (السويد والنرويج) حوالى سنة ٣٥٠ هجرية، وكان قد قارب الخمسين وقد خطه الشيب ولكن ذلك لم يمنعه ان ينقل مرحة وصبواته معه فتغزل بزوجة الملك التي اعجبت بقوله واسمها «تود» ومن ابياته في ذلك قوله:

كلفت يا قلبى هوى متعبا غالبت فيه الضغيم الأغلبا
إنى تعلقتُ مجوسية تأبى لشمس الحسن ان تغربا
اقصى بلاد الله فى حيث لا يلقي اليه ذاهب مذهبا
ياتود، يا ورد الشباب الذى تطلع من ازرارها الكوكبا
يا بأبى الحسن الذى لا ارى احلى على قلبى ولا اعذبا
ان قلت يوما ان عينى رأت مشبهه، لم أعد ان أكذبا
قالت ارى فوديك قد نوراً دعابة، توجب ان أدعبا
قلت لها ما باله إنه قد ينتج المهر كذا اشهباً
فاستضحكت عجباً بقولى لها وانما قلت لكى تعجباً

ثلاثة شهور في لبنان

لبنان بلد المتعة والجمال، مهوى الافئدة ومنتجع الرواد، له في خيال كل مصطاف معنى شعري جميل تنسج خيوطه الذهبية اعصاب مرهفة تنشد الراحة والهدوء، واجسام مكدودة تلتمس السكينة والاستجمام.

وتبدأ اولى مواسم الاصطياف في لبنان منذ أوائل شهر تموز من كل عام وتغلق على وجه التقريب في أواخر تشرين الاول، ثم لا يكاد ينتهي موسم الاصطياف حتى يبدأ موسم الأشقاء حيث يستقبل لبنان فوجا جديدا من الزوار والسائحين يؤثرون على الصيف الشتاء فيتبعون مساقط الجليد من فوق رؤوس الجبال وعلى السفوح المنحدرة ليتخذوا منها مسرحا للتزحلق وملهاة للفراغ ومدعاة للنشاط والرياضة. كذلك لا تكاد تقفل مشاتي لبنان حتى تفتح مصايفه وهكذا دواليك...

المدن المصائف

وطالب الاصطياف وهو يسافر - مثلي - للمرة الاولى، لا بد وان يقضي فترة من الزمن وهو يسرح في نشوة من الحلم الجميل بالنعيم الذي يوشك ان يقبل عليه. وبقدر ما يكون متعب الفكر من جراء الاعمال الرتيبة المنهكة، والمشاكل اليومية المملة، مثقل الفؤاد بالمشاكل والآلام النفسية، بقدر كل ذلك يكون تصويره «لحياة النعيم» التي تنتظره وما تزرخ به من متعة للنفس الموحشة، ونشاط للجسم المنهك، واستجمام للفكر

المكدود. أما التصورات الاولى والتخيلات الغريبة فما اكثرها في ذهن المصطاف.

لقد كنت قبل ان اسافر الى لبنان في المرة الاولى، دائم التفكير في تلك المصايف التي كان يقال انها مبنية على رؤوس الجبال او فوق سفوحها ومنحدراتها. وكنت افكر فيما اذا سيكون نصيبي منها مثل ما يصور الخيال - بيت معلق بين السماء والارض تنفرج من تحته فوهة لواد سحيق عميق الغور تتدفق في قعره الانهار الجارية مسرعة، او ترتمي في احضانه المياه شلالات عاتية مزبدة. ولطالما كنت افكر في كيفية الوصول الى مثل هذا المسكن الذي يوشك ان يختبىء وراء قطع الصخور الرابضة، او يغيب بين غابات الاشجار المتراصة.

ولعل ما كان يدعوني للتعجب اكثر فاكثر آنذاك ما تكرر على مسمعي من انه من الجائز بل مما هو كائن بالفعل، ان في رؤوس تلك الجبال مدنا أهلة بالسكان لا ينقصها من مظاهر المدن الحديثة المنظمة شيء في مبانيها وشوارعها وفنادقها وملاهيها ومؤسساتها وانديتها الى كثير من الاوصاف الشيقة التي تطرب لها اذن المسافر الجديد وما تنفك تطلب المزيد.

اما اليوم فقد اصبحت - بعد ان تكررت زيارتي للبنان - اكثر علما من ذي قبل بالمصايف وحياة الجبال، وقد زال ذلك الغموض الذي يكتنف تصوراتي الغريبة الاولى. لقد ايقنت ان يد الانسان العاملة المبدعة، كثيرا ما تعمل في الجبال الشاهقة عملها في الوديان الغائرة والسهول الفسيحة. فتستثير كوامن الخيرات في التربة الصالحة، وتستغل مظاهر الجمال في الطبيعة الفاتنة ثم تدلل الطرق وتقيم السدود وتنشئ المصايف والمنتزهات، ولكنها قليلا ما تدرك من معنى هذا الخير العميم سرّ سعادتها، او تستخلص من ذلك الوجود المترف اسباب غبظتها ودواعي اطمئنانها. ولقد استغربت - دونما داع صحيح للغرابة ما رأيت

من ان سكان الجبال الناعمين بالجو اللطيف والارض اليانعة والجمال الطبيعي الفاتن، هم وسكان المدن الضيقة ذات الحرارة اللاهبة والجو الخانق، سواء من حيث راحة الضمير واطمئنان النفس. ان المشاكل والمضايقات التي يفر منها معظم المصطافين كثيرا ما تتعقبهم هناك حيث يصطافون. بل انها لتسبقهم احيانا الى حيث يقصدون فتستقبلهم في عقر دارهم وجها لوجه، كالحة كالعتمة سوداء كالظلمة. اما نعمة المصائف من حيث كونها ملجأ من الحر اللاهب ومصدرا للراحة والاستجمام وسائر اصناف المتعة البريئة الوادعة فانها كثيرا ما تنقلب بتصرفات سكان المدن الى جحيم من الضوضاء الصاخبة والمزعجات الضاربة اطنابها في كل حذب و صوب.

فالناس هناك رجالا ونساء في تكدس غريب وتزاحم عجيب على جوانب الارصفة الممتدة، او عند مداخل الملاهي وباحات المراقص وحانات الشراب وموائد القمار، او في المقاهي والمطاعم العامة. وقد حل محل الهدوء ضجيج مزعج هو خليط متنافر من الضوضاء المنبعثة من حركة السيارات الدائمة واجهزتها المنبهة، وصراخ المذيع الذي لا ينقطع، وصخب الموسيقى واصوات الباعة المتجولين واصحاب المصالح الأخرى والمستغلين مما يجعلك تتساءل «ما الذي يميز هذه المصايف عن بقية المدن اللبنانية الصاخبة»!

لقد ألف معظم الناس هذا المفهوم المقلوب للاصطياف، إلفهم للمفاهيم الأخرى المنحرفة التي ما تزال تسير شئون حياتهم وتنظم امور معيشتهم في جو من الفوضى الشاملة، والتحلل الخلقي، والتفسخ الاجتماعي.

لقد قدر لي ان اعيش بداخل تلك المصايف المزدحمة فترة ليست بالقصيرة اثناء زيارتي الاولى كما تسنى لي هذه المرة الاخيرة ان اقضي معظم ايامي في احدى الضيع البسيطة المتواضعة على مقربة من

(عاليه) لكن في نجوة من صخبها وضجيجها. وقد حمدت الظروف التي اتاحت لي ان اتذوق طعاما جديدا للحياة الطيبة الهادئة يفتقر اليه رواد المصايف المزدهمة الصاخبة.

المصايف الهادئة

لقد كانت اولى مظاهر الارتياح التي شعرت بها هناك، ان تضاءلت من حياتي اليومية تلك الفترات البليدة الثقيلة التي تمر على معظم المصطافين عادة نتيجة للشعور بنوع من الفراغ والتبطل لا تجدي معه اساليب التسلية او فنون قتل الوقت. انه السأم الناشىء من الخمول المفاجىء الذي يهيمن على المصائف الصاخبة حالما يتم استنزاف آخر الحيوانات التي تخدم شيئا فشيئا في غمار الحياة الليلية الطويلة المرهقة. ان النشاط العام في تلك المصائف يتركز بصورة شاذة وغير طبيعية، في فترات معينة تبدأ حين يقبل المساء وتنتهي في ساعة متأخرة من الليل. وقبيل الفجر من كل يوم يأتي دور الاعصاب المرهقة والاجسام المنحلة والجفون المثقلة ليأخذ كل منها نصيبا من الراحة لا بد منه. وهكذا وبمثل هذا الحماس العجيب ! يستقبل اكثر اولئك المصطافين ولادة كل يوم جديد.

اما اللذين لم يتعودوا السهر الطويل فان عليهم ان يحملوا انفسهم على تجاهل معظم الفترة النهارية في يومهم ريثما يقبل المساء وتنطلق النفوس المحبوسة من عقالها.

لم تكن في الضيعة الصغيرة اذن «أزمة» لقتل الوقت على النحو الذي تتطلبه الحياة في المصائف الكبيرة الصاخبة. فالحياة هنا طبيعية للغاية. . . ان النشاط يدب في القرية رويدا رويدا منذ ان ييزغ الفجر لكي يأخذ مجراه الاعتيادي طيلة اوقات النهار. وحينما يقبل الليل فيسبغ على الكون ادق معاني الروعة والجلال وبين احضان الطبيعة الحانية

يصبح للراحة طعمها وللنوم لذته اما الحياة الليلية فهي في عرف القرية شذوذ مفرط عن سنة الطبيعة كما انها ليست في الواقع الا أعراضا مرضية لحياة التحلل والترف في المجتمعات الحديثة.

شيء آخر من جملة اشياء أخرى كثيرة يتيحها الاصطياف في الضيعة المتواضعة والقرى الصغيرة المتناثرة هنا وهناك على سفوح الجبال وبين غابات الصنوبر او في احضان المزارع وبساتين الفاكهة - ذلك هو الاندماج بالشعب والتعرف على حياته بافراحها واتراحها وحسناتها ومساوئها.

وكما هو المعروف ان عند أهل القرى وجلهم من الفلاحين البسطاء ميلا فطريا للتعرف على الزائر الغريب والتعلق بالمصطاف الوافد. وهذه الميزة تظهر بجلاء في كثير من قرى لبنان. وهم يسمون المستأجر عندهم «بالجار» دلالة على شعورهم الطيب نحوه فاذا كان المصطاف من ذوي الميول الشعبية، فانه سيجد ولا شك لذة كبرى في التحدث الى افراد هذا المجتمع الصغير الذي يحيط به ومجالا واسعا لدراسة شئون حياتهم ومشاكلهم العامة. وقد تنكشف من جراء ذلك مساوئ كثيرة لكنها في الغالب ليست إلا جزءا من مشاكل المجتمع الكبير ومساوئه التي يصيب الشعب منها عادة العبء الافدح والنصيب الاوفر.

الحياة في الضيعة

ان الحياة هنا لذيدة وممتعة شريطة ان يكون عند المرء استعداد للتجاوب مع المجتمع وميل للتعرف به والاندماج فيه. فانت مثلا لن ترتاح حتما اذا اردت ان يكون طعامك هو نفسه الذي تعودت عليه في بلادك النائية. وهب انك ممن يتسير لهم اصطحاب «طباخ خاص» من بلدك فان شعورك بالاحراج سيزداد فيما لو دعيت لتناول طعام عند احد جيرانك او اصدقائك. ثم ان تحضير المواد اللازمة للطبخات المحلية

عندنا والتي تمتاز بكثرة الرز والدسم وأنواع البهارات - كثيرا ما ترتطم هناك بصعوبات عديدة وقد تسبب مضايقات جمّة. ان مثل هذه الشروط لو تسنى لك ان تفرضها على جيرانك ومضيفك ربما تؤدي الى اعتبارك في عداد الضيوف الثقلاء وستضطرك حتما للاعتزال بنفسك.

لم اكن لأفهم الحياة بمثل هذا المقياس الضيق. فقد ابحت لنفسي منذ ان وصلت ان تتعود على استساغة المألوف من المآكل هناك ولو على سبيل التجربة والتنويع. وهكذا بين استنكار الاهل واعجاب أهل الضيعة كنت أكل الخبز المزعتر، الكبة النية، الزيت والزيتون والحمص بطحينه. الى غير ذلك من انواع المآكل التي يعافها اهل هذه الاطراف ويتقزز معظمهم من اكلها.

الا انني والحق يقال، لم استسغ مطلقا اكل اللحم النيء بالسهولة التي رأيتها عند اللبنانيين. ان من المناظر المألوفة جدا ان يأتي الانسان في الصباح الباكر الى بائع اللحم ثم يتخير بكل هدوء المواضع التي تعجبه من (الذبيحة) المسلوخة المعلقة وبعد ان يقطعها يبدأ في غمس طرفها في قليل من الملح ثم يلوكها بين اسنانه بنفس البساطة التي نأكل بها نحن قطعة من (الشوكولاته) او الحلوى.

واللبنانيون شديدا والتعلق بانواع الطعام التي لديهم لدرجة بالغة ولكل اكلة عندهم - حتى لو كانت تافهة - ميزات لا يحصيها الا الله والراسخون في فنون اكل اللحوم النية ! فالزعتر لا تجهل فضله الاطباء، والزيت بلسم لكل الامراض، والزيتون مذكور في القرآن وسائر الكتب المقدسة، واللحم النيء اساس الصحة وهو - كما لا يخفى - سهل الهضم! والثوم قل فيه ماتشاء وستكون مقصرا في حقه. أما الضفادع و«البزاق» وهو يشبه لحم المحار البري فهما عند عدد من اللبنانيين من مآكل الطبقة الراقية. والعصافير، خصوصا اذا كانت عصافير التين لها سوق رائجة في لبنان. وصيد العصافير مهنة متعارف عليها هناك (لا ادري

بالضبط اذا كان لها نقابة ام لا) وفضل هذه المهنة لا ينكر في تشغيل عدد لا يستهان به من (الايدي العاطلة) بين سكان الجبال الذين يعيشون من وراء صيدها وعرضها للبيع حية او مسلوخة جاهزة... ولعل من الطريف انني وجدت من بين الصيادين المسلمين من لا يتساهلون مطلقا في التقيد بالطريقة الاسلامية اثناء (ذبح هذه العصافير).

وكان بعضهم يحاول ان يطمئنني من هذه الناحية - بمتهى الجد - وهو يشجعني على شراء عصافيره.....

وطريقة شرب الماء بدورها - لها اسلوب خاص عند اللبنانيين. والغريب الذي لا يتقن فن الشرب من الكوز مباشرة (على نحو ما يفعله الهنود عندنا) كثيرا ما يتعرض للمضايقات او يعرض من معه اليها. وانا نفسي اشعر بالاحراج كلما اضطررت لطلب الماء فجاءني يتيه في كوز من الفخار او الزجاج. وكان يعتريني شيء من الخجل في كل مرة اسمع مضيفي وكان ذا هيبة وظرف - ينهر الساعي بالماء، قائلا: (هات كباية. اخونا من البحرين، وما بيعرف يشرب مثلنا من الابريق). على انه من الممكن على الراغب المجتهد تعلم شرب الماء على الطريقة اللبنانية بسهولة اذا ما وطن نفسه على تحمل سخرية الحاضرين كلما أخطأ في تجربة من التجارب وانا انصح من يرغب في تعلمها ان يبدأ اول ما يبدأ في الحمام، فهذه انجح الطرق على ما أظن واقلها خطرا.

عيون الصحة

وتحضرني بمناسبة الشرب، ظاهرة وجدتها في معظم جهات لبنان... تلك هي الاشادة بميزات ينابيع الجبلية والدعاية لها.

من المعروف ان ينابيع الجبلية هي المصدر الرئيسي لحاجات السكان، سواء للاستهلاك او الزراعة. ولكن في بلد كلبنان لا يجب الوقوف عند هذا الحد من استغلال الامور. فاذا كان مجموع المياه مثلا

لا يمكن ان يؤلف شلالا لتوليد قوة كهربائية (وشلالات المياه هي عادة المصادر الرئيسية للقوى الكهربائية) فلا أقل من ان يكون كل ينبوع، مهما كان عاديا، نواة لمنتزه جميل، أو مقهى بديع يجتذب اليه الرواد والمعجبين. ومن هنا بدأ التنافس بين كل مصيف وآخر حول الاستفادة من هذه الينابيع والدعاية لها وتشجيع الناس على زيارتها ولو كانت في أقصى الارض... واجتذاب الناس الى هذه الينابيع يتم باساليب مختلفة من الاغراء ولكن اشد تلك الاساليب رواجاً، واكثرها اجتذاباً للجمهور هي التي تتسم بطابع الدعاية الصحية.

لم اكن لاعلم - اثناء رغبتى الملحة الاولى لارتياح عيون الصحة في لبنان - ان ٩٠٪ على الاقل من ينابيع الجبال هي مصادر طبيعية للصحة والنشاط، وان في لبنان من هذه العيون الصحية ما لو تقاسمه جميع المرضى في القطر اللبناني لا نتابت كلا منهم اكثر من واحدة من هذه العيون الصحية الشافية للأمراض، المدرة للبول، والمفتحة لحصوات الكلي... لقد قدر لي ان ارتاد اشهر تلك العيون الصحية مرات عديدة - تأثراً بالدعاية الواسعة لها - وكانت الانطباعات التي تخلفها في ذهني كل زيارة مؤثرة ومضحكة في آن واحد. لم اكن أعرف قبل زيارتي لتلك الينابيع - ان معدة أي انسان، تستطيع مهما بلغت من الرحابة ان تسع من الماء بضع عشرات من اللترات دون ان تهدد بالانفجار على الاقل - الا حينما حظيت بمشهد جماعات المستشفين بتلك العيون الصحية المعدنية وهم يعيون الماء عباً بصورة جنونية مدهشة. ان هؤلاء الرواد المستشفين ليمثلون في هيتهم المتوترة بفعل التهالك على تفريغ القنينة من الماء تلو الاخرى في اجوافهم المتشنجة ثم اقبالهم بعد ذلك بصورة سريعة، وآلية، لماء اقل فراغ يحسونه كلما خلا شيء من جوفهم - ان هؤلاء ليمثلون ايشع صور الامتلاء والتضخم، مما قد يجب الى المرء الصيام عن الماء عدة ايام، وربما عدة اسابيع تخلصاً من ملاحقة اشباح هذه الكائنات

المليئة المخيفة اللتي يطيب لها ان تقضي الساعات الطوال بجانب تلك
الينابيع تلتهم كل زائر جديد، بنظرات تعبر - لا شعوريا - عن تكالب
وحرص، وكأنها تخاف على مياه الصحة من ان تنضب...! أو لا ترى
معي بعد ذلك، ان عيون الصحة هذه كثيرا ما تصبح نتيجة التصرفات
الجاهلة والدعاية المسرفة رزءا على الصحة، وجناية على سلامتها...

في المستشفى

والحديث عن عيون الصحة و الاستشفاء بها يجر بدوره الى
موضوع المصحات و المستشفيات. فكثيرا ما يكون القادم الى لبنان في
حاجة الى علاج طبي او عناية صحية، عندئذ يتضاءل التفكير في اللهو
و المتعة لتحل محله الرغبة الملحة في العلاج، ومن ثم تمر في ذهن
المريض اخيلة غريبة أخرى لا تقل عن أخيلة المصطاف الجديد، تحمل
في طياتها صوراً مختلفة تأتت عن طريق الوصف المسموع للمعاهد الطبية
الذائعة الصيت في حذقها بتشخيص الامراض وخبرتها في تحليل
اعراضها وتمييز انواعها، وما تستعين به في ذلك من المعدات الفنية
والاجهزة المستحدثة التي لا تنفك تؤدي عملها بدقة وانتظام في جو من
الهدوء داخل حجرات مقفلة النوافذ حالكة الظلمة الا من الاشعاعات
الكهربائية المنظورة وغير المنظورة التي لا تكاد تومض الا بمقدار، توفيراً
للفنقات الباهظة التي تستهلكها تلك الاشعة السحرية الثمينة...

وهناك بحذاء هذه المعاهد الطبية او في معزل عنها تنهض مصحات
ومستشفيات مضيئة الجنبات واسعة الارحاء فسيحة الردهات تسر القلب
وتشرح الصدر، تنتقل بين ارجائها ملائكة الرحمة من بني الانسان ربما
كانوا رجالاً من أودع خلق الله نفساً وأرقهم شعوراً مزودين بالحذق
الطبي والخبرة العملية في وصف الدواء اوشق الاحشاء، وتطبيب الاجسام
او جبر العظام، وربما كانوا نساء غاية كل منهن رعاية المريض والسهر

على راحته، فلا تنفك الواحدة منهن تأسو جراحه وتعنى به وتعهده في أكله وشربه، ونومه ويقظته حتى يكتب له الشفاء او يخرج من عالم الاحياء. واينما قلبت نظرك في ارجاء هذه المصححات او تلك المستشفيات فانت واجد البياض يجلل كل شيء رمزا للسلام الدائم والأمن المقيم، فأما النظافة فهي واجبة، واما التعقيم فاجباري، والحديث هناك لا يكون الا بالهمس، وكثيرا ما أدت الاشارة المختصرة واللمحة الدالة عن النطق او الكلام اذا كان فيهما ما يقلق المريض او يفسد عليه الجو.

تم لا تلبث انسجة الخيال هذه ان تتماسك في ذهن المريض بتكامل الصور الوصفية التي ملأت ذهنه، لتقدم الطب في لبنان حتى تتبلور على الشكل الذي تهواه نفسه، والوضع الذي يطمئن اليه ضميره. ومن ثم يتوكل صاحبنا على الله، واذا به بعد ايام قليلة يجد نفسه ضيفا على أحد تلك المستشفيات المحشورة حشرا في مسالك بيروت الضيقة تحيط بها من كل جانب مجموعة من المزعجات لا عدلها ولا حصر. أما ما يصادفه في داخل المستشفى نفسه فحري بان يمحو من ذهنه على الاقل مجموعة كبيرة من تلك الصور الخيالية التي تراءت له وغررت به.

ولا يكاد المريض يمضي ايامه الاولى وهو لما يجتاز بعد اولى أدوار الفحص والتشخيص لما يشكو من أوصاب حتى يشعر وكأن جهازا مخيفا من الجشع قد بدأ يطبق عليه ويأخذ بخناقه. وانه ليخال من فرط ما يعانيه من تكالب ذوي الاطماع عليه، ان في كل من حجرات الفحص ومختبرات التحليل، او عند معامل الأدوية وأصحاب الصيدليات، بل وفي كل مكان آخر يتصل بدائرة علاجه من قريب أو بعيد، يتصور ان أجراسا خفية قد بدأت تدق لكل هؤلاء مؤذنة بوقوع صيد جديد في شرك الأطماع وحبائل المناورات التجارية.

لا أريد هنا ان أقلل من شأن الطبابة او تقدمها في لبنان، فليس من

ينكر وجود الاستعداد الفني والخبرة العلمية، ولكن اين هو الضمير الحي الذي يحسن التصرف بكل ذلك في حدود المصلحة العامة. ولكننا لكي ننصف الاطباء، يجب ان نعترف بان الجشع داء اجتماعي يعم طبقات المجتمع على اختلافها قبل ان يكون قاصرا على الاطباء وحدهم، وان الرسالة التي تنكر لها الاطباء قد سقطت هي بدورها من قاموس المجتمع بما فيه طبقة التاجر والموظف والمدرس والمحامي وغيرهم وغيرهم... واذن فالمسئولية عامة وانما تتركز الاضواء عادة حول طبقة الأطباء بالذات نظرا لانها أشد تلك الطبقات مساسا بمصالح المجتمع ومن اكثرها قدرة على التحكم في مصائره. كذلك فان الضمير الاجتماعي الحي لا يمكن ان يسود المجتمع اذا كانت الاوضاع الاجتماعية نفسها فاسدة، وطالما كان مقدار الثراء هو الذي يحدد قيمة الفرد في المجتمع، فسيظل سعي الناس لانتهاز فرص الكسب من كافة السبل الممكنة امرا لا اعتراض عليه في منطق هذا العصر المادي. واذا كانت المساومة التجارية هي الطابع السائد دائما في المجتمع الاستغلالي الذي تتحلل فيه الروابط الاجتماعية، فانه ليس كلبنان بلد تقوم أموره على المساومة في كل شيء، لا فرق في ذلك بين من يريد ان يحتل مقعدا بسيطا في سيارة التاكسي او يتسئم كرسيا في الحكم.

ولكن بعض المساومات وخصوصا في مجال التطبيب كثيرا ما تكون على درجة من الرزالة لا تقبلها النفس بحال من الاحوال. تصور ان رجلا قد تهشم ذراعه في حادث اصطدام مروع، فيؤخذ الى الطبيب ثم تصور ان هذا المريض يبقى على هذه الحال يومين موضعا لمساومات تجارية رخيصة حول نفقات العلاج، وان خدم المستشفى يأتون اليه بعد ذلك (بالنقالة) لاخذه الى حجرة العمليات فلا يكون من الطبيب المختص إلا أن ينهر الخدم ويأمرهم بالتوقف حالا. لماذا؟ الجواب: لان المصاب لم يقدم بعد كفيلا بتسديد نفقات العملية اوانه لم يدفعها مقدما. ارجو ان

لا تنوء اعصابك لسماع هذه القصة فقد شهدت فصولها بنفسى رأي العين وزاد من وقعها لدي ان الطبيب المساوم كان من ذوي الشهرة والصيت سواء في عالم الطب الناجح او مجال الشراء الفاحش. وفي ردهات المستشفى سمعت من الفقراء شكاوى هي اقرب الى الخيال وما اكثر ما تسمع من هؤلاء من يقسم ان شفاءه او شفاء احد المقربين اليه قد كلفه ان يبيع اثاث بيته على علم من الطبيب - ليسدها ثمنا لاجرة العلاج الفاحشة.

وبالرغم من ان السماح لبعض المرضى بمغادرة الفراش قبل اتمام المعالجة يعتبر في كثير من الحالات جريمة انسانية، فقد حدث لشخص أعرفه ان طلب منه في احد تلك المستشفيات ان يغادر المستشفى لان المبلغ الذي دفعه قد انتهى، وكاد ان يقع في كارثة لولا ان فتح الله عليه بما يستطيع به تخطي اهم مراحل العلاج. اما في مصحات الجبال فان العادة التي درج عليها القائمون بامرها هناك ان لا يقدم علاج للمريض الا بعد قبض ثمنه، وليس للضرورة أحكام عند هؤلاء، فعلى المريض - وهو العاجز المقعد - ان يدبر حالا ما يطلب منه من مصاريف باهظة والا انقطع عنه العلاج وصار له ان يختار المصير التعس الذي ينتظره.

وكما ان الغالبية الكبرى من مستشفيات لبنان هي ملك لأفراد يوجهونها كما يشاؤون دون تمسك بالتزامات خاصة و ضمانات معينة لصيانة مصالح المرضى الذين تضمهم، فان عددا لا يستهان به من تلك المستشفيات غالبا ما يكون ملحقا باحد المعاهد التبشيرية او بمؤسسات ذات صبغة معينة، حتى اصبح من بينها ما هو ملحق ببعثة افرنسية وطابعه افرنسي في كل شيء، او تابع لمؤسسات امريكية ذات توجيه امريكي خالص، او مرتبط باي معهد اجنبي آخر يزكم الانوف بروائحہ الاستعمارية البغيضة.

وخدمة المريض تتفاوت في كل مستشفى عنه في الآخر، وهي في

المستشفى الواحد تختلف حسب قدرة المريض المالية، التي تحدد له نوع الخدمة وربما نوع العناية الطبية أيضا. ولكن الصفة العامة التي لا حظتها في أكثر المستشفيات تقريبا هي اختيار الممرضات من صغيرات السن اللواتي تحوج أكثرهن الخبرة في وعي رسالة التمريض والمران في تطبيق اصوله. وتساءل عن السبب في عدم قصر التمريض على ذوات الخبرة من كبيرات السن، فيقال انه قلة الرواتب التي تجرى لصغار الممرضات، ولكن ذلك ليس هو السبب الوحيد على ما يبدو اذ ان الموضوع لا يخلو من نظرة تجارية تشبه الى حد بعيد نظرة معارض الأزياء او تجار الكماليات في اختيار المستخدمات بغية التفوق على منافسيها في اجتذاب الزبائن.

ومهما يكن من امر فان على المريض في كثير من الاحوال خصوصا اذا كان ضعيف الحال، ان يتحمل حماقات صبيانية تصدر عن فتيات محدودات الافق لا ينظرن الى خدمة المريض الا من قبيل السخرة المملة والعبء المضايق الذي ينتظرن التخلص منه بفارغ الصبر حالما ينتهي الدوام. ومن الذي يلومهن على هذا الشعور، او ليس المستشفى وحده المسئول عن جهل مستخدميه.

ثم ان وجود المستشفيات على خطوط «الترام» ظاهرة منتشرة في بيروت، واذا كانت عربات «الترام» هي دائما الرمز المجسم للضوضاء المزعجة فان المريض يجب ان تكون لديه اعصاب من الفولاذ قبل ان يستطيع تحمل ضجة الترام وصخب الشوارع المكتظة بالمارة والعربات والقاطرات، فكيف اذا ما اقترن كل ذلك باوصاب الداء وآلام المرض.

لتلك الاسباب وغيرها اصبحت نظرة الناس للمستشفى والطبيب وما يتصل بهما تقترن بالتذمر حتى اصبح الاستغناء عن مراجعة الطبيب في الحالات العادية امرا مستحسنا جدا، كذلك فان الطب القديم لا يزال يلاقي رواجاً حسنا، فالمجبر القديم لا يزال في عمل متواصل بالرغم من

توفر الاطباء الحاذقين في طب العظام. ولكن مع كل ذلك، فانه لم يخطر ببالي ان أعمال الشعوذة والدجل يمكن ان تجد لها مجالاً في لبنان البلد المتنور، حتى فوجئت في أمسيات احد الايام وكنت راجعا من بيروت الى مصيفنا في الضيعة بالنبا الطريف التالي: لقد جاءت الى الضيعة صباح ذلك اليوم احدى عجائز الغجريات تلف رأسها بعمامة أرجوانية، ويطقّ من حولها مسباح غليظ كرقبة الافعى، وادعت انها (بصارة) بعلم الغيب قادرة على شفاء الامراض، فتهافت الناس عليها رجالا ونساء، واستطاعت ان تستحصل في ذلك اليوم وفي ظرف سويعات فقط مبلغا كبيرا لم اصدقه لأول وهلة ثم تركوها تذهب مصطحبة كمية لا بأس بها من الطعام والمثونة، بعد ان حصلوا منها على (وعد) للمجيء في اليوم التالي لشفاء عاهاتهم، ولكنها لم تف بالوعد فلم ترجع. وبعد اسابيع قليلة من هذه الحادثة ترامى الى سمع القرية ان طبيبا روحانيا حقق المعجزات في شفاء الامراض وانه يقيم في دمشق، فانطلقت على التو من الضيعة قافلة من السيارات كل من فيها يحمل معه جرثومة مرض مزمن يتطلع الى الشفاء منه، ثم عادت الحملة تجرر من ورائها بقية آمال خائبة.

اللهجة اللبنانية:

يواجه القادم الى لبنان صعوبة كبرى - في بادئ الامر - في فهم اللهجة اللبنانية الدارجة، واذا كان صاحبنا من العراق بصورة خاصة فان كل تفاهم كثيرا ما ينقلب الى سوء تفاهم على طول الخط. كنت احاول دائما التغلب على هذه الصعوبة، على ان طمعي لم يكن بالطبع ليصل الى الدرجة التي انتظر فيها اجادة الحديث باللبنانية الصرفة ومصطلحاتها، ولكن الذي كنت ارجوه دائما هو حسن الفهم لما اسمع. اما الاداء فكان عندي اقل صعوبة نظرا لميالي لا استعمال اللغة العربية كلما وجدت الى

ذلك سيلا. ومع تعودي في الاخير على سماع اللهجة اللبنانية فاني لم استطع مطلقا استساغة النشاز الناشء من تلفظ انواع خاصة من الكلمات كتلك التي تتعدد فيها القافات مثلا كلما سمعتها تتردد بسهولة غريبه على ألسن اللبنانيين. ان كلمة (بقاع) تلفظ على الطريقة اللبنانية في استبدال (القاف) بألف، هكذا: (بآع) وعلى مثل ذلك فقس.

ان اللبنانيين - وربما اهل كل بلد آخر - شديدا التعصب للهجتهم الدارجة. على انني تمشيا مع اعتقادي بضرورة رفع مستوى اللهجات المحلية الدارجة في ارجاء الوطن العربي وتقريبها من اللغة العربية، لم اكن ابدأ لأجعل من هذا الموضوع ماثرا للنقاش او مدعاة لتفضيل لهجة بلد على آخر كما هو المتعارف دوما، وكنت حينما اسمع صاحبي اللبناني يتحمس في الاشادة بحسن اللهجة اللبنانية وانها اقرب من غيرها الى لغة القرآن الفصحى، كنت كثيرا ما انهي الحديث، بقولي مؤمنا على كلامه: ان كلمة (شوب) التي تتردد كثيرا على ألسن اللبنانيين هي بدورها قرآنية فقد وردت في قوله تعالى: ﴿ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم﴾!

ويعتبر الشعر الزجلي بمثابة السجل للغة العامية، وانتشار الشعر الزجلي في لبنان وتعلق افراد المجتمع به امر واضح وملموس عند مختلف الطبقات بمن فيهم المثقفين والمتأدبين، بل لقد دفع التشجيع الذي يلاقه شعر الزجل عند المتعلمين، أحد الأدباء المشهورين لتحضير مقالات متسلسلة تعنى بدراسة الشعر الزجلي ابتداء من اصوله السريانية الاولى في اديرة الرهبان!. وقد كنا نعتقد ان قيمة هذا الشعر بالنسبة للادب العربي ستظل حيث هي من اصولها السريانية لولا ان الكاتب عاد فتخبط وهو في نشوة من الحماس بادعاء نسبة هذا الزجل للشعر العربي. ومهما يكن من امر فقد حمدنا الله ان الكاتب المذكور لم يتورط بالرغم من مسحة (الأصالة) التي حاول اضاءها على الشعر الزجلي العامي، فيما تورط فيه الدعاة لاستعمال اللهجة العامية، وحسبنا منه اعترافه بان الادب

الزجلي او العامي لا يمكن ان يصلح للتصدير الى دنيا العرب، وعذوبته في ان يبقى محليا صرفا.

لقد كان من الصدف ان أجد من بين اهالي الضيعة التي سكنتها شاعرا زجليا مشهورا (ووجود امثال هؤلاء الشعراء في الضيعة بركة على أهل تلك الضيعة، فالشهرة هناك وسيلة للنفوذ عند الجهات العليا وهي بذلك سلم للوساطات ولقضاء الحاجات وتفريج الملمات) وقد تسنى لي ان أحضر بعض تلك الحفلات الزجلية الشعبية، وكان الزجل الذي سمعته هو من النوع الارتجالي الذي تلقى فيه الاشعار القاء على البديهة ويتخذ صورة حوار أو مساجلة شعرية بين طرفين ثم يتطور في النهاية الى مفاخرات حامية ومناظرات دامية. لقد بدا لي ان روعة المناظرات الزجلية ترتبط اشد الارتباط بالجو الذي تلقى فيه وما تثيره عند الحاضرين من استفزاز عاطفي وتحمس شديد يبلغ ذروته حالما ينتهي احد الطرفين من ارتجال القول دفاعا او هجوما ويأتي دور خصمه للجواب، عندئذ تشرئب الاعناق وتفتح الاذان وتحقق الانظار ثم تعلو ضربات الدفوف وتزداد دقاتها سرعة وكأنها متحمسة بدورها لسماع الجواب. فيبدأ (على الحاج) الزجال المسلم من «القماطية» قائلا: «شاعرنا من آلامو... صارت تعدّ عظامو...» ولا يلبث الزجال الآخر المسيحي المشهور (على الحاج) ان يجيبه على التو: «بشربة غب... بيرجع شب... إنكأو بأخر أيامو».

قلت لاحد رفقائي وقد سألني عن رأيي في هذه الحفلات الزجلية، ان من الخير ان يستغل اقبال اللبنانيين على سماع الزجل في نواحي اكثر فائدة للمجتمع وأخرى بتنوير الافكار فذلك اجدى من التعلق بمواضيع شخصية تؤدي غالبا الى اثاره الحزازات وان كانت تأتي عادة تحت ستار من المرح والفكاهة اما الشيء الذي لم استسغه مطلقا فهو مجاهرة اولئك الشعراء «الافذاذ» باستلهم بنت الحان وربيبة الدنان فيما ينظمون من زجليات وذلك على مرأى من الناس. انه ليس اقتل لعناصر الخير في

النفوس من ان تتقبل المرح على حساب الاستقامة، او ان تستمد غذاءها الروحي من افواه السكارى والمعربدين.

الجامع محط الآمال

ان من أهم الملاحظات التي يواجهها القادم الى الضيعة هي انها من الضيع القلائل التي تضم غالبية من المسلمين. قلت في نفسي لا بد اذن ان يكون للجامع شأن في هذه الضيعة الاسلامية كما ان للكنائس شأنها في القرى المسيحية الكثيرة.

كنت كثيرا ما استيقظ مبكرا في الصباح لا على صوت المؤذن، كما هو المفروض، ولكن من جراء سيارة الباص المكلفة بنقل ذوي الاعمال في الصباح الباكر. اما سبب ذلك فهو ان موقع بيتنا من الجامع كان على درجة من البعد لا تسمح بوصول صوت المؤذن، ولكن ذلك ليس هو السبب الوحيد فقد وجدت ان لنشاط المؤذن - وهو نفسه شيخ الجامع - دخلا في الموضوع.

ولشرح ذلك لا بد من ان نشير الى ان الجامع المذكور لم يكتمل بناؤه بعد نظرا لنفاذ المادة التي امكن استحصالها من المتبرعين لهذا الغرض الخيري، ثم ان انصراف معظم افراد الضيعة - والشباب بصورة خاصة - عن تأدية الفروض الدينية وتهاونهم في المحافظة عليها هو من دواعي الهجران الذي يشكو منه الجامع ويتبرم به الشيخ الذي بدأ يفقد حماسه السابق. ولا يقتصر الاهمال على الشباب وحدهم. فان الكثير من الآباء ايضا يشاركون الشباب هذه الظاهرة المؤسفة.

ولا ازال الى الآن اشعر ذات الشعور الاول بالغرابة كلما تذكرت منظر ذلك الكبير الذي جاوز الخمسين وربما الستين من العمر وهو يحاول للمرة الاولى في حياته ان يتعلم مبادئ الوضوء والصلاة. واخشى ان تكون تلك المرة هي الاولى والاخيرة في حياة ذلك القروي الساذج،

فقد فهمت في اليوم التالي انه لم يعاود المحاولة، الامر الذي ادى الى نشوب نقاش بيني وبين شيخ الجامع و كان الموضوع هو: هل من الواجب احاطة امثال هؤلاء بتفاصيل العبادات المستحبة منها والواجبة دفعة واحدة ام ان الحكمة تقضي تلقينهم اياها بصورة مختصرة وبسيطة في حدود الواجبات اول الامر، وكان ذلك ظنا مني ان التزام المشايخ واهتمامهم الكبير بتعليم المستحبات والاسهاب في تحفيظ الادعية والاوراد الطويلة هو مما يعقد الامور ويؤدي الى تنفير الراغبين.... على انني مع ذلك ادركت في الاخير مدى الصعوبة التي يواجهها الشيخ في حمل اهل الضيعة على تشجيع الجامع وتأدية الصلاة فيه.

على ان الجامع مع كل ذلك الهجران بالنسبة الى تادية العبادات كان يحتل اهمية كبرى ومكانة محترمة عند جميع افراد الضيعة على السواء. فهو اولا الاثر الذي يزوره الوافدون والمصطافون، كما انه لا يزال المشروع الذي يعلق عليه اهل الضيعة كثيرا من آمالهم. لقد تم الى الان انشاء مدرسة للبنات في الطابق السفلي والمحاولة جارية في انشاء مدرسة أخرى للبنين. وهو بعد ان يكتمل بناؤه سوف يصبح أصرة من اواصر الوحدة بين افراد الضيعة وموضعا للتشاور في شؤونهم المهمة هذا بالاضافة الى غايته الاولى كمسجد للعبادة. وحتى الاطفال فقد كان للجامع الذي لم يكتمل بعد، مكانته وقداسته في نفوسهم. الا ترى «فاروق» الصغير وهو مثال الاطفال الاخرين في البراءة والسذاجة، انه لا يجد من الاقسام الغليظة التي يدفع بها عن نفسه غضب اهله وجيرانه لما يرتكب من أخطاء، غير هذا القسم: (وحياة الجامع، وحياة تراب قبر خيي...) وهكذا يحتل الجامع منزلة كبيرة عند الكبار والصغار على السواء.

على انني كنت اسائل نفسي دائما: ترى ما حاجة هذه الضيعة الصغيرة الى جامع كبير ضخم كهذا مع قلة الاقبال عليه، ولكن الايام

القليلة القادمة كانت كفيلة بالجواب. انني لا ازال الى الآن اتذكر تلك الكلمات التي سمعتها من أحد الشبان هناك، والتي تنطوي على فحوى الجواب الذي تمخضت عنه الايام المقبلة. كان ذلك الشاب يتكلم بصوت ملؤه الحماس والتأثر معا، مجيبا على الشكوى من سلوك الشباب الديني ما فحواه:

(ان لومكم هذا قد يكون في محله لو ان ضيعتنا كانت من قرى الجنوب ذات الطابع الاسلامي الخالص، أما هنا فأنا الوضع يختلف تماما. تصوروا اننا هنا نصحو وننام على اجراس الكنائس التي تشرف علينا وتحيط بنا من كل مكان، واننا في وضعنا هذا اشبه بالجزيرة الصغيرة العائمة في خصم واسع تكاد امواجه ان تبتلعها في كل لحظة. ان المحيط الذي نعيش فيه يجبرنا على ان نتغاضى عن اشياء كثيرة لا يرضاها الضمير الديني. فمثلا نحن كي نعلم ابناءنا وبناتنا مضطرون لارسالهم الى الاديرة القريبة فما الذي تنتظره من هؤلاء الاحداث وهم يتلقون اولى توجيهاتهم من الدير. وقد تسأل عن السبب الذي يدفعنا الى ارتضاء هذا المركب الصعب، والجواب هو اولا عدم توفر المدارس الحكومية مما يضاعف مشقة التعليم على طبقات الشعب الفقيرة وفي طليعتهم نحن، وثانيا اعتماد طريق النجاح في اقتحام معترك الحياة على اتقان اللغة الاجنبية وهو نقص تقع مسؤوليته على الاوضاع الاجتماعية السائدة والسياسات الادارية المتعاقبة، وبما انه ليس لدينا من المعاهد الاسلامية العدد الكافي لسدّ هذا النقص في تعلم اللغة الاجنبية فليس امامنا، لضمان مستقبل اولئك الابناء غير ادخالهم في مدارس الأديرة او الكليات الاجنبية.

ان فئة على مثل قلتنا حرّية بأن تتحلل وان تفقد حتى طابعها الاسلامي المميز، ولكننا على العكس من ذلك نحمد الله اننا لا نزال نشعر بهذه الروح الاسلامية الوثابة بين جوانحنا، والتي نعتر بها و نجتهد

في تنشئة ابنائنا عليها رغم عنت الظروف . لقد ناضلنا ونحن القلة بعزيمتنا غزوات الدروز ونفوذ الاقطاعيين، وانه لمن دواعي الفخر ان نستطيع المحافظة على طابعنا الاسلامي رغم ذلك الصراع الشديد بيننا وبين المؤثرات المحيطة بنا من كل جانب).

والحق ان المرء ليلمس هنا رجولة وحيوية، واعتزازا، وذلك كله هو ما تسعى اليه كل طائفة في لبنان لحفظ كيانه وصيانته (استقلالها) في ظل التنظيم الطائفي الذي يسيطر على لبنان من ادناه الى أقصاه. منذ سنين قليلة خلت كان اهل الضيعة فلاحين ومستأجرين عند فئات الاقطاعيين، وبالرغم من ان جزءا لا يستهان به من اراضيهم اليوم لا يزال ملكا للدير، فان هؤلاء الفلاحين بالامس استطاعوا ان يمتلكوا اليوم القسم الاعظم من تلك الاراضي بكدهم المتواصل، وكانوا يشترون الارض التي يعملون فيها من كسبهم الخاص كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا.

ذلك هو سر الجامع الكبير، انه حقا محط الآمال ورمز الجهاد الطائفي المتواصل في موطن الطوائف وبلد الاقليات... لبنان.

المجتمع اللبناني

في لبنان لا يستطيع أي انسان - مهما كان محبا للعزلة - ان يكون بمعزل عن مشاكل المجتمع وقضاياه العامة. ففي هذا البلد الصغير بمساحته الكبيرة بنزعاته وأهوائه، تعيش المذاهب جنبا الى جنب وتتزاحم الطوائف والاقليات في ميدان السيطرة والنفوذ وتتنافس الاحزاب والمنظمات السياسية على كراسي الرئاسة والحكم. ومن وراء الانصاب البارزة التي تحدد الاتجاهات وترسم الاهداف يتصارع المجتمع في مرافق الاعمال ومكاتب التوظيف وسائر مجالات التنافس في ميدان الحياة الواسع.

ان مصالح الطوائف والاحزاب ورغبات الافراد والجماعات لتتشابك

هنا في لبنان على نحو عجيب من التنظيم العفوي للاتجاهات المتناقضة والتوفيق الارتجالي بين وجهات النظر المتعددة. وان القوى المخزونة والطاقت المتجمعة لتنتلق بحرارة وعنف في هذا الجو المضطرب وكأنها مغمضة العينين تقتلع كل ما يصادفها في الطريق دون ان تعي سوى دوافعها الرئيسية او تستكين لغير توجيهها الخاص.

لذلك فأن انسانا من غير لبنان ليجد نفسه عاجزا منذ اللحظة الاولى عن ان يتتبع بدقّة رأس الخيط الذي تتفرع منه امهات المسائل الكبرى في المجتمع، فلا بد له قبل ان تتسنى له معرفة شيء من هذا القبيل ان يكون ذا إلمام واسع باحوال البلاد ومصالح الفئات والطوائف، واجهزة الحكم، وتيارات المجتمع الخفية التي ينبعث معظمها من مصادر شتى منها ما هو غامض موغل في القدم ومنها ما هو وليد التطورات والاحداث الاخيرة ولا بد له ايضا من ان يكون ذا فراسة صادقة في استكشاف مغاور النفسية القلقة التي ولدتها ظروف اجتماعية متباينة كالتى توجد في لبنان.

واذا كنت على يقين من ان القارئ الكريم لا ينتظر مني بالطبع ان اضع يده على اسرار الاجتماع او خفايا السياسة او تيارات الثقافة وغيرها من الابحاث التي تخرج بطبيعتها عن نطاق هذه المذكرات العجلى، فاني ساقصر الحديث على النواحي التي سجلت في ذهني انطبعا خاصا او تركت لدي ذكرى معينة.

الطوائف والاقليات

ان اول ما يلفت نظر القادم الى لبنان ذلك التباين الذي سرعان ما يحسه بين من يختلط بهم من افراد المجتمع، وهو تباين لا يقلل من شأنه اتفاق الغالبية العظمى من الناس في العادات العامة ومظاهر الاخذ باساليب الحياة الغربية الحديثة، فهو يتناول المعتقدات السائدة ومجموعة التقاليد

واساليب التفكير في الشؤون العامة والقضايا الوطنية او القومية. نحن هنا لا نميز بين اللبنانيين خارج بلادهم على اعتبار انهم عرب تجمعنا وايهم روابط قومية وتاريخية، وقليل ما نعنى بالتفاصيل والسؤال حول المعتقد الديني او الطائفي لكل منهم، ولكن اللبنانيين انفسهم لا يستطيعون تطبيق هذه النظرة فيما بينهم أي في لبنان نفسه. فان التنظيم الطائفي ظاهرة اساسية في تركيب عناصر المجتمع وتوجيه سعيها المشترك ضمن دوائر طائفية معينة. وفي المجال الرسمي فان التقسيم الطائفي معترف به ولا يزال من التقاليد المتبعة ان يكون رئيس الجمهورية مسيحيا ورئيس الوزارة مسلما سنيا ورئيس المجلس النيابي شيعيا ثم يطرد التقسيم على مثل هذا القياس في توزيع الوظائف العامة بين مختلف الطوائف الاخرى. لذلك فلعل من المفيد ان نستعرض بايجاز توزيع الاقليات والطوائف في لبنان مع دراسة مختصرة لميول كل منها:

يدل احصاء سنة ١٩٤٤ على ان توزيع الاقليات الدينية في كافة

ارجاء القطر اللبناني هو كما يلي:

| | |
|---------|----------------------|
| ٢٣٥,٥٩٥ | المسلمون (السنة) |
| ٢٠٩,٣٣٨ | المسلمون (الشيعية) |
| ٧٤,٣١١ | الدروز |
| ٣٢٧,٨٤٦ | مسيحيون موارنة |
| ٦٤,٢٨٠ | مسيحيون كاثوليك |
| ١٠٩,٨٨٣ | مسيحيون ارثوذكس |
| ١٠,٤٤٠ | مسيحيون بروتستانت |
| ٩٥,٧٤٩ | مسيحيون ارثوذكس ارمن |
| ١٠,٠٤٨ | مسيحيون كاثوليك ارمن |

| | |
|-----------|------------------------|
| ٤,٩٨٤ | مسيحيون كاثوليك سوريون |
| ٣,٧٥٣ | مسيحيون ارثوذكس سوريون |
| ٥,٦٦٦ | يهود |
| ١٠,٧٠٨ | اديان مختلفة |
| <hr/> | |
| ١,١٢٦,٦٠١ | |

وتوزيع مناطق الاقليات بصورة عامة كما يلي:

المسيحيون والدروز في الجبل، السنة في المدن الساحلية، الشيعة في الجنوب والارمن في بيروت.

ومن الاحصاء المذكور يبدو أن ٥٣ بالمائة من سكان لبنان مسيحيون و٤٦ بالمائة مسلمون وان اكبر اقلية واحدة منفردة هم الموارنة ونسبتهم ٢٩ بالمائة من مجموع السكان. على اننا لو سلمنا بصحة الاحصاء رغم المطاعن التي وجهت اليه من وجهة نظر المسلمين الذين يرون لهم ما لا يقل عن النصف من مجموع السكان، فان الفارق في الاحصاء المذكور بين مجموع الطوائف المسلمة والمسيحية يكاد يتركز في عدد المسيحيين الارمن، وهؤلاء حديثو العهد بالسكنى في لبنان وأقدم تاريخ لهم فيها لا يتجاوز الحرب العظمى أي ما بين ١٩١٤ - ١٩١٨ سوى عدد قليل جدا وجدوا قبل هذا التاريخ. وقد سكن هؤلاء الارمن في اكواخ مؤقتة خارج بيروت وكانت لهم مستعمرة مستقلة في سهل البقاع ويرجع الفضل الاكبر في ايوائهم وتمهيد سبيل العيش والسكنى لهم للسلطات الافرنسية التي قيل انها انما فعلت ذلك بقصد تغليب العنصر المسيحي على البلاد. ومهما كانت الحال فان كلا من المسيحيين والمسلمين يعد نفسه العنصر المتغلب، هذا في مجال الجدل اما في الواقع فقد كانت الطوائف المسيحية الى سنين ماضية هي الممسكة بالكثير من مقدرات البلاد سواء منها في السياسة والثقافة او الاقتصاد. على ان

الذي يهمننا من موضوع الطوائف، هذه الظاهرة العجيبة التي جعلت من لبنان ذلك القطر الصغير وهو لا يتجاوز في تعداده المليون والمائتي ألف مواطن مأوى لا أكثر من ١٦ طائفة دينية مختلفة لكل منها ميولها الخاصة واتجاهاتها وتقاليدها في مختلف الشؤون، الامر الذي ادى الى اعتبار لبنان في العرف الدولي الملجأ الامين للاقليات الدينية في البلاد العربية وشرقي البحر الابيض المتوسط.

الحياة السياسية

ان الذي يقدر له ان يشهد شيئاً من معارك الانتخابات في لبنان يستطيع ان يتبين بوضوح اثر التقسيمات الطائفية في توجيه التيارات السياسية المختلفة. ان مصير المرشح في الانتخابات يقرره شدة تمسك ذلك المرشح بالرباط الطائفي ومدى ما يتمتع به في دائرته من نفوذ مادي ومعنوي. وفي غمار معارك النفوذ هذه تبدو الكفاءات المجردة عديمة القيمة مطلقاً في ضمان نجاح المرشحين. وما اكثر ما ترتفع الشكوى من جمهور المثقفين الواعين في كل مناسبة ضد تسلط جماعة الاقطاعيين في مقدرات البلاد وتلاعب ذوي النفوذ في مصير الانتخابات باساليبهم المختلفة التي تتراوح بين الاستمالة بالمال او التهديد بقوة (الزلمة) و(القبضيات).

فاذا ما تركنا المرشحين جانبا ورحنا الى الجمهور الناخب وجدنا العوامل نفسها تفرض وجودها بشكل مريع. فالاصوات تعرض هنا بالمزاد، والتي لا يمكن تحصيلها بالمال يمكن استمالتها بالوعود البراقة. فمرشح هذه القرية يلتزم بالسعي لتبليط الشارع الفلاني او جر الماء للجهة الفلانية، بل ان سعي احد المرشحين لتخفيض اجور الكهرباء في منطقة معينة كفيل بأن يكسبه شعبية رائعة، وهكذا فان كسب الاصوات لا يكون في اكثر الاوقات رهينا بما يتمتع به المرشح من كفاءة وما يتصف به من

وطنية او ما يلتزم به من خدمة للصالح العام كالقضاء على الفساد ومكافحة نفوذ الاقطاعيين ومقاومة المشاريع الاستعمارية في الداخل والخارج وانما يكون بمقدار ما يحقق من مصالح كل طائفة او جماعة على حدة.

في سبيل المساومة على مجموعة الاصوات تميل كل طائفة الى تكتيل الرأي فيها، بل وحتى الاسر الكبيرة تميل كل منها الى تكتيل افرادها لهذا الغرض. ولمعظم العوائل المشهورة رابطة فيما بينها تسمى (جامعة) مهمتها دراسة شئون الاسرة والاتفاق على تأييد المرشحين. وتوزع على افرادها شارات تحمل شعار الاسرة. ويمكننا ان نعتبر هذه التكتلات ضمن الاسرة الواحدة بمثابة الخلية الصغيرة للحياة الطائفية في لبنان، انها بمثابة المركز الذي تنداح منه موجات متعاقبة من التكتلات الطائفية تكبر شيئاً فشيئاً حتى تنتظم المجتمع على نحو من النظام الهندسي الدقيق.

والرأي الفردي لا اثر له وكثيراً ما جرّ صاحبه الى نتائج وخيمة أهونها اهدار مصالحة وتلاشي شخصيته أوضاعها في خضم التيارات الحزبية المتضاربة اذكر مثلاً حينما كنت أرافق احدى الشخصيات في زيارة لمناطق الجنوب لا تخلو من غاية في الدعاية الحزبية للانتخابات وكان هدف صاحبي احدى القرى الصغيرة هناك. لقد هالني ذلك النشاط الكبير الذي لمستته والحماس الشديد للتصويت في مثل هذه القرية الصغيرة. ولكن الكارثة التي لم يستطع احد من أفراد القرية ان ينام على ذكراها هي ان احد الشبان قد رفض اعطاء صوته للمرشح الذي حصل عليه الاجماع. وهنا بدأت اساليب الاقناع ثم الضغط فالتهديد، وفي مجلس ضم رجالات القرية وأعيانها ابلغ ذلك الشاب المسكين بان عليه ان يستعد لمقاطعة أهل القرية اياه اذا هو لم يصوت معهم. ومثل هذا الدرس ينتظر كل من تسول له نفسه الانفراد برأيه الخاص.

والرشوات كما قلت سابقا عامل مهم لنجاح المرشحين، وانا لا اريد ان أحكم على الوضع من خلال الاقوال المسموعة لذلك احيل القارئ على كتاب (قبل وبعد) للصحافي المعروف اسكندر رياشي ففيه وصف طريف للحياة السياسية في لبنان منذ عهودها الاولى الى الآن.

الحياة الثقافية

كثيرا ما وصف لبنان بانه بلد النور والاشعاع الفكري في الشرق، وقد أصبح هذا الوصف سائغا مألوفاً في مجال الحديث عن النواحي الثقافية في هذا القطر. والواقع انه اذا كان المقصود من ذلك الدلالة على ما وصلت اليه البلاد من تقدم في محو الامية وفي مضمار التربية والتعليم او الاخذ باساليب الثقافة في عالم الغرب، فانه يصبح وصفا عاديا لا غبار عليه، اذ لا ينكر ان نسبة المتعلمين في لبنان هي أكبر منها في أي بلد آخر من بلدان الشرق قاصيه ودانيه. ولكن من التجاوز في رأيي ان يطلق هذا الوصف للدلالة على مستوى معين من الثقافة القومية الناضجة التي يتطلع اليها العرب اليوم في كافة اقطارهم.

والسبب في ذلك ان مفهوم التوجيه القومي نفسه ليست له حدود متفق عليها في المجتمع فلكل طائفة سياستها الخاصة ازاءه. فالطوائف المسيحية مثلا والمارونيين على الخصوص كانوا وما يزالون يتعشقون الثقافة المسيحية الغربية ويربون ابناءهم تربية غربية خالصة، وقد قطعوا شوطا بعيدا في اقتباس عادات الغرب وتقاليده، ثم ان اللغة الافرنسية هي لغة التخاطب الرئيسية والثقافة الافرنسية هي السائدة، وبرامج التعليم تنتهج في معظمها اصولا غربية خالصة.

اما المسلمون فهم اقل اندفاعا وراء ثقافة الغرب وتقاليده وبالرغم من ان لهم معاهدهم التي تعنى ببث الروح العربية الاسلامية فانها لا تزال قليلة العدد وغير كافية، ولا يزال التعليم العالي توجهه ارادات لا تقييم

وزنا كبيرا للتوجيه الثقافي من وجهة النظر العربية. ومن الواضح ان وجود مثل هذا التناقض في موقف كل طائفة من تيار (التفرنج) الطاغي وتعلق كل منها بثقافة مغايرة بل ومتناقضة في كثير من الاحيان يجعل من العسير تكتل هذه القوى جميعا تحت راية عربية واحدة يتحدد فيها معنى ثابت للصفات العربية والقومية في المجتمع.

ان لبنان في وضعه هذا يشبه ذلك الجسم الاسطوري برؤوسه المتعددة، فبينما يتجه احد تلك الرؤوس نحو الغرب يخالجه التحفز للسير في ركابه والمساهمة في ميادين نشاطه المختلفة بنفس الاساليب التي يستعملها، يستدير منه رأس آخر متطلع نحو عالم العرب تواق للمشاركة في حركاته التحررية وجهوده الانبعاثية. على ان من بين تلك الرؤوس ما هو مطرق بطبيعته الى الأرض متمسك بالأشبار القليلة التي يعيش فيها يستوحي منها تقاليد طائفية عتيقة ونعرات اقليمية محدودة، ومنها ما هو حائر لم يستقر نظره بعد على هدف ثابت لانه لا يزال يعتبر دخيلا على البلاد فاقدًا لاحساس التجاوب مع تربتها.

ثم ان النظرة الاقليمية المحلية نفسها ليس لها حدود واضحة في لبنان، ومهما بذل من جهود لخلق وعي وطني سائد بين ابناء هذا البلد الصغير سيظل اختلاف وجهات النظر في ذلك قائما بين كل طائفة واخرى. فمثلا لقد كان تدخل الدول المسيحية وعلى راسها فرنسا في شئون لبنان يلاقى تأييدا من جانب المسيحيين بصورة خاصة باعتبار انها حامية المسيحية في الشرق، بينما يعتبر هذا التدخل بالنسبة للفئات الاخرى نفوذا استعماريًا وتدخلًا اجنبيًا بغضًا. وبالمثل فان موقف المسلم وحتى المسيحي المتمسك بعروبه تجاه أي تدخل عربي في شئون لبنان لن يتسم بنفس الشعور بالرغبة الذي سيسود طوائف أخرى لا تشجع هذا التدخل مطلقًا. هذا بينما يميل قسم آخر من الاقليات الصغيرة الى المحافظة على الكيانات القائمة كما هي خوفا من ان يؤدي أي شكل

تنظيمي جديد الى اخلال التوازن فيما بينها.

ومهما يكن من امر فمما لا شك فيه ان الدعوة العربية قد اخذت تكسب في عهد الاستقلال كثيرا من الانصار، ولكنها لن يقدر لها النجاح الا حينما يتسنى للوعي العربي ان يكتسح جذور الاقليمية ونظرتها المحدودة الضيقة.

التعليم

قلت فيما سبق ان نسبة المتعلمين في لبنان هي اكبر منها في أي بلد شرقي آخر، ولكن ليس معنى هذا ان طلب العلم في لبنان سهل المنال، كلا، فربما كان العكس هو الصحيح. ان التعليم الحكومي المجاني يكاد يكون في لبنان اسما او رمزيا فقط بالاضافة الى انه يقتصر تقريبا على التعليم الابتدائي، اما المدارس الكثيرة والمعاهد العديدة المنتشرة في كل بقعة من لبنان فانها مدارس خاصة او اهلية. وعلى ذلك فقد اصبح كل لبناني يدرك تماما أن عليه ان يعلم نفسه بنفسه ومن جيبه الخاص، وهنا يكون التعليم وخصوصا العالي منه مشكلة كبرى بالنسبة للطبقات الفقيرة.

واذا قلت أن التعليم في لبنان اهلي فانهي اقصد من ذلك انه غير حكومي فقط، اما كونه (اهليا) بالمعنى الصحيح فتلك مسألة فيها نظر... فالمعروف ان المعاهد التعليمية والمراكز الثقافية الكبرى في لبنان انما هي ملك لافراد او تابعة لحكومات او بعثات تبشيرية اجنبية. واذا تجاوزنا في اطلاق كلمة (الاهلية) على كل مؤسسة لا تستمد تمويلها المباشر من الخارج، فان نسبة المدارس الحكومية والاهلية والاجنبية هي كما يلي حسب احصاء سابق:

مدارس ابتدائية: ١٧٧ حكومية، ١١٨٠ أهلية، ٥١٠ أجنبية =

١٨٦٧

المدارس العالية: ٣ حكومية ٤٤ أهلية ٧٥ أجنبية = ١٢٢.

ومن حيث التوزيع الطائفي فان العدد الاعظم من المدارس الاهلية والخاصة انما تديرها الطوائف المسيحية والمارونية بصورة خاصة، اما الغالبية العظمى من المعاهد الاجنبية فهي ملك لبعثات تبشيرية افرنسية، وتعتبر الجامعة الامريكية اهم معهد امريكي في لبنان.

الا فليتصور كل منا كيف يكون مصير التوجيه الثقافي في البلاد والمعاهد الرئيسية الكبرى التي هي بمثابة المراكز الثقافية المهمة في المجتمع تديرها بعثات اجنبية لا غبار على ميولها الهدامة وأهدافها الاستعمارية. واذا كان هناك من يزعم ان اتجاهها قوميا قدر له ان يزدهر في ظل احد تلك المعاهد كالجامعة الامريكية في بيروت مثلا فان الجواب كامن في معرفة نوع تلك الحركة وطبيعتها اهي مما تغذيها سياسة المعهد ذاته ام انها مجرد رد فعل عنيف لسياسة الضغط والتضليل الثقافي التي تنهجها تلك المعاهد^(١).

والمناهج الحكومية لا تتجاوز رسم الخطوط العامة للتعليم، اما مواد التدريس والروح التي تدرس بها وكذلك الجو الذي يسود كل معهد فذلك راجع للمشرفين عليه وحدهم. ثم انه ليس هناك كتب مقررة، لكل مادة كتاب مؤلف معروف، فحرية تأليف الكتب المدرسية تؤلف فوضى منهجية في لبنان، بل الاصح انها تؤلف مصدرا مهما للتكسب والارتزاق، فمن المؤلف ان تعتمد كل مدرسة لطبع كتب مقررة جديدة لطلابها في اوائل كل عام دراسي وليس اسهل من ان ينبري احد من المدرسين او عدد منهم لاي كتاب مدرسي يتناولونه بالتغيير والتحوير والحذف او التطويل ثم يتم طبعه ويجبر كل طالب على شراء نسخة جديدة والغاء

(١) جاء في الانباء مؤخرا.. ان الجامعة الامريكية في بيروت أمرت بحل جمعية «العروة الوثقى» المعروفة باتجاهها القومي العربي..!

كتابه السابق. وماذا تكون النتيجة بالنسبة للطلاب الفقراء وآبائهم. هذا ما نستطيع ان نعرفه من الحادثة الآتية التي شهدت فصولها بنفسى:

ابو عارف رب اسرة فقيرة نوعا ما وله سبعة اولاد اربعة منهم في المدرسة. في اول يوم من افتتاح العام الدراسي يشيع في البيت جو من الفرح ابتهاجا بعودة الدراسة، ويزيد سرور الوالد ان اولاده الذين تتفاوت اعمارهم من حيث السن الدراسية سيتسنى لهم ان يتبادلوا كتب بعضهم البعض.

ولا يحتاج إلا واحد منهم وهو الاكبر الى شراء كتب جديدة. هذا مصدر للتوفير لا بد وان يحسب له حسابه. اما النتيجة فان الاولاد الاربعة سرعان ما يعودون لذويهم ليخبروهم بأن المدرسة قد الغت كتبهم السابقة واستبدل بها المعلمون كتباً اخرى عليهم ان يشتروها من السوق. وهنا ينقلب الفرح الى مأتم اذ يرى رب الاسرة ان عليه ان ينفق مبلغا كبيرا لا استبدال الكتب القديمة بكتب جديدة دونما سبب معقول، وهنا يصرخ (ابو عارف) غاضبا يلعن المدارس ومن ابتدعها ثم ينهال على اولاده بالضرب لاسكاتهم. وحينما يعود الهدوء الى البيت يبدأ التفكير المتواصل لحل المشكلة، وربما فضل الكثير من الآباء الفقراء سحب ابنائهم تخلصا من مصاريف الدراسة.

المرأة والمجتمع

يعتبر لبنان البلد الوحيد في شرقنا العربي الذي استطاعت فيه المرأة ان تخطو خطوات بعيدة في ميدان التحرر والمساواة ونيل الحقوق العامة على حد التعبير السائد. ان المرأة اللبنانية التي استطاعت ان تمزق حجابها بيدها وان تسير في ترسم خطى المرأة الغربية منذ أوائل هذا القرن قد تسنى لها الآن ان تندمج في المجتمع اندماجا تاما وان تشارك الرجل في مرافق الحياة الاجتماعية المختلفة.

ان دعاة التفرنج وهم كثيرون في لبنان كثيرا ما اشادوا بهذه الظاهرة في المجتمع اللبناني واعتبروها من احدى نعم التقدم الحديث التي يتمتع فيها سكان بلد النور والاشعاع. وفي غمار الحمس الشديد لتأييد الآراء النسوية في المجتمع يبدو ان السؤال فيما اذا كان اتجاه المرأة في لبنان يتماشى مع التقاليد المرعية للمرأة العربية والمسلمة او حتى السلوك الديني للمرأة المسيحية نفسها. . قد فات اوانه فهو في عرف الاتجاه السائد سؤال قد انضم الى مجموعة من الاسئلة الحائرة الاخرى حول موضع القيم الروحية ومكان التعاليم الدينية من حياة المجتمعات القائمة اليوم، وليس من شك في ان مجتمعنا العربي الحاضر لم يكتسب بعد شيئا من الثقة بنفسه او الايمان بقدرة انبعاثية في ذاته يستطيع معها ان يناقش كل ما يرد اليه من الخارج ويتصرف ازاءه التصرف الذاتي الذي تمليه عليه تلك الثقة او يرشده اليه ذلك الايمان. وهكذا يستنيم الناس عندنا على نغمة ما يسمى بـ (تيار المدنية الجارف) وكأن كل ما يجرفه السيل من غشاء الغرب امر مقدر لا مناص عنه ومصير محتوم ليس عنه من محيد. . هذا بينما تقوم في اجزاء شتى من هذا العالم امثلة لشعوب اخرى كانت لسنين قليلة اقل منا شانا واستطاعت اليوم ان تستكمل نهضتها دون ان تضطر للتخلي عن شيء من ايمانها الذاتي او تقاليدها الخالدة.

واول ما يلفت النظر في المجتمعات التي تحققت فيها فكرة الاختلاط بين الجنسين لمدى بعيد كما هي الحال في لبنان، النتيجة التي يتوصل اليها كل من يحكم عقله في الدعاوى الضخمة التي ينادي بها دعاة الاختلاط وحظها من التطبيق في المجال العملي. فدعوى المساواة مثلا ترتطم بالحقيقة القائمة في كافة المجتمعات الشرقية التي حاولت ان تزج بالمرأة في نفس الميادين التي يشغلها الرجل، الا وهي طغيان الجانب النسوي وعدم تحقق المساواة المطلوبة في الاخير.

جل ببصرك مثلا في احدى المدن الرئيسية كبيروت حيث توجد للأختلاط سوق رائجة، فستجد ان وجود المرأة عامل مهم في كافة اوجه النشاط المسرف على صورته الحاضرة. ولعل اول من يستفيد من وجود المرأة هم تجار الكماليات، وكثرة الحوانيت المتخصصة في تعاطي الاغراض النسوية وبيع الكماليات المختلفة تستدعي الاشفاق على الكيان الاقتصادي برمته.

وفي كل مرة انزل فيها الى بيروت كنت افكر فيما يمكن ان يحدث لو قدر لامرأة المجتمع هذه ان تختفي فجأة. قلت لا بد ان حوانيت الكماليات ستقل بنسبة كبيرة جدا. وكذلك فان عددا كبيرا من المقاهي والمطاعم التي يتيح لها الاختلاط سوقا رائجة لتبادل النظرات وتجديد المواعيد ستضطر للتوقف. واختفاء امرأة المجتمع سوف يكون خطره عظيما في الدرجة الاولى على دور الملاهي والمراقص والمساح العامة والبلاجات والاندية الليلية، اما في الدرجة الثانية فتصاب مخازن العرض وتجار الازياء بضرر كبير من جراء اختفاء المرأة التي يمكن تسخيرها لعرض السلع في اوضاع مغرية من فتنة الجسد.

واصحاب الصحف والمجلات المصورة والجرائد السيارة ما شأنهم ايضا. . . ان نكبة كبيرة ستحل بهم ولا ريب اذا ما قدر لصور الممثلات والراقصات والمغنيات والفاتنات ان تختفي فجأة من الاغلفة والمحلات البارزة من الصفحات، وستفقد قرائح الكتاب (المخنثين) ومروجي الاخبار النسوية والاراء المائعة مادة دسمة يجدونها اليوم في تتبع انباء ملكات الجمال وفتيات الصالات واذاعة ذلك على الناس.

وقد يطلب سائل تعداد الاضرار التي تنتج من اختفاء المرأة من المجتمعات العامة، والجواب لا شيء مطلقا، فان طلب العلم كما أن القيام بأية خدمة اجتماعية لا يستدعي مطلقا اشاعة الاختلاط على هذه الصورة الفاضحة التي يجدها المرء في مدينة كبيروت او غيرها من المدن

التي تحذو حذوها. وانا اتكلم عن مجتمع مفروض فيه ان يمثل الاخلاق العربية وان يلتزم بالتقاليد الدينية. والاستشهاد بما يجري في عالم الغرب في غير محله فللمجتمع الغربي والبيئة الغربية احكامهما كما ان لبيئتنا ولمجتمعنا احكامهما ايضا. وبالرغم من اشتغال المرأة في المرافق العامة باجور زهيدة جدا - كما هي العادة دائما - مما يضر بمصالح الطبقات العاطلة عن الاعمال وما اكثرها في مجتمعاتنا، فانها تستطيع مع ذلك ان تعمل في جو من الحشمة بعيد عن عناصر الاستغلال الشيعة.

وحرية المرأة هي الاخرى لها في المجال النظري معنى غير المعنى القائم في واقع الحياة. ان الحرية في الكتب تعني ان يتاح للمرأة ان تتعلم وان تعمل في الميادين التي تتناسب وكفاءاتها التربوية او العلمية او العملية. ومهما اختلف الناس في تحديد الميدان الطبيعي الذي يجب ان تشتغل به المرأة، فانه لاختلاف مطلقا في ان اولى واجبات المرأة ان تتعلم كيف تصير اما صالحة وربة منزل قبل كل شيء اما في واقع المجتمع فان الحرية لا تعني اكثر من ان يسمح للمرأة بالاختلاط مع الرجال وغشيان المجتمعات العامة واشباع الرغبة في اجتذاب الانظار والحصول على الشهرة الزائفة بمختلف الاساليب، حتى لتجد من شدة تغلغل الاصابع النسوية في المجتمع ان كل حادثة لا بد وان يكمن وراءها سر يرتبط بوجود المرأة من قريب او بعيد. ولعل المثل المشهور: (فتش عن المرأة) هو اصدق تعبير عن حقيقة الوضع الذي تعيش فيه مجتمعات الاختلاط كلها بدون استثناء....

حقيقة اخرى نسيت ان اذكرها لما تعنيه كلمة الحرية في واقع المجتمع، انها (العبودية) بابشع صورها واحط صفاتها واي عبودية اشد من ان تستغل المرأة معها كل صفات الانوثة والاغراء لترويج السلع على واجهات المعارض، او جلب الزبائن في المطاعم والمقاهي، او خلق القوة الشرائية في الجمهور لترويج ادوات الزينة والكماليات او السعي

لترويج الصحف باثارة الغرائز الجنسية ونشر صور الفتيات في الاوضاع التي تناسب الغرض المنشود... وفي جميع الاعلانات سواء منها التي تضاء بالنيون او تلصق على الجدران او تطبع في الصحف تكون المرأة بمثابة (الطعم) الذي يستميل به المعلنون الجمهور او يستلفتون به الانظار بشكل صارخ ادعى الى تحطيم الاعصاب بفعل الايحاء الجنسي المتواصل واطباق عناصر الاثارة الجنسية من جميع الجهات.

لذلك فقد اصبح للحياة الليلية شأن عظيم في مجتمعات الاختلاط فهي الفرصة التي يركن اليها المجتمع المكبوت طوال اوقات النهار للتنفيس عن رغباته الدفينة فلا يكاد ياتي المساء حتى تنطلق النفوس المحبوسة من عقالها، وتتعالى اضواء الاندية الليلية بفنون المتعة لكل من يطلبها. ان الحياة الليلية اللذيذة هذه هي الاتون الذي تتبدد فيه الطاقات وتتطاير في سمائه اشلاء الضحايا في مجتمعات الاختلاط التي لا تدرك من معاني الحياة الا بمقدار ما يتاح لها من متعة سانحة او لهو مسرف. ولا اريد هنا ان اكرر ما يسمعه كل انسان عن مخازي الحياة الليلية التي تتبرج لها المدينة مساء كل يوم، ولكنني لا انسى ان اشير الى ان مبالغ طائلة وارباحا هائلة يجنيها لبنان كل عام من وراء ترويج اسواق النخاسة البشرية في ظل الحرية المزعومة.

خاتمة

وبعد فلعل الوقت قد حان للوقوف في نهاية المطاف من هذه المذكرات لا لأن مادة الحديث قد نفذت بل لاننا قد وصلنا معها الى مواضيع ليست في الواقع مما يخص لبنان وحده، اذا الحالة الاجتماعية في كافة اقطار المجتمع العربي قد لا تقل سوءا عما هي في لبنان. وفي رأبي ان لبنان ما هو في الواقع الا نموذج مجسم لقصارى ما يمكن ان يصل اليه أي مجتمع عربي آخر يتمادى في السير وراء ركاب الغرب. انه سيدور حتما دورة غربية مماثلة أخرى بان تعتبر خيبة امل من وجهة النظر العربية والاسلامية.

١٩٥٤



أوراق برتغالية

القلعة:

كلما جاء ذكر لقلعة «البرتغال» في البحرين، تشدني الذكريات والصور الى زمن الطفولة، فاتذكر كيف كانت هذه القلعة المكان المفضل لدى لقضاء عطلة الأسبوع أو «للتزويغ» من الحصص المدرسية في بعض الأحيان، كما أتذكر ماكان يدور من جدل طفولي حول تسمية القلعة... فقد كان أقرب الى خيالنا كأطفال ان تكون قلعة «البرتغال».. مسaire لتمنيات نفسية تعويضية حول هذه الفاكهة التي لا تزرع في البحرين.. ربما! أما الذين أصرروا على ان أسمها الحقيقي هو «قلعة البحرين».. فلم نجد نحن الأطفال في تلك التسمية أية جاذبية تشدنا اليها. وكانت شخصية «أبو داود» تستأثر دائما بمكان في مخيلتي عند الحديث عن أسرار قلعة البرتغال: كنوزها الدفينة، اللصوص والمجرمون الذين يترددون عليها، الارواح الشريرة التي تسكنها، والاحجار التي تتداعى تحت وطأة الاقدام المريبة، العقارب والحيات، والشقوق المتعامدة على جوانب الأبراج للتلصص على القادمين ومقاومة الغزاة، والأرض المرتفعة التي تنشق عن منخفض سحيق يلف جدار القلعة مثل نهر جفت عنه المياه. واخيراً تكتمل تلك الصور الذهنية بجماليات طريق الذهب والعودة المكتسية بجنائن النخيل واشجار الثمار اليانعة.

تذكرت قصة أبو داود هذا مرات كثيرة بعد ذلك... كان آخرها في صيف عام ١٩٧٢ حيث كنت مستغرقا في تأمل صورة تاريخية تمثل

درعا حصل عليه القائد البرتغالي انطون كوريرة «دي بهريم» والكلمة الاخيرة تعنى النسبة الى البحرين أو «البحارنه» وهو اللقب الذي أنعم به ملك البرتغال على القائد المذكور اعترافا بفضله في غزو جزيرة البحرين وهزيمة المدافعين عنها بقيادة «مكرم» الذي لاحقه القائد البرتغالي حتى الساحل العربي وقتله ثم احتز رأسه. وهكذا خلدت صورة البطل العربي «مكرم» على درع تاريخي يمسك به القائد البرتغالي والدماء تخضب رأسه ولحيته ثم تتساقط الى الارض. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي لو ان «مكرم» هذا نجح في صد الغزاة البرتغاليين لكان قد حال بينهم وبين احتلال البحرين وبناء القلعة... وبالتالي لكان قد حال بينهم وبين انتهاب الثروات واختزانها بين جدران القلعة، ولكن البحرين كانت ستفتقد مع ذلك أحد المعالم التاريخية المهمة التي تجتذب اليها السائحين وتثير فضول العلماء والمنقبين الذين كشفوا لنا أخيرا تحت انقاض القلعة ومن حولها سرّ «دلمون» والحضارات الموغلة في القدم التي نتباهى بها اليوم.

وساعدني صوت من خلفي هادئ النبرات على ان أنتزع نفسي وافكاري الشاردة من أشجان الصورة التي كنت أتأملها والماضي الذي كنت استرجع أيامه، ليعود اليّ احساسي بالزمان والمكان. كنا آنذاك في دار المخطوطات والوثائق التاريخية في لشبونة يرافقني الوزير المفوض للبرتغال في القاهرة... ولم يكن ذلك الصوت سوى صوت المدير العام للدار ينهى اليّ بنبرات من الاسف أنه لم يوفق - رغم ما بذله من جهد - للعثور على الملف الذي يحتوي على المخطط الاصلى لقلعة البرتغال في البحرين... ثم أطلعني على مجلد يضم التصاميم الاصلية لعدد كبير من القلاع البرتغالية في هرمز ومسقط وعلى امتداد الساحل العماني كله. وجاملنى مجاملة رقيقة حين وعدنى بأن يسعى للحصول على تصاميم قلعة البحرين والاتصال بمرافقى وصديقى الوزير المفوض حالما يوفق في مسعاها... ولكن الوزير المفوض نقل من القاهرة الى الدنمراك... ثم

حدث الانقلاب العسكرى الاخير ومررت بالدمرناك فى الصيف التالى
فقيل لى انه نقل الى لشبونة... ولم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

البداية والنهاية:

وقصة زيارتي للبرتغال بدأت أثناء زيارة الوزير المفوض البرتغالى
لى فى مكتبى بالقاهرة، وحين علم عن عزمى على السفر الى أوروبا فى
الصيف، اقترح على أن أمر على لشبونة للتعرف على معالمها وقضاء
بضعة ايام فى مصائفها الجنوبية التى لا تزال تحتفظ باسمها العربى
«الغارف» أى الغرب كما كان العرب يسمونها من قبل. وهكذا وجدت
نفسى فى أحد ايام شهر آب الحارة أنزل فى مطار لشبونة المزدحم - على
صغره - فيستقبلنى السيد (بوشتوس) مرحباً ثم يساعدى على حمل
الحقائب الى السيارة... وسرعان ما توقفنا عند فندق «ريتز» اشهر فنادق
العاصمة البرتغالية ومن الادوار العليا فى هذا الفندق المقام على مرتفع
من الارض استطعت - من شرفة الغرفة أن أطل على لشبونة بمعالمها
الرئيسية. فالى اليسار هناك البحر والميناء القديم حيث ابحر «فاسكودى
غاما» بسفينة ليدور حول رأس الرجاء الصالح ويفتح العالم على مصراعيه
للسيطرة البرتغالية التى امتدت حتى جزيرة هرمز وسواحل الخليج العربى.

والنظر الى الميناء القديم، لا يستقيم الا من خلال الشوارع
التاريخية الضيقة التى تنحدر - كما تنحدر مجارى السيول - الى الساحة
المطلّة على الميناء تلك الساحة ذات الماضى الحافل. فقد شهدت هذه
الساحة أفواج المكتشفين والمغامرين جيلاً بعد جيل... بعضهم يودع
باحتيال مهيب... ثم يعود أو لا يعود. وبعضهم يركب متن الموج نكرة
ثم يرجع «عظيماً» تتزاحم من حوله الاوسمة والالقب. أما تلك الشوارع
فهى حافلة بمظاهر الحياة لدى سكان لشبونة بمستلزماتها فى الليل
والنهار. ففي النهار، الحوانيت والمقاهى والحركة والزحام... وفى

من بينها - لسؤ الحظ - درع القائد كوريرة دى بهريم . . . فارتبكت لمنظره وقالت وهى مودعة مامعناه: ان هذا المنظر لفظيح وارجو أن تنقل اعتذارنا عن ذلك لشعب البحرين الصديق، ولا أدري ان كنت وعدتها بحمل هذا الاعتذار. . . ولكن أرجو الآن أن أكون قد فعلت.

حصون للمعرفة:

من حديث القلاع البرتغالية ننتقل الى قلاع من نوع آخر. . . انها قلاع ثقافية تنتشر في أرجاء (لشبونة) وتحتضن اليها المعرفة والثقافة والفن والتكنولوجيا. يقصدها الباحث وطالب العلم، كما يتردد اليها المواطن العادى لاشباع رغبته في المعرفة والاطلاع. وتتمثل هذه (القلاع الثقافية) في المكتبات العامة، والمراكز الثقافية ومعاهد الدراسات. . . ومراكز الابحاث العلمية. وليست المكتبة الوطنية التي وقفنا عندها فيما سبق إلا واحدة من تلك القلاع الشامخة بأدوارها الاثنى عشر، والمتباهية بمحتوياتها من الملايين الثلاثة من الكتب والمخطوطات.

كنا ننصت باهتمام الى المسئولة وهى تحدثنا عن هذه المكتبة ومحتوياتها، وكانت تمسك بيدها اليمنى نموذجاً من نسخة نادرة لأول قصيدة نظمها شاعر باللغة البرتغالية، بينما تلوح بيدها الاخرى ممسكة بعدد من المفاتيح، سرعان ما ناولتها أحد المكلفين بنا للطواف بالدار. ثم اجتزنا ممرا ضيقا بين جدارين سميكين لا ينفذ اليهما الضوء، وانا أتساءل عن سر هذا الممر وتلك المفاتيح وكان يخيل إليّ اننا باتجاه دخول قسم الودائع في احد البنوك بدلا من التجول في مكتبة عامة.

ولكن مرافقنا، ما لبث ان ازال تلك الحيرة من ذهنى حينما قال - وهو يعالج الاقفال - ان الدور الارضى من المكتبة والذي يليه مقفلان امام الزائرين الا باذن خاص وترتيب مسبق فهما يحتويان على كتب ومخطوطات نادرة. كما انهما محصنان بوسائل خاصة ضد الحريق

الليل، تتراقص الانوار حيث الحانات ومرابع اللهو وتخفت حيث يهجع المتعبون. واذا شئت أن تستمتع بالمنظر ليلا فما عليك الا أن تصعد مع الصاعدين البرج القريب، فترى المدينة على امتداد آفاقها يتجاور فيها النور مع الظلام والسكون مع الحركة.. وتجري الحياة بالساهرين والنائمين معا مجراها الرتيب... ثم لا يزال احساس الناس - رغم ذلك - قائما على ان الامس غير اليوم.

وأتلقت من شرفة الفندق يمينا فاجد في الافق البعيد الميناء الجديد وهناك ينهض مشروع اصلاح السفن «ليزناف» أحد أكبر مشاريع الاحواض في العالم... وهنا أيضا يمتد البصر عبر جسر ضيق طويل يصل موقع «الحوض» بالعاصمة ويزدحم فيه السير... فتخاله على البعد، شريطا طويلا من النمل المتحرك في خط مستقيم.

بعد ظهر ذلك اليوم بدأ برنامج الزيارة وانتهى في بضعة أيام واصلت بعدها سفري ولم يكن يدور بخلدي أنذاك أنني سأعمد مستقبلا الى تدوين ملاحظاتي عنها لولا حديث عابر منذ بضعة شهور بيني وبين أحد الشخصيات البرتغالية، تم هذه المرة في مكتبي في البحرين.. لقد جاء المسئول في زيارة عمل عادية. وفهمت منه أنه يشرف على تدريب مواطنين من البحرين على ادارة أعمال فنية في مشروع الحوض الجاف... وسمعتة يقول - وهو يشد على يدي مودعا - (ها قد جئنا من البرتغال أخيرا لتأدية رسالة حضارية في بلدكم الجميل) فأردفت مكملا: وهكذا سيصبح تصحيح أخطاء الماضي أمراً ممكنا. وانتقل ذهني في نفس اللحظة الى مناسبة مماثلة... كنت فيها أودع المسئولة في ادارة المكتبة العامة في لشبونة ذات الثلاثة ملايين كتاب. وكانت قد قدمت لي هدية رمزية اظهارا لمشاعر الصداقة.. عبارة عن بضع لفات من أفلام فيها صور مصغرة لوثائق ومخطوطات، كما اطلعتني على بعضها مما تضمنه المكتبة كان

والرطوبة والحشرات والغبار حفاظا على ما بهما من نفائس . وسألت مرافقنا ونحن نتجول ببطء شديد بين تلك الصفوف المترامية من الكتب بعضها مسند الى الرف وبعضها ممدد - فيما اذا كان هذا القسم يضم كتبا او مخطوطات باللغة العربية . . . فرد بالايجاب وناولنى من المخطوطات القريبة كتابا في الطب باللغة العربية من العهد الاندلسى . . وكانت الصفحة التى فتحتها تتحدث - صدفة - عن علاج الامراض الباطنية وعسر الهضم . . . وفى قسم آخر وجدتهم يحتفظون بنسخ من جميع الصحف والمجلات التى تصدر باللغة البرتغالية اينما كان مصدرها . ولم اختبر بنفسى مدى السرعة التى يتم فيها استخراج صحيفة ما فى تاريخ محدد ولكنى فى قاعة المطالعة الاخرى المخصصة للكتب فعلت ذلك . والعملية تتم بصورة تلقائية سريعة . . يستلم منك المأمور بطاقة الكتاب المطلوب ويضعها فى احدى الفتحات فتعود البطاقة فى أقل من دقيقتين ومعها الكتاب المطلوب . ويضاء زر أحمر على المكتب الذى تجلس اليه ثم ينطفىء النور بعد اعادة الكتاب الى المأمور . . . وبينما كنت مندمجا فى عملية الاختبار هذه حانت منى التفاتة الى الوزير المفوض وهو يتطلع خلسة الى ساعته وفهمت من هذه البادرة (الدبلوماسية) ان الوقت قد شارف على الانتهاء .

ان السيد (بوشتوس) دقيق فى مراعاة الوقت بدرجة بالغة . ولا اتذكر اننى تواعدت معه على لقاء وحضرت مستعجلا الموعد بضع دقائق . . الا وجدته جالسا فى الصالة يستقبلنى بابتسامته المعهودة . وهكذا فعل بعد ظهر ذلك اليوم . . وكان أمامنا موعد لزيارة أخرى . . وبإشارة منه الى السائق . . . توقفت السيارة عند شبك للتذاكر . . فنزلنا وناولنى تذكرة دخول قائلا: انا أعلم انكم معتادون فى بلادكم على الراحة بعد وجبة الغذاء . . ولدينا من الوقت متسع للتجول فى حديقة عامة ذات طابع خاص يتوفر فيها الهدوء والراحة للاعصاب المجهددة

ريثما يحين الوقت لموعد الزيارة القادمة.

ودخلنا الحديقة... وهي اشبه ما تكون بغابة مستأنسة، تكتنفها الظلال، وتتفجر من خلالها جداول المياه. ويتسلل اليها ضوء الشمس من خلال شبك مرفوعة توزعه على المكان بقدر. وبين شدو الطيور، وتعانق الاغصان والظلال تنتقل بك الخطى الى عالم سحري جميل. فاذا ما استسلمت أثناءها لحلم، فهو عندئذ حلم يقظة لا منام. ورواد الحديقة معظمهم من الشبان والشابات يتنزهون فيها فرادى وازواجا. ولكنك مع ذلك لا تسمع منهم لغوا.. ولا تحس بينهم لهوا ومرحا كما يفعل الشبان في سنهم.. ولا تملك نفسك من التساؤل: فيم يفكر هؤلاء وبم يتهامسون.. أفي الحب ام في السياسة ام في مشاغل الحياة.. وجهت هذا السؤال الى مرافقي (الدبلوماسي) فلم اجد عنده الجواب الشافي.. ولم اتصور ان المناظر المتجددة امامنا على خط السير سوف تتيح لصاحبي فرصا كثيرة لتغيير مجرى الحديث.. فهاهنا اشجار استوائية نادرة.. وهناك ازهار من مختلف بقاع العالم.. وتلك الثمار افريقية وهذه شرقية.. ولكل من هذه وتلك حديث لا يمل. وقلت في نفسي ان صاحبي يتجنب حديث السياسة وان في الامر لسراً سوف تكشفه الايام... ومن يسمع او يشاهد احداث البرتغال اليوم لا يصدق ماكان عليه الحال قبل ذلك.

السيد خمسة بالمائة

المباني الضخمة تمتاز عادة بمدخلها الانيقة المتعالية عما حولها من بناء. ودار مؤسسة (كوبلنكيان) الوقفية واحدة من تلك المباني الشامخة في مدينة لشبونة. ومن عادتى في السفر الوقوف لحظة تأمل امام هذه المدخل الضخمة والسلالم العريضة واخذ صورة تذكارية.. ولكنى هذه المرة كنت مشغولا بشئ اخر، فأمامى خمس دقائق قبل موعد الزيارة

لمقابلة رئيس مجلس ادارة المؤسسة، وعلى ان استذكر اثنائها - جهد الامكان - بعض المعلومات التي زودني بها مرافقي عن هذه المؤسسة . . .

ان قصة المليونير الارمني كوبلنكيان الملقب بالسيد (خمسة بالمائة) لمشاركته في حقوق امتياز شركة نفط العراق، قصة مشهورة وقد شاءت الاقدار ان تفاجيء المنية كوبلنكيان هذا وهو في البرتغال. وهكذا وجدت حكومة البرتغال نفسها بعد وفاته، قيمة على ممتلكات المرحوم وثروته الكبيرة. فشكلت مجلس وصاية لادارة تلك الشركة وتنفيذ احكام الوقفية التي تنص على استثمار الاموال الموقوفة وانفاقها في تشجيع الدراسات والابحاث والمعاهد العلمية وتقديم المنح الدراسية والهبات للسكان من الارمن، وبلدان الشرق الاوسط. ورغم قرار الحكومة العراقية في السنوات الاخيرة تأميم حصة الخمسة بالمائة العائدة لشركة كوبلنكيان فان الاموال التي يستثمرها مجلس ادارة الشركة تزداد وفرا عاما بعد عام. ويبلغ انفاقها على المنح الدراسية وما شابه سنويا أكثر من ٦ ملايين جنيه ولها قدرة على زيادة الانفاق لتوفر الاموال لديها. . وكما يقال فان امكانياتها المالية تزيد عن امكانيات مؤسسة (فورد) المشهورة! وفي البرتغال ذاتها تساهم المؤسسة في عدد كبير من المشاريع العلمية ومراكز الابحاث مثل المختبر القومي لابحاث الهندسة المدنية، وهو كما يقال ثاني مختبر من نوعه في أوروبا.

أما في خارج البرتغال فمؤسسة كوبلنكيان الوقفية تساهم في انشاء وبناء المتاحف في بلدان الشرق الاوسط - كما تساهم والعهد على الراوى - بمبلغ مليون دولار سنويا في موازنة منظمة «الاونروا» لصالح اللاجئين الفلسطينيين وفي منظمة اليونسكو. وتقدم منحا دراسية لعدد من بلدان الشرق الاوسط تربو على أربعة آلاف منحة.

ورئيس مجلس ادارة المؤسسة رجل طاعن في السن نال منه الزمن ما يشتهى فأعجزه عن الحركة واضعف منه السمع والنظر ولكنه لم يفقده

مع ذلك القدرة على تدبير أمور هذه المؤسسة الوقفية التي كرس حياته من أجلها. قال لى وهو يصفحنى بيد مرتعشة ويعالج الكلمات بصوت غير واضح ان هذه المؤسسة مستعدة لبحث امكانية قبول عدد من طلاب البحرين على نفقتها للتخصص في أنواع الدراسات والابحاث العلمية والتدريب في مجالات معينة كالمستشفيات وغيرها. ولم يسعنى الا ان اشكره على هذه اللفتة الكريمة مستأذنا اياه لزيارة المؤسسة وأقسامها. . . . لقد توفى هذا الرجل بعد ذلك بعام. . . . ولكن مؤسسة كوبلنكيان الوقفية ستظل قائمة تؤدى دورها بصمت في خدمة المجتمع في البرتغال وخارجه.

وتشغل الدار جزءا كبيرا من الارض وحدائق متناهية السعة فيها الملاعب والمنتزهات ومسارح التمثيل الصيفية، وكل ما يشجع هواة التمثيل والفنون الجميلة. ويضم البناء الضخم عدا مكاتب الادارة المتحف الخاص لكوبلنكيان والذي تعرض فيه أجمل وأثمن أنواع السجاد الايرانى الفاخر واللوحات الفنية والتحف النادرة. ويضم البناء عدا ذلك مكتبة كبيرة ومسارح شتوية وقاعات للمحاضرات ولمزاولة الانشطة الادبية والثقافية والفنية. . . . وفي البناء ايضا مطاعم ومقاهى وكل ما يحتاج اليه الرواد من وسائل الترفيه والمتعة.

حديث الاوراق

الاوراق الصفراء المحشورة بين الادراج وفوق الرفوف او المستعرضة في الخزائن الزجاجية. . . . كأنها الموميا، هذه الاوراق - رغم صمتها الطويل - يمكنها ان تتكلم لو وجدت الى ذلك سبيلا. ان دار المخطوطات والوثائق الرسمية في لشبونة، التي لا تصل اليها عادة أيدي الباحثين، كما ان المكتبات العامة والمعاهد تضم مجموعة كبيرة من الاوراق التي تتحدث عن الخليج في الفترة التي عاصرت الوجود

البرتغالى... ولا شك ان دار المخطوطات الهندية في «جوا» تحتوى ايضا على عدد كبير من الوثائق المهمة. وليست تلك الاوراق مقتصرة كلها على المكاتبات العسكرية وجباية الضرائب وتوفير المؤن والذخائر... فلا بد ان عددا منها يتناول - مباشرة او عرضا، ما يتصل بالناس - ناس الخليج - واحوالهم ومجتمعهم من قريب او بعيد.

لنأخذ مثلا هذه الورقة الرسمية التى ترجمها لى على عجل، الوزير المفوض والتى تقول: ان سفيرا من البحرين وصل الى هرمز فأستضافه الحاكم ثم عاد محملا بالهدايا ومن بينها «خمسة أكياس من الارز» - ثم علق على ذلك مبتسما «يبدو ان السفراء كانوا محظوظين في ذلك الزمان». ورسالة اخرى من حاكم هرمز مكتوبة بخط عربي جميل - لعله سربها الى حكومة البرتغال دون علم من القائد البرتغالى في هرمز - يقول فيها ان القائد البرتغالى قد اختار بيت العائلة الحاكمة ليبنى فيه قلعة.. ثم يقول ان هذا البيت هوييت العائلة العتيد وهو تراثهم من آبائهم ولا يمكنهم التفريط فيه.. لهذا فانه يعرض بدلا منه استعمال مسكنه الخاص لبناء القلعة.

اما المؤلفات البرتغالية فتذكر ان البرتغاليين كانت لديهم فكرة جميلة عن البحرين... جزيرة كبيرة جدا.. فيها ماء كثير وفاكهة ونخل وزرع. وهناك ثلاثة مخطوطات في المكتبة العامة تحدثت عن البحرين:

المخطوطة الاولى: ورد فيها فصل عن البحرين وتحدث عن مساحتها واهميتها، وان فيها ثلاثمائة قرية.. وهى غنية بالتمر والتين والرمان والخوخ والبساتين المثمرة. وفيها بيوت من حجر.. وتحتاجها الاويثة من سبتمبر الى فبراير وهى كثيرة الاسماك... واهم أنواع السمك وفرة النوع المسمى بـ «الجفرش» ويستخرج اللؤلؤ في البحرين وموسمه من شهر يونيه الى اكتوبر. وهو اجود انواع اللؤلؤ حجما ولمعانا. ويقدر انتاج اللؤلؤ والسمك بـ ٥٠٠ الف «كروشدوش».

والمخطوطة الثانية: جاء فيها ان البحرين هواؤها طيب وفيها امراض... وبحرها فيه صخور خطيرة وفيها مياه معدنية، والمياه العذبة غزيرة وفيها قلعتان ومياه، حلوة. وان فيها ستمائة سفينة.. وكان لحكام شيراز فيها حامية وفيها سجن. كما تتكلم المخطوطة الثالثة عن ملك شيراز وان اهل البحرين يدفعون ٨٠ ألف... «بازاتاس» وهي عملة هندية - مقابل السماح لهم بصيد السمك «الجوفرا» فقط وان عندهم ستمائة سفينة وهي جزيرة غنية باللؤلؤ. ويدفع اهلها للفرس ضريبة ولكنهم يفضلون ملك هرمز على الفرس ومن الاسماء التي ورد ذكرها اسم (الشيخ بوشاقا والشيخ اسماعيل).

وفي هذه المخطوطات الثلاث التي كتبت حوالي عام ١٧٠٠ ميلادية ذكر للماء «الشربية» وسمك باسم «جيبو» واشارة الى تجارة كانت قائمة بين البحرين والبرتغال في الاقمشة.

ان معهد الدراسات الافريقية والشرقية في لشبونة يشرف عليه استاذ متخصص لقيت ابحاثه التاريخية عن الخليج اهتماما خاصا من الباحثين انه الاب البروفسور «داسيلفا ريجو» ومنذ ثلاث سنوات تقريبا القى في البحرين احد اساتذة التاريخ من جامعة شيكاغو هو الدكتور (دونالدلاش) محاضرة عن الفترة البرتغالية و اشار الى الاب (ريجو) واهمية ابحاثه عن الوجود البرتغالي في الخليج.. كما ذكر في محاضراته ان مصادر برتغالية تشير الى ان البحرين كانت تضم اكثر من قلعة برتغالية، ومصنعا (او مركزا تجاريا) وكنيسة. وقد زرت الاب البروفسور (داسيلفا ريجو) في معهد الدراسات الافريقية والشرقية كما قام بزيارتي قبل مغادرتي لشبونة.. وكان محور الحديث هو استعداد هذا المعهد لتقديم كل ما يملك من تسهيلات لحصر وترجمة الوثائق المتوفرة في البرتغال عن الخليج وعن البحرين بصفة خاصة وقد سلمني البروفسور (ريجو) مشكورا مذكرة تضم ملخصا لافكاره بهذا الشأن.

وأخيرا... وعلى هذا النحو مضت بنا الجولة في وقفات قصيرة حول الاوراق الصفراء.. قد لا تفيد البحث العلمى كثيرا.. بقدر ما تشبع حب الاستطلاع. فالصعوبات التى تعترض الباحث كثيرة.. انها اللغة ودقة المعلومات والربط بين الاحداث.. وبالاختصار انها ستار كثيف يحتاج الكشف عنه الى المزيد من الصبر وسعة في الامكانات وتعاون بين جهات عدة.

ولا يكتمل الحديث عن معهد الدراسات الافريقية والشرقية في لشبونة بدون الاشارة الى الاستاذ (دياس فرنها) فهو بدوره استاذ في هذا المعهد، أظهر تحمسا كبيرا لترجمة المخطوطات البرتغالية الى العربية فيما يختص بالخليج وشوقا الى زيارة منطقة الخليج العربي والتعرف عليها.

والاستاذ (فرنها) شاب متخصص في الدراسات الشرقية وزار القاهرة ومكث في الأزهر وتعلم العربية وهو في قراءتها أقدر منه على نطقها ومع ذلك فانه لا يتردد كلما سنحت مناسبة لأسماعي بعضا مما حفظه ولا سيما من كتاب (الايام) للكتور طه حسين. سألته مرة عن معنى كلمة (القطيفة) وكانت مكتوبة على محل يقع على طريقنا فى الذهاب والاياب فقال انها تدل على نفس المعنى فى العربية، ولا بد ان صاحب المحل يبيع الاقمشة ثم اضاف ان معظم الكلمات البرتغالية التى تبدأ (بآل) هى عربية الاصل. ومنذ تلك اللحظة وهو يستعرض معى المفردات البرتغالية وانا احاول معه ارجاعها الى اصلها العربي. فالزيتونة «زيتون» والدماسكوس «مشمش» نسبة الى دمشق والكستناس «كستناء» والالارنج «البرتغال» والتمرة «التمر» وملها «ملاية - ملفع»... الخ.

وكثيرا ما تحين فرصة لحديث عام فيتحدث الاستاذ (فرنها) عن عواطف الشعب البرتغالى نحو العرب، ثم يلوم أجهزة الاعلام العربية

على تقصيرها في اطلاع الرأى العام في البرتغال على الحقائق المطموسة تحت سيل الدعاية الصهيونية الطاغية التى تخاطب الشعب البرتغالى بلغته بينما لا تفعل الامة العربية مثل ذلك رغم توفر الامكانيات لديها .

كان العرب يسمون الجزء الجنوبى من البرتغال (بالغرب) نسبة الى مواقعهم في اسبانيا ولا تزال هذه التسمية قائمة الى اليوم . وساحل الغرب يقصده أهل البرتغال كما يقصده غيرهم من السائحين . . . يهرعون اليه من صخب المدن ويستمتعون فيه بالراحة والاستجمام وممارسة الرياضة . والمعالم التاريخية فى (الغرب) معظمها من آثار العرب حيث يتجلى الطابع العربى فى بقايا الحصون والقلاع المشرفة على مفارق الطرق والمطلة على الموانئ الصغيرة فى طول الساحل ويتجلى الطابع العربى ايضا فى اسماء الاماكن والقرى وفى طراز البناء .

لقد بدأ العصر «الذهبى» للبرتغال بمغامرات العديد من المكتشفين الذين مرّوا عبر ساحل «الغارف» فحملتهم متون الموج المظلم الى حيث الشهرة والثراء او المركز والجاه . . . كما نقلت العديد منهم الى مصائر مجهولة . . وقد بقى، للبرتغال، بعد غروب الشمس عن ممتلكاتها - ما يذكرها بذلك التاريخ المثقل بالاحداث . . انها اغانى «الفادو» الشعبية ذات النبرة الحزينة والفادو تعنى (المصير المجهول) . . . مصير اولئك الذين حملهم الموج وآخر ذكراهم تلك الاناشيد الحزينة ترددها امرأة يلفها السواد ربما كانت زوجة او أما أو أختا أو كل هؤلاء مجتمعين . . وقد استمعت الى أغانى «الفادو» المثقلة بالحزن والاسى وادهشنى ما قيل من انها جاءت مع العرب وان منشأها عربى .

وتحت ظل شجرة وارفة الظلال فوق ربوة تطل على الشاطيء والحنان «الفادو» تنساب مع النسيم . . جلست أتأمل المنظر الساحر وتفكيرى يشدنى الى ذكريات الامس القريب فى لشبونة ويمتزج حديث

الاوراق الخضراء الهامسة من حولى بمعانى الحياة وسرها العظيم،
بحديث الاوراق الصفراء المتعطشة للنور والهواء.. ولكن نداء البحر
يلح عليّ بان اطوى تلك الصفحات لأ بدأ اليوم الاول من أجازة
الصيف.

١٩٧٢ (*)



(*) نشرت في مجلة «صدى الاسبوع» ابتداء من العدد ٢٨٢/١٩٧٥.

أوراق أدبية



الورقة الثالثة

٣

قالت: عشقت الشعر أمليته
فارتعشت أحزفه في يدي
قد علمونا الشعر نضاً بلا
روح، بلالون، بلا مقصد

المؤلف

مقدمة في الشعر العربي

١

إن صفات الادب الخالد وعناصر الاعجاز فيه، من المواضيع التي كثر حولها الخلاف وتعددت في تحديدها قواعد اللغة، وابواب البلاغة، فلم يزدنا ذلك الا بعداً عن الجلاء وايغالباً في التعقيد والغموض ذلك لان عماد الفهم الصحيح لقيمة أي انتاج ادبي فني انما هو الذوق الفني الخالص، وموضوع كهذا اساسه الذوق، لا يخلو بحثه من صعوبة، طالما كان نقاد الادب يصرون بطبيعتهم عن اذواق مختلفة، وتستوحي كل جماعة منهم اثر البيئة في اتجاهاتها، وتيارات الوسط الادبي في مفهوماتها.

على ان من الاثار الادبية ما يستعلي بطبيعته عن المستوى الذي تجد فيه الاذواق المتنافرة في عصورها المتغايرة، ما يدفعها على الاختلاف في تحديد قيمته من وجهة عامة، وان كانت قد لا تتفق اتفاقاً تاماً في بعض نواحيه الخاصة، وجزئياته الصغيرة. وهذه طبيعة لا تتوفر الا في النتاج الادبي الخالد الذي يتمتع بكافة عناصر الخلود، تلك العناصر التي تخلق من القدم جدة، ومن الماضي حاضراً يفيض بالابداع، ومستقبلاً يشرق بالحسن والجمال.

وقد قدر للشعر العربي القديم ان تكون له من صفة الخلود هذه ما

يجعله ضمن حقائق الكون الثابتة التي تدور مع الزمن في ماضيه، ثم تطالعه في مستقبله وهي على أشد ما تكون رسوخاً، وأقوى ما تكون ثبوتاً واستقراراً.

فبالرغم من الازمان المتعاقبة التي تقلب بها الشعر العربي القديم فانه لا يزال الى عصرنا يتلأأ بجوهره النقي، كله جدة، وكله قوة، وكله بلاغة واعجاز. ولعل اول ما تطالعنا من سمات ذلك النتاج الخالد هي صفة (الاصالة) بجميع خصائصها ومعانيها. وتلك هي اولى القيم الروحية التي تربط حقائق الشعر العربي بحقائق العرب القومية، لان هذا الادب الاصيل وحده الذي يستطيع ان يكشف عن خصائص النفس العربية، ويشف عن مدى قابلية تلك الخصائص للخلق والابداع.

فاذا تجاوزنا بنظرنا حدود القيم الادبية والقومية، فاننا نجد للشعر العربي القديم علاوة على كل ذلك ميزة اخرى لها صفة علمية تتصل اتصالاً وثيقاً بأدب القرآن وعلوم الاسلام. ولكي ندرك هذه الحقيقة ليس علينا الا ان نرجع بذاكرتنا الى الوراثة عدة قرون ماضية حيث نقف على ابواب النهضة العلمية الاسلامية عند بداية القرن الثاني للهجرة حين صار تدوين كلام العرب - وفي مقدمته الشعر - اولى الخطوات في سبيل تدعيم حركة الازدهار العملي وتركيز جهود التدوين الادبي. فقد كان فضل الشعر العربي كبيراً على هذه الحركة العلمية، اذ كانت حاجة ذلك العصر الى تصنيف كتب التفسير، وتدوين الحديث ووضع النحو ودراسة السيرة متعلقة به. كما ان الفقهاء كانوا يجعلون المهارة في الشريعة والفقهاء والفتيا مفتقرة الى الكتاب والسنة واقسام العربية. وقد رووا عن الامام الشافعي رضي الله عنه انه كان يطلب اللغة والادب والشعر عشرين سنة لا يريد بذلك الا الاستعانة على الفقه.

على ان عناية علماء التفسير والحديث برواية الشعر العربي واستظهار معانيه، لم تكن بالشىء الجديد آنذاك، فهي تمتد الى عصر

صدر الاسلام والخلفاء الراشدين، وان كانت تلك العناية لم تصل في هذا العصر الى درجة النشاط العلمي المنظم الذي امتاز به عصر التدوين فيما بعد. فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يحب رواية الشعر ويرى انه وسيلة لتفسير غريب القرآن ولكن هذا الاتجاه العلمي كان اكثر وضوحاً في زمن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فهو الذي حسن ذلك للمفسرين، وقال ان الشعر ديوان العرب، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا الى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه. اما رواية الشعر العربي لذاته وحفظه مجردا من غاية المفسرين، فقد كان حتى قبيل عصر التدوين، طبيعة في العرب، وهم اكثر الامم حبا لكلامهم واعجابا به، ذلك الحب الذي يستمد قوته من انجذاب العربي بفطرتة الى عناصر هذا الكلام نفسه، بروعة ما له من الصدق والبيان، والبلاغة والايجاز. وانما كانت تلك الصفة العلمية مما زاد قيمة الشعر العربي، ومما اضاف الى ذلك الميل الفطري، جهودا علمية ترمي الى تنقيحه ودراسته.

الا ان حركة علمية اخرى لها صفة مغايرة، وهي حركة الترجمة والنقل عن الثقافات الاجنبية، كانت قد نشأت بجانب هذه العلوم العربية. وكان اول من تزعم الترويج لها نفر من الموالي واهل الذمة.

هذه العلوم الاخيرة، بما صحبها من آثار المنطق اليوناني الدخيل والبحث الفلسفي العقيم كانت على النقيض من الأولى، ذات اثر سيء على اللغة العربية وادابها، ذلك لان اكثر اولئك الذين خاضوا في علوم العربية بعدئذ، كانوا من الاعاجم والفلاسفة الذين لم يصعدوا الى عصور العربية الاولى، ولم يرزقوا الذوق العربي السليم وفي هذا ما يفسر لنا كنه كثير من قواعد اللغة، وعلوم البلاغة التي اخذ معظمها عن اصول ادبية لا يسكن اليها الذوق العربي ولا ينسجم معها. ونظرة واحدة على تلك الاصول تدلنا على عناصر المنطق اليوناني والتفكير الفلسفي المعقد الذي

بنيت عليه . بل لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان كثيراً من كتب البلاغة والنقد التي بدىء بتأليفها منذ هذا العصر حتى العهد المتأخر من الدولة الاسلامية، قد نقل معظمها عن اليونان، وصدرت قواعدها عن عقلية اجنبية محضة لا تمت بسبب الى العقلية العربية الاولي، ولا تركز الى اصولها المعروفة، وانما تستمد كل شيء من الخارج، وتجلب له الشواهد اجتلاباً عتيقاً من الادب العربي . ولا يزال التاريخ يحمل لنا صورة من ذلك النزاع الشديد الذي نشأ بين أنصار العلوم العربية، وبين دعاة الترجمة وعلوم اليونان . وكان ما يعيبه اولئك على هؤلاء انحرافهم عن النظر في علم الكتاب، وفي اخبار الرسول وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، وانهم يعتاضون عن ذلك بعلم (هو قبح لهم في الالفاظ، وقيد لهم في الالسنه وعي لهم في المحافظ) - على حد تعبير ابن قتيبة - .

على ضوء هذا التطور الذي شهده مطلع القرن الثاني، يجب علينا قبل ان نتجاوز هذا العصر ان نرسم خطاً فاصلاً بينه وبين العصر الذي سبقه متجاوزين بذلك حدود التقسيم الزمني في تاريخ الادب العربي القديم الذي وضع اسسه المستشرقون، ذلك التقسيم الذي يستند اكثر الى الحوادث السياسية دون النظر الى الاعتبارات الادبية والاجتماعية الاخرى .

ففي الادب العربي عهدان طويلان يشطرانه شطرين: عهد القدماء، وعهد المحدثين . وابتدىء عهد القدماء بنضوج الشعر العربي قبل الاسلام بقرن او نحوه، وينتهي في اوائل القرن الثاني، ويشمل الادب الجاهلي والادب الاسلامي . . . اما عصر المحدثين فبدؤه قبيل قيام الدولة العباسية بدؤه في الواقع من عهد بشار، ومروان بن ابي حفصة، ومطيع بن اياس وغيرهم من مخضرمي الدولتين . ويشمل كل من جاء بعدهم من الشعراء الذين كتبوا باللسان العربي الى اليوم . . . فمهما اختلفت مذاهب الجاهليين والاسلاميين، ومهما تنوعوا في الصياغة والطريقة وفنون القول، فانهم جميعاً ينهلون من ينبوع واحد، ويصدرون

عن ذهنية واحدة، ويتقاربون تقارباً ملحاً في التفكير والتعبير. يختلف زهير عن طرفة، وذو الرمة عن جرير، وعمر بن أبي ربيعة عن العرجي، ولكنه اختلاف الجداول انحدرت عن جبل واحد واخذت ماءها من سحب واحدة، اختلاف في التطبيق، واختلاف في التأني للآمور، فأما الأصول التي تحتذي، فأما المناحي العامة فواحدة لا اختلاف فيها، وليس بعجيب أن يظل الشعر الإسلامي في جملة جاهلي الروح، فالدولة عربية محضة، والثقافة عربية صقلها الإسلام، والشعراء عرب الاثلاثة أو أربعة، والصحراء مقام الاكثية فيهم، والطبع هو الغالب على شعرهم.

تلك حال الشعر العربي حين ورثه الاقدمون في اوائل القرن الثاني، ورثوه صحيحاً، قوي العبارة واضحها، جزل التراكم متماسكها، لانزال فيه روح البداوة القديمة في المنهج والصياغة والخيال والمعنى. الا ان الحياة في القرن الثاني (حين مجيء دولة بني العباس) كانت تبتعد كثيراً عنها في العصر الجاهلي، اذ تبدلت تبديلاً حقيقياً، واستحالت الحياة العربية السامية الى حياة معقدة ملتوية تجمع بين السامي والآري، وتأخذ من هذا ومن ذاك^(١).

لقد ظهرت للوجود طبقة الشعراء المحدثين تناهض الشعر القديم سلطته، محاولة الحد من تيار الاعجاب الذي كان يمتلك الوسط الادبي آنذاك لروعة الشعر العربي. لقد حاول هؤلاء المحدثون ان يحدثوا تجديداً في الشعر القديم ولكن محاولتهم هذه باءت بالفشل نظراً لسقم تلك الجهود، وبعد اصحابها عن السليقة العربية، والذوق العربي السليم. وهذا هو السبب الذي تجرد من اجله نتاج المحدثين من عناصر القوة والحيوية التي امتاز بها شعر العرب. ولا عرابة في ذلك فان معظم الذين تزعموا هذه الحركة كانوا من غير العرب، وسواء كان اتجاههم هذا

(١) تاريخ النقد الادبي عند العرب للاستاذ طه أحمد إبراهيم.

مسايرة لآوضاع الحياة الجديدة والتي تغيرت تغيراً أساسياً عن الحياة العربية الأولى، أو أنه هو مجرد استجابة لدوافع النزعة الشعوية، فإنه مما لا بد منه الاعتراف بأن ضعف السليقة، وفساد اللغة، وتحلل الاخلاق، كل هذه الصفات كانت من أهم عوارض الانحلال التي لازمت شعر المحدثين هؤلاء. (ونستطيع ان نرى عند بشار، ووالبة، وابي نواس، والحسين بن الضحاك، نماذج من ضعف الشعر، ونماذج من ضعف الاخلاق فهذه الروح السامية الحارة القوية الصافية التي كانت من عهد عند جرير وجميل، هذه الروح القوية الصافية التي فسدت في اول امتزاجها بالروح الفارسية. فالمديح غدا فاتراً، والهجاء أصبح مرذولاً، والنسب الاموي الطاهر خبث ومجن^(٢).

لقد كانت روعة الشعر العربي القديم تتجلى في صدقه وابعازه. فمن الصدق اكتسب شعر العرب صفة التأثير في النفس العربية، ولقد قيل: (ما خرج من القلب وقع في القلب). كما ان الشعر العربي بما يشع في اطرافه من التصوير الصادق كان يأخذ سبيله الطبيعية في التعبير، فيتعد بذلك عن التعقيد والتكلف، وعن سائر الصفات التي يتعثر فيها النطق، وتبذلدها القريحة حين تحمل حملاً على المعالجة والمعانة في ابراز معنى متكلف، أو تقريب خيال بعيد. فالبلاغة الصادقة هي كما وصفها صحار بن عياش العبدي لمعاوية حين سأله: (ما هذه البلاغة التي فيكم؟) فقال: (شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على أفواهنا). ومن الابعاز توفرت للشعر العربي صفة النفاذ الى الغاية، وبلوغ صميم المعنى المقصود، والاكتفاء في ذلك بالاشارة الواضحة واللمحة الدالة. ومتى توفرت للكلام هاتان الصفتان، فكان صادقاً، واتخذ الابعاز سبيله في الاداء، فإنه يكون عندئذ قد وصل الى ذروة الابعاز البلاغي.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب للاستاذ طه أحمد إبراهيم.

والغريب في الامر ان تكون هذه الصفات، أو ما يقاربها، من الاصول التي لم يجد علم البلاغة الذي وضعه المتأخرون، بدا من تقريرها، ثم لا يكون لذلك الا أثره الضئيل في النتاج الادبي المتأخر الذي طغت عليه موجة الصنعة، وأتت على جماله قواعد المحسنات اللفظية والبديع. فهذا الجاحظ يقرر كثيراً من تلك الاصول التي اجملناها في كلام له عن بلاغة العرب في كتابه(البيان والتبيين) فيقول:

(وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة، ولا اجالة فكرة، ولا استعانة وانما هو ان يصرف همه الى الكلام، والى رجز يوم الخصام، او حين ان يمتح على رأس بئر، او يحدو ببعير، او عند المقارعة والمناقلة، او عند صراع او في حرب، فما هو الا ان يصرف همه الى جملة المذهب، والى العمود الذي اليه يقصد، فتأتيه المعاني ارسالاً، وتثال عليه الالفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه احد من ولده. وكانوا اميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر وهم عليه اقدر وامهر، وكل واحد في نفسه انطق، ومكانه من البيان ارفع، وخطبائهم أوجز، والكلام عليهم اسهل، وهو عليهم أيسر من ان يفتقروا الى تحفظ او يحتاجوا الى تدارس. وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب).

ذلك هو رأي الجاحظ في بلاغة الكلام العربي، وموجز الصفات التي قصدها هي اولا: البديهة والارتجال، وثانياً: الطبع وعدم التكلف. وهي صفات في الكلام لا تتعدى حدود الصدق والايجاز التي اشرنا اليها من قبل.

على ان هذا المفهوم الادبي الذي يبسطه الجاحظ في كلامه لم يكن

ليجد له السبيل العملية لتسلم زمام التوجيه، سواء في عصر الجاحظ نفسه، او فيما تلى ذلك من العصور. فلقد كان تبدل الذوق بفعل المفاهيم الادبية المتأخرة الخاطئة مما حال دون ترسم تلك العصور خطى البلاغة الصحيحة ولعل نظرية (ابلق الشعر اكذبه) هي خير ما تمخضت عنه عبقرية المتأخرين في تحديد قيم النصوص الادبية، تلك النظرية التي رضي هؤلاء الوقوف عندها قانعين بما يستحلبونه من عصيرها القاتل، والتي تكشف لنا بوضوح مدى الانتكاس الذي منيت به العقلية المتأخرة. وهكذا قدر للشرق العربي ان يظل اجيالاً طويلة يقتات من سموم النظريات التي وجدت في ظل حياته المضطربة، وعقليته مرتعاً خصباً للاستقرار والنمو.

ثم جاء العصر الحديث، ودبت حركة النشاط الادبي في اوساط المجتمع العربي، ووجد النقاد والباحثون امامهم تراثاً ضخماً من مخلفات عصور التاريخ العربي والاسلامي، فخلطوا بين مختلف تلك العصور - إلا قليلاً منهم - ووضعوا على الادب العربي وزر العصور التي سلفته، والتي افترت عليه، وشوهت من مفهومه فكان هذا الاتجاه الخاطيء مدعاة الى قيام نفر ممن ادعوا لأنفسهم التجديد، فتنكروا للأدب العربي برمته، وحدثوا فيه كثيراً من النظريات الخاطئة، والآراء المضللة. وجاء بعدهم دعاة المدرسة الحديثة، واغلبهم من فئات المستعربين الذين تلقوا ثقافتهم من المستشرقين، وتابعوهم في آرائهم التي ينادون بها، فعمدوا الى نصوص الأدب العربي القديم يحكمون فيها نظريات الغرب ومقاييس آدابه. فلما تنكر لهم وسخر من مقاييسهم ثاروا وزعموا انه أدب متأخر فقير، واتهموه بشتى الاباطيل، حتى أن من بينهم من لم يؤمن بصحة الأدب الجاهلي بتاتاً، وادعى انه برمته شعر اسلامي منحول!

والواقع انه لا غرابة من تردي دعاة التجديد المعاصرين الى هذه الهوة السحيقة من سقم الفهم، وفساد المنطق، وضعف الرأي في الحكم

على الشعر العربي القديم، فان فساد هذه النتائج هو بدوره نتيجة لفساد المقدمات التي بنوا عليها بحوثهم ونظرياتهم فلقد غاب عن ادراك هؤلاء ان كل دراسة من هذا النوع ما لم تبين على ذوق عربي خالص، وحس قومي مرهف، وانها ما لم تستمد ضوءها من اصول الادب العربي نفسه، فانها لن تعدو أن تكون دراسة ببراء لا ينتظر من وراءها غير الاساءة لهذا الأدب وجعله ضحية من ضحايا النظريات الدخيلة، والتظرات الاعجمية المنكوسة.

ان قوانين النقد الادبي (لا تفرض على الادب فرضاً، وتلقى عليه القاء، وانما يجب ان تستنبط من نصوصه الممتازة على انها خواص وجدت فيها فألبستها القوة والجمال، وجعلتها قادرة على التأثير والخلود. ولذلك فان قوانين النقد العربي يجب ان تنشأ من دراسة أدبه، وتؤلف من خواصه وطوابعه الممتازة)^(٣).

(٣) عن مقدمة «تاريخ النقد الادبي» لأحمد الشايب.

- ٢ -

ان شكوك دعاة التجديد واعتراضاتهم هي أكثر من ان تحصى، فهي تتناول بالانكار وسوء التعليل كل ما ورد في تاريخ الأدب العربي على انه من التناج الجاهلي، وهي لا تقتصر على ناحية منه دون أخرى، بل تراها منبثة في كل صوب، تدور حيناً حول نفسه: أصحيح هو أم منحول، وحول أشخاصه: أحقيقة هم أم مجرد اختلاق، وبعد طائفة لا نهاية لها من الشكوك والمزاعم فهي لا يسندها دليل صائب، ولا يقوم بها رأي واضح، تعود فتساءل منكراً: لماذا لم يوجد في الأدب القديم أثر للقصص والملاحم وغيرها مما نجده عند اليونان والرومان؟ وليتها تقف عند هذا الحد فهي تتجاوز العصور القديمة الى العصر الحديث، فتعيب على الأدب القديم افتقاره الى كثير من مظاهر التجديد في الآداب الأوربية المعاصرة، كما تعيب عليه انعدام وحدة الموضوع فيه، ثم ترميه بالتقليد والتكرار المعيب. ومثل هذه الاعتراضات التافهة، توجيه غريب لا يعتمد على ابسط قواعد المنطق والتفكير السليم. ونحن نود هنا ان نستعرض من تلك الاقوال ثلاث نقاط رئيسة هي:

١ - الانتحال: الانتحال معناه ادعاء الشخص ما ليس له من الكلام او القول. والأدب المنحول هو الأدب الذي نسب الى غير قائله هذا هو التحديد الموجز لمعنى الانتحال، وهو ما كان متعارفاً عليه عند علماء اللغة والأدب. فلقد كان من جراء حركة التمهيص العلمية الواسعة التي نهج فيها علماء العربية على غرار إسناد الحديث، ووضعوا لذلك طرق

الآخذ والتحمل، ان تميزت من شعر العرب طائفة من الأشعار ثبت انها منحولة، كما عرفت جماعة من الرواة بالوضع والصنعة، وقد جاء على رأس هؤلاء النقاد جمع غفير من العلماء في طليعتهم محمد بن سلام الجمحي والازهري، وعلي بن حمزة البصري وغيرهم. وقد قسم هؤلاء الشعر المنتحل الى عدة اقسام تبعاً للأسباب التي دفعت على قوله، اهمها:

١ - شعر القبائل التي وضعت في الاسلام اشعاراً نسبتها الى غير اهلها، للمفاخرة والمكاثرة وقد عرفت قريش بذلك في صدر الإسلام، وممن اتهموا بمثل هذا الوضع في القرن الثاني محمد بن عبد الله الفقعسي، راوية بني اسد.

٢ - شعر الشواهد: وهو شواهد القرآن، وشواهد النحو، وقد كان الكوفيون اكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها، كما وقع للبصريين شيء من ذلك، ثم ازداد الوضع بعد تفرع المذاهب وشياع الكذب في الرواية على ألسنة الموالي والمستعربين. كما حملوا على الوضع الاتساع في الرواية ورأس هذا الامر حماد الراوية الكوفي، وقد اخذ في مذهبه خلف الاحمر. ومنه التزيد في الاخبار وقد كان هذا النوع مما تفرغ له الاعاجم والشعوبيون فهم يكذبون مبالغة في الاغراق والتزيد، وهؤلاء هم الذين كتبوا في تاريخ العرب واخبارهم ومثالبهم، وقد كان اتساعهم في الافتراء على أشده في اوائل القرن الثالث حين استفحل أمر الشعوبية.

تلك هي باختصار اهم مظاهر الانتحال التي توصل اليها نقاد الشعر الاقدمون، وهي نتائج اوصلتهم اليها عنايتهم الفائقة بالنقد والتمحيص، فكان احدهم لا يجزم برأي الا ويبيده الدليل الثابت عليه. ونحن لو نظرنا الى الأشعار العربية القديمة التي يشك في صحتها على ضوء تلك الاستنتاجات لوجدنا انها اشعار قليلة لا تضير الشعر العربي برمته. وقد لا يؤثر حذفها فيه شيئاً. على ان هذا القليل نفسه من الشعر المنحول لا

يفقد قيمته كلياً، وقصارى ما يتجرد منه هو النسبة التاريخية لقائلي هذه الاشعار حيث تكون هناك ضرورة ما لتشخيص الشاعر بالذات ودراسته من شعره. فهذه المجموعة من الاشعار التي يرى انها قيلت في الاسلام ونسبت الى شعراء جاهليين لا تفقد من قيمتها غير العنصر التاريخي، وغير الظل الشخصي للشاعر الذي نحلها، اما قيمتها الاخرى فانها تظل على ما هي عليه. ان مثل هذا الشعر المنحول لا يعدو في جوهره ان يكون شعراً عربياً له نفس خصائص الشعر العربي الجاهلي، لان قائله وهو عربي بطبيعته لم يكن في صدر الاسلام ليستطيع التجرد عن خصائص الشاعر القديم، هذا مع العلم ان قائله لم تخف عليه ضرورة محافظته على نفس الجو، ونفس الطريقة والاسلوب الجاهليين لتتم له بذلك اسباب الوضع، وليجوز عمله على الناس. ليس هناك اذن خطر على طبيعة الشعر العربي القديم من ظاهرة الانتحال لان المعين الشعري الذي يصدر عنه الجاهليون والاسلاميون يكاد يكون واحداً في جوهره، فاذ وجد من هذا الشعر المنحول ما ليس يتفق ومميزات الشعر العربي المعروفه، او ما هو شاذ عن طبع العرب واسلوبهم، فان ذلك اكبر فضيحة له، ومثل هذا الشعر يطرح ويجفي لاول وهلة تقع عليه العين لان مظاهر الانتحال فيه ظاهرة.

ومن هذا القبيل ما نراه في ظاهرة وضع الاشعار التي يستشهد بها، فهذه هي الاخرى قليلة جداً في الشعر القديم، اذ من دلائل صحة الشاهد ونواحي قوته ان يكون قائله معروفاً ثم ان هذه الشوارد من اشعار الاستشهاد لا تمثل الا اقلية ضئيلة من الشعر القديم، ولما كان وضعها لغرض الشاهد فقط، فان واضعها لا بد وانهم قد التزموا حدود الشعر الجاهلي لئتم لهم بذلك دسها بين النماذج الجاهلية الاخرى، والا فان زيفها سرعان ما يبدو وأثر الصنعة سرعان ما يظهر عليها.

ذلكم هو معنى الانتحال عند العرب كما فهموه، وهم ادري به واولى من غيرهم بالحكم عليه. فهو لم يكن في حال من الاحوال مطية

للطعن في صحة الشعر الجاهلي، بل لعله جاء من عكس ذلك تماماً. أي نتيجة للحرص على تنقيحه، وحفظ عماد الصدق في روايته على عادة العرب من التمسك بالخبر الصادق ورواية الصحيح من الانباء خلفا عن سلف. الا ان هناك نوعاً مستحدثاً من الانتحال يزعم فيه أصحابه بأن الشعر الجاهلي القديم موضوع برمته، وقد نحله الشعراء الاسلاميون، وانه لهذا السبب لا يمثل الحياة الجاهلية، ولا يمثل اللغة الجاهلية. كما انه لا يمثل اللهجات العربية القديمة. وهم يقررون بناء على ذلك انه لا يصح ان يتخذ مادة لتفسير القرآن لان القرآن هو الذي يمثل العصر الجاهلي كما تمثله الخرافات والاساطير العربية السائدة! ولقد تطرفوا في زعمهم تطرفات خرج بهم عن نطاق المعقول الى الهذيان والبحران حتى ان من بينهم من لم يتورع عن التعرض الى نصوص القرآن الكريم والشك في صحتها التاريخية. ونحن نرى ان الاخذ بهذه الآراء المضللة يؤدي الى المقاصد التالية:

اولاً: فصل اللغة العربية ممثلة في الشعر الجاهلي عن القرآن الكريم، ومن البديهي ان ما يقصده هؤلاء من وراء ذلك هو تجريد اللغة العربية من اكبر مميزاتها وخصائصها، وهي كونها لغة القرآن والمفتاح الى ادراك بلاغته واعجاز اسلوبه.

ثانياً: اتهام مسلمي الصدر الاول صراحة بالاجماع على الوضع وترويج الكذب، وهذا الرأي طعن سافر في رجالات الاسلام في أزهى عصوره التاريخية تمسكا بنصوصه وحرصا على شريعته.

ثالثاً: الحكم بضياع جهود الرواة الذين تناقلوا اشعار الجاهلية، وعلماء التفسير الذين استغلوا تلك الاشعار، ونقاد الادب الذين بنوا على شواهد الكثير من أصول اللغة والادب وعلوم العربية، طالما كان هناك مجال للقول بأن الشعر الجاهلي كما هو معروف لا يمثل اللغة العربية، ولا اللهجات القديمة، وانه لا يصح لذلك ان يؤخذ مادة لتفسير القرآن او

دراسة العربية، وفي هذا القول ما فيه من تحطيم لأكبر الجهود الدينية والعلمية في تاريخ الاسلام.

والعجيب في الامر ان تجيء هذه المزاعم كلها باسم التجديد في الادب كأنما التجديد في الادب هو نفسه كالتجديد في الماديات من الاشياء المستعملة حيث يطرح كل ما هو بال قديم ويصبح معنى القديم مرادفا للرداءة، ومعنى الجدة مرادفا للجودة، وهذه معادلة لا تجوز على غير السذج والبسطاء من ضحايا اولئك الكتاب الذين يغتمون كل فرصة سانحة للذليل من الادب العربي والدس فيه مع انهم يعيشون عالة عليه ويرتزقون من وراء المتاجرة باسمه.

وأول من نادى بهذه المزاعم - بعد المستشرقين - هو طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي». ولقد تجرد للرد عليه غير قليل من الكتاب العرب، تناولوا كل منهم من زاويته الخاصة، وارجعوا كل ما جاء في كتابه الى مصادره سواء تلك التي سرقها المؤلف من القدماء واساء استغلالها، او التي تابع فيها اساتذته المستشرقين، واستوحى عناصرها من مصادر نغمته الشعوبية على الأدب العربي. وممن كتب رداً عليه محمد لطفي جمعه في كتابه «الشهاب الراصد» والاستاذ الغمراوي في «النقد التحليلي» والخضري بك في «نقد الشعر الجاهلي» ومصطفى صادق الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن».

٢ - القصص والملاحم: ومما اخذ على الشعر الجاهلي خلوه من عنصر القصص والملاحم والتمثيلات التي وجدت عند اليونان والرومان وغيرهم. ومعظم القائلين بهذا الرأي ينقلونه عن المستشرقين، ويعبرون عن وجهة النظر الغربية، وهي وجهة نظر لا ينتظر منها ان تكون صائبة، لانها لا تصدر من زاوية النظر العربية التي هي قبل كل شي ذوق ادبي لا يتسنى لهؤلاء ان يدركوه. فهؤلاء المستشرقون ما فتئوا يدأبون على تلمس نقاط الضعف والانحلال سواء في التاريخ السياسي او الادبي للأمة

العربية، وتوجيه الرأي العربي نحو تلك النقاط بالذات بغية صرفه عن استجلاء نواحي القوة في ادبه وتاريخه. ولقد وجد هؤلاء في الخليط الشعبي المتناثر من نتاج العصور الادبية المتأخرة ضالته المنشودة، فأشادوا به، وتضافروا على دراسة شخصياته ومنظماته، لان ذلك مما يتماشى مع غاياتهم ومقاصدهم. اما في الادب القديم فقد عز عليهم ذلك، وخشوا ان يبعثوا منه ما يعيد الى الازهان عناصر تلك القوة والحيوية التي كان يتمتع بها، باعتباره نتاج أمة غلابة فاتحة، ذات اثر توجيهي مباشر في تاريخ العالم، فلم يجدوا ما يصرفون به الاهتمام المباشر بعناصر الحياة فيه غير اثارة امثال تلك المواضيع التافهة، واتخاذها سلماً للتنقص من الادب القديم برمته. ونعود الى الفن القصصي فنقول ان عناصر الحياة العربية، وطبيعة الفكر العربي لا تستسيغ مثل هذا النتاج، بل انها لتأباه حتى ولو اكرهت عليه. وفي هذا دلالة الكافية على اصاله هذا الشعر الذي وصل الينا نقياً من ظاهرة القصص، وذلك في تماشيه مع روح الامة التي اوجدته فاذا وصل ادب الامة الى هذه المرحلة فانه يكون قد تبوأ ارقى منازل، لانه يصبح عندئذ عامل تقدم ونمو، بقدر ما يكون الادب الزائف الذي لا يمثل خصائص الامة والتعبير عن متطلبات القومية عامل تأخر وانحطاط. ونحن نكتفي في هذا المجال بأن ننقل رأياً لمصطفى صادق الرافعي في هذا الموضوع لانه اقرب الى ما نراه من خلو الشعر القديم من عنصر القصص والتمثيلات. قال في كتابه «تاريخ اداب العرب» ج ٣.

(ولقد حار المتأخرون الذين كتبوا في تاريخ العرب وادابهم عندما ألموا بذكر هذا النوع في اشعارهم ثم قطع بهم دونه - كيف يعللون ذلك ويتأولونه، فمنهم من زعم ان العرب نظموا كثيراً وضاع ما نظموه، ومنهم من زعم ان سفر ايوب في التواره ليس الا منظومة عربية نقلت الى العبرانية ولحق بدفائن العدم، والكلام على هذا النحو لا يحمل على

التاريخ فان حمل عليه خطأ به الى الخطأ، لاننا لا نتصور ان العرب خلقوا من فطرتهم شعراء ينحتون الاوزان، ويؤلفون الكلام على هذا النحو الذي وصل اليها، كما ان الرواة يقطعون بالجزم بعدم ضياع شيء من شعر الجاهلية. فاذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يجمع من التاريخ ويحفظ من الاخبار، فذلك موجود في اشعارهم، ولكنهم لم يطيلوها اطاله الالباذة وغيرها لان ذلك يقتضي له عمل من النظم وضرب من التأليف المقصود لا يتم حسنه الا بالتنسيق وسياسة الالفاظ واستكراه المعاني واقتسارها ثم اتمام اللحمة بين فصل وفصل، وبين قطعة وقطعة، ثم تحكيك الالفاظ وتصفية الاسلوب واستيفاء صنعة التأليف. ولا يكون ذلك جميعه الا بالصبر والمطولة ورصد الاوقات التي هي اجم للنشاط واصفى للخواطر ولو ان في العرب من انقطع لهذا العمل لهجنوا صنيعه، ورموه بالعي، ولتركوه مثلا وآية. فهذا النوع لا يتفق على الارتجال ابدأ، ولا بد فيه من الصنعة، فلم يقله العرب باجماع الرواة، فدل ذلك على انه ليس من حاجة اجتماعهم. ووجه آخر، وهو ان العرب لا يطيلون اشعارهم الا في المواقف وفي ايام الحفل، ثم ان طبيعة لغتهم تأبى الاطالة الى اكثر مما تبعت عليه حاجة المفاخرة والمقارعة، لان البلاغة فيها مبنية على الحذف او الاشارة والايجاز والاكتفاء من المعنى باللمحة الدالة، ومن القصة بالمثل المعروف، ثقة بينهم بعضهم عن بعض. وهم انما يتفاخرون على هذه السنة، وبهذه البلاغة، فلوا انهم ابتلوا بمفاخرة اليونان او الرومان مثلا لاحتالوا في نوع آخر من الشعر يسيطون فيه اللغة، ويمدون معاني الخطاب. ومن تدبر طرق الخطاب في القرآن الكريم، وهو ابلغ ما يمكن ان تصل اليه العربية وجده يوجز في مخاطبة العرب، فاذا خاطب اليهود بسط الكلام، فكذلك كان يفعل العرب. واذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يحمله من الخرافات او القصص الموضوعة، فهذا أيضا قد نظم فيه العرب، ولكنهم لم يفردوه بالقصائد ولم يطيلوه اطالة بالغة لذهاب معنى التقديس من عقائدهم.

فليس لهم آلهة ولا انصاف آلهة، ولا اساطير من هذا القبيل. انما كانوا يتناقلون من ذلك اشياء تناسب طبيعتهم، ومذهبهم الاجتماعي.

يخرج من أن ذلك أن الشعر القصصي (بالمعنى المصطلح عليه لم يكن من طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم، فهم لم ينظموه في جاهليتهم قطعاً ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد).

٣ - خشونة الشعر الجاهلي: وقبل ان نبدأ في تحليل معنى الخشونة في الشعر الجاهلي، نود ان نشير الى ان كثيراً من السذج من يسمي هذه الظاهرة «تعقيداً». ومثل هذا الوصف جهل واضح بطبيعة الكلام العربي التي تأبى التعقيد في أي صورة من صور الكلام. ونعود فنتساءل بعد هذا: أي الاذواق هي مرد الحكم في خشونة الشعر الجاهلي؟ فمفهوم الخشونة كما نحددها اليوم بالنظر الى انه ذوق في الفهم محدود في نطاق زمني ضيق هو عصرنا هذا، لا يعتبر حجة بالنسبة للمفهوم الادبي العام الذي له ان يقرر وحده ما اذا كان وصف الشعر العربي القديم كله، والجاهلي منه على الاخص بالخشونة هو حكم عادل وصحيح! فاذا ما حكمنا المفهوم الادبي العام فاننا نجد ان كثيراً من الالفاظ والاساليب التي نعدها خشنة بالنسبة لما نستعمله اليوم من الفاظ رقيقة واساليب لينه، ليست هي كذلك في حكم الذوق العام. هناك بالطبع الفاظ خشنة واساليب جافة نجدها منبثة في نواحي الشعر القديم لان مثل هذه الالفاظ وتلك الاساليب قد فقدت صورتها الذهنية في مجتمع اليوم نتيجة للتطور الزمني ولتغير الظروف التاريخية التي أوجدتها، ولكن هذا لا يشمل الا ذلك القسم الضئيل من الكلمات التي ظلت رهن ظرفها التاريخي، مما لا يصح معه تعميم صفة الخشونة على الشعر القديم كله. وفيما عدا تلك الالفاظ فان مظهر الخشونة الذي نجده، هو مظهر نسبي يرجع في حقيقته الى احد أمور ثلاثة هي:

١ - من أولى خصائص الشعر العربي انه يمثل مجتمعه ويعكس

بيئته، فهو سجل حافل بأيام العرب وتاريخ اجتماعهم كما ان فيه كثيراً من أسماء الاماكن ومواضع الدمن وانساب القبائل واسماء الرجال الى غير ذلك من الاسماء والمصطلحات التي لا ترجع خشونتها الا لمجرد جهلنا نحن بها، فلو اننا عنينا بتتبعها وتكرار ذكرها لما بدت لنا خشنة جافية، شأنها في ذلك شأن كثير من أسماء الاماكن والقرى والمواضع الاخرى في كافة الأنحاء اليوم.

٢ - الجهل الذي يعم ارجاء عصرنا بالادب القديم وما يقوم عليه تاريخ العرب واياهم. ويقع عبء المسئولية في ذلك على نظام التعليم، فهذا النظام لم يراع الذين وضعوه المصلحة القومية فيه، ولم يركزه على دعائم توجيهية ولهذا جاءت برامج خليطاً متنافراً لا يضع الطالب امام وجهة ثابتة. ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان برامج الدروس في العالم العربي ما تزال تملئها وجهة النظر الاجنبية دون اعتبار لمصلحة الامة العربية في تلك الواجهة الا فيما ندر. ويمكن ان نتصور نوع ذلك الخطأ المريع، خصوصاً في برامج الدراسة الادبية في فترة العصر الجاهلي، حيث تقدم للطلاب اعسر النماذج على فهمهم، فتبعث فيهم السأم والملل، مع العلم ان الشعر العربي حافل بكثير من النماذج السهلة اليسيرة التي لا يجد اقل الطلاب اليوم مستوى، صعوبة في تتبعها والالمام بها، لو وجد من بين واضعي اسس التعليم من يولي هذه الناحية ما تستحقه من عناية. اما باقي العبء فيقع على الاتجاه الادبي المعاصر. فهذه المطابع وتلك الدور الصحفية واولئك الكتاب المأجورون ممن يفتاتون بضمائرهم واقلامهم، قد ساعد كل ذلك على خلق جو ادبي مائع لا يمت بصلة الى ما يجب ان تكون عليه البيئة الادبية التي تستهدف التوجيه القومي والسمو بالمستوى الادبي العام. كل هذه ولا شك اسباب مباشرة ادت الى النظر للشعر القديم على انه معقد لا يستسيغه المزاج الادبي الحاضر.

٣ - من صفات الكلام العربي ميله الى الجزالة والايجاز في اللفظ والمعنى، مما يعسر تتبعه على من هو ضحل التفكير، والثقافة. فالبيئة التي نشأ فيها الشعر العربي القديم كان لها التأثير المباشر في طبعه بصفات الصلابة اناً، والسهولة احياناً اخرى والتدرج به الى مراتب فيما بين ذلك تبعاً للتظاهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية على السواء.. يقول الرافعي في هذا المعنى «اما السبب في ان العرب لم ينظروا في تصفية معانيهم ونحت الفاظهم الشعرية حتى تخرج نحيفة لا تمالك فذلك راجع الى فطرة الاستقلال وحالة البداوة. «فان شئت قلت: ان الفاظهم انما تقطر من سيوفهم، او تسيل من رماحهم، او تجذب في رمالهم، او تخصب في اوديتهم، او تدب في حشراتهم، ولكنك لا تستطيع ان تقول انها تتردد الفاظا مذعورة، او تتمثل وهي معبودة، او تهالك رقة دينية، ونحو ذلك مما لا يلائم نشاط البداوة، ولا يكون الا وهنا من هرم الحضارة وتماوت الحياة الاستقلالية بما يفسو في اطرافها من جرائم الانقراض، واطهر ما تجد ذلك في الشعر العبراني فان الذله والمسكنة والرعدة الدينية اخص مميزاتة».

وبعد: فان النتاج الادبي الخالد لا يضيره، وهو في اوج جودته، ان يكون عرضة للنقد عند من لا يفهمه، او مجالا للتأويل عند من يتعمد الاساءة اليه. ولقد تبين لنا فيما سبق كيف ان كثيراً من العيوب والتنقصات التي اخذها دعاة التجديد على الشعر القديم لا تتعدى كونها مجرد اتهامات لا مبرر لها عند من يستهدف في حكمه جانب العدل والانصاف. الا ان ذلك لا يعني ان القديم او أي ادب آخر، مبرأ من جميع العيوب، سالم من كافة المآخذ الادبية، فذلك شأو في الكمال لا يمكن لبشران يدعيه، وهو ما لا نقصده بداهة، لان في مثل هذا الحكم ايصاد لبابي النقد والتمحيص اللذين هما اداتان مهمتان لتجديد القيم الادبية الصحيحة، والسعي بالجهود الادبية نحو التطور والجودة. الا ان

الذي يجب ان نشترطه في تطبيق هاتين الاداتين ان يكون استعمالها منوطا
بالتحرى الصادق والغرض التزيه.

١٩٥١ (*)



ابن مقرب... شاعر مجهول!

في غمرة الماضي الغابر، منذ قرون سبعة ماضية، طوت يد الزمن صفحة خالدة لشاعر بحراني عظيم، عاش في البحرين، فكان مثلاً للمناضل الحر والشاعر المصلح.

ويتراكم غبار السنين والاعوام على سيرة هذا الشاعر وعصره، واذا جل ما تبقي لدينا عنه مجموعة من شعره، محدودة التداول بين عدد قليل من الافراد، ان يكن بينهم من استطاع التعرف عليه، فأن معظمهم ممن لا يمكن ان يفيد منها شيئاً.

ذلكم هو شاعر البحرين الامير ابو عبدالله علي بن المقرب العيوني الذي تطل علينا شخصيته من ثنايا ديوانه، ثائرة تستدعي الاعجاب والاكبار، متوثبة تستحق الثناء والتقدير.

سأمضى على الايام عزم ابن حرّة يرى العود فيما تحمد النفس أحمدا
فأما حياة لا تمل حميدة تحدث عنها من أغار وأنجدا
انال المنى فيها، وإما منية تريح فؤاداً أج من غلة الصدا

والامير الشاعر - كما يدل عليه لقبه - سليل اسرة حاكمة وليت شؤون هذا البلد حقبة من الزمن، فهو ينتمي الى الامير عبدالله بن علي العيوني، الذي انتزع الأحساء من حكم القرامطة، واستولى على القطيف وجزيرة اوال (البحرين حالياً) فأسس بذلك الأمانة العيونية في منطقة البحرين.

نشأ علي بن المقرب في مسقط رأسه الاحساء وتلقى فيها مبادئ ثقافته، ثم بدا منه ميل مبكر للادب والشعر، فبرز فيهما ولم يزد على العاشرة من عمره، الا ان ميله هذا قد اقترن منذ الصغر بعاطفة وطنية حساسة لم تلبث ان تحولت الى سخط شامل على الوضع السائد آنذاك، وثورة على القائمين بالحكم، مما ادى الى تضاييق امير الاحساء منه - وكان آنذا ابا المنصور علي بن عبد الله - فأمر بحبسه ومصادرة املاكه وبساتينه دونما ذنب جناه. ولما افرج عنه توجه الى العراق ومكث في بغداد اشهرأ معدودة ثم عاوده الحنين الى وطنه فرجع مؤملا زوال الشحنةء طالباً رد املا كه فلم يظفر بطائل.

وقد حدثت تطورات سياسية عدة اثناء اقامته هذه ازدادت بعدها الحالة سوءاً وكثرت الفتن وتعددت رؤوسها، فعاتب امير الاحساء بشعر طويل ثم سئم المقام فهاجر للعراق ثانية قاصداً الموصل وديار بكر للقاء الملك الاشرف بن العادل الذي كان قد نهض لقتال الافرنج في دمياط فلم يستطع مواجهته، فامتدح والي الموصل فوصله، وكان ذلك سنة ٨١٦ هجرية، ثم رجع الى الاحساء ومكث هناك بقية عهده.

ولابن مقرب ديوان شعر مطبوع على الحجر في الهند سنة ١١٣١هـ وهو على النمط القديم في تبويبه وشروحه، كما انه خال - مع الاسف - من كثير من المعلومات الضرورية لمن يود الانصراف الى دراسة الشاعر دراسة مستفيضة.

اما المقدمة التي كتبها الناشر فهي كذلك غير مستوفية لكثير من المعلومات اللازمة، و كأن كاتبها قد اتخذ من موضوعها مجالاً لاثبات قدرته على حشر الاسجاع، وتركيب الجمل وتنميقها، مما ادى به الى إهمال نواحي عديدة من سيرة ابن مقرب مثل ذكر تاريخ ولادته ووفاته وحالة عصره، وكذلك فهو قد اهمل جملة واحدة بقية عهد ابن المقرب بعد رجوعه من الموصل، فلم يذكر عنه شيئاً، وقد ركز الناشر جلّ بحثه

عن اخلاق ابن المقرب ومزاياه وتعسف اقاربه الحكام في معاملته، الا انه على الرغم من ذلك، لم يوفق في تعليل سر تلك الخصومة التي كانت قائمة بين الشاعر وولاية الامور، فهو يعزوها الى سماع الامراء قول الوشاة فيه وتقريبهم اهل السفه والجهل على رجال العلم وذوي الفضل، وهذا التعليل السلبي، وان كان على جانب من الصحة، الا انه ليس في ذاته السبب المباشر في هذه الخصومة، فمن الواضح ان ابن المقرب كان قد وقف موقفاً ايجابياً من هؤلاء الامراء حين بدأ يهددهم ويتوعدهم، وهو لذلك ينوي القيام بما يشبه الثورة على الوضع القائم في عصره، ونحن لا نجهد كثيراً في تلمس هذه الروح الثورية في شعره والمتحفزة للوثوب في اقرب فرصة مؤاتية.

وثورة ابن المقرب هذه تظهر احياناً ضمنية في شعره وحياناً اخرى صريحة لا غبار عليها، ولا لف فيها وذلك تبعاً لشخصيات خصومه من جهة وظروفه هو من جهة اخرى، ولقد ادرك ولاية الامور هذه الحقيقة فعملوا على اخماد النار قبل ان يضطرم أوراها ويصلون جحيمها.

فأحياناً نراه في ثوب الناصح، يحذر بوخامة العاقبة، وينذر بزوال الملك طالما كان الملك غير ثبات على اللعب. وهو يغتنم فرصة النصح هذه ليوجه نقده اللاذع ممزوجاً بالسخرية الى سيرة الامراء الشخصية المنحرفة وسيرهم في طريق من اللهو مظلم قد يجرّ عليهم البلاء والدمار كما جرّ على غيرهم - فيقول مثلاً مخاطباً امير الاحساء:

كم في أبوتك الامجاد من ملك بالمجد ملتحف بالتاج معتصب
لم يبق إلاك فانظر ما يقال غداً وان هممت بضعف العزم فانتسب
وغر على الملك من لعب الرجال به فالملك ليس بثبات على اللعب
دعائي يارب الهم رب دولتنا ان يبلغ الرأس منا رتبة الذنب!

واحياناً تبدو لنا ثورته بين طيات شعره الحماسي يدعو فيه الى لم شعث بني وطنه، ويعاتبهم على الخمول:

لا تكثري من مقالات تزيد ضنى
 في كل ارض اذا يممتهها وطن
 يا ساكني الخط والجرعاء من هجر
 بححت مما اناديكم واندبكم
 فسكتوني بقول لا تفون به
 لأطلبن العلا جهدي طلاب فتى
 ارى العلا تقتضيني غير وانية
 وما نهضت به الا واقعدني

الا انه كثيراً ما ينصرف عن هذه الاساليب «الملفوفة» فيعلن سخطه
 وثورته في وجه الامراء متهدداً متوعداً:

وامدح اقواماً لو اني امتدحتهم
 لكف اذاهم لا اجتلاباً لخيرهم
 فيا عرراً لا يفثاً المدح شرهم
 متى جر نفعاً مدحك او كفى اذى
 فيا ضيعة المدح الذي سار فيكم
 لان كنت - لا كنتم - قذى في عيونكم
 أغرّكم دهر خسيس أحلكم
 رويداً بني المستقرمات فحاضر
 فوا أسفا إن مت لم أوط ارضكم
 تريكم نجوم الليل ظهراً اذا بدت
 بكل فتى امضى من السيف عزمه
 فلست ابن أم المجد ان لم تزركم

شعره:

وشعر علي بن المقرب كما ينتظر منه ان يكون جيشاً متوثب في

جيده، موغل في الحماسة في اغلب قصائده التي تمتاز بطولها، الا انه لا ينسى بين كل مقطع ان يقف برهة عند حكمة يستخلصها او مثل يضربه، ثم يسرد طرفاً من اخبار العصور الغابرة يستوحي منها العظة ويضرب بها الامثال، وغالباً ما تكون هذه الحوادث مستمدة من تاريخ العرب الجاهلي، او من سيرة آبائه العيونيين وتاريخ حروبهم في البحرين. كل ذلك يعالجه ابن المقرب في شعره بأسلوب سهل لا اثر فيه للتكلف المصطنع او التقعر في إنتقاء محسنات اللفظ. وهذه احدى الميزات التي استطاع بها ان يتخلص من اثر الصنعة الذي كانت تفرضه البيئة الادبية وتطبع به النتاج الادبي آنذاك. والغريب ان عصره يكاد يكون قريب العهد بمخلفات القرامطة في بلاده، وهم الانباط الذين مسخوا كل ما وقعت عليه ايديهم من آثار مادية او ادبية على السواء.

هذا في شعره الجيد، اما في نظمه العادي، فغالباً ما يسف في اسلوبه، وخصوصاً حين يتعرض للنواحي التاريخية او المواعظ والحكم. وتخالط بعض قصائده الجيدة كذلك عدة ابيات من هذا النوع ينزل فيها عن المستوى الذي بدأ به، ولكنه لا يلبث ان يعود الى مستواه الجيد. وعلى العموم فان اقل ما يقال في شعر ابن المقرب غير الجيد انه في درجة النتاج الادبي لذلك العصر إن لم يكن يفضله في روحه واحساسه وقيمه التاريخية. ومن قصائده، التي تحمل قيمة تاريخية رغم ضعفها قصيدة مطلعها:

قم فاشدد العيس للترحال معتزما وارم الفجاج فان الخطب قد فقما
 وعدد ابياتها ١٤١ بيتاً، فهي رغم ضعف اسلوبها ذات قيمة من الناحية التاريخية، لانها عبارة عن ملحمة شعرية تصور كثيراً من تاريخ ذلك العصر وما قبله وتشتمل على حوادث محلية وله عدة قصائد من هذا النوع.

وقد طرق ابن المقرب معظم ابواب الشعر، واهمها المديح،

والنسيب، والفخر، والرثاء، وقليلاً من الهجاء. ولكنه قلما يقصر قصيدة كاملة على احد هذه الاغراض ففخره بنفسه وسخطه على الوضع وتحريضه قومه، كل هذه لابد منها في اغلب قصائده. والمديح هو اكثر الاغراض التي نظم فيها، الا ان شعره في ذلك كان مقصوراً على اقرابه الامراء وبعض ذوي الوجاهة ممن اكرموا في سفره. فمدحه الامراء كان كفا لاذاهم، ومدحه الباقيين مراعاة لودهم:

مديحي رجالاً بعضهم اتقي به اذاه، وبعضاً للمراعاة والود
ولقد كره على الشعر العطايا فلم يخرج منه القريض تكسباً، وله
مواقف كثيرة ابى فيها ان يمدح من شانتة سيرته واخلاقه، بل ان مثل
هؤلاء غالباً ما يكونون موضع تقريعه ومعاتبته. إلا انه قد تجنب مع ذلك
الهجاء الفاحش المبتذل في شعره، واقتصر على العتاب الودي احياناً،
والتنديد الساخر احياناً اخرى. والسبب في ذلك هو استصغاره لقدر من
وشوا به وناصره العداة ممن كان يربأ بنفسه عن التعرض لهم حتى
بالهجاء، مردداً فيهم حكمته:

ارى الناس منذ كانوا عبيداً لغاشم وخصماً لمغلوب وجنداً لغالب
اما الغزل والنسيب في شعره، فهما رغم كونهما توطئة لموضوع
قصائده - على عادة القدماء - الا انه لا يقف فيهما عند المعاني القديمة
الجامدة، والالفاظ المعادة، بل يضيف عليهما الشيء الكثير من شعوره
الحماسي وعاطفته الوطنية الحساسة. ولهذا جاء غزله - رغم قلته - فحلاً
لا تخالطه اعراض الانوثة ولا تحلل كلماتها. هذا ولابن المقرب عدا كل
ذلك ملكة في الوصف لا يمكن تجاهلها، وتمتاز بجزالة اللفظ، وقوة
الاسلوب وتتابع المناظر المثيرة، وغالباً ما تكون قطعه الوصفية ضمن
قصائده الفخرية.

الوطنية في شعره:

من خصائص شعر ابن المقرب ما يحمله بين طياته من تأثير اللون المحلي، وطابع البيئة الخاص. فأن من اول الحقائق التي تواجه القارئ في ديوانه هي انه لم يتخذ نظم الشعر غرضاً لذاته، يعتكف له في محراب الفن المجرد، او يتأمل فيه رؤى الخيال البعيد. ولا غرابة في ذلك فأبن المقرب شاعر مصلح لم يزل شعره لسان الثورة، وداعية النهوض في بني قومه حتى الرمق الاخير من حياته. انه شاعر المجتمع الذي يعيش لقومه لا لنفسه، وفي الواقع لا في الخيال:

أعربتُ حين دعوت إلا انه لا يبلغ الاموات صوت دعائها
ان ترض قومي الهون في فطالما عمداً اهنت النفس في مرضاتها
كم قد غدوت ورحت غير مقصّر في لم فرقتها وجمع شتاتها
ولهذا فان المقرب لا يضيره ان يضرب الامثال، او يستمد العبر من اقرب الاشياء اليه، واكثرها مساساً بتفكير مجتمعه، ومصطلحات بلاده. ففي مواضع كثيرة من ديوانه ذكر لاماكن لا تزال معروفة، وقرى ما تنفك أهلة، وعادات ما برحت مستحكمة في شتى نواحي البحرين. ولا يستغربن المرء وهو يطالع ديوانه، ان يجد فيه من الامثال ما يستعمل فيه مثلاً اسماء لانواع من الاسماك الشهيرة عندنا اليوم كالصافي والكنعد ومن الرطب «المرزبان»، ومن الاطعمة الشائعة واللبسة المعروفة، وسائر مرافق الحياة البحرانية.

الا ان اهم ميزات الشاعر مكانته من الادب القومي لهذا الجزء من الوطن العربي على الاخص، حتى انه ليعتبر بحق شاعر الوطنية فيه، وهذا ما يفسر لنا سرّ اعجاب الشاعر بأبي الطيب المتنبّي وتأثره به، ذلك الاعجاب الذي يبدو في كثير من لمحاته واساليبه ولا غرو، ففي سيرة هذين الشاعرين نواحي كثيرة يشتركان فيها، واذا كان ابن المقرب دون

المتنبي في شعره فانه يشترك معه في طموحه ويقظته ومزايه الاخلاقية، اشتراكاً ظاهراً.

وفي شعر ابن المقرب القومي مسحة من الجدة فهو ما يزال يعبر عن اروع الشعور الوطني رغم بعد الشقة التي تفصل بين عصره وهذا العصر الذي تبلورت فيه فكرة القوميات ورغم التباين بين ثقافة كل منهما، وفي طليعة قصائده التي تحمل هذا الطابع قصيدة مطلعها:

دع الدار بالبحرين تعفو ربوعها وسقها ولو لم يبق الا نسوعها
ومن قطعها الجيدة قوله:

فخير لعمرى من بساتين مرغم على ذي المجاري - طلح نجد وشوعها
ومن ماء نهر الجوهريه لو صفا ذبابة حسي لا يرجى نبوعها
اما سمنها في ابحر الملح ماؤه وفي نخلها العم الطوادي جذوعها
وليس لنا في الدرّ إلا محاره ولا في عذوق النخل إلا قموعها
فبعداً لدار خيرها لعدوها وقوم بأسوا كل حظ قنوعها
عفاء على البحرين لو قيل اينعت «دنانير» واديها وجادت زروعها
فهل ذاك إلا للعدو، وغصة سيأتي بها متبوعها وتبوعها
لقد صدعوا عمداً عصاها فلا التقت ولا التأمّت الا عليهم صدوعها
ومن جيد شعره الذي يصف فيه حاله مخاطباً قومه في قصيدة مطلعها:

أبث ثوب الأيام إلا تماديا فيا شقوتي ما لليالي وما ليا
قوله:

اقول وقد طال اهتمامي لفتية تسامى الى غرّ المعالي تساميا
الى م بني الأعمام نسقى نطافها أجاجاً ويسقى الغير عذباً وصافيا
فو الله لا ادري واني لصادق عمى ما ارى من قومنا ام تعاميا

تلوّمت قومي كي يريعوا فلم اجد على الدهر من قومي هماما مواليا
وطال مداراتي اللئام وانما سفاه لمثلي ان يكون مداريا
ومن لم يفارق منزل الضيم لم يزل يروح ويغدو موجع القلب باكيا
ومن يثو في دار الهوان يعش بها اخا مضض لا يبرح الدهر شاكيا
فان عقلت قومي لساني بأرضها فليس بمعقول اذا كنت نائيا
سأرسل فيها بالدواهي شوارداً تنبه ذا عقل وتفهم داعياً



ولقد كانت له في مشاكله الشخصية ومحنته المادية ما يكفي لصفه
عن تناول هذه النواحي الاجتماعية - شأن غيره - ولكنه ابى ذلك، فلم
ينس بلاده وهو يجاهد عن نفسه، ولم يتجاهل قومه وهو يطالب بحقوقه:

كنت قبل اليوم ابكي بشجى هم نفسي وطريفني وتلاذي
ثم قد اصبحت ابكي بأسى شجو اخواني ورهطي وبلادي

ويعد: فإن مجال التحدث عن شخصية ابن المقرب وشاعريته
لمتسع الارحاء، على اني ارجو ان اكون قد استطعت في هذه الالمامة ان
ابين شيئاً عن هذا الشاعر وطرفاً من شاعريته كما اني آمل ان يجد ديوانه
من يقوم بالعناية به وطبعه ليتسنى للجميع الاطلاع عليه ولتتمكن شبابتنا
من دراسته.

١٩٥٠ (*)



كتاب

«الفتوة عند العرب»

من الحقائق المقررة في تاريخ الامم ان دلائل اليقظة فيها ما هي الا صورة لما يختلج في نفوس ابنائها من شعور قومي وما تتصف به جهودهم من اخلاص ووطنية. ولقد ادركت كثير من الامم - حتى اقلها مجدداً واحقرها تاريخاً - هذه الحقيقة فصرفت اهتمامها الشديد نحو (التوجيه القومي) محاولة ايجاد ذلك الرابط الروحي المتين بين افرادها في ماضيهم وحاضرهم على السواء.

ومن الغريب حقاً ان تكون أجدر الامم بهذا التوجيه القومي، أقلها سعياً اليه، واثقلها خطى في سبيله - تلك هي الامة العربية. فبالرغم من توفر عناصر التوجيه القومي في تاريخ الامة العربية، فإن حملة الثقافة من افرادها لم يجشموا انفسهم بعد عناء النظر في حقائق التاريخ العربي الذي عبثت به الايدي وطمست الكثير من حقائقه اهواء المغرضين، اللهم الا في الشيء اليسير والنزر القليل جداً. ولعل كتابنا «الفتوة عند العرب» والذي نحن بصدد التعريف به على صفحات هذه المجلة هو من بين تلك الجهود الفردية التي ما يزال يبذلها الشباب العربي المتيقظ في هذا السبيل. وهكذا... فان يداً واحدة قد امتدت الى أطمار ذلك التاريخ المظلم، الذي تراكم عليه غبار السنين والاعوام، واستطاعت ان تجلو الشيء الكثير من صفاته النابضة بالحياة والمثل العالية.

مؤلف الكتاب هو الاستاذ «عمر الدسوقي» الاستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد وهو يعرفنا بكتابه في المقدمة فيقول ان الغاية من عمله هي تعريف الشباب العربي المعاصر، بتاريخه على حقيقته، وتقديم بعض صفحات مشرقة من سيرة الآباء، تفيض بالخير والسخاء، والخصال العربية الكريمة، علّ ان تستفيد منها الامة العربية اليوم، في كفاحها الميرمع عداتها الغادين. ثم . . يتناول المؤلف ظاهرة عزوف معظم الشباب الحاضر عن الادب العربي مع عظمته وقوته وصفائه، الى الآداب الاخرى التي هي نتاج بيئه غير بيئتنا، ومجتمع قد كثرت علله وأوصابه، وتعقدت مشكلاته وادواؤه، ونخرت فيه الآفات التي تصيب الامم المترفة المتكالبه على المادة. أدب ولده الاضطراب النفسي، والكبت والحرمان والضيق والظلمة - ظلمة الجو وظلمة الحياة - والآن لنلق نظرة عجلية على أبواب الكتاب ومواضيعه:

ينقسم الكتاب من حيث تبويه الى مقدمة تعقبها فصول تسعة يتناول المؤلف في الفصل الاول - وهو اصغرها - تحديد معنى كلمة (الفتوة) في اللغة وانها من الفتاء، وهو الشباب والقوة الجسمية. ثم يتبع تطور معنى هذه الكلمة عند العرب في استعارتهم اياها للتعبير عن القوة المعنوية، كالحرية والكرم الى غيرها من صفات الرجولة الكاملة. وبعد هذا الفصل ينتقل الى موضوع الفتوة عند العرب، وهو من امتع فصول الكتاب. يبحث عن نشأة الفتوة واثار الطبيعة العربية في الحواس واثار الصحراء في تكوين العرب الجسماني والعقلي. ثم يتناول بالتحليل الصفات الخلقية واحدة بعد اخرى فيعرضها بأسلوب واضح، بسيط، حافل بالنماذج الحية. وهو يرى ان هذه الطبيعة العربية في البادية قد انعكست على نفس العربي قوة، وصرامة، وجلدا. وان الفتوة عند العرب نشأت نشأة طبيعية في الصحراء الشاسعة، التي فرضت على العرب اخلاقا خاصه، والزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا، صارت لهم على مر السنين

جبله وطبيعة وفطرة، وصارت لهم عنواناً بين العالمين. ويتابع المؤلف رأيه، فيشرح بجلاء كيف ان الحواس التي تصقلها عوامل البيئة في الصحراء. تؤثر بدورها في سلامة التفكير، وقوة العقل (فسعة المجال في الصحراء امام حواس الانسان، ضرورة لتربية هذه الحواس. والحواس السليمة النامية تؤدي الى قيام الجسم بوظيفته الطبيعية، وادائها اداء منتظماً لا اضطراب فيه. كما تؤدي الى وجود عقل سليم، وحكم صحيح، وحياة معتدلة).

وهكذا يقرر المؤلف (قانوناً) له خطورته وقيمه في مجال الدراسات الاجتماعية، والتوجيهات القومية على السواء.

والفصل الثالث من الكتاب يدرس فيه المؤلف الفتوة في الاسلام، ويلخص موقف الاسلام من الفتوة، والاخلاق العربية بانه - أي الاسلام - جاء ليكمل تلك الصفات عند العرب، ويوجهها لخدمة صالح الجماعة الاسلامية. وقيمة هذا البحث تتجلى فيما ينطوي عليه من توجيهات قيمة في تحليل موقف العرب من الاسلام، والحقائق التي ينطوي عليها، مما استعصى فهمه على الكثيرين من كتاب التاريخ، الاوائل منهم والمحدثين.

يقف المؤلف عند سر اختيار الله العرب للاسلام، فلا تفوته الأدلة لاثبات ان اختيار الله الامة العربية لتأدية تلك الرسالة، انما كان لان العرب قد تميزوا عن معاصريهم بخلال وسجايا وعرف كريم. ولانهم خير من يفهمها ويستجيب لها ويعمل بها. وينقلها الى الناس كافة في جدّ ودأب وتواضع ومرحمة. فيعارض بذلك اتجاه جمهور السذج والمغرضين الى الحط من قدر العرب الجاهليين وطمس جميع ما لهم من خصال حميدة في مجال الحديث عن فضل الاسلام الذي كانوا هم مادته، ولسان الدعوة اليه. لقد جاء الاسلام منظماً للجماعة العربية، وموجهاً تلك الاصول الاخلاقية فيها، وجهتها الصحيحة، دونما جهل او إسراف، ينفيان المصلحة منها.

فالفرق بين رشد العقل الجاهلي، ورشد العقل الاسلامي، هو فرق بين نتيجة العزلة بالبداءة، والاكتفاء بوعي شؤون العرب وحدهم، وبين التوسع الذي يشمل نظر العرب في موقفهم من العالم المحيط بهم، وبخاصة اذا اوشك ان يطغى عليهم فيهلك فضائلهم. وعلى هذا الاساس وحده نهض الخلاف بين الجاهليين والاسلاميين وسرعان ما انتهى بالتألف على التقوى.

ويعقد المؤلف بعد ذلك فصلاً خاصاً يتناول فيه صفات الفتوة عند الرسول العربي الكريم (صلى الله عليه وسلم) تعقبه دراسة مفصلة لرجال الاسلام البارزين. ومن اطرف ما في هذا الفصل حوادث رواها المؤلف عن الرسول الكريم في حادثة سنه، تظهر ميله للفروسية والفتوة، وما يؤثر عنه من تشجيعه لهما. ومن المواضيع الاخرى في الكتاب فصل يبحث عن الفتوة عند المتصوفين. وفيه يظهر المؤلف مدى انحراف معنى الفتوة عند هذه الفئة عن معناها العربي الصحيح. ويبدو لى ان رغبة المؤلف في تتبع الفتوة، وما يتعلق بها على كافة مظاهرها، وميله لاستخراج تاريخ لها منفرد، قد دفعه الى التوسع في تعميم مدلولها على جمهور المتصوفين. وان كان هذا المدلول قد مسخ الفتوة العربية الاسلامية مسخاً واخرجها عن معناها الصحيح كما يقرر المؤلف نفسه.

ويلي هذا الفصل بحث شائق عن فتوة من طراز آخر (أرستقراطي) هي فتوة (المترفين) وهم بالطبع لا يمتون الى من قبلهم بصلة من حيث انهم ليسوا من عامة الشعب وسواد الناس ولانهم كانوا من اصحاب الثراء والجاه والسلطان ويتزعم هذه الطبقة (الناصر لدين الله) وميزة هذا الفصل انه يصف كثيراً من انواع الرياضات الممتعة كالطراد والفراسة والرماية الى غير ذلك.

وبعد ان ينتهي المؤلف من فتوة المترفين يعقد فصلاً خاصاً يقارن فيه بين فتوة العرب وفروسية الغرب وينتهي الى ان فروسية الغرب لم

تكن في البدء الا صورة واضحة كاملة من مآثم النبلاء ووحشيتهم ومفاسد قصورهم واستعبادهم للشعب وان الفروسية الغربية قد تطورت بعد ذلك الى شيء من سماح العقل والصفات الانسانية بتأثير الفتوة العربية فيها. ولكن هذه الصفات الانسانية ما لبثت ان تلاشت منها، بعد زوال النفوذ العربي من اوربا، وبعد ما صارت حضارة الغرب مادية لا تؤمن بغير الحديد والنار والقهر والغلبة والجشع والطمع واستعباد الشعوب واستنزاف دماؤها.

الى هنا ينتهي المؤلف من اهم اجزاء الكتاب، ولكن ميله الى الاكثار من الشواهد والامثلة حدا به الى ان يخصص القسم الاخير، لعرض نماذج مختلفة من «قصص العرب» تبلغ الثمان، وهي نماذج حية من التاريخ العربي القديم، حافلة بالمثل الاخلاقية النبيلة.

من هذا الاستعراض السريع لمواضيع الكتاب تتبين لنا ضخامة المجهود الذي بذله المؤلف في كتابه الذي يتجاوز ال ٤٥٠ صفحة فهو بالاضافة الى انه جديد في موضوعه سجل حافل باحاديث الفروسية والمثل الاخلاقية وقد نفخ فيها المؤلف من روحه وطعمها بتوجيهاته السديدة. واذا كان المؤلف لا يكتم القارىء المصادر التي اعتمد عليها، او التي استمد منها الكثير من آرائه الا ان الميزة التي يختص بها وحده، هي تبسيطه لتلك الآراء بأسلوب سهل بعيد عن ضجيج الجدل وأساليبه المعقدة، وحسبه من ذلك ان يضع بين ايدينا النموذج التاريخي، ويضرب لنا المثل الاخلاقية، لنستنتج بانفسنا ما ينطوي عليه كل ذلك من حقائق بعيدة وتوجيهات سديدة.

على ان للكتاب بعد ذلك ميزة اخرى تتمثل في نظرتة للتاريخ من زاوية اخرى جديدة، تظهر لذلك التاريخ وجهاً اكثر اشراقاً بالحياة والجمال، من ذلك المظهر الذي درج معظم المؤرخين على حصر جهودهم في مجال التنقيب فيه، مهملين الجوانب الاخرى من المجتمع

الاسلامي . وهذه النظرة قد تكون اكثر اهمية واعظم نفعاً بالنسبة الى تهيئة ثقافة النشء العربية الاسلامية، وان كانت بالنسبة للتحريات التاريخية المجردة لا تخلو من تصوير مبالغ في مثاليته . فنحن لسنا محتاجين - كما احتاج غيرنا - ان نتخذ من رجالنا السابقين «آلهة» متجاهلين طبيعة البشر وقانون الحياة، ولعل اكثر ما يخشى من ذلك، هو انه قد يؤدي الى نزع جانب الاسوة المتوخاة، والقذوة المرجوة، من عرض سير تلك الشخصيات التاريخية .

على ان لدينا مع ذلك بعض المآخذ الطفيفة لا بأس من الاشارة اليها ولو من بعيد لاتمام البحث . واول ما نلاحظه هو كثرة استشهاد المؤلف بآراء المستشرقين . انه قد يكون هناك ما يبرر الاستشهاد بآراء الأجانب في مجال التحقيق العلمي المجرد، اما بالنسبة الى القيم الاجتماعية والخلقية فان من الخطأ الاسترسال في التمسح بآراء هؤلاء المتشرقين حتى ولو بدا من كلامهم ما يشبه الانصاف . فنحن نعلم ان المقياس الخلقى او الروحي هو مقياس نسبي بين امم العالم - يستمد قوته في الغالب - من قوة تمسك الامة به، ومحافظتها عليه، الامر الذي يرغم الغير على احترامه وتقديره . وبالرغم من ان النصوص التي استشهد بها المؤلف لهؤلاء، قد جاءت في مجال انصاف العرب، فقد وقع ما كنا ننتظره، ففي عدة مواضع من الكتاب لا يسع المرء الا ان يبدي اشفاقه من تلك العقلية الغربية حينما يقدر لها ان تحكم باسلوبها الخاص على مثلنا الاخلاقية، او تنظر فيها بموازينها . فمن ذلك ما نقله المؤلف (ص ٥٦١) «عن قيطاني» ما نصه :

«ان دخول الاسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على بعض العادات البربريه فحسب وانما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل» فاذا عرفنا ان المؤلف ساق هذا النص في بحث له عن اثبات استعداد العرب الفطري للاسلام، ادركنا ان المؤلف قد ناقض

نفسه بإيراده كلام قيطاني هذا الذي ان دل على شيء فانما يدل على مدى جهله بمثل الحياة عند العرب وعاداتهم .

اما «فلوريمان» و«سمسموني» فلهما كلام غريب عن منزلة المرأة عند العرب . ولا ادري كيف اجاز المؤلف لنفسه ان يستشهد به رغم ما فيه من زيغ ظاهر . تأمل قول فلوريان «من اجل النساء سعى العرب وراء المجد ولكي يسطعوا امام اعينهم (يريد اعينهن) سعوا في سبيل الثراء حتى يقدموا لهن اغلى ما يملكون من مال وحياة» . فالسعى وراء المجد عند العرب انما الغاية منه ان (يسطعوا) على حد تعبير فلوريان - امام النساء ولو تطلب منهم ذلك التشبه باليهود في طلب الثراء ! اما سيسموندي فهو يرى ان الحجاب للنساء المسلمات «هيكل يعبدن فيه» ثم يكرر كلمة «العبادة» على نحو يناقض معالم الاسلام صراحة وان كان يتفق بالطبع مع التقاليد الوثنية في العالم الذي يجهل حكمة الاسلام من وراء الحجاب وهي الصيانة وحفظ العرض .

اما اسلوب المؤلف فقد اشرنا من قبل الى ان من ميزات الكتاب سهولة اسلوبه وتبسيطه للأراء على ان الملاحظ ان المؤلف قد اسهب في بعض المواضع اسهاباً يقطع حبل التفكير على القارئ المسترسل ويدعو الى الملل ، لما فيه من تكرار واعادة ، هي اقرب الى اسلوب الكتب المدرسية .

ومن الملاحظات الاخرى على بحث المؤلف انه وقف بتاريخ الفتوة العربية عند القرن الخامس أي عند انحلال الزعامة العربية في كيان الدول الاسلامية ثم وجه دراسته بعد ذلك على اسلوب الكثرين من الكتاب والمؤرخين - شطر الخليط المتحلل بينما كنا نود ان يستمر في تتبعه لتاريخ الفتوة ونماذجها في حياة ابنائها الاصليين التي هي امتداد للحياة العربية الصحيحة في الاخلاق والعادات ، ولو انه فعل لآخرج لنا سلسلة تكمل بها حلقات التاريخ العربي المفقودة في هذا العصر . على ان تلك

المآخذ الطفيفة لا تنقص بالطبع شيئاً من قيمة الكتاب وحسب المؤلف انه استطاع ان يحقق عملاً قومياً لم يتيسر للكثيرين غيره من دعاة القومية بلغة الاقوال والادعاءات المجردة عن العمل.

١٩٥١ (*)

(*) نشر في مجلة صوت البحرين/ العدد سنة ١٢٧١ هـ.

أمسية أدبية

نلتقي في هذا المساء بالزملاء الاساتذ من اسرة الأدباء والكتاب، لنسمع منهم عن تجاربهم فى الشعر والأدب وتطورهما في البحرين. وأنها لفرصة سعيدة لأعضاء نادى العروبة ان يتعرفوا على خصائص الحرف الجديد، واسرار الكلمة الشعرية الحرة، وذلك من أفواه الرواد الشبان الذين أقلعوا بأشروعهم منذ عام ١٩٦٩ فمخروا عباب هذا البحر، وغاصوا الى مواطن الدر فيه، بعزم الصابرين، ثم استهواهم الأفق الفسيح وحملتهم أشرعة الرياح الى عوالم الابداع وهم يرددون عبارة «الكلمة من أجل الانسان».

ومن المعلوم ان اسرة الأدباء والكتاب في البحرين ارتبطت إسمها بتجربة الشعر الحر والتجديد في الادب، وقد بدأت التجربة صغيرة ثم كبرت واتسع مداها في الزمان والمكان. ومن الواضح ايضا، أن مجالات القول واسعة في موضوع هذه الأمسية، وشعر التجديد، كما أنه من الوارد أيضا ان يتساءل من يود الحديث من افراد «الأسرة» من أين نبدأ وبماذا نبدأ؟ وقد رأيت من المناسب - لكونى البادىء والمكلف بتوجيه دفة الكلام - أن أضرب بمجداف زورقي الصغير فوق صفحة الماء الراكدة فأبدأ باستعادة بعض ذكرياتي الماضية، مشوبة بعدد من التساولات التي قد تفتح الأبواب للمحاوره والنقاش. ولا بد لي ان أوضح في هذا المجال أنني على شغفي المبكر بالشعر وحبى لقراءته، لا أدعى أن لي تجربة ذات بال.. أو أن لي باعاً في مدارس النقد والأدب. وصلتي بعالم الشعر

والأدب والنقد لا تزال على اضطرابها كالكوكب في مسار غير منتظم يقترب من المركز ثم يبتعد عنه، ومع ذلك فأن للشعر الرائع عندي وقع الفرحة من القلب، واحساس النشوة في العروق، وانتفاضة العصفور بلله القطر - وقد يكون حكمي المتذوق أو المستمتع أو القارئ. وعذري أن الأغلب الأعم من الجمهور المثقف - وغير المثقف - ممن لم يفرغوا للعمل الادبي هم في الأغلب على شاكليتي - واليهم يتوجه حوار الكلمة، وموسيقى الشعر. إنهم جزء مهم من هذا الانسان الذي نخاطبه ونوجه اليه ومن أجله فن القول. فإذا فشل الأدب شعراً كان أو نثراً عن مخاطبة هولاء، فهو اذن يدور حول نفسه - في حلقة مفرغة.

ولنبداً من تلك الذكريات بالشعر الحر. ففي أواخر الأربعينات سمعت أول ما سمعت بدعوة الشعر الحر حينما كنت طالباً في العراق - وكان البارز من اسماء دعائها كل من السياب وعبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة. والسياب هو الذي قال في مقابلة صحفية في بيروت: «ان شعراءنا التقليديين ليسوا سوى (صيادي الذباب) في سعيهم وراء الكلمات والأشكال». فأثار بذلك حفيظة الأوساط الأدبية في النجف وبغداد على وجه الخصوص. ولم يعجبني هذا الكلام كما لم يعجب غيري. ولكن الشعر الحر الذي قرأته في سنوات الخمسينات لنازك الملائكة وللشاعرين المجددين، كان شعراً مفهوماً وكان يريد التجديد في الشكل طريقة معبرة عن الفن الجيد والحس الشعري، وكنت معجبا بعدد مما تيسرت لي قراءته من هذا الشعر من أمثال قصيدة السياب في المطر. والمستوحاة من أجواء الخليج وثروات البحر والنفط وصراع الانسان مع البيئة والمجتمع.

وشاركت في الكويت في عام ١٩٥٨ في مؤتمر الأدباء الرابع، ولم تكن مدرسة التجديد الحديثة حاضرة فيه، فقد استأثر الشعر التقليدي بالاهتمام الأكبر ممثلاً بعدد من الشعراء في مقدمتهم محمد مهدي الجواهري وأستاذنا الكبير ابراهيم العريض. وفي الوقت الذي

شهدت اعوام الستينات مزيداً من النزعة التجريدية في الشعر الحر، وشغفاً بالغاً باستعمال الرمز والأسطورة والفلكلور غربي المنشأ في الاكثر، شرقي الهوية في الأقل، فقد كان النقاش محتدماً بين الشعراء الاصوليين حول الألتزام في الشعر والأدب. ولما كانت الندوات والمؤتمرات والمهرجانات الأدبية مجالاً تبرز فيه التيارات المتجاذبة والاتجاهات المتصارعة، فقد شهدت الستينات مهرجانين للشعر أحدهما لتكريم الاخطل الصغير والثاني بمناسبة تأبينه بعد موته وبينهما ثماني سنوات. وسمع الناس للمرة الثانية او الثالثة بعد احمد شوقي حديثاً عن الامارة في الشعر والبيعة للشاعر المكرم. ومن الملاحظات التي احتفظت بها عن هاتين المناسبتين، هذه الفقرة مما نشر في ملحق «الانوار» والتي تقول: «في الوقت الذي اخذ فيه الشعر الكلاسيكي يتساقط، وينفرط عقده بين أيدي رواد الشعر الحديث موزونا ومنثوراً، دعا سعيد عقل للمهرجان الكبير في قصر الأونسكو عام ١٩٦١، حيث تمت مبايعة الاخطل الصغير بشاره الخوري، أميراً للشعراء بعد احمد شوقي. وبعد مضي ثماني سنوات تقريبا على تجربة الشعر الحديث الذي تحول من شعر عمودي موزون، الى شعر يحتوى على وحدات تفعيلية... ثم الى شعر منثور ثم الى طلاس لا هي بالشعر ولاهي بالثر، وقف سعيد عقل لتأبين الشعر الحديث وبين البيعتين تجدد شباب القديم، ومات الحديث في شبابه»..

ويؤيد القائلون في حكمهم الأول كلامهم بقصيده عمر ابوريشة التي جاء فيها للمبايعة الأولى بالأمارة - وكان هو الأمير في قوله:

أمجّح الحرف الحرون، ومُرَقص الوتر الحنون. على أنامل ساحر
الذكريات على السنين تزاحمت فكأنهن لديك سرب ضرائر
أولست من نسل الأولى نسلوا العلا وجلوا دياجير الدجي بمنائير
وسروا الى غياتهم ثم انثنوا وعلى خدود النجم. وشم حوافر

واستندوا في هذا الحكم على أن من مثلوا الشعر الكلاسيكي في المهرجان، ومنهم الجواهري لم تكن قصائدهم بالمستوى المطلوب فناً ومضموناً. أما في مهرجان التأبين فقد أيد القائلون بانهزام الشعر الحرّ رأيهم بظاهرة عزوف عدد من رواده عنه، مستشهدين بمحمد الفيتوري، وسعيد عقل وسواهم فقد جنح كلاهما الى الشعر التقليدي. وقصيدة سعيد عقل بالذات كانت مثاراً للغرابة حيث جاء بقصيدة تقليدية الشكل عصرية المضمون، يقول فيها:

غنتين غنتين . . . قلن المجد فى يتم شعر بلا المجد رايات بلا وطن
غنين غنين. صوتى ضاع بات صدى كالحصن دك وظلت هيبة الحصن
للفقر قلنا استرح للمستبد أشح عدا على الرمل لا يبقى سوى الدمن

والواضح ان الشعر التقليدي بعد الستينات لم يمت، بل الأصح في رأيي ان مجال الإبداع فيه قد انكمش وتقلص واقتصر على عدد قليل من الشعاريات المشهود لها كالجواهري ومن تبقى من جيل الأوائل المبدعين فليس من السهل على الأجيال الجديدة التعبير بحرية عن تجارب العصر وثقافته ضمن قيود من الأوزان والتفعيلات والقوافي. كما لم تعد قوافي القريض المحكمة طيعة ولا سلامة اللغة سهلة المنال كما كانت من قبل على قول الشاعر القديم:

وكنت اذا ما اردت القريض تخبرني الجن اشعارها
أروم صعاب قوافى القريض حتى تذل فاختارها
قواف يوردها صاحبي الي وأكفيه اصدارها

لقد اختفى شيطان الشعر منذ زمن، أما وادى عبقر فلم يعد مصدراً للألهام ولكن من الخطأ الظن بان الشعر التقليدي الموروث فقد قيمته. فهو شعر أدى دوره في التعبير بأمانة، والجيد منه ظل ولا يزال مصدراً تراثياً مهماً لخلق الشعارية وتأسيسها وذلك بجانب القيم الأخرى التي يمثلها أو يدل عليها. أذكر أنني قرأت عن ندوة فريدة أقيمت منذ ثلاث

سنوات وجمعت في دار الغربية بين يوسف الخال ونزار قباني وأدونيس،
وبلند الحيدري، وعلى هامش تلك الندوة كان أدونيس صامتا يفكر في
الغربة ومصير لبنان الممزق، فمال عليه يوسف الخال وبادره منشداً:

وما ذنب اعرابية عرضت لها صروف النوى من حيث لم تك طئت
فيكمل أدونيس في الحال:

إذا ذكرت ماء العذيب وبرده وطيب حصاه آخر الليل حنت
لها آهة عند العشى وآهة سحيراً.. ولولا الآهتان لجنت
فيستعيد الآخرون الأبيات مراراً.. بينما يقول يوسف الخال: هذا
هو الشعر وهذه هي البلاغة في البساطة. يا لها من امرأة عظيمة!

واني لأحسب انهم بعد ذلك تبادلوا نظرات صامته وكانهم يقولون:
نحن شعراء الحدائث ألم نجد ما نستشهد به في هذه الحال.. غير أبيات
لأحدى البدويات عفى عليها الزمن منذ الف عام أو تزيد؟

وبالمثل فان الشعر الحديث لم يمت كما تنبأ كاتبوا الستينات، فقد
توسعت تجربته أفقياً على امتداد العالم العربي كله خلال السبعينات
والثمانينات، ولكن النقاش استمر حامياً حوال الأشكال الشعرية: قصيدة
النثر وقصيدة اللاأيقاع، وفي مطلع الثمانينات حتى اليوم يدور النقاش
حول الحدائث، والأصالة والمعاصرة، واللغة الجديدة للشعر. في هذا
الخضم من نتاج الشعر الحديث، وتضارب النظريات حوله يقف النقد
الأدبي عاجزاً عن الحركة. فالشاعر اليوم يستطيع ان يقول ما يشاء وبأى
شكل يشاء. أصبحت موازين النقد ذاتيه. يقول عبدالوهاب البياتي:

«ان الاشكال الشعرية، او اللغة الجديدة ليست هدفا بذاتها وانما
هي تنشأ وتولد من خلال المعاناة والتعبير عن التجربة، فالثورة على
الأوزان والعروض والقوافي ليست من هدف الشاعر الأصيل، لانها تكون

أحيانا نتيجة من نتائج ثورة المضمون الجديد! واننى بدوري لأتساءل: ما هو المضمون الجديد؟. اما زميلنا الأستاذ قاسم حداد فيقول:

«القصيدة العربية الآن ومنذ خروجها على التقنية الجاهزة أصبحت ذات طبيعة شخصية الى حد بعيد. التقنية صارت شخصية أيضا ومن هنا تأتي خطورة التجربة الجديدة» ثم يقول:

«بصعوبة يتكون الآن نقد يتفهم التجربة الشعرية الجديدة. لكن هذا يحتاج الى بعض الوقت. النقد السابق كان يكتب للقارئ فقط. . . والنقد الجديد اصبح يكتب للشاعر فقط. وهذه هي الاشكالية التي علينا جميعا ان نعالجها. لابد ان نعيد القارئ طرفاً ثالثاً في العملية النقدية».

بقى هناك اتجاه لم أتطرق اليه. اتجاه قديم جديد. . . وأعنى بذلك شعر نزار قباني ومدرسته وبالنسبة الينا ربما يمثل شعر غازى القصيبي اتجاهها وسطاً يمشى مع هذا الخط. أما الأستاذ ابراهيم العريض فله بذاته مدرسة خاصة في الشعر والنقد. هذا الشعر الذى استطاع ان يتصل بنبض العصر ورياحه الثقافية والفكرية والفلسفية. ومع التزامه بالمضمون الحديث التزم أيضا بوضوح التعبير وسلامة اللغة، والشكل المتحرر الذى لابد منه: تفعيلات وقوافي وموسيقى شعرية - فهو اتجاه متدرج يصح فيه قول احمد شوقي:

ومع المجدد في الأناة سلامة ومع المجدد بالجماع عثار

فهل نعتبر هذا النمط توفيقاً وسطاً بين القديم والجديد؟

أرجو ان اكون قد استطعت ان أثير التساؤلات التي وعدت بها وان افتح أبواباً للحوار والتعرف على تجربة الشعر في البحرين. . . واختم هذه الكلمة بما قاله الزعيم الهندي الراحل غاندي:

«إنني افتح نافذتي لكل أنواع الرياح . ولكنني أنكر على أي منها ان
يقتلني من جذوري» .

نادى العروبة

١٩٨٩/٦/٧

حكايات منسية من أدب البحرين

أديب المهجر والمؤرخ المعروف أمين الريحاني، جاء الى البحرين في عام ١٩٢٢ وكتب عنها في «ملوك العرب» تحت عنوان (سلسلة من المدهشات) قائلا:

«ما اخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطأى بالبحرين. وما دهشت في قطر من الاقطار التي زرتها دهشتي أول يوم في هذه الجزيرة. ولا غرو فالجهل يجسم المدهشات... أما وأني أمقت الأدعاء فلا أحاول اخفاء جهلى وهو جهل عام يشمل كل أدباء العرب. أني اعترف عني وعنهم».

ثم يعدد أمين الريحاني - بعد الاعتذارات، سلسلة من تلك المدهشات منها عمران مدينة المنامة، وحركة التجارة في اسواقها وانتظام دوواين الاعمال وحركة الكتاب والزائرين، ومنها وجود نهضة أدبية اجتماعية مباركة وعدد من الادباء الشعراء ليس بقليل. واندية أدبية ومكتبات وقاعات لمطالعة الصحف و المجلات، وندوات تضم المهتمين بالادب والسياسة والدين والتاريخ والاجتماع.

وفيما يوالى أمين الريحاني سرده للمدهشات الاخرى في ثنايا فصول الكتاب والتي لم يكن يتوقع منها شيئا حينما قرر المجيء الى البحرين لمجرد العبور منها الى الاحساء، فأني اتوقف عند هذه النبذة واكتفي بايراد مقاله الأديب والشاعر عبدالله الزائد مخاطبا الريحاني:

أتخفيها.. وقد برح الخفاء وتسترها وقد عم الضياء

وتحنث بالوعود مؤكدات أليس الحر شيمته الوفاء
 أمين الشرق جبت الأرض، قل لي أقوم في المشارق ام نساء
 ثياب العز مزقها التعادي وصرح المجد جدّ به العفاء
 غنيهمو بخيل، والمدآوي عليل، والأجانب أولياء
 مفتحة عيونهم، نيام أنوم أم ذهول أم فناء
 مضلوننا الكثير ومرشدونا قليل لا يجاب لهم دعاء
 ويبدو ان الكثير مما قاله الزائد عام ١٩٢٢ عن الامة العربية آنذاك
 لا يزال قائما الى يومنا... مع الاعتذار للسيدات والآنسات عما ورد فيه
 عن النظرة الى النساء في ذلك الزمن.

هذا هو حديث الجدّ في زيارة الريحاني الى البحرين.. ولكن
 الكاتب والصحافي خالد البسام من البحرين الذي كتب عن زيارة الريحاني
 في كتابه (رجال في جزائر اللؤلؤ) أضاف عليها هذه الحكاية الطريفة التي
 انقلها على عهدة راويها: -

يقول خالد البسام ان الريحاني حينما زار مدرسة الهداية لم يستحوذ
 على اهتمام طلابها. ويعلل ذلك بمظهره... فقد جاءهم بلباس عربي
 ولكن كان ينقصه الكثير! فلقد جاءهم بثوب قصير وبشت (عباءة) قصير
 أيضا و«بشطفة» (عقال عريض) غير مرتبة! واصبح في ثيابه القصيرة اشبه
 بالانسان المنتفخ من الاعلى فقط، فلم يترددوا في تسميته «بالديك
 الرومي» وفشا الهمس بينهم انتقادا لمظهره ولباسه.

وأقول انه قبل مجيء أمين الريحاني عام ١٩٢٢ جاء قبله آخرون
 كما جاء من بعده فوج آخر من رحالة وأدباء ومؤرخين وصحافيين كانت
 الدهشة التي عبّر عنها الريحاني هي القاسم المشترك فيما بينهم. فما سرّ
 هذه التوقعات غير الصحيحة عن البحرين يا ترى؟...

معذرة إذا قلت أنني لا أعرف السبب، فلا شك ان لكل انسان

اسبابه الخاصة ونوع المدهشات التي يتصورها. ومهما كان فإن الاسباب ليست من حسابان حكايات هذه الأمسية.

ولكن أهل البحرين يلقون اللوم على الزائر أحيانا بسبب جهله بالبحرين، وعلى أنفسهم أحيانا لعجزهم عن تعريف العالم ببلادهم. ويبدو لي ان شعورا من نوع خاص قد تولد في نفوس اهل البحرين بسبب تلك الظاهرة المشتركة بين الزائرين او الوافدين.

لا استطيع ان أحلل ذلك الشعور الخاص او ان اصنفه، ولكنني أظن ان ولع اهل البحرين بتعريف الناس ببلادهم لا يعادله الا ميلهم الفطري للتغني بأمجاد البحرين الماضية، نسباً وحضارة وعلماء وأدباء... فأنت تجد هذه الروح في معظم ما كتب أدباء البحرين وعلماءهم سواء في مطلع قصائد الشعر أو ديباجة المقدمات الثرية مما سيأتي ذكره.

وإذا كان هذا شعور الادباء من البحرين فما هو شعور عامة الناس.

أذكر ان والدي رحمه الله كان كلما سمعني اتغني بالاناشيد المدرسية القومية - وأنا صغير، يردد هذا المقطع: وفينيقيون هم نعم الجدود... وهو مقطع من شعر حماسي كانت تنشده فرقة الكشافة في زمانه.

وفي الاربعينات وأوائل الخمسينات توقف تغني أهل البحرين بأجدادهم من الفينيقيين تقريبا. وحل محله التغني بأمجاد تايلوس وارادوس وذلك بعد انتشار اقوال المؤرخين اليونان عن البحرين وما ذكرته من مرور الاسكندر المقدوني بها وارتباط ذلك باسماء بعض الجزر مثل «تاروت» الذي وجد فيها تمثال «الآله عشتاروت» ودارين، وشبه جزيرة «عراد» في البحرين الى غير ذلك من الكتابات القديمة والمكتشفات الاثرية.

ثم ما لبثت حضارة «دلمون» ان احتلت الصدارة في أواخر الخمسينات، بعد التنقيبات التي قامت بها البعثة الدانيمركية والابحاث التي

نشرت حول أعمالها ولا تزال تنشر حتى يومنا هذا. واحتلت اختام دلمون الاثرية مكانها في المتاحف والمطابع كما استعملت نماذجها في تزيين الحلبي واللوحات الفنية.

ملخص ما كشفت عنه بعثات التنقيب هو ان البحرين كانت مركزا رئيسا لا ستيراد السلع وتصنيعها واعادة تصديرها الى العراق منذ زمن السومريين والبابليين. وان بلاد «دلمون» المقدسة التي تغنت بها ملحمة (جلجامش) لم تكن سوى جزر البحرين. واليكم مقاطع من ذلك النشيد في اسطورة الفردوس السومرية.

«أرض دلمون مطهرة... أرض دلمون نقية... في دلمون لا ينشق الغراب، ولا يقتل الاسد ولا يفترس الذئب الحمل... لا أحد يقول عيني تؤلمني، ولا يقول الشيخ «أنا طاعن في السن».

وفي نص آخر من اسطورة الطوفان السومرية نقرأ أيضا عن دلمون ارض الخلود ان «زيوسودرا الملك الذي حفظ اسم النباتات وبذرة البشرية... جعلته الألهة يعيش في أرض دلمون ارض العبور.. المكان الذي تشرق منه الشمس» الى آخر الاسطورة... وهكذا فقد كتب عن دلمون وحضارتها الشيء الكثير.

وهكذا ايضا تعددت اسماء البحرين التاريخية، وكثر المشغوفون بها على مر الزمن، فهل ياترى يمكن اعتبار كثرة الاسماء بمثابة تعويض نفسي عن صغر حجم البحرين مساحة وسكاناً... ومد خولاً ايضاً!.

وإذا كان هذا هو شأن الجيل الحاضر، فليس هو بالضرورة شأن أجدادنا. فمنذ أربعمئة عام تقريبا وما قبلها، كان اسم البحرين يطلق على البلاد الساحلية المطللة على الخليج العربي والممتدة فيما بين جنوبي العراق وشمالي عمان. أما جزر البحرين الحالية فكانت تسمى آنذاك بجزيرة أوال، رغم كونها جزءا من البحرين الكبرى.

قال توبة بن الحُمَيْر:

من الناعبات المشي نعباً كأنما يناطُ بجذعٍ من أوال جريرها
وقال تميم بن ابي مقبل:

عمد الحداة بها لعارض قرية فكأنها سفن بسيف أوال
يقول الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة - رئيس مركز التراث في
البحرين - ان جزر البحرين اختصت بهذا الاسم عن سائر المنطقة خلال
حكم الأتابكة لها، وهم إحدى الأتابكيات التي خلفت الدولة السلجوقية
بعد التغلب على الحكام العيونيين.



تلك كانت حكاية من حكايات التاريخ الذي اعتقد انكم تعرفونه،
فلا داعي أن نقف عندها طويلاً ضناً بوقتكم وخوفاً من ان يتتابكم الملل،
فظاهرة الملل من طول الاستماع ظاهرة مألوفة في مجتمعات اليوم كما
كانت مألوفة من قبل. ولناخذ مثلاً على ذلك اجتماعاً أدبياً في أحد أندية
البحرين. وليكن نادي العروبة خلال الاربعينيات من هذا القرن.

فلقد اوردت فقرات عن هذه الظاهرة في كتابي «نادي العروبة
وخمسون عاماً»، جاء فيها مايلي:

«لا يعلق بذاكرتي الشيء الكثير عن هذه الاجتماعات ما عدا
العبارات الرئيسية التي سمعتها في كل مناسبة من رئيس النادي وأمين السر
تحث الاعضاء على الحضور، ومن كان في النادي وتخلف عن المجيء،
كان (يستجلب) قسراً أو عن شبه قسر لحضور الاجتماعات. ويتكفل
بذلك عادة أمين السرّ يساعده نفر من ذوي الجرأة واللسان.

ومعظم المتكلمين في تلك الحفلات الداخلية كان يبدأ حديثه عادة
بالتقليل من شأنه في صياغة الكلام ويبالغ في ذم اسلوبه الركيك وافكاره

السقيمة وقد يشير الى نفسه بكلمة (الحقير) على اسلوب الالباء ثم يختم (اي المتكلم) تلك الديباجة قائلا: انه وافق على المشاركة تحت ضغط من أمين السر أو رئيس النادي ولولا الحاحهما لما وقف هذا الموقف الصعب!.

ويكثر الاعضاء اذا تضمن البرنامج شيئا من المشوقات كالمسابقات او الجوائز او التمثيل او الموسيقى او الغناء. وأحيانا يكفيهم للحضور الكرم غير المعتاد في الضيافة، أو وجود زائر غريب. ويقل الحضور منهم حين تقتصر الحفلة على كلمات موضوعة أو مقبسة. ويبدو التذمر على الحاضرين من ظاهرة الوشوشة فيما بينهم أو التملل في الجلوس او التأؤب بصوت مسموع... الخ... .

وهنا لا بد من الاستدراك.. فحفلات نادي العروبة لم تكن كلها من ذلك النوع الذي يتقاعس الاعضاء عن حضوره... فتلك الظاهرة كانت مقتصرة على بعض الحفلات الداخلية للأعضاء أما الحفلات الموجهة للجمهور فكانت لها صفة يقتضى الانصاف ان اسمعكم عنها شيئا مما كتبت: -

«كانت القاعات في النادي تكتظ بالحضور من الوجهاء والاساتذة وافراد الجمهور المدفوع بالاعجاب أو الفضول...»

ويفتتح رئيس النادي المرحوم محمد دويغر هذه الحفلات - عادة - بإسداء النصائح بإسلوب اذاعي رصين والتشديد على أهمية الأخلاق في نهضة الأمم وواجبات الشباب المتعلم تجاه المجتمع فيقبلها الحاضرون بالرضا وبهز الرؤوس بين حين وآخر، وسرعان ما يعقبة أمين السر الاستاذ حسن الجشي فيساهم اسلوبه المتقن وأفكاره المعارضة للجمود، الداعية للتطور والانفتاح على مفهوم العروبة الأوسع، في رفع درجة الحماس عند البعض وتوتر الاعصاب لدى الآخرين. فإذا صادف وأن تلاه في الخطاب الأستاذ علي التاجر خيل الى الحاضرين عندئذ أنهم

يواجهون بركانا يقذف بالحمم، من جراء صراحة اللفاظ والنقد اللاذع ودفقات الحماس كالموج العاصف يغشاه موج من فوقه موج أكبر منه اتساعاً. وبقدر ما تتوالى الصدمات تتسع الأفواه المشدوهة حتى إذا اكمل حديثه لم يجد منظموا الحفل بدأ من تلطيف الجو باستراحة للمرطبات، أو قصيدة «رومانسية» من شعر المرحوم الأستاذ السيد رضى الموسوي من مثل:

انثروا فوق صفحة الدهر أزهاراً يفتح ريحها مع الإشراق
وكان الاستاذ الكبير الشاعر ابراهيم العريض النجم اللامع في
معظم حفلات النادي اذ كانت تفرد له في العادة أمسيات خاصة بكاملها
يستغرقها في القاء الجديد من شعره القصصي محفوفاً بإعجاب الحاضرين
وتصفيقهم.. فقد القى بين عام ١٩٤٠ - ١٩٤٣ عدداً من قصائده من
مثل «قبلتان» و«التمثال الحى» و«أسطورة الخيام» و«قلب راقصة»
وغيرها.

كنت أتابع حفلات النادي بشوق واحضرها فأجلس بين الصفوف
المتراصة محشورا في مؤخرتها لا يحفل بي أحد لكنني اتجاسر على
الوقوف بين الحين والآخر لمتابعة حركات الاستاذ العريض التعبيرية..
ولم يكن ليحكر صفو هذه السعادة شيء سوى قلقي من الرجوع بمفردي
الى المنزل خلال الأزقة الموحشة المظلمة، تتجاوب عبرها اصداً من
اصوات النواطير المفزعة، تجرح صمت الليل وسكونه.. وسرعان ما
يصرخ أحدهم فجأة من آخر الزقاق «شنت»؟ فأجيبه بصوت مبحوح من
الخوف: «صديق»! كما أنه كان عليّ ان أجيب الوالد ذلك عن اسباب
التأخر...

كانت تلك اللمحات عن حفلات نادي العروبة في الاربعينات وكما
رايتم أنه كان لكل نوع منها جواً خاصاً ومناخاً مختلفاً.

وبمناسبة ذكر «المناخ» . . . كم من حضراتكم يعلم ان لهذه الكلمة معنى اصطلاحيا خاصا غير مناخ الجو والطقس . . اعنى مصطلحاً خليجياً اسمه المختصر «المناخ» والكامل «سوق المناخ» ولعلي ان سمحتم ان أحدثكم عن هذه السوق باختصار .

انها سوق للاوراق المالية واسهم الشركات فتحت مصراعيها خلال الثمانينات للمضاربين والمغامرين خارج سوق الاوراق الرسمية . ولعل أسمها جاء من الموقع الذي تمركزت فيه أنشطة السوق، فربما كان في السابق «مناخاً» للجمال التي تحمل البضائع للأسواق في العهد السابق للتطور الحديث وتدفق ثروات النفط أو لعل الموقع كان لبيع الجمال وشرائها أو السفر والتنقل أو لكل ما ذكرت . ذلك انه يوجد في أغلب اسواق مدن الخليج سوق تسمى بالمناخ واخرى تسمى سوق واقف .

وكما قلت ان هذه السوق نشطت في الثمانينات ثم استشرى أمرها وكبر حجمها . . وبعد ذلك أنهارت أسعار الاسهم فيها دفعة واحدة ونتجت عنها خسائر في شكل شيكات وكمبيالات عجز أصحابها عن الدفع .

وقد اصابتني من هذه السوق شرارة صغيرة جدا . . ولكنني اتذكر انني نهضت ذات يوم من فراشي (منذ أحد عشر عاما) وفي ذهني ابيات شعرية تكاد تكون جاهزة وكانها القيت الي في المنام فكتبتها على الفور وفي راسي بقية من نعاس، ثم نشرت في صحافة الكويت والبحرين .

واذا قلت لكم ان الابيات ليست من الشعر الجيد أو انها ركيكة على طريقة المتكلمين القدامى في نادي العروبة، فقد يكون ذلك واقعاً وليس تواضعاً . المهم ان بعض تلك الابيات التي تصف حكاية السوق تتضمن مدخلاً الى حكايات اخرى .

سأقرأ عليكم شيئاً مما جاء في ابياتها الافتتاحية : - (الى فرسان
المناخ)

سوق المنناخ تحية
لم ندر ما طعم الثراء
كان الثراء بأرضنا
عرفت دروب المال
مثل الحمام وداعة
حتى أتى «سوق المنناخ»
ذو المال أو صفر اليدين
وكأنما «الفاروق» عاد
من شاء فليكتال كيلاً
عادت لنا أمجادنا
والمال يرجع حقنا
كانت «عكاظ» منارة
قوم أتوا التجارة
وتلت عكاظاً «مربد»
سوقان في تاريخنا
وأتى «المنناخ» فزادنا
شحنت روائحه الأنوف

منا إليك وألف شكر
وحلمه... واليوم ندري
يغشي وجوها ذات سحر
لم تنهش بناب أو بظفر
وعيونها كعيون صقر
فصار مثل السيل يجري
كلاهما انشغلا بأمر
وقوله ما زال يسري
أو بأوزان وقدر
تختال من نصر... لنصر
ويفكنا من قيد أسر
تحظى من الدنيا بذكر
والمبدعون لقول شعر
مدت روافدها بنهر
كالجنتين ذوات نشر
عطراً... ولكن أي عطراً!
بأي شيء... لست أدري

كما لاحظتم فإن الابيات على علاتها، تتضمن اشارة الى قول
ينسب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه واشادة بسوق عكاظ في مكة
وسوق المربد في البصرة وفضلهما على التراث الادبي حيث امتزجت
المصالح المادية والتجارية بالابداع الثقافي والفكري.

يروى ان الخليفة عمر جاءه من البحرين مال فقال يخاطب الناس:
«لقد جاءنا من البحرين مال كثير، فمن شاء كلنا له كيلا، ومن شاء
وزنا له وزناً». وقيل ان الصحابي أبا هريرة ولي البحرين فجاء الى عمر
ومعه اثنا عشر الف دينار فقال له: يا عدو الله وعدو المسلمين سرقت

مال الله . فاجابه أبو هريرة... لست بعدو الله ولا عدو المسلمين
انما هي خيل لي تناتجت وسهام اجتمعت . فأخذ منه عمر جميع
المال .

اقليم البحرين اذن كان ذا أهمية اقتصادية خاصة وكان رافدا مهما
من روافد بيت مال المسلمين . فقد كانت شهرة البحرين مزدوجة :
الخصوبة والانتاج الزراعي والمهن اليدوية ، ثم أهميتها بالنسبة للتجارة
العابرة... يقول الشاعر عن قوافل الجمال :

«تمرّ على الدهنا خفافا ظهورها ويخرجن من دارين بجر الحقائق»

وبما ان حديثنا عن الادب وعن أسواق الادب ومواسمه في عكاظ
وغيرها، فإن امهات كتب التراث العربي تشيد بالدور البارز للبحرين
الكبرى في هذا المضممار .

يشير الدكتور عبدالله المبارك في كتابه (ادب النقد المعاصر) مدلاً
على هذه الظاهرة بقوله :

«رغد شرقي الجزيرة العربية تاريخ الادب العربي بفريق ضخم من
نادي الشعراء وفرسان الكلمة مثل : طرفة بن العبد صاحب المعلقة
المشهوره، والمرقشين الاصغر والاكبر، والمتلمس، وعمر بن قميئة،
وسعد بن مالك، والثقفي والممزق العبديين في الجاهلية . وزياد الاعجم
والصلتان العبدي والاعور الشني وكعب، بين الجاهلية وصدر الاسلام،
والفرزدق وقطرى بن الفجاءة وكشاجم والاعصم وصاحب الزنج وابن
المقرب في العصرين الاموي والعباسي وما بعدهما وغير هؤلاء كثير من
الشعراء المجيدين» .

أما الدكتور محمد جابر الانصاري فقد ورد في إحدى مقالاته
قوله : «وبالباحثون الذين درسوا ديوان شعر البحرين في هذه الحقبة
الباكرة توقفوا عند سير مالا يقل عن خمسين شاعراً تقريباً يتسبون الى

عبد القيس وبكر بن وائل (والعبيدين) وهم ولاشك المدرسة الشعرية التي نبع فيها طرفة بن العبد والعمق البشري الأبداعي للحركة الثقافية في تلك الفترة».

وماذا عن أدب النثر؟ يجب على ذلك الدكتور المبارك فيذكر:

«ان قبيلة (اياد) بالذات قد وعت الفكر الديني القديم وشاركت في تهيئة مناخ عربي لكثير من القيم الروحية والمثالية. وتزخر الامهات العربية القديمة بنتاج وفير من سجع الاياديين وخطبهم ومواعظهم وحكمهم وامثالهم. ومن الصور المبكرة لهذا النثر الجاهلي الصور المروية عن الايادي صاحب الصرح الذي ولي أمر البيت العتيق بعد جرهم، وبنى صرحاً بمكة وجعل في الصرح سلماً كان يرقاه لمناجاة الرب - وله اقوال بليغة في المناجاة. قال الشاعر بشير ابن الحجير الأيادي:

ونحن اياد عبيد الأله ورهط مناجيه في السلم
ثم هناك قس بن ساعدة الايادي الخطيب المشهور الذي كان يسجع
سجع الكهان ويروي ان رسول الله عليه الصلاة والسلام حضر خطبة
لقس بن ساعدة وهو بعد طفل وانه قال عنه: يرحم الله قساً انى لارجو
ان يبعث يوم القيامة امّة وحده.

خطباء ايادهم من الشهرة كما قال عنهم الشاعر القديم داود بن

جرير:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ... خيفة الرقباء
اما في الاسلام فنجد عبدالقيس تتقدم النثر الاسلامى بشكل غالب
يكاد يضرب ببلاغتها المثل وبخاصة آل صوحان حتى قيل «أخطب من
صعصعة بن صوحان العبدي».

ولعلكم تعلمون ان صعصعة بن صوحان كان من اصحاب الامام

على بن ابي طالب عليه السلام، ويوجد في جزيرة البحرين مزار أو قبر يعرف باسمه.

يقول الجاحظ في البيان والتبيين: «وشأن عبدالقيس عجب وذلك انهم بعد محاربة اباد تفرقوا فرقتين: ففرقة وقعت لعمان وشق عمان وهم خطباء العرب، وفرقة وقعت الي البحرين وشق البحرين وهم من اشعر قبيل في العرب».

قال معاوية ابن ابي سفيان لصحار بن عياش العبدي ما هذه البلاغة فيكم. فقال: (شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على السنتنا) وقال له معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم قال: الايجاز، قال وما الايجاز؟ قال صحار: ان تجيب فلا تبطيء وتقول فلا تخطيء. ونظن ان دارسا للبلاغة والنقد العربيين لا يمكن ان يغفل الجملة المشهورة لعامر بن عبدالقيس التي عبرت ربما لأول مرة عما نسميه (بالصدق الفني) ثم سارت مسيرة الامثال، وهي قوله:

(الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان).

وبعد تنازع المسلمين على الخلافة والاحزاب السياسية قام بنوعبد القيس بدور خطير فكانوا فرسان الكلام والمقارعة ووقفوا الى جانب مارأوه حقا. ويمكن ان نشير هنا بعد صعصعة العبدي ورفقائه الى قطري بن الفجاءة ومكانته الادبية في الشعر والنثر والخطابة، وقد وردت في الكتب القديمة نماذج مما كان يتبادل بين قطري وغريمه الحجاج بن يوسف من رسائل حفلت بفنون البلاغة.

ولنعد الآن الى سوق عكاظ ومواسم الأدب وقصائد المعلقات المشهورة. ففي بداية هذا الحديث أو هذه الحكايات اشرت الى كتاب «ملوك العرب» للريحاني الذي اهداه الى «الناشئة العربية الناهضة في كل

مكان». لقد اختار الريحاني من ديوان العرب كله بيتا من الشعر ليقرنه بإهداء الكتاب . هذا البيت هو :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
وأظن ان الكثير منكم يعلم من صاحب هذا البيت . . انه شاعر
البحرين طرفة بن العبد . . . من عبدالقيس . . . وهو صاحب المعلقة
المشهورة باسمه . ومكانته مشهورة مع الصحيفة التي أدت الى مقتله وهو
في ريعان الشباب ولم يتجاوز السبعة وعشرين عاما . والتي عرفت فيما
بعد بصحيفة المتلمس ، وهو خال طرفة شاعر جيد أبي النفس .

تقول الرواية ان طرفة وخاله المتلمس هذا ذهبا الى ملك الحيرة
عمرو بن هند فأبطأ في ملاقاتهما وامعن في اذلالهما حتى أحسا بالملل
والتذمر فتنادرا على هجائه سرا فيما بينهما ومما قاله (فليت لنا مكان
الملك عمرو رغوث حول قبتنا تدور) . فعرف بذلك ملك الحيرة واسره
في نفسه ثم لما دخلا عليه تظاهر باكرامهما وسلم كل واحد منهما كتابا
الى عامله في البحرين ليتسلما منه جائزة لكل منهما . وتقول الرواية ان
المتلمس شك في أمر الصحيفة وأشار على طرفة بأن يفض كل منهما
الختم عن الكتاب ليقراً فحواه ، لكن طرفة رفض واصرّ على المضي
بالكتاب لأنه كان واثقا من حصوله على الجائزة . فافترقا . . ووجد
المتلمس من يقرأ له الصحيفة وفيها الأمر بقتله .

وقيل انه لشكّه فيها القاها في النهر وهو يقول :

قذفت بها في اليم من جنب كافر كذلك ألقى كل رأي مضلل
رضيت بها لما رأيت مدادها يجول بها التيار في كل جدول
ومن هنا جاء المثل المشهور في الشؤم (اشأم من صحيفة
المتلمس) .

أما طرفة بن العبد فقد حمل معه كتاب ملك الحيرة ، وتقول الرواية

أن عامل الملك على البحرين وكان ممن يمت الى طرفه بصلة، ساوره الشك ايضا بمضمون الكتاب وأشار على طرفه ان ينجو بنفسه قبل فض الكتاب، لكن طرفه أصرّ عليه بأن يفتح الكتاب وينفذ ما فيه وأتهمه بالغيرة والحسد والرغبة بالاحتفاظ بالجائزة لنفسه، فلما قرأ العامل كتاب النعمان عليه بقتله خيره في رغبة أخيرة قبل الموت فطلب طرفه ان يسقيه خمراً ثم يفصده، وهكذا قضى نجه وهو دون الثلاثين من عمره.

والسؤال الوارد هنا: ما هو سرّ إصرار طرفه بن العبد على الوالي رغم معرفته بالشكوك حول فحوى الكتاب؟

تذهب الاخبار والحكايات والتعليقات بهذا الصدد كل مذهب. ومن أطرف تلك الاراء ان طرفه كان يتنبأ بمصرعه وأنه أوصى ابنة أخيه بأن تعاه بعد موته بما هو أهل له وان تشق عليه الجيب:

فان متّ فانعينى بما أنا أهله وشقّي علي الجيب يا ابنة معبد

جاء في موسوعة الشعر العربي عن طرفه «ثم ينتهي الشاعر الى التنبؤ بقرب نهايته، بنوع من الاستشراف الداخلي الغريب الذي يعرفه بعض عباقرة الألم والإبداع في ذروة من وجودهم فلكان طرفه شهيد الشباب، ما كان يرى من نهاية مناسبة لحياته الحافلة الا الموت، بل القتل.

كما تصف الموسوعة طرفه بأنه واحد من الشعراء الوجوديين الكبار، لاتحاد موقفه الذاتي مع جوهر اللحظة الانسانية والفلسفية الخالدة. وفي بحث آخر في مجلة البحرين يقول د. محمد جابر الانصاري عن طرفه مايلي:

«معلقة طرفه وبعض اشعاره الأخرى تشمل نظرات فكرية سابقة لاوانها وتأملات في الكون والحياة والموت لا يمكن ان تنبت من فراغ فكري وتلك مسألة استوقفت طه حسين في تحليله لمعلقة طرفه التي

وصفها بانها من أحكم الشعر فضلا عن كونها من اجمله وأعذبه .

اعتقد أن هناك سؤالاً كبيراً لم يكثرث بتحليله الادباء كثيرا وهو:
لماذا اصّر ملك الحيرة على قتل طرفة وخاله (المتلمس) على يد عامله
في البحرين...؟ وهل هناك ظروف أو مصالح سياسية آنذاك تبرر مثل
هذا العمل المشين؟

وحتى يأتي من يكشف السحب المتراكمة بالغموض عن حياة هذا
الشاعر الفذ وظروفها وملابساتها، من الافضل ان نتقل الى حكاية شاعر
آخر من البحرين... وهو في هذه المرة علي ابن المقرّب... من شعراء
البحرين في القرن السابع الهجري. وهو سليل اسرة حاكمة وليت شئون
هذا البلد حقبة من الزمن، فهو ينتمي الى الامير عبدالله بن علي العيوني
الذي انتزع الاحساء من حكم القرامطة واستولى على القطيف، وجزيرة
أوال (البحرين) فأسس بذلك امارة العيونيين في منطقة البحرين. فشاعرنا
ابن المقرّب اذن أمير... لكنه أمير نائم على الاوضاع التي كانت
سائدة في عصره. ادى به سخطه على الوضع ومعارضته لسياسة القائمين
بالحكم الى حبسه ومصادرة أملاكه وبساتينه ولما خرج من السجن مطالبا
بحقوقه المستلبة، وجد ان فساد الاوضاع العامة أحق بالهجاء والتشهير
فأستأنف حملة التنديد والنقد متجاوزا همه الخاص الى هموم بلاده وقومه
وهو يقول:

كنت قبل اليوم ابكي بشجئ هم نفسي وطريفى وتلادى
ثم قد أصبحت ابكي بأسى شجو أخواني ورهطي وبلادي
وأضطره السجن والتضييق علي حريته أن يتجه نحو العراق في
المرّة الاولى والى الموصل وديار بكر في المرة الثانية، وهو يسوق
مبررات تلك الهجرة قائلا:

ومن يثو في دار الهوان يعيش بها أخا مضض لا يبرح الدهر شاكيا

فان عقلت قومي لساني بأرضها فليس بمعقول اذا كنت نائيا
 سارسل فيها بالدواهي شواردا تنبه ذا عقل وتفهم واعيا
 وثورة ابن المقرب هذه تظهر أحيانا ضمنية في شعره كقوله مخاطبا
 أهل البحرين.....

يا ساكن الخط والجرعاء من هجر هل انتظاركم شيئا سوى العطب
 بححت مما اناديكم وانديكم لخير منقلب عن شر منقلب
 فسكتوني بقول لا تفون به قد صرت ارضي بوعده منكم كذب
 أو مخاطبا الامراء في الاحساء معرضا بسيرتهم الشخصية المنحرفة
 وأستسلامهم الى اللهو في غفلة عن تربص الاعداء بهم وبيلادهم حيث
 يقول مخاطبا امير الاحساء:

وغير على الملك من لعب الرجال به فالملك ليس بثبات على اللعب ..
 دعاي : يارب الهم رب دولتنا ان يبلغ الرأس مئاة رتبة الذنب ..
 وأحيانا أخرى تكون ثورته صريحة في شعره كقوله مخاطباً اولئك
 الامراء:

فيا ضيعة المدح الذي سار فيكم على ألسن الراوين سير الركائب
 لأن كنت لا كنتم قذى في عيونكم فاني شفاء للعيون الضواريب
 أغرّكم دهر خسيس احلكم مراتب ما كانت لكم بمراتب
 أو مخاطبا بني قومه:

اعربت حين دعوت إلا أنه لا يبلغ الأموات صوت دعائها
 إن ترض قومي الهون في فطالما عمداً أهنت النفس في مرضاتها
 أو متحسرا على استئثار الاعداء بخيرات بلاده قائلا:

ولا تحسدن فيها رجالا بشبعها فخير لها من ذلك الشبع جوعها
 وليس لنا في الدر الآ محاره ولا في عذوق النخل الأ قموعها

فبعداً لدار خيرها لعدوها وقوم بأسوا كلّ حال قنوعها
عفاء على البحرين لو قيل أينعت دنائير وادبها وجادت زروعها
فهل ذاك الا للعدو وغصة سيأتي بها متبوعها وتبوعها
لقد سبق لي ان كتبت عن حياة هذا الشاعر وسيرته واسلوبه الفني
بشيء من التفصيل والتحليل في مجلة صوت البحرين عام ١٩٤٩. ورايت
ان أكتفي في هذا الحديث بالايجاز المخل بدلا من التفصيل الممل. لهذا
انهي الحديث عن ابن المقرب بهذه الفقرة من كلام د. محمد جابر
الانصاري الذي يقول:

«لا نبالغ اذا قلنا ان ابن المقرب هو متنبى البحرين. وكطرفة بن
العبد فابن المقرب ليس ظاهرة فردية، ولا بد أن جواً فكرياً وأديباً كان
يعمل حوله. وهذه مسألة خافية من مساحات البحث الجديدة. وحكم
العيونيين في البحرين وجزر البحرين استمر من قرنين الى ثلاثة قرون لم
يتعرض لاضواء البحث التاريخي المتكامل».

علي ابن المقرب اذن، هو الذي فجر ذلك الصمت الادبي الطويل
الذي هيمن على المنطقة لقرون عدة، وقد فجره بقوة وعنق ولعل راى
الدكتور الانصارى الذي يفترض وجود أرضية ادبية غنية لم يكشف
التاريخ الادبى عنها النقاب بعد، له ما يبرره. . الا ان فترة ما بعد ابن
المقرب التي تم تدوين اكثرها في مؤلفات علماء البحرين وأدبائها كانت
خصبة العطاء. وعلى امتداد القرن الثامن وحتى القرن الثالث عشر
الهجرى ازدهر في جزر البحرين سوق العلم كما ازدهر الادب والشعر في
كف العبادة الدينية والعمامة.

يقول الشيخ على بن حسن البلادى البحراني - صاحب انوار البدرين
في تراجم شعراء القطيف والاحساء والبحرين: «فانك بعد ان سمعت ما
قلناه عن جدنا المقدس المرحوم من ان بيتنا وحده اجتمع فيه اربعون
عالما بين مجتهد ومشرف على الاجتهاد في عصر واحد من الاعصار،

والحال للآن لم نعرف عنهم الا القليل لاضمحلال الآثار والبعد عن الديار... وكذلك ما نقلناه عن الامجد الشيخ على ابن محمد المقابي من حضور ما يزيد على ثلاثمائة عالم في البحرين في وقت من الاوقات وساعة من الساعات ومكان من الامكنة»...

وظل الادب يسير في ركاب الدين ردحاً من الزمن حتى خبت شعلتهما معا في اواخر القرن الثالث عشر الهجري وابتداء من العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين استقل الادب والشعر عن المدارس الدينية لينشئ كل منهما لنفسه مساراً مستقلاً على سلم التطور والتجديد.

وتحفل الكتب والمراجع والاجازات العلمية التي كتبت عن تلك الفترة من تاريخ البحرين، باسماء لا عد لها ولا حصر للعلماء والفقهاء والافذاد من الادباء والشعراء الذين امتلأت بهم محافل العلم والادب على امتداد هذه الجزيرة. وستجد في تلك الكتب اسماء الاماكن والاشخاص. فمن تلك الامكنة قرى المحرق، والمنامة، وعراد وسماهيح والدراز والقدم والشاخورة، وبنى جمرة وجدحفص، والبلاد القديم، والغريفة، والماحوز، والنبه صالح، وتوبلي وستره وكثير غيرها. واما الاشخاص فهم جمع حاشد من الفقهاء والادباء والشعراء ممن ينتسبون الى واحدة او اكثر من تلك المناطق في البحرين. وتضم مقابر البحرين القديمة رفات هؤلاء العلماء في (المصلى) وابوعنبرة، (والمشهد) وجزيرة النبيه صالح ومقبرة (هرتا) والشيخ ميثم والماحوز وغيرها من المواضع الاخرى. وكان الكثير منهم يهاجر من البحرين بسبب مصائب الغزو ونكباته أو قلة المعاش او طلب العلم ويتم تعيينهم في القضاء ودور العلم في ايران وحيدرآباد السند والعراق وبعض الاقطار المجاورة.

الا ان الالتزام بموضوع هذه الامسية يقتضي منا الاختصار على

سرد بعض الظواهر والحكايات التي نشأت في ظل ذلك الوسط العلمي والادبي الذي اشرت اليه .

لنأخذ أولاً... حكاية «كل ياكمي»:

صاحب هذه الحكاية عالم فاضل من علماء القرن السابع الهجري هو الشيخ ميثم بن علي البحراني من قرية الماحوز وقبره موجود للآن يزوره الناس في احدى قراها وهي قرية (هلتا). ومن مؤلفاته المشهورة شرح نهج البلاغة وقيل انه جاء على ثلاثة اشكال: الشرح الكبير والشرح المتوسط والشرح الصغير.

وقد وردت حكاية «كل ياكمي» في عدة كتب منها لؤلؤة البحرين للعلامة الشيخ يوسف بن أحمد البحراني المتوفي سنة ١١٨٦ هجرية وملخص ما ورد فيها ان الشيخ ميثم لزم منزله لضيق ذات يده واعتكف فيه مشتغلاً بتحقيق حقائق الفروع والاصول فكتب اليه فضلاء الحلة والعراق يلومونه على اعتزاله بدلاً من السفر لنشر ما عنده من علوم والاستزادة من علوم غيره، ولما كانت حالته المادية لا تسمح له بذلك فقد كتب في جوابه لهم هذه الابيات:

طلبت فنون العلم أبغي بها العلى فقصر بي عما سموت به القل
تبين لي ان المحاسن كلها فروع وأن المال فيها هو الأصل

لكن لومهم ازداد بعد وصول جوابه واستنكروا منه الحديث عن اصالة المال فاجابهم بهذه الابيات لبعض الشعراء المتقدمين وقيل هي من شعره:

قد قال قوم بغير علم ما المرء الا بأصغريه
فقلت قول امريء حكيم ما المرء الا بدرهميه
من لم يكن درهم لديه لم تلتفت عرسه إليه
وظل في بيته وحيداً يبول سنوره عليه

ثم انه لما علم ان مجرد المراسلات والمكاتبات لا تنفع توجه الى العراق وبعد الوصول لبس ثيابا خشنة عتيقة، ودخل بعض مدارس العراق، المشحونة بالعلماء والحدائق، فسلم عليهم فرد بعضهم عليه السلام بالاستثقال والامتناع التام، فجلس في صف النعال ولم يلتفت اليه أحد منهم، ولم يقضوا واجب حقه، وفي اثناء المباحثة وقعت بينهم مسألة مشكلة دقيقة كُلت فيها أفهامهم، فأجاب بتسعة أجوبة في غاية الجودة والدقة، فقال له بعضهم - بطريق السخرية والتهكم - يا خليلك . . أألك طالب علم.

ثم بعد ذلك حضر الطعام فلم يؤكلوه بل أفردوه بشيء قليل على حدة واجتمعوا هم على المائدة فلما انقضى ذلك المجلس قام . ثم انه عاد في اليوم الثاني اليهم وقد لبس ملابس فاخرة، ذات اكمام واسعة، وعمامة كبيرة وهيئة رائعة، فلما قرب وسلم عليهم قاموا تعظيما له واستقبلوه تكريما، وبالغوا في ملاطفته ومطايبته واجتهدوا في تكريمه وتوقيره، وأجلسوه في صدر ذلك المجلس، ولما شرعوا في المباحثة والمذاكرة تكلم معهم بكلمات عليلة لا وجه لها عقلا ولا شرعا، فقابلوا كلماته العليلة بالتحسين والتسليم، فلما حضرت مائدة الطعام بادروا معه بأنواع الادب فألقى الشيخ ميثم كمة في ذلك الطعام مستعبا على أولئك الاعلام وقال: كل يا كمي، فأخذوا في التعجب والاستغراب، واستفسروه فأجاب - بأنكم انما اتيتم بهذه الاطعمة النفيسة لأجل أكمامي الواسعة، لا للنفس القدسية اللامعة، والا فانا صاحبكم بالامس وما رأيت تكريما ولا تعظيما، مع اني جئتكم بالامس بهيئة الفقراء، وسجية العلماء، واليوم جئتكم بلباس الجبارين، وتكلمت بكلام الجاهلين، فقد رجحتم الجهالة على العلم، والغنى على الفقر. فأعترفوا بخطئهم واعتذروا عما صدر منهم من التقصير بشأنه.

بعد هذه الحكاية كل ياكمي. ننتقل الى حكاية الشيخ الذي رأى

جزيرة البحرين ترفع الى الجنة بمن فيها: تنسب هذه الحكاية الى الشيخ الحسين ابن الشيخ عبدالصمد الحارثي العاملي الجبعي نسبة الى جباع وهي احد قرى جبل عامل .

والحارثي نسبة الى الحارث الهمداني من أصحاب الامام علي ابن ابي طالب عليه السلام . والذي يروى ان مولانا الامام علي خاطبه بأبيات مشهورة يقول فيها:

يا حار همدان من يمت يرني من مؤمن أو منافق قبلا . . .
وأنت عند الصراط معترض فلا تخف عشرة ولا زللا . . .
اسقيك من بارد على ظمأ تخاله في الحلاوة العسلا

وأما حكاية المنام الذي رآه فهي أنه كان في مكة المشرفة مهاجرا من جبل عامل قاصدا الجوار فيها الى أن يموت ثم انه رأى في المنام ان القيامة قد قامت وان أرض البحرين رفعت وما فيها الى الجنة، فلما رأى هذه الرؤيا أثر الجوار في البحرين والموت في أرضها، فجاء البحرين . واقام الشيخ صاحب الرؤيا في البحرين حتى توفى فيها سنة ٩١٨ هجرية ودفن في قرية تسمى (المصلى) وقبره معروف فيها الى اليوم .

وقد اشتهر من بعده ولده محمد بن الحسين المعروف بالبهاثي، الذي ذهب الى اصفهان واصبح شيخ الاسلام فيها والذي رثى اباه بقصيدة منها:

يا جيرة هجروا واستوطنوا هجرا واهاً لقلبي المُعني بعدكم واهها
يا ثاويها بالمصلى من قرى هجر كسيت من حلل الرضوان أضفاها
أقمت يا بحر بالبحرين فاجتمعت ثلاثة كن أمثالا واشباها
ثلاثة أنت أنداها وأغزرها جوداً واعذبها، طعماً وأصفاها
حويت من درر العلياء ما حويا لكن دزك أعلاها وأغلاها

ربوع فضل تباهى التبر تربتها ودار أنسٍ تخالُ الدرّ حصباها
 عدا على جيرة حلوا بساحتها صرف الزمان فأبلاهم وأبلاها
 وإذا ذكر الشيخ محمد بن الحسين البهائي العاملى صاحب الايات
 المذكورة فإن اسمه يقترن عادة بأسمي علمين من معا صريه في القرن
 الحادي عشر الهجري جمع كل منهما صفة الاديب الشاعر الى جانب
 علوم الفقه والدين . . . أولهما السيد أبوعلي السيد ماجد السيد هاشم
 البحراني وثانيهما العالم الشاعر الاديب الشيخ العلامة أبو البحر جعفر بن
 محمد الخطي - أحد بنى عبدالقيس . فأما الأول فكان معاصرا للشيخ
 البهائي والشيخ الخطي ومصاحبا له وقد جرت بينه وبينهما لاسيما الخطي
 مسامرات شعرية و مساجلات وقد توفى بدار العلم في شيراز سنة ١٠٢٨
 هجرية . ومن شعره في الحنين الى البحرين قوله:

يا ساكني جدحفص لا تخطفكم ريب المنون ولا نالتكم المحن
 ولا عدت زهرات الخصب واديكم ولا أغب ثراه العارض الهتن
 ما الدار عندي وان الفيتها سكننا يرضاه قلبي لولا الألف والسكن
 مالي بكل بلاد جئتها سكن ولي بكل بلاد جئتها وطن
 الدهر شاطر ما بيني وبينكم ظلما فكان لكم روح ولي بدن
 مالي ومالك يا ورقاء لا انعطفت بك الغصون ولا استعلى بك الفن
 مثير شجوك أطراب صدحت بها ومصدر النوح مني الهم والحزن
 وجيرتي لا أراهم تحت مقدرتي يوماً وإلْفك تحت الكشح محتضن

وأما الثاني وهو الشيخ جعفر بن محمد الخطي فهو الشاعر المشهور
 بقصيدته عن السببية. وله ديوان مطبوع، وقد وصفه بعض النقاد
 كالدكتور الانصارى بأنه لجزالة الفاظه يذكر في عمود سامي البارودي في
 مصر في محاولته احياء اسلوب البلاغة الشعرية العربية. ويحكى ان
 الخطي لما دخل اصفهان في عام ١٠١٦ هجرية للقاء إمامها بهاء الملة
 العاملى اقترح عليه البهائي مجازاة قصيدته والتي مطلعها:

سرى البرق من نجد فهيج تذكاري عهد بجزوى والعذيب وذى قار
وقال له أجتك شهرا.. فقال له الشيخ الخطي بل يوما.. بل في
مجلسي هذا.. ثم اعتزل ناحية في المجلس وأنشأها ارتجالا ومن قوله
فيها ما يلي:

هي الدار تستسقيك مدمعك الجاري فسقيا.. فخير الدمع ما كان للدار
عشوت الى اللذات منها على سنا شمس وجوه ما يغبن وأقمار
نواصع بيض لو افضن على الدجا سناهن لا ستغنى عن الأنجم الساري
حرائر ينظرن الأصول بأوجه تغض بأمواء النضارة أحرار
معاطير لم تغمس يد في لطيمة لهن ولا استعبقن جونة عطار
أبحنك ممنوع الوصال نوازلا على حكم ناه كيف شاء، وأمأر
إذا بت تستسقي الثغور مدامة أتتك فحيتك الخدود بأزهار
أموسم لذاتي وسوق مآربي ومجني لباناتي ومنهب أوطاري
سقتك برغم المحل اخلاف مزنة تلف إذا جاشت سهولا بأوعار

ومن مظاهر تنوع المواضيع والأغراض الشعرية عند الخطي قوله في
الخمريات وقد جرى بها أبا نواس وذلك سنة ١٠٠٠ هجرية:

وليلة بت تجلولي حنادسها مدامة كدم المذبوح حمراء
كالنار والماء ان شيمت وان لمست وفي الحقيقة لا نار ولا ماء
شمطاء عذراء في دنّ وفي قدح فاعجب لها وهي شمطاء وعذراء
كأنها في الدجا والزق يقذفها برق لها من خلال الغيم لألاء
يسعى بها شادن ميل معاطفه داجي الغدائر قاني الخد احواء
له محلان في قلبي وفي بصري سواد هذا ومن ذاك السويداء
وشابها نطفة من فيه صافية كالراح فهي مع الصهباء صهباء
لحا على شربها قوم وما علموا يا ويحهم إن ذاك اللوم اغراء
ساء الذين نهوا عن شربها ولقد شرابها أحسنوا صنعا وما ساؤا

على ان الحكاية عن الخطي لا تكتمل الا بايراد قصته مع سمكة السببية التي شجت وجنته اليمنى، فجاءت على اثرها قصيدته المعروفة في الادب العربي بالسببية، وكان سببها انه لما توسط الماء بين قرية توبلى وقرية أبو ابهام من ناحية المنامة، طفرت في وجهه سمكة من النوع المسمى في البحرين بالسببي وهو موجود الى يومنا هذا، ومما قاله فيها:

برغم العوالى والمهندة البتر دم لم يرق من عهد نوح ولا جرى
دماء اراقها سببية البحر على حدّ ناب للعدو ولا ظفر
تحامته اطراف القنا وتعرضت له الحوت . . يا بؤس الحوادث والدهر
ايرضيكما ان امرأ من بنيكما واي امرىء للخير يدعى وللشر
يراق على غير الضبا دم وجهه ويجري على غير المثقفة السمر
وتنبو نيوب الليث عنه وينثني أخو الحوت عنه دامي الفم والثغر
ليقض امرؤ من قصتي عجباً فمن يرد شرح هذا الحال ينظر الى شعري

ثم يبدأ الخطي في سرد تفاصيل قصته وانه الرجل المشهور الذي تولع به صرف القضاء، ويصف دخوله للبحر مع ابنه قائلاً

تلجلجت خور القريتين مشمراً وشبلي معي والماء في أول الجزر
وبعد ان ضربته السمكة الطافرة في وجهه وسالت منه الدماء يصف
حاله فيقول

يطوّحني نزع الدماء كأنني نزيف طلى مالت به نشوة الخمر
فمن لا مرىء لا يلبس الوشي قد غدا وراح موسى الجيب بالنقط الحمر
فها هو قد القى بوجهي علامة كما اعترضت بالطرس، إعرابة الكسر

ثم يصف عودته للمنزل بدمائه التي خيل للناس انه قادم بها من ساحة الحرب ثم يتهدد كل من يهم بان يجترئ عليه - غير الحوت - برجال يخوضون الى نصرته الموت وبعدها يفخر بشعره ومهارته في

الهجاء وامتلاك ناصية القوافي بقوله:

فلست بمولي الشعر ان لم أزجّه بكل شرود الذكر اعدى من العر
أضّر على الاجفان من حاث العمى وابلى على الاذان من عارض الوقر
يخاف على من يركب البحر شرها وليس بمأمون على سالك البر
تجوس خلال البحر تطفح تارة وترسو رسو الغيص في طلب الدر

وبعد - فان إلقاء مزيد من الاضواء على هذه الحقبة الادبية من تاريخ البحرين يحتاج الى وقفة طويلة، ومجال في البحث أوسع امتدادا لهذا فأنني وقد قررت ان اقاوم رغبة الاسترسال - لا بد وان انصرف عنها الى حكايات من القرن العشرين وفي المنتصف الاول منه على وجه التحديد. ذلك ان التاريخ للأدب في البحرين بعد الخمسينات قد تصدى له عدد لا بأس به من الادباء والنقاد الذين اسهموا بدراستهم وأبحاثهم في إلقاء الاضواء على النتاج الحديث وتيسير مهمة النقاد الباحثين وتوفير المصادر والنصوص الادبية في مجال الشعر والنثر والفن القصصي بانواعه.

ساتوقف معكم أذن عند محطات قليلة هي بمثابة علامات على الطريق لكل واحدة منها مناسبة وحكاية.

من المعروف ان بداية القرن العشرين قد شهدت في البحرين حركة فكرية واهتمامات وانشطة أدبية وتعليمية واجه جيل الرواد فيها مشاعر دينية متزمتة. وكان محور تلك الحركة الفكرية جيل الفكر الاسلامي والثقافة الحديثة الذي بشر به ودعا اليه شباب البحرين ممن درسوا في الازهر بمصر وجامعة عليكره في الهند وغيرهم ممن تلقى التعليم في العراق وسوريا ولبنان. وقد لاقت أفكار السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي صداها بينهم من خلال قراءتهم للصحف والمجلات أمثال العروة الوثقى للأفغاني ومحمد عبده والمؤيد لعلي يوسف، والمنار لرشيد رضا، واللواء لمصطفى كامل

والمقتطف وغيرها، أو عن طريق المراسلات، والبعثات التعليمية والأسفار. ولعله ليس من قبيل الصدف ان تشهد هذه الفترة ذاتها (العقد الأخير من القرن التاسع عشر والأول من القرن العشرين) نشاطاً تبشيراً مسيحياً تمحور حول إنشاء مستشفى الإرسالية الأمريكية، ومركز الخليج للتبشير عام ١٨٩٤ ومدرسة صغيرة ومكتبة لبيع الكتب المسيحية وذلك علي يد القس المبشر والمستشرق المشهور صموئيل زويمر، وقصص التبشير والمبشرين في البحرين والخليج العربي كتب عنها الكثير... ولكنني أذكر حكاية تروى على الألسن في البحرين... فقد كان من المؤلف ان يقف واحد من القساوسة ليخطب في الجمهور المحتشد قبل افتتاح عيادة مستشفى الإرسالية الأمريكية أو قبل بدء الحصص المدرسية مبشراً بالمسيح وقد اشتكى بعضهم لرؤسائه من ظاهرة غريبة لدى أهل البحرين، وهي انه كلما ذكر فضيلة أو عدد كرامة أو معجزة للسيد المسيح عليه السلام هتف الحاضرون: (اللهم صل على محمد وآل محمد) حتى حصل لبعضهم من أفهمهم ان أهل البحرين هم مثل جميع المسلمين يعتبرون المسيح نبي الله وان تلك الكرامات والمعجزات والفضائل وردت في القرآن الكريم، فهم يصدقون عليها بالصلاة على النبي وذلك على عادة المسلمين.

وفي مقابل تلك المساعي التبشيرية أسس نفر من أولئك المثقفين أول ناد في البحرين تحت اسم نادي أوال أو (مكتبة أقبال أوال) دون أن يستشيروا لسوء حظهم قاضي القضاة في البحرين آنذاك فضيلة الشيخ قاسم المهزع الذي تظاهر بتجاهلهم في أول الأمر، وكان من انشط أعضاء النادي الأديب ناصر الخيري أمين سر النادي، الذي فتح بينه وبين الاستاذ الشيخ رشيد رضا صاحب المنار حواراً دينياً لم يرتح اليه فضيلة القاضي واعتبر الحوار من قبيل اثاره الشكوك في الدين تحت شعار حرية السؤال والبحث. وكانت بعض تلك الاسئلة حول الحكمة من تقبيل

الحجر الاسود ورمى الجمار وما شابه من طقوس المسلمين في الحج، وكذلك حرية تملك الرقيق والرقص والغناء فلما قراها القاضي قاسم المهزع استشاط غضبا وطلب حضور اصحاب النادي لمجازاتهم على ما فعلوه. أما ناصر خيرى فكان له الحظ الاكبر من غضب الشيخ أذ هدده بأن يجدع أنفه.

وإذا كان ناصر خيرى قد نجا بأعجوبة من جدع أنفه بمن تشفعوا له، فإن النادي لم يسلم وتم إغلاقه بعد حوالى سنة من إنشائه. فهل ياترى قد جنى على النادي تساؤلات ناصر الخيرى المتشككة أم تشاؤم المبشرين من الرقم ١٣.. حيث ان تاريخ إنشاء هذا النادي كان في عام ١٩١٣.

والجواب بالطبع لا هذا ولا ذاك، وقد أمدتنا مقالة الأديب الناقد عبدالله خليفه مؤخراً على صفحات أخبار الخليج بتحليلات جادة عن مظاهر هذا الصراع فهو يقول: «ليس صراع قاسم المهزع وناصر الخيرى صراعا مجردا، بل هو جزء من صراع معقد. مثل فيه الاول الدفاع عن النظام الوطنى العتيق بكل اثقاله ومثل فيه الثانى جماعات المظلومين والمتعبين من علاقاته غير العصرية والبالية، ولكن دون أن يكون لديهم العمق الفكرى لاكتشاف طبيعة الظاهرة وتناقضاتها وتوظيفها سياسيا لدى الانجليز. ولم يكن ذلك موقف قاسم المهزع فحسب بل كان موقف جمهور من المثقفين وبرزهم عبدالله الزائد الذى اسس مع زملائه (النادى الأديبى) أكثر الاندية خطورة وعلاقته مباشرة بالصراع السياسى والاجتماعى «ثم يضيف»: وهكذا فإن خطى الحياة الفكرين واصلا البقاء والنمو، وفي حين تقوقع التيار التقليدى، فإن التيار «العصرى» واصل الانتشار عبر المدارس والصناعة، والتجارة، وكافة اشكال الحداثة».

اقول لعل السيد عبدالله الخليفة يقصد بالحداثة مظاهر التحديث وهو ما كان يسمى آنذاك «بالتمدن الحديث» وللعلم فإن النادى الأديبى

تأسس في البحرين في مدينة المحرق عام ١٩٢٠ وضم بين مؤسسيه ومناصريه أسماء لامعة في العقد الثالث من هذا القرن من أبرزها الشيخ ابراهيم بن محمد الخليفة والشاعر الاديب عبدالله الزائد.

وإذا ذكر النادي الادبي فيذكر بجانبه المتدى الاسلامي المؤسس في المنامة عاصمة البحرين عام ١٩٢٨ كما تذكر معهما حكائتان لكل واحدة منهما مناسبة خاصة.

فالمناسبة الأولى هي حفل تكريم أمير الشعراء أحمد شوقي في مصر وتنصيبه أميراً للشعراء في سنة ١٩٢٧. وقد قرر النادي الادبي المشاركة في ذلك الاحتفال بصورة مشرفة للبحرين وذلك بتقديم هدية تذكارية هي عبارة عن نخلة صغيرة من الذهب الخالص وثمارها من لؤلؤ البحرين المشهور مرفقا بها قصيدة شعرية. وقد حازت تلك الهدية على الاعجاب من أحمد شوقي نفسه ومن المحققين به، ورفعت اسم البحرين عاليا في الاوساط الادبية، وقد ذكرها أمير الشعراء في شعره ومما قاله:

قلدتني الملوك من لؤلؤ البحرين آلاءها ومن مرجانه
نخلة لا تزال في الشرق معني من بداواته ومن عمراناه
وأما القصيدة التي اهديت لشوقي مع النخلة فقد نظمها الشاعر خالد الفرج ومما قال فيها:

من منبت الدر تسليم وتكريم لشاعر اللغة الفصحى وتفخيم
حياك من دارنا البحرين لؤلؤها والنخل إذ بسمت فيه الأكاميم
ياشاعر الضاد ان الوحي منقطع فكيف شعرك بالاعجاز منظوم
لا وحي، لا سحر، لا إلهام يفرغه على شعورك تلقين وتعليم
فانما كل معنى انت ترسله صافي الزلال وأكباد الورى هيم
وكل مصراع بيت ريشة خفقت لها على وتر الأحساس ترنيم

ومن حديث مهرجان الفرح واللؤلؤ والتكريم مع النادي الادبي،

نتقل الى حديث العزاء والتأبين مع المنتدى الاسلامي . فقد أقام المنتدى الاسلامي في عام ١٩٣٢ حفلة تأبينية كبرى لوفاة أمير البحرين المغفور له الشيخ عيسى بن علي الخليفة خيمت عليها سحابة الحزن ممتزجة بالمشاعر الوطنية اللاهبة، فامطرت تلك السحابة دموعاً من الشعر الوطني السياسي الحزين . وقد استاثرت بعواطف الجمهور من بين تلك الاشعار والقصائد، قصيدة الشاعر العراقي النجفي المعروف محمد صالح بحر العلوم وقد دارت أبيات القصيدة على الألسن وحفظها الناس في البحرين حتى ارتبط أسم الشاعر في اذهانهم بهذه المناسبة . ومما قاله في تلك القصيدة هذه الايات المختارة:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| الارض ترجف والسماء تمور | والريح تنسف والخليج يفور |
| والجو ينحب والطبيعة شاعر | ينعى وشعر دموعه منشور |
| ارواحنا مثل الزجاج يصيبها | كسر وديدن دهرنا التكسير |
| نمسي ونصبح كالبهائم همنا | علف، وهم خصومنا التسخير |
| لا نهتدي للخير إلا بالعصا | كالعبد يبطل شره التحقير |
| لو أنصفت عيسى عقول رجاله | وحدا بها الأمعان والتفكير |
| لأعاد مجد السالفين بهمة | شماء يعجز وصفها التعبير |
| حتى أثار الجوزوبعة بها | خصّ الخليج فعمه التغيير |
| نسفت سعادته ومنعة شعبه | وحقوق امته وهن نذور |
| ما بين عيسى والمسيح فوارق | إلا وواضح سترها منشور |
| هذا بمشئقة السياسة روحه | انتزعت، وذاك مشبه منظور |
| عفواً فزلات اللسان كثيرة | والبعض منها جائز مغفور |
| آل الخليفة ان تكدر عيشكم | أنا، فعيشي كله تكدير |
| لقد استراح أبوكم من أمة | قد غرّها البهتان والتزوير |
| باعت لشهوتها ضمير إياها | ومن البلية أن يباع ضمير |
| مدح تكال وشاعر متملق | وهوى يطاع وكاتب مأجور |

ما عارض الدين الوفاق وانما بث الشقاق معتم مأجور
سيرا على ضوء الأمام ونوروا رأي العوام وهكذا التنوير
فمن البلاهة ان نفوز بفرصة فنغض عنها الطرف وهو حسير
ولكن قصيدة بحر العلوم بقدر ما أرضت الجماهير أغضبت
الاحتلال فاصدر المستشار الانجليزي امرا بتسفيره من البحرين والغى
حفلات الاندية والهيئات الثقافية في البلاد التي دعت بدورها الى احياء
هذه المناسبة ومنها النادي الادبي .

ويقال ان الشاعر بحر العلوم أضطر وقد دعي الى المشاركة الى
واحدة من تلك الحفلات التي تم الغاؤها ان يقتصر على بيتين من الشعر
فقط لكنهما كانا أبلغ من قصيدة كاملة صار لها وقع عظيم لدى
المجتمعين . . . وقد قيل في ذلك انه لما صعد المنصة طلب كأسا من
الماء فشرب منه قليلا ثم القاه وهو يقول:

قالت الضفدع قولا فسرتة الحكماء
في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء؟
وحين أخرج من البحرين على أثر ذلك مخفورا من قبل
الانجليز . . . كان لسانه يهتف بايات أخرى يقول فيها:

كفى هوانا بقوم ان ناصحهم يساق بالجند مطرودا من البلد
وهكذا فان تلك الحادثة وذيلها وحكاياتها أنسجت على الاندية
الادبية وانشطتها حتى خبي نورها شيئا فشيئا لتفسح المجال لشباب
الصف الثاني من المثقفين لتجديد المحاولة ابتداء من عام ١٩٣٧ .

وما دمنا على أعتاب الاربعينات من هذا القرن فيجدد بنا ان نتوقف
ولو قليلا لنرصد حدثا ثقافيا مهماً الا وهو صدور أول صحيفة أسبوعية
في شرق الجزيرة العربي - تم تأسيسها من قبل الاديب والشاعر عبدالله
الزائد وفي المناسبات والاحداث الادبية التي نشرت على صفحات هذه

الجريدة مجال واسع للحكاية والقول. ولكنني أكتفي بالإشارة الى بروز أول معركة أدبية في الخليج على صفحاتها استمرت منذ عام ١٩٤١ لغاية فبراير ١٩٤٢. وقد ثارت تلك المعارك الادبية على أثر نشر نتاج شاعر البحرين عبدالرحمن المعاودة وخصوصا اشعاره التي يعارض فيها رباعيات عمر الخيام. فكان اول نقد عنيف وجه الى شعر المعاودة صادرا من الاديب الاحسائي عبدالله الرومي. فسبب المقال انقسامًا وتحيزًا بين المعجبين بشعر المعاودة والناقدين له، وقيل فيها انها معركة بين القديم والجديد أو بين المحافظة والتجديد... وقال آخرون ممن أضجرهم طول الحوار ومجافة النقد الموضوعي ان كل تلك الزوبعة لم تكن غير اصداء للمعارك الادبية الكبرى في مصر والتي نشأت فيما بين ادبائها المشهورين مثل زكي مبارك وأحمد أمين والعقاد والرافعي وطه حسين. وبرغم كل ما قيل فان تلك المعارك الادبية قد اذكت روح البحث الى جانب الخصومة، وحرية النقد الى حد التعرض الشخصي، والتهكم الساخر وشدت اليها جمهور القراء بما يرضى هوى الناشرين. وقيل أن كلمة حكيمة وجهها فضيلة الشيخ الاديب عبدالحسين الحلبي - رئيس محكمة التمييز، على صفحات جريدة البحرين داعية لأيقاف المهاترات قد أدت الى توقف المتخاصمين وانتهاء تلك المعارك.

أما اولئك الكتاب في معركة جريدة البحرين الادبية فكانوا يرسلون مقالاتهم وردودهم بتواقيع مستعارة مثل القالى، وابن العميد، وابن خلدون، وابن زيدون، ومثل قارئ أو أحد القراء أو كانوا يكتفون بحرف من أسمائهم مثل (ت) و(م.د) الخ تلك الاسماء المستعارة.

وإجمالاً فإن الأربعينات من هذا القرن كانت في البحرين حافلة بأنواع من الأنشطة الادبية والشعرية والثقافية والفنية والمسرحية وقد شهدت اواخره صدور مجلة أدبية ثقافية سياسية رائدة هي مجلة صوت البحرين. وصفها أحد أدباء البحرين وهو عبدالله خليفة مؤخرًا بقوله:

«لقد افتتحت مجلة صوت البحرين المشهد الثقافي العريض، واطلقت اشكال المقالة الصحفية والنقدية والكتابة القصصية والقصائد وبدا المثقفون البحرينيون في تلك المجلة، صحفيون متمرسون وكانوا على خط الحياة الاجتماعية وتصوير المشكلات بالخاطرة والقصة والقصيدة».

أما وقد اشرفنا على محطتنا الاخيرة في هذه الامسية، فان آخر المناسبات الادبية التي ساطرق اليها هي مناسبة شبيهة نوعاً ما بالمناسبة التي بدأت بها الحديث فمن زيارة أمين الريحاني الى البحرين عام ١٩٢٢م، وقصيدة عبدالله الزائد في الترحيب به آنذاك، الى زيارة بعثة جامعة فؤاد الاول الى القطيف عام ١٩٥٠ والتي ضمت من بين الاساتذة البارزين فيها الدكتورة بنت الشاطيء وقد نقل عن الدكتورة الزائرة وزملائها كلام عن المدهشات في تلك الزيارة العريضة، يشبه كلام أمين الريحاني واعتذارات تشبه اعتذاراته، واما شاعر الحفلة التكريمية فهو الاستاذ الاديب الشاعر عبدالرسول الشيخ علي الجشي، وقد رأيت من المناسب ان اختم حديثي بأيات مختارة من قصيدته الحافلة بعنوان (على شاطيء الخليج) حيث يقول:

يا قادة الجيل الجديد تحية
القى الربيع على المباسم ظلها
ازكى من الزهر الندي وأنضُرُ
وافتر منها الأرجوان الاحمر
ثم يقول الجشي مرحباً:

ولقد وقفت مرحباً ومعرفا
ولعل في الاجفان دمعة آسف
لكم ولست بما أعرف أفخر
اني بمجد الغابرين أفكر
هذي الشواطيء وهي ماض عامر
القى عصاه على فسيح ضفافها
واذلت التيار تحت شراعها
شهدت مواني الهند خفق قلوبها
ولها على وادي الفرات ودجلة
فضل المعلم، وهو فضل يشكرُ

وراء بها لغة العروبة بيئة شعراء عبدالقيس تهزج بالهوى
فيها جنى ابن العبد حلو شبابه وخيال خولة يستثير غرامه
وابن المقرب لم تزل اشعاره ولجعفر الخطي فن مشرق
الى أن يقول في نهايتها:

هذي بلادي في قديم عهودها واليوم يدفعها الطموح لنهضة
علم وفن خالد لا يدثر بمتيلها تسمو الشعوب وتكبر
روح وان هرم الزمان فتية وطبيعة بكر وفكر نير



في محطاتنا الاخيرة من هذا اللقاء، يملكني شعور أشبه بشعور المسافر
الذي أتعبه السير وهو يتشوق الى لقاء من يحب كما يشعر ان من
سيقابلهم في المحطة الاخيرة ربما أتعبهم ايضا ذلك الانتظار. ولكن
الأهم من ذلك لقاءنا المشترك على رصيف محطاتنا الأدبية الأخيرة قبل ان
نفترق من جديد حاملين معنا الذكريات لحكايات منسية من أدب
البحرين.

النادي العربي بلندن

سبتمبر ١٩٩٤

البحرين في سطور

من واقع الحفريات ونتائج أعمال بعثات التنقيب عن الاثار، يرتبط أسم البحرين في العصور القديمة بحضارة دلمون منذ القرن الثالث قبل الميلاد. أما في كتب التاريخ فقد اعتبر كثير من المؤرخين ان منطقة الخليج العربي هي المهد الأول للفينيقيين، كما يشير هؤلاء الى مدن سواحل الخليج العربي التي لا تزال تحمل اسماء فينيقية مثل صور وصيدا (صيدون) في عمان وأريد (عراد) في البحرين «وجبيل» على ساحل الجزيرة العربية وذلك بالاضافة الى شكل المقابر القديمة في البحرين التي تشبه مقابر الفينيقيين وممن ذكر ذلك المؤرخ الأديب أمين الريحاني الذي ذكر ايضا بأن بعض المؤرخين يعتبرون الخليج العربي هو مهد الجنس البشري كما تشير كتب التاريخ الى حضارة(الجرها اللخمين) وفي منطقة شرق الجزيرة العربية أسم «الجرعا» هو من الأسماء العربية التي سميت بها بعض مدن تلك السواحل^(١).

ويذكر ياقوت الحموي (في معجم البلدان) عن البحرين ما يلي:

«البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان وقيل هي هجرقصة البحرين وربما عدّ بعضهم اليمامة من أعمالها، والصحيح ان اليمامة عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين هي: الخط، والقطيف، والاراة، وهجر وبينونة وجواثا والسابور، ودارين والغابة وقصة هجر هي الصفا والمشقر وينسب الى البحرين قوم من اهل العلم منهم: محمد بن معمر البحراني، ثقة حدّث عنه البخاري والعباس

بن يزيد بن أبي حبيب البحراني (يعرف بعباسوية) وهو من الثقات مات سنة ٢٥٨ هجرية وزكريا بن عطية البحراني وغيرهم .

وكانت (البحرين) في مملكة الفرس وفيها خلق كثير من عبدالقيس وبكر وائل وتميم في باديتها وكان فيها من قبل الفرس المنذرين ساوى بن عبدالله بن زيد بن تميم وعبدالله بن زيد هذا هو السبدي نسبة الى قرية بهجر . لما كانت سنة ثمان للهجرة وجه رسول الله (ص) العلاء الحضرمي حليف بني عبدشمس الى البحرين وكتب معه الى المنذر بن ساوى والى سييخت مرزبان هجر فاسلما واسلم معهما جميع العرب وبعض العجم فأما اهل الارض من المجوس واليهود والنصارى فانهم صالحوا العلاء وكتب بينهم كتاباً ولم يكن بالبحرين قتال .

وعن جزيرة أوال ذكر الحموي مايلي: «أوال (بالضم ويروى بالفتح) جزيرة يحيط بهاالبحر بناحية البحرين فيها نخل كثير وليمون وبساتين وأوال صنم كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل .

خضعت البحرين لعهود الخلافة الاسلامية، وفي العصر العباسي خضعت لثورة الزنج سنة ٢٣٩ هجرية (وفيها اليوم قرية تعرف بالزنج) ثم للقرامطة (٢٨٦ هـ) ثم العيونيين (٤٥٠ - ٦٥٠ هـ) فالزنكيين، فالعصافرة ثم الجبور (٩٥٧ هـ) ثم البرتغاليين (١٥٢١م - ١٦٠٠م) والصفويين (١٦٢٢م) واليعاربة المسقطين وأل مذكور وأخيراً آل خليفة (أحمد الفاتح في ٢٣/٧/١٧٨٣م) وهي العائلة الحاكمة في البحرين .

ابراهيم العريض .. كما عرفته أدبياً وأنساناً

العريض في كلمات:

العريض.. استاذ رائد لجيل من الرواد في الثقافة والفكر والأدب،
وموسوعة للمعارف والفنون تمشى على قدمين... وقبل ذلك وبعده،
شاعر مبدع يتغنى بشوق الطفل لاصطياد الفراشات الهائمة. أنه استاذ
بمعنى الكلمة.

ما زلت أذكر وأنا صغير - في المرحلة الابتدائية من الدراسة - كيف
انني كنت يوماً في بيت أخي الأكبر، أعبت باوراق مهمة وجدتها في
صندوق خشبي فعثرت على دفتر للنصوص والمحفوظات يحتوى على
اشعار جميلة غيرما الفناه في المدرسة. واتذكر مطلع إحدى قصائدها من
شعر الشريف الرضي، وهو:

«يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم، أن القلب مرعاك»

«...فاعجبت بها كثيراً.. ولما واصلت تقليب تلك الاوراق
وجدت عليها اسم ابراهيم العريض صاحب ومدير المدرسة الأهلية،
التي انتهى أمرها في أوائل الثلاثينيات. ويتذكر اخواني والآخرون
الاكبر مني سناً من تلامذة مدرسة العريض ومدرسيها اخباراً غريبة
ومثيرة عن هذه المدرسة الفذة وعن اسلوبها غيرالمألوف. وتمتزج كل
تلك الذكريات باحداث رائعة كلها من صنع الاستاذ العريض ومنها
روايته الشعرية «وامعتصماه» وديوان شعره الأول (الذكرى) وعن معاناته

وصبره فى مجال تنوير العقول.

ثم سنحت لى الظروف بعد ذلك ان أواجه الاستاذ العريض عن كئب خلال زيارا تى لنادى العروبة أوائل الأربعينيات، حيث كان الاستاذ الكبير ابراهيم العريض، النجم اللامع فى معظم حفلات النادى. . اذ كانت تفرد له فى العادة أمسيات خاصة بكاملها يستغرقها فى القاء الجديد من شعره القصصى محفوفاً باعجاب الحاضرين وتصفيقهم. فقد القى بين عام ١٩٤٠ - ١٩٤٢ عددا من أروع قصائده مثل «قبلتان - والتمثال الحى - واسطورة الخيام، وقلب را قصة. . وغيرها.

كنت اتابع حفلات النادى بشوق واحضرها فأجلس بين الصفوف المتراسة محشورا فى مؤخرتها، لايحفل بي أحد لكنى أتجاسر على الوقوف بين الحين والآخر لمتابعة حركات الأستاذ العريض. . التعبيرية (ونزوات أطراف العباءة التى يلبسها حين ينقلب كأس الماء الموضوع على الطاولة مثلا) ولم يكن ليعكر صفو هذه السعادة عندى شىء سوى قلقى من الرجوع بمفردي الى المنزل خلال الأزقة الموحشة المظلمة، تتجاوب عبرها اصضاء من أصوات الحرأس (النواطير) المفزعة. . تجرح صمت الليل وسكونه. . .

وفى غير ذلك فان صوت الاستاذ ابراهيم العريض ونبرات كلامه مما يدور فى اروقة النادى من أحاديث هما مميزان لدى معظم اعضاء النادى من اسلوبه الهادئ الحانى الرقيق تتخلله عبارة (يا أبني. . أو يا أبنائي) والاستاذ نادرا ما يغضب. . فاذا فعل فانه يزار زئير الأسد. . فيصلت المتجادلون. . وكان معروفاً عن العريض أنه بسيط ومتواضع يقنع بالاشياء البسيطة التى ترمز الى الحب والاعجاب كما يرتاح الى الكلمة الطيبة التى تهدأ بها نفسه.

ولكن لِقائى الحقيقى بالاستاذ العريض تحقق حينما عين استاذاً معاراً فى مدرستنا التى كانت تعرف بالمدرسة الثانوية وذلك خلال عام

١٩٤٢. وفى مرحلة دراستي الثانوية شغفت حباً بعالم السماء ومسار النجوم.. وكان من وراء ذلك استاذنا الكبير الشاعر ابراهيم العريض، الذى جمع في شغفه بالنجوم بين جهد العالم، وتأمل الفيلسوف، واحساس الشاعر المرهف.

ومن قبل، عرفت من نجوم السماء النجم القطبي، حتى جاء الاستاذ العريض الى الثانوية مدرساً معاراً فأخذت من شرحه الكثير عن عالم السماء الدنيا. وما كانت حصة الدروس عند العريض لتنتهي بأنتهاء الوقت كنت اسأله دائماً وكان يجيبني دائماً حيثما لقيته وقد الف الطلاب وألفوه من اول درس وكأن له مع كل منهم معرفة سابقة. وباشر بتدريس الرياضيات باللغة الإنجليزية ابتداء، فلم يعسر فهمها على معظم الطلاب بفضل اسلوبه في التدريس. ومع ذلك كان يضيق ببلادة الفهم والاحساس، وسخف السؤال، وشروذ الذهن.

وبعد ذلك تعددت لقاءاتنا وكثرت مناسباتها حتى أصبحت جزءاً من برنامجي اليومي أو الأسبوعي - تقريباً.

إذا دخلت السوق من منزلنا القريب ماشياً أجده فى الأغلب على مشارفها يتسلى مع الحاج منصور الخياط بأحاديث يدور معظمها عن احوال المعيشة وعن هموم الناس وشئونهم. آخذاً بين آونه واخرى نفساً من الغليون (الأرجيلة او القدو) الذى يواظب الحاج منصور على اصلاح شأنه حسب ذوق الأستاذ.

وإذا خرجت من السوق عصراً أصادفه خارجاً لوحده أو مع شلة من اعضاء النادي فنتمشى على طريق القضيبيية.. على عادة اهل البحرين قبل حلول الظلام. والاحاديث شتى.. من اخبار الحرب العالمية، الى تحليلات السياسة، فالشعر والأدب ونظرات فلسفية فى الدين والمجتمع، واخبار الكتب والصحف.

وكانت مهمتى الظاهرية فى تلك الاثناء توجيه الأسئلة العشوائية فهو
يجيب على بعضها ويستهجى غير الوارد منها لانه يكره الاسئلة (السخيفة)
أما المهمة الأساسية عندى فكانت «اصطياد» الآراء والافكار لتحليلها فيما
بعد .

وقد وجدت من الصعب مواجهة الاستاذ بنقد مباشر أو مجابهة
فكرية لآرائه مبعثها العاطفة وليس الأطلاع الراسخ . ولم أعرف فيما اذكر
شخصاً يتقبل منه الاستاذ مثل ذلك النقد الصريح والمواجهة الحادة سوى
الاستاذ علي التاجر وهو كالعريض محب للقراءة واسع الاطلاع . ولعل
الاستاذ العريض انما كان يحرص على مجاراته بدافع رغبته الكامنة فى
التعرف على الوجه الآخر المضاد وذلك فنّ يتقنه جيداً على التاجر حيث
ينقض على الفكرة الأساسية من احدى مواطن الضعف فيها فينسفها في
عصبية وحماس . .

وقد نشأت بين العريض وبين كل من علي التاجر وحسن الجشي
والسيد رضى الموسوي محبة ورفقة وزمالة . . . كما نشأت بينه وبين
فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلّي عالم النجف والحلة والاديب الشاعر،
علاقة حميمة فكرية وادبية من نوع خاص وذلك بعد قدوم الحلّي الى
البحرين وتعيينه قاضياً للتمييز بالمحكمة الشرعية فى عام ١٩٣٧ ، وكان
الحلّي معجباً بالعريض فكراً وثقافة وشعراً . وقد حز فى نفسه ما طرأ
على العريض من حالة اليأس التى ألمت به على اثر اغلاقه المدرسة
الاهلية وانسداد ابواب المعيشة فى الثلاثينيات وانصراف ذوق الجمهور
عن الشعر الابداعي وتمسكهم بشعر التقليد فقد جاء فى زمان دأب
الشعراء فيه على الأجتراح، وكان مبدعاً فلم يفهمه الآخرون فسبب له
ذلك همماً وألماً وشعوراً بعدم التقدير لمحاولاته الفنية . وقد عبر العريض
عن هذه الحالة النفسية فى اشعار من بينها قطعة لم تنشر خصني بها
مؤخراً بعد ان فتحت معه الحديث عن هذه المرحلة من حياته، نظمها سنة

١٩٣٤ (١٣٥٣ هـ). وعنوانها (نفضت كفي) يقول فيها:

نفضت كفي من ورد ومن آس
 لم آل جهدا على انعاشها بيدي
 ان ينكر الحس من نوارها أرجا
 وكيف أنسى جمالا كان مشهده
 لا شأن للفنّ في دنيا اعيش بها
 كم رحمت ابعث في ارجائها نغما
 فلو شكوت لها من غلتي أثراً
 أظل أشعر في حلقي مرارتها
 لا يطمح الطير - والاشراك ترصده -
 تبقى الخميطة بالأغصان مائسة
 قد كنت في مجلسي أولى بنشوته
 يا ناهلين كؤوس الراح في دعة
 رفقا فذاك دمي في سورة الكاس

ثم هجر الشعر ردهاً من الزمن فاستحثة الشيخ الحلبي على نظم الشعر بما لا يقل عن اربع قطع شعرية يدعوه فيها الى مواصلة عطائه الفني حتى وصل الالحاح الى درجة التعنيف.

وهكذا نجد الشيخ الحلبي يمضي قدماً دونما هوادة في حث العريض على مواصلة قول الشعر بالاحاح تدرج في استمالته الى حد التعنيف، وما كان الشيخ الحلبي ليفعل ذلك لولا معرفته وتقييمه للمعدن الفني الذي ينهل منه العريض، وتحسره على تلك الموهبة الفنية ان تضيع وعلى تلك الشعلة المتقدّة ان تخبو من جراء اليأس والاحباط.

هذا مع العلم انه كان معروفاً عن الحلبي ان له موقفاً صريحاً من مدعي الشعر والأدب، فهو ينصحهم بالابتعاد عن قول الشعر واحياناً يهجوهم أشد الهجاء.

وعوداً إلى توطد معرفتي بالاستاذ العريض، اقول بالاضافة الى ما ذكرته، اننى جمعتنى به - ومازلت طالبا فى الثانوية - علاقة جديدة منشؤها مجلة «الأنصار» والتي كانت تعرّف نفسها بأنها (مجلة الفكرة العربية و الثقافة الاسلامية) وقد تنبه الاستاذ العريض إلى جدية هذه المجلة في دعوتها للعروبة والاسلام، وصدق كتابها، وجمال أسلوبها مقترناً بقوة الحجّة والأستشهادات.. فلفت انظار خاصته إليها وسرعان ما أصبح لمجلة الأنصار فته مختارة من (الأنصار) ضمت بجانب الاستاذ كلاً من حسن الجشى وعلى التاجر وخالد محمد الخليفة ودعيج الخليفة والشيخ عبدالرحمن الجودر، وآخرين.. كنا جميعاً نقرأ الأنصار ونجتمع لمناقشة أفكارها.. مما أتاح لي شخصياً ان اجتمع مع الاستاذ العريض على فكر مشترك وأن اجالسه أكثر من ذى قبل.. وقد بلغ من تقدير العريض واعجابه بصاحب الأنصار.. أنه خرج عن عادته فى ابتعاده الكلى عن شعر المديح والمناسبات وخص صاحب الأنصار بهذه الأبيات وهي مما لم ينشر من شعر العريض :-

الى الاستاذ احمد صبري:

يا عبقرى العصر غير مدافع والكوكب الوقاد فى ظلمائه
مضت القوافل وهي تخبط فى الدجي حتى استضاء، فكبرّت لضيائه
ما سرّنى مدحيه الا بعد أن ألفيته للشرق، باب رجائه
تلك القرون... كأنما هي ليلة أسفر صبحها بذكائه
ان الذى برأ العقول سما بها صعداً.. وخصك دونها بسمائه
فاسلم، فما هذا الزمان سوى فم يشكو، وتعلم أنت موضع دائه
ما كان للصحراء أن تظما وفي أعماقها هذا الغدير بمائه

ثم افتقدت العريض كثيراً بعد سفره الى الهند، عام ١٩٤٣ رغم انى سافرت أيضاً للدراسة. فلما عاد وعدت، توطدت تلك العلاقة على سابق عهدا وأضيف إليها عنصران جديداً:

أولهما اقبال العريض بروح لا تكل ولا تمل، على أعداد ماكتبه شعراً ونشراً للطبع في الوقت الذي يواصل فيه النظم والتأليف. وقد شهدت سنوات النصف الثاني من الأربعينيات قمة الأنتاج الادبي للاستاذ العريض واستمرت ذروة النشاط في الخمسينيات والستينيات حيث شهدت هذه الفترة صدور معظم مؤلفاته الأدبية والنقدية والشعرية المعروفة.

أما المناسبة الأخرى. فهو مواظبة الاستاذ العريض على اتحاف مجلة «صوت البحرين» بكتابه المسلسلة (نفع الطيب) التي تناولت تحليلاً فنياً للمختار من الشعر العربي، وكذلك (في الميزان) ودنيا الكتب وتناول فيهما التعريف والنقد للكتب - الادبية والفكرية. حيث تم بعد ذلك استيعاب بعض تلك المقالات في كل من كتابيه (جولة في الشعر العربي المعاصر) والشعر والفنون الجميلة وغيرهما وقد تسنى لي بحكم لقائي المتواصل بالعريض أن أعيش معه همومه في تتبع ما ينشر في الصحافة حول مؤلفاته ومقالاته وما يصله من تعليقات حول اصداراته الشعرية والادبية الجديدة - وفي اخراج مؤلفاته للطبع كما كنت استمع اليه معجبا بحماسة وسهره ومواظبته.

وصحبت العريض في بعض الأسفار الى لبنان فكان نعم الرفيق والأب العطوف وتعرفت بصحبته على عدد من اصحاب الصحف والناشرين من بينهم البير أديب صاحب مجلة الأديب، وتعرفت برفقته على مركز اذاعة الشرق الادنى، ودار الكشاف ودار العلم للملايين والشاعر الصافي النجفي وغيرهم وزرت معه جبل الأرز للمتعة وللترويح ولكن النزهة تحولت بصحبته الى معارف وفنون وشعر وزيارات للآثار وللمتاحف، وكان على عادته يضع ملاحظات مسبقه عن الأماكن التي تهمة ويلتزم بزيارتها. ومنذ مطلع الخمسينيات اصبح للاستاذ العريض حضور مستمر وبارز في العديد من المؤتمرات والمواسم الأدبية والشعرية والثقافية على امتداد الوطن العربي والشرق الأوسط، وقد رافقته أول مرة

الى مؤتمر الادباء العرب الرابع فى الكويت عام ١٩٥٨ الذى عني بعدد من القضايا الفكرية والأدبية بالاضافة الى القاء عدد لا بأس به من اشعار وقصائد للمشاركين . وقد لاحظت على العريض عدم الأرتياح لكثير من تلك الأشعار باعتبارها شعرا للمناسبات وليست فناً شعرياً . ولم استغرب ذلك . فلطالما سمعته يردّد نظرتة الى الشعر بأنه احتفال متجدد بالحياة وجوانب الجمال فيها، وتعبير جميل عن خوالج النفس البشرية . أو كما جاء فى مقدمة الاستاذ حسن الجشى لاحد دواوين العريض : «ان الفن عند العريض مرآة الوجود وتجسيد للأشياء الأبدية، وروح خلاقة يحتذيها حتى الخالق فى ابداعه . لان الفن اداة الاتصال بهذا الوجود» . ومن هذا المنطلق جاء افتتاحان العريض بالطبيعة، وبالمراة كرمز للجمال الحيّ الخلاق .

ومن المناسبات الاخرى التى جمعتنى برفقة الاستاذ العريض والزميل الدكتور محمد جابر الانصارى فكانت خلال مؤتمر الكتاب الآسيوى الافريقي فى بيروت عام ١٩٧٠ حيث شارك العريض ببحث قيم يتضمن شرحاً لنظرة جديدة فى تعريف القيمة الفنية للشعر والنثر ووجوه الاختلاف بينهما . . وهي نظرية رياضية طالما فكر فيها العريض ملياً قبل ذلك وشهدت أرهاصاتنا وبداياتها عنده من حديثه المتكرر عنها فى البحرين .

ومن الطريف فى هذه المناسبة أنه بينما كنا مشدودين الى حديث العريض وهو يلقي كلمته باللغة الانجليزية فى حفل الأفتتاح، وقد وصل الى عبارة «تسليط مزيد من الأضواء . . .» واذا بالأنوار تنطفى فجأة ويغرق الجميع فى ظلام دامس . . .

وفى جميع المناسبات التى حضرتهما مع العريض تابعت باعجاب نشاط العريض متعدد الأوجه فى الاجتماع باعضاء الوفود، ومناقشة الافكار بيقظة وحيوية كانت كلها موضع تقدير واعجاب من المشاركين

واعزاز بالنسبة لوفد البحرين. وأعرف عن الاستاذ العريض بهذا الصدد حرصه الشديد على الاحتفاظ بملف كامل لتلك المناسبات بما في ذلك صورها التذكارية كما اعرف انه من أدق الناس في ترتيب اوراقه ومجموعاته واستكمال الناقص فيها، واذكر بهذه المناسبة سعيه الحثيث لاستكمال مجموعته من مجلة «الانصار» حيث عرض على نادي العروبة مبادلة ما يحتاجه منها بكتب قيمة.

وقد توج الاستاذ العريض نتاجه الأدبي بكتاب «فن المتنبي بعد الف عام (١٩٦٢) ثم ترجمة رباعيات الخيام (١٩٦٦) وتفرغ بعد ذلك لمجموعات متنوعة من الابحاث الأدبية والمشاركات فى المؤتمرات والمنتديات الفكرية والأدبية ونظمت له لقاءات ومقابلات صحفية عديدة ونشر مقالات فى الادب والشعر وآراء نقدية تعرض فيها لموقفه من شعراء الحدائة وموجة شعر التجديد، ولا شك انه قد تجمع من كل تلك الأنشطة قدر كبير لم ينشر ويحتاج للجمع والعناية باعتباره نتاجاً مكملًا لادب العريض وشعره.

وللاستاذ العريض حضور مميز فى الندوات الفكرية التى تدور فى محافل الأندية والجمعيات فى البحرين، وخاصة فى نادي العروبة التى لم تنقطع صلته به حتى هذه اللحظات - فهو بمثابة الأب الروحي لهذا النادي فى البحرين. وفى اواخر الستينيات أهدى العريض جزاءً كبيراً من مكتبته لنادى العروبة ذكرى وفاء ومحبة وقد اشرف بنفسه على نقلها الى حجرة خصصت لها فى النادي وترتيبها وتعهدا بجهد دؤوب حتى تم ترقيمها واعداد الفهارس والبطاقات لها. وفى نفس الفترة تعهد العريض نشاطاً مميزاً فى النادي لممارسة لعبة الشطرنج التى نمت وترعرعت واصبح العريض من هواتها ومشجعيها الدائمين. . حيث يتيح حضوره اليومي للنادى لمشاهدة هذه الهواية مجالاً فريداً للقاء العريض وتأكيد الصلة المستديمة معه فى رحاب النادي الذى شهد تأسيسه منذ عام ١٩٣٩.

وفى ابیات نظمتها ونشرتها مجلة (العروبة) التي يصدرها النادي بعنوان (مداعبات شطرنجية) أشرت الى دور العريض في هذا المجال قائلاً:

يشرفنا «الاستاذ» فهو مواظب رقيب على حسن الأداء .. وساهر
ومن غير «ابراهيم» يعرف قدرها وقد سبقت منه اليها البوادر
يكنُّ له في «الدست» كل مربع من الحب ضعفاً، بدؤه فالأواخر
وما ذاك بالشيء الكثير، فكم زهت عرائس أشعار به .. ومنابر ..

توقف العريض عن التأليف بعد رباعيات الخيام على ما أعلم وآخر
ما قرأت له من الشعر أبيات عاطفية بمناسبة ذكرى عزيزة على قلبه
لرحيل شريكة حياته «أم جليل» وذلك في عام ١٩٨٥ - وهي:

أحب لحبك دنيا الحسان لأن لحسنك فيها انعكاساً
حضورك يُضفي على الحفل طيباً فان غبت ظلّ الحضور اقتباساً
أثغرك في تلك يُبدي افتراءً وطرفك يرنو بهذي اختلاسا؟
فسبحان من ماز حسنك ورداً وحول حبك في القلب آسا

وسرعان ما تلقف الشاعر غازي القصيبي هذه المناسبة فاضاف
عليها أربعة أبيات من شعره، ثم اضاف عليها الشاعر عبدالله الشيخ
جعفر أربعة أبيات اخرى .. فلما أطلعت عليها في نفس اليوم أضفت
اليها هذه الأبيات:

أبا الشعر طال انتظار القوافي فهلا أجبت لهنّ التماسا؟
واطلقت من سجنه طائراً تثنى له الغصن شوقاً .. فماسا
«عرائس» غابت زغاريدها وطالت على المعجبين احتباسا
أرى الحزن يذرف من مقلتيك على الماء دُرّاً، وفي الترب ماسا
ويُنبت في الرّوض ريحانة ويكسو الجنائن ورداً وآسا
وإن طال ليُلك عهدي بمن تمرّس بالدهر، أقوى مراسا ..

ثم اقام نادي العروبة حفلة تكريمية للعريض، فنظمت الأبيات كلها

فى قطعة شعرية وصفية أنهيتها بهذه الأبيات:

وسرعان ما عَجَّ ذاك المكان بجمع من الناس تأوى ارتكاسا
يحيون شاعرهم إذ أتى وأغرقهم فى المعانى جراسا
وضجَّ الهتافُ من المعجبين يمدون كفاً، ويحنون راسا
فيا بشرهم إذ أتى نحوهم فعانق ناساً، وحيًا أناسا
وحطَّ على برده بلبلٌ فصاح به - زاجراً - لا مساسا!
هجرثُ القوافى ورباتِها وأحكمت من دونهن التراسا!

ان هجر العريض للشعر وابتعاده عن التأليف ربما كان من اسبابه
تعب الجسم، إذ مازال العريض بحمدالله قادرا على العطاء الفكري الذى
لا ينضب ويقيني انه مازالت لديه مواضيع لم تكتمل ومن بشارة ذلك انه
عاكف على اعداد بحث مقارن حول رباعيات الخيام ولعله يخبيء لقرائه
والمعجبين به الكثير غير ذلك، عسى أن يحالفه التوفيق ويديم الله عليه
الصحة لأبرازه فى المستقبل القريب بمشيئة الله وصدق المتنبي حين
قال:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرامها الأجسام
وختاما ازجي تحية تقدير واعجاب بالمبادرة الكريمة من الدكتورة
سعاد الصباح التى اتاحت لي ولغيري مجال الكتابة عن الاستاذ العريض
كما عرفته انساناً واديباً واستاذاً لجيل من الرواد.



فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلّي

- إطلالة أدبية على شعره وسيرة حياته -

فضيلة المرحوم الشيخ عبدالحسين الحلّي، كان شخصيّة محبّبة إلى نفسي منذ عهد الطفولة. أذكر، وأنا صغير أن والدي - رحمه الله - كان يأخذني معه أيام الأعياد لزيارة اصدقائه. وانني كنت ألحّ عليه وأحياناً أجزّه من طرف عباءته للذهاب الى بيت الشيخ، الذي كان يستقبلني قبل والدي بوجهٍ بشوش فيجلسني على الدكة الى جواره، ثم يكشف طرفاً من السجادة التي يجلس عليها، ويعطيني روية واحدة، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت لا يحلم به الصغار!.

وحينما يقرّر والدي أن يزوغ عني يوم العيد تحرّجاً من تدخلي في برنامج زيارته وأولوياتها التي يرتبها بحسب مواقعها من طريق السير في الحارات.. فان «الروبية» العيدية تبقى مكانها تحت البساط في انتظاري في اليوم التالي أو ما بعده.

وبعد أن رجعت من دراستي في العراق، وافتتحت مع أخي الأكبر دكاناً في السوق يقع في طريق الشيخ الى المحاكم العدلية، كان الشيخ الحلّي كثيراً ما يتوقف عندنا للجلوس وهو في طريق العودة الى منزله، لاسيما في أيام القipzig الحارة، حيث يستعيد شيئاً من انفاسه اللاهثة فيجفف عرقه، ثم يتردد قليلاً قبل ان يواصل المسير.

وفي بعض الأمسيات، كان الشيخ يزور والدي في منزلنا القريب

من منزله، فيفتح له والدي الباب، فلا يدخل إلا على شرط ان يستدعيني
الوالد لأجلس معهما. فاذا انتهى حديثه مع الوالد، تفرّغ معي للحديث
عن الشعر والأدب واخبار الأنشطة الثقافية والأدبية، وما تنشره مجلة
(صوت البحرين) آنثذ في أواخر الأربعينات وكنت أبادله الحديث على
قدر ما تسمح به ثقافتي كطالب.

لقد كان في البحرين خلال الأربعينات شعراء تقليديون متميزون،
ولكن لم ينل أي منهم من اعجاب الشيخ الحلي ما ناله الاستاذ الشاعر
ابراهيم العريض. فقد كان يعتبره رائداً مجدداً في الشعر. فلما آتس من
العريض انصرفاً عن قول الشعر، وقرأ له أبياتا تعبر عن التذمر والأحباط
والأسى، من مثل قول الأستاذ: (سنة ١٩٣٤).

نفضت كفي من ورد ومن آس وعدت بالشوك اكليلا على راسي
. . لا يطمح الطير، والأشراك ترصده، ان يستقل بوكرٍ فوق مياس
تبقى الخميطة بالأغصان مائسة مادام يغفل عنها حامل الفاس
قد كنت في مجلسي أولى بنشوته لو لا الذي أنا ساقيه لجالسى
يا ناهلين كئوس الراح فى دعة رفقا فذاك دمي فى سورة الكاس

فقد بادر الشيخ الحلي بتوجيه ما لا يقل عن أربع رسائل شعرية
تستحته على مواصلة انتاجه الشعري، فمن التشجيع والتماس العذر، الى
الالاح ثم الى العتاب والتعنيف. ففي مجال التشجيع كتب تحت عنوان
«موت الشعر» أبياتا نقتطف منها ما يلي: -

(١) موت الشعر: (مشجعاً)

لك أيها الأرب الرفيع رسالة مني تمازج حسرتى بعزائتي
. . . لا تأس من برح عليهم إنما لهم بفوتك، أعظمُ البرحاء
تا الله ما جهلوك حين رفعتهم ووضعتم بمباءة العلياء
قد ضيعوك وما عليك غضاضة فالضوء ليس يضيع في الظلماء

عذراً، فان بنيك لم يتواكلوا ناديتهم بديارهم، فاذا الصدى لو كنت منهم، قمت فيما أهملوا لو كان فيهم قدرة لجزء منها يرد علي مثل ندائي عجزاً - ولكني.. غريب نائي

(٢) زهرتي : (معاتباً)

... بحياتي عد الى الفن الذي وأعبره لفتة ثانية انت ان طلقته أم على كنت تمليه فترويه لنا ولقد أوحشتها حين خلت وأسأت الصنع للفن الذي فتواضع وتقبل «زهرة» لا يخب منك رجاها إنها لا سقى الغيث نوادي أدب

هو رَوْح، وهو روح لحياتك انه ينمو ويسمو بالتفاتك كثرة الخطاب من غير لداك... صحف، كانت زمانا من رواتك - لا خلت أوراقها من ثمراتك كان، وهو الآن احدي حسناتك لم تكن تقطف من روض نباتك تتمتى نظرة من نظراتك أعوزت أربعها.. من بركاتك

(٣) تسابيح الملائك : (معاتباً)

... بولائي لك لا تبخل بما ... انت ان غادرتهم في عشوة ... ما أرى شعرك إلا مائتاً ان يكن شعرك حياً فلمن لهدى الجنة قد أعدته كان انصاري كثير وكفى لا عدمناك مليكاً ينضوي

كنت تُمليه على أهل ولائك فلمن تذخر انوار ضيائك فارثه.. فهو حقيق برثائك أنت تخفيه.. كاخفاء السبائك مصحفاً، أم «لتسابيح الملائك» لك فخراً أننى من نصرائك كل باغي أدب - تحت لوائك

(٤) اخرجت موقفي : (معنفاً)

أعاتبه عما جنى وأقوده لما هو أحرى بالأريب المثقف

وأوليه نصحي طامعاً أن يعود لي بوعدٍ كريم . . أو بعُذرٍ مسوِّفٍ
 فلم أر منه غير مُطلٍ أبانه بلا خشية في قولٍ (أُخرجتٌ موقفي)
 لعمرى ما في نظمك الشعرُ أبتغي حُلياً لجيدي، أو طرازاً لمعظفي
 شكوتُ افتراقَ الشمل منه وهجره فحاولتُ أن تحظى بشمل مؤلف
 وأدهقت كاساتي لمن يشتهونها بلا مئةٍ مني ولا بتكلفٍ
 فان شئتُها اشربها، وإلا فخلها كفى اننى عرضت للشرب قرقفي
 اذا المرء لم يردعه تعنيف نفسه عن السوء . . لم ينفعه لومُ المعنف

تلك الابيات من الشعر التي خاطب بها الحلبي صديقه العريض
 فيها الكثير من الدلالات على خلق الحلبي واخلاصه الود. فالحلبي من
 طبعه ان يتخير الاصدقاء ممن يأنس الى طباعهم ويرتاح لما يتحلون به
 من قيم شخصية، أو أدبية، أو علمية أو اجتماعية. فاذا اختارهم منحهم
 كل ما يملك من حب وتقدير واخلاص، وطارحهم مشاعره المرهفة، أو
 اشعاره الفياضة بالرقه، أو مجالساته الممتعة التي ينطلق فيها على سجيته
 الصافية، بعيدا عن التزمت المتكلف، أو المظاهر المصطنعة. يروى
 والدى عنه، انه قام بزيارته للتصالح معه بعد جفوة وعتاب، فهب الشيخ
 اليه من مكانه ولما يجتز بعد عتبة الدار فعانقه ملياً وهو يقول: «اشهد
 لقد سبقتني الى ثواب الجنة».

يقول الاستاذ جعفر الخليلي صاحب الهاتف النجفية في كتابه
 (هكذا عرفتهم): «لقد توثقت الصداقة بيني وبينه (يقصد الشيخ الحلبي)
 حتى كتب لي مرة من البحرين يقول: (وانى آمل ان لا ابقى خائبا دائما
 من رسائلكم الخاصة التي تبهج نفسي وتزيدها نشاطا وبالله اقسام وما
 على يمين: ان عمدة ما استفيده من الهاتف هو تجدد ذكرى صاحبه أنا
 فأنا . . .) ثم يضيف الخليلي مثالا آخر على التواضع فيقول:

وحدث بيني وبينه ما يشبه الجفاء وليس هذا مورد ذكره - فانقطعت
 مكاتيبى عنه، وانقطعت مكاتيبه عنى ولكن ذلك لم يمنعه من ان

يقصدني ببغداد قصدا - وكان قد جاء من البحرين ليقضى اياما في النجف «فغمرنى بلطفه، وشملى بعطفه وطوانى بحلمه. ورأيت فى هذه المرة شبح الموت ماثلاً فى ضعفه وهزاله. وهالنى ان أراه فى هذا الضعف وفى هذا الهزال وقد اهدى لى آخر صورة له وقال انها الصورة المفضلة عنده لانها تحكيه وهو فى شتاء العمر...»!!

وفى موضع آخر يقول، عن فضل الحلّي وعلمه:

(وكان من مفاخر اهل العلم والادب ان يذكروا انهم تتلمذوا على يد الشيخ عبدالحسين. او تتلمذوا على تلاميذه. وكان من مفاخرهم ان يذكروا بأنهم قرأوا شعرهم فى مجلس كان من متصديه الشيخ عبدالحسين الحلّي. وان قصائدهم قد حظيت منه بالاستعادة. بل كان اكثر من هذا... فقد طالما كان حكماً بين جهتين فى مسألة فقهية، أو مسألة أدبية، او قضية تاريخية ذات علاقة بالفلسفة الروحية او التحقيق الادبى. وكان اكثر من هذا كله ايضا... لقد كان حكمه الفصل فيما يعرض عليه فلم يستأنف حكمه مستأنف. ولم يميزه مميّز.

اجل انه لم يبق من يجهل مقام الشيخ عبدالحسين العلمى والادبى من كبير أو صغير عالم او جاهل. اما الجهة التى ران عليها الجهل، وعشى عينها الغباء فجهلت حق الشيخ عبدالحسين فهى جهة الحكومة فقط.

ذلكم هو الشيخ عبدالحسين الحلّي كما عرفه الناس فى موطنه الأول فى العراق وفى مهجره فى البحرين إنساناً متصفا بالوفاء والود والتواضع أما عاطفته الجياشه نحو موطنه فى العراق فحدث عنها ولا حرج. لقد أوحى اليه تلك العاطفة بقصائد رائعة، ابرزها تلك التى قالها فى البحرين، وحصلت على جائزة اذاعة لندن، بعنوان (الحنين الى الوطن) ومطلعها..

(لولا افتراقى عن قومي وعن وطني لم يجف جفنى يوماً لذة الوسن)
وديوان الحلي المخطوط يزخر بشعر الحنين الى الوطن والعشرة مع
رفاق الصبا فيقول:

دع عنك لومي اذا ألوم معاشري ان الملام يزيد من برحائي
قومي وآلأفى ومعشر صبوتى وأحب من ولدتهم آبائي
فاذا صحبتهموا فأين حميتى واذا نبذتهم . . فأين وفائي
ويقول:

يالياليتي بأعلا الكرخ عودى عله يخضر من عودك عودي
ان أيامي كانت خدمي فيه لما كنت من بعض عبيدي
فزت فيه بجنان جمعت بين قضبان غصون، وقدود
بيدي التاهد من رمانها واليد الأخرى . . لرمان النهود
أنشق التفاح فيه خجلاً لم لا أنشق تفاح الخدود
وأغذ الروض أبغى ورده أفلا تغنى خدود عن ورود
يقول جعفر الخليلي في حب الشيخ الحلي للنجف خاصة:

(وكان برأ بالنجف . وكان متفانياً في حبها، وكان يرى ان السعادة
تحل بين تلك الاجواء الادبية التي تحكيها مجالسها . فمن هناك . فمن
البحرين كان يكتب لى سائلا عن كل جزئية وكلية حتى عن (باجه)
الشيخ محمد جيوان والمشاركين فيها والتي عقد الهاتف عنها فصلا
وعلق عليها البعض تعليقات ادبية فكهية فى حينها، وكان يتعقب ندوة
(الصفوة) التي كان يترأسها السيد على بحر العلوم، والتي اعتادت ان
تجتمع فى كل يوم اربعاء ببيت السيد مير على أبى طبيخ وتتحول هنالك
الى ندوة علمية لغوية ادبية . فكان يكتب لى سائلا عنها، مستفهما عما
يدور فيها من نقاش ادبى، ومن طرائف شعرية، وكان يتعقب حركة
(جمعية منتدى النشر) خطوة فخطوة وان له الفضل الكبير على النجف

فى خلق المناسبات الادبية وانعاشها بعد ان طرأ على أدب النجف شىء غير قليل من الخمول، والفتور والركود بسبب انتقال طائفة من رجالات ادبها عنها. كآل شبيبي. والشيخ على الشرقى. واحمد الصافى ومهدى الجواهرى واحست النجف على أثر مغادرة الشيخ عبدالحسين الى البحرين بالفراغ الكبير، وبالخللة التى خلفها فى جميع النفوس، وظلت ذكره ملء القلوب، وراحت الايدى تتخاطف كل عدد من اعداد الهاتف الذى يحوى شيئاً عن خواطره.

وعند قيامه بالزيارة الأولى للعراق قادما من البحرين استحالت النجف كلها الى مهرجانات أدبية حتى ضاقت اوقاته بالدعوات الكثيرة. وامتلاً بيته بكبار العلماء ورجالات الادب، واسمعته النجف قصائد فاضت بالحب والاخلاص والتجلة لمقامه العلمى. واحتفت به احتفاء قل نظيره، وقد طال بطول ايامه التى قضاها هنا.

هكذا كان الشيخ الحلي، يقضى لبات قلبه فى زيارته للعراق والنجف بعضاً من الوقت، ثم يعود الى عمله فى البحرين ليمضى بقية الأيام فى التشوق الى العراق حتى كتب فى احدى رسائله حينما مرض مرضاً شديداً يقول: (واشد ما لاقيت أذية.. هي الوحشة التى لازمتنى فى البحرين، فليتنى ما رأيت العراق من قبله..). ثم لا يستقر حتى ينظم أبياتاً من الشعر تفيض رقة وحناناً ويبعثها الى صاحب الهاتف مهتماً بعيد رمضان من سنة ١٩٤١ بعنوان (الود). . . ويقول فيها:

حيّ أوطانى اذا سعدت بالتّحايا الغرّ أوطان
وأصبحاًباً عهدتهم وهم فى الله إخوان
لهم فى كل مكرمة أثربالفضل ملآن
كيف يخفى فضلهم وله بينهم من لطفه شأن
(يا خليلي) انت لى وكفى بك عمّن لى وقد كانوا
انت فى مرءأك منشرح لى ومن ذكراك سلوان

لك وذى لا ارتياب به ما وراء الحس برهان
 أعرب (الراعى) (لهاتفه) عن مزايا فيك تزدان
 ومعان للكمال غدت هى روح وهو جثمان
 انما (الراعى وهاتفه) لشتات الفضل ديوان
 وهما سفر فان فكهت نفس من يهوى فبستان
 لك يولى العيد بهجته وهى الطاف واحسان
 فاستق الأقداح فيه اذا صح ان اليوم نشوان
 وخذ الافراح منه وما هو إلا بك جذلان
 واستمعها من فمى نغما للتهانى وهى ألمان
 لك أهديها محبرة وعليها (الود) عنوان
 كعقود الدرّ فضّلها ببديع الصنع مرجان
 كل عقد لا توازنه دلة تُهدى وفنجان

ثم يعلق الخليلي على ما ورد فى البيت الاخير قائلا:

(وهو يريد بالدلة والفنجان هنا تلك التى اهداها لى السيد مير على
 والفنجان الذى اهداه لى الشيخ جواد قسام فى أبيات من الشعر حملت
 عددا من ائمة الشعر حينذاك على مباراتها حتى كان من تلك المباراة
 والمجارة قلادة ازدان بها جيد الشعر، وكانت قصيدة الشيخ الحلي عين
 القلادة).

واذ ننتقل مع جعفر الخليلي (صاحب الهاتف) الى خبر «الدلة
 الشعرية» لا ننسى ان حديث هذه الدلة ما كان ليدخل تاريخ النجف
 الأدبي ويشغل حيزا منه، لو لا مداخلة الشيخ الحلي الشعرية التى اعطتها
 بعداً أدبياً. فلنستمع الي صاحب الهاتف وهو يروي خبر الدلة حيث
 يقول: (هكذا عرفتهم - ص ١٥/١٦/١٧/٩٣/٩٤):

(.. واهدى لى السيد مير على ذات يوم (دلة) قهوة معدنية
 وارفقها بقصيده جاء فيها:

منطق الفن وهو بعض الأدلة دل أن الجمال فى صنع (دلة) صورتهأ كف الصناعات فوافت بمصب تصاغ منه الأهلته الى ان يقول:

شاقنى ان أزفها باحترام (للخلىلى) فهو زىن الأخله
أنا ما إن أزال أكبر منه قلما رائعا وأكبُر عقله
أتحزى نظيره جهد ما بى من نشاط لكننى لم أجذله ...

ونشر (الهاتف) هذه القصيدة وعلق عليها ولم تكذ تنتشر حتى تناولها جمع كبير من فحول الشعراء وباروها بقصائد رائعة وقد عزانى البعض فى هذه المباراة بابنى الوحيد (هاتف)، وكان من اولئك الشيخ محمد حسن حيدر، والشيخ عبد الحسين الحللى الذى تفنن فى قصيدته هذه تفننا عجيبا، جمع فيها عددا من الاغراض التى قلما جمعها شاعر كما جمع هو من غزل الى نسيب الى مديح الى هجاء، الى رثاء، وقد تعرض فى هذه القصيدة للسيد مير على ولمن نظم على غراره، وهجا اولئك الشعراء وعدهم مخفقين فى اعطاء قافية (الدلة) حقها من صوغ رثائهم وتعزيتهم لى على ذلك النمط من الرثاء الباكى الحزين فقال مما قال وهو يخاطبنى: -

لك أهدي تحية من نجيب أوقفوا قبلها ببابك .. بغله
وكان عنوان قصيدة الشيخ عبدالحسين الحللى هو (دلة من قريض؟). واغتاظ السيد مير على ولكن غيظ السيد مير على لم يكن مكشوفاً لكل احد، وأغتاظ غيره من الشعراء وكان منهم السيد احمد الموسوى الذى حاول ان يناقش الشيخ عبدالحسين الحللى على رغم تهيبه له فقال مما قال:

ايها الشيخ ان للحب ثله لاتعى للعدول فى الشوق عدله
قد ينال الملام منهم ولكن هم على الحب فى رحيل وحله

فاحتسبني منهم فدينهم ديني ومالي سوى المحبة قبلة
أوأري نـوآرتى ثم ارتدّ خـلياً - هذى حماقة (بقـله)
والتعريض باهل الحلة هنا واضح فى قافية (البـقله)، والقصيدـة فى
نحو مائة بيت واكثر وقد ارفق احمد الرضوى القصيدة بكلمة اعتذار
نشرها الهاتف يقول فيها مخاطبا الشيخ عبدالحسين:

«وبعد فمن التطفل على شيخنا قاضى القضاة ان ينشر لى (الهاتف)
شعرا قد يظن انه معارضة لقصيدته العامرة الخالدة ولكن هذا بمثابة
الجلوس على مائدة الكريم بغير دعوة يعده الناس تطفلا وهو احترام».

(والحق ان قصيدة الشيخ عبدالحسين الحلـى كما اشار اليها السيد
احمد، قصيدة تفنن فيها الشيخ تفننا عجيبا غريبا جمع فيها مختلف
الاعراض الاجتماعية والادبية ووفق بين حلقاتها المختلفة توفيقا منعدم
النظير وهى تقع فيما يقرب المائة بيت منشورة فى الهاتف وقد ختمها
الشيخ الحلـى بالابيات التالية التى عبر فيها عن ماهية قصيدته وصفتها من
حيث الموضوع، اما ماهيتها الادبية فلا احسب ان من الهين حصرها فى
جمل صغيرة كهذه).

وفى موضع آخر من (هكذا عرفتهم - ص ٩٣ - ٩٤) يورد الخليلي
مقتطفات من قصيدة الحلـى المشار اليها. وقد رجعت الى أصل القصيدة
لأختار منها أبيات تشتمل على ما اورده الخليلي وتزيد عليها بما يكمل
موضوعاتها، وهى من الديوان المخطوط بعنوان (بكاء الشيخ لطفله -
أرثاء ام دلة من قريض). نظمت بالبحرين سنة ١٣٦١ هجرية (١٩٤١م)
تعزية للاستاذ الخليلي عن وفاة ولده الطفل (هاتف) وعدد أبياتها ٧٤ بيتاً
ويبدو انه حذف منها باقى الأبيات. مطلع القصيدة عن فلسفة الحزن
منها:

صدع البين بالأحبة شمله فاستجم الأسى فاذهل عقله

هَامَ لا جازعاً، ولكن كما
انها رحمة القلوب تجلّى
والصبور الوقور يحزن لكن
... والفتى ذوالحجا اذا أعجم الدهر
انا والله لا أرى الهزل إلا

ثم عن الحياة منها:

خير ما ينظم الحياة اجتماعاً
نبلةً فى الصميم تلقى دروسا
رب حرب كالسلم أوهي خير
تنتهي أمة وتبدء أخرى
يكمل النقص فى النظام بهذا
ويخاطب الخليلي فيقول:

يا (خليلي) وذا الذ نداء
انت من بعض فضلك القوم تجنى
انت احجى من ان تعزى بشعر
لك من نفسك الكريمة سلوانا
لك اهدي (نجيبة) من نجيب
البسوها من العويل ثياباً
وحشوها من القديم حديثا
فتقبل هدية من محب
لم يكن وانياً ولكن عراه
وجميل ترك الرثا حين يغدو
... ليت كانت هديتى لك (دله)
فادعها دلة لتغنى صبا
وافترضها ان شئت دلة تبر

من خليل اذا يخاطب خله
لبنيتها ونفسها الفضل كله
ما اقل الحجى اذا وأضله!!
وعرفانك التسلي وفضله
اوقفوا قبلها ببابك بغلة
وسقوها من واكف الدمع وبله
ما اجادوا ولا استجدوا اقله
جاء يسعى بعد المعزين قبله
ما عرى خله فما سدّ خله
علة تبعث الأسى لا تعلقة
ذات نهد يزين صدر (المجله)
فى هواه عن نضد اقوى الادلة
رب فرض يطفى وينقع غله

وإذا شئت سبكها من قريض لم تصعب فدلة الشعر سهلة
 وإذا لم يصغ من الشعر ابريق لماذا قد خيط او حيك حله؟
 هي ذى (دلة) تصاغ قريضا لا بفرض ولا بطرق وشعله
 لبست من ثواقب النجم تاجا واعارت مصبها للاهلة
 وموضوع الدلة يستغرق باقى الأبيات منها:

يا أبا «هاتف» وما ذكري الهاتف إلا صباية وتعلة
 لك منى تبدي التحايا هدي لك زفت من بعد بطء ومهله
 لست ادري ولا الهدية تدرى ما الذى قد تكلفت لك حمله
 أرثاء أم دلة من قريض ام هجاء ام مدحة للأجله
 أم عظة تضم جداً وهزلاً ام تراها تحملت ذاك كله؟
 جَبَر الله بالمسرات منى ثقل بعدى ومن (خليلى) ثكله

وهكذا ننتهى من ايراد الأبيات المختارة من قصيدة الحلبي عن
 الدلة الشعرية لنكمل حديث الخليلي عنها اذ يقول: (صفحة ١٧)

(وهاج وصف الشيخ عبدالحسين الشعراء وهاجهم طعنه فى شعرهم
 فردوا عليه بقصائد ومقاطيع وكان من اولئك الشيخ محمد حسن حيدر
 الذى نظم قصيدة فى اكثر من خمسين بيتا امتدح بها الشيخ عبدالحسين
 الحلبي واعترف بعجزه عن اقتفاء آثاره ولكنه قال رادا):

يا (خليلى) وتلك دعوة مضمنى بك والشوق فى هواك أعله
 قد قرانا (بهاتف) الحق شعرا من رثاء او من قريض بدلله
 طربا همت فى معانيه حتى لمعتناك من ضنائه أبله
 لك وافت هدية من (نجيب) حسب المهر فى المضامير بغلة

وعزّ على الشيخ محمد حسن حيدر ان يرى كل واحد يهدى شيئا
 للهاتف وهو لا يهدى فقال: -

هو يهدى اليك دلة تبر أو لجين من الصفاء - وخله

وأخوك الوفي يملك نخلا وهو يسخو متى اردت (بنخله)
هذه دلتي اليك فخذها فهي تسقيك من سلافة زحلة
ونظم السيد مير على قصيدة تضمنت شيئاً من عدم رضاه ودفع الي
بها لنشرها كرد على قصيدة الشيخ عبدالحسين الحلبي ولكنني لم
استسغها لا لشيء الا لانني لم ارها جديرة بالوقوف امام قصيدة الشيخ
الحلبي الرائعة التي حفظ الكثير من الادباء ابياتها، فقد صور فيها الشيخ
عبدالحسين الحلبي الشعر بأبداع صورة، وتفنن في صياغة (الدلة) تفننا
عجيباً، وقد صارحت السيد مير على برأىي ووافقني وقبرت القصيدة في
مهداها .

وفي تلك الاثناء رأى الشيخ محمد جواد قسام ان يتم قصة (الدلة)
بفنجان من فناجين القهوة الخاصة، وتفضل على مشكوراً بأهداء، فنجان
عمل الفن فيه عمله، فصيغت في وسطه قبة مشبكة من الفضة احتوت
على مقدار من المسك لا يكاد الرّاشف يرشف منه رشفة حتى يحس
بالعطر يضحخ انفاسه، وارفق الفنجان بقصيدة نشرها له (الهاتف) في
حينها وكان هذا مطلعها:

وافاك فنجان لدّله يسقى بقهوته الأخله
وبالاجمال فقد صار (للدلة) وقع ادبي رائع بفضل السيد مير على،
ولم تزل الدلة تشغل من خزانة محفوظاتي اسمى موضع واغلاه) -
إنتهى .

واقول تعقيباً على راي الخليلي في حيازة الحلبي قصب السبق، ان
أحد الشعراء - ولعله محمد حسن حيدر - اشار الى هذا الفوز بقوله
مخاطباً الحلبي:

انت رب البيان رب القوافي ملك الشعر أنت والشعر دولة



لقد استدرجنا الحلبي الى بستان شعره الجميل، وسرحنا معه نستجلى بعضا من فنونه الشعرية، ونحن نعلم ان الشعر لم يكن همّ الشيخ الحلبي الأول... فهو فقيه وعالم ومميز للفتاوى والاحكام الشرعية، لازم شيخ الشريعة فاجازه في الاجتهاد (شعراء الغري - على الخاقاني ج ه) فما هو اذن سبب تعلق الحلبي بالشعر.

يقول العلامة جعفر الشيخ باقر آل محبوبة في كتابه «ماضى النجف وحاضرها» عن الحلبي وهو احد تلامذته: «ان الحلبي يجيد نظم الشعر غاية الاجادة ولكنه مقل منه اذا لا يتعاطاه كما يتعاطاه الشعراء بل كما يتفق للعلماء الظرفاء».

ويقول عنه الاستاذ جعفر الخليلي (هؤلاء عرفتهم ص ٢٦): «ان الحلبي لم يكن يفكر يوما ما بالزعامة الروحية، ولو كان يفكر فيها لتجنب حتى نظم الشعر». فماذا يقول الحلبي نفسه ياترى... عن تعلقه بالشعر؟.

من المعروف عن الحلبي انه لم يكن يعبأ كثيراً بجمع اشعاره وقصائده، وان كثيراً مما نظمه ضاع أو تشتت أو قام هو نفسه بأتلافه. ولكن لما جاء الشيخ الى البحرين وصار يرسل اشعاره للنشر في الهاتف أو في جريدة البحرين، اصبح بالامكان جمع تلك القصائد والاشعار. ويبدو انه خلال الأربعينات واولئ الخمسينات اظهر اهتمامه بجمع تلك الأشعار وقام بتنظيمها في شكل ديوان مخطوط. وتدل بعض الشطوب والتأشيريات بالحذف والتغيير على انه كان يراجع هذا الديوان من وقت لآخر فلما توفي الى رحمة الله في عام ١٩٥٦، ترك من بين ما ترك هذا الديوان المخطوط، تنصده أربع صفحات بخط اليد عن ترجمة تاريخ حياته وسيرته وهي لا تحمل اسم كاتبها، ومن المحتمل انه كتبها بنفسه وبخط يده، وقد وردت في احدى فقرات الترجمة الأجابة المطلوبة. يقول المترجم:

سألته عن سبب نظمه للشعر واخذه الحظ الوافر في الادب وهل

كان ذلك بتلمذة ام ان الشعر جاء عفواً فقال لى . . . «لما هاجرت الى النجف حشرتنى نوادى ودروس الفقه عند المشايخ الى عدة من فضلاء المحصلين من النزلاء وأهل النجف وكلهم يجيد نظم الشعر ويعرف به فاجمعت على ان لا اكون قاصراً عن احدهم اظهاراً لمساواتى لهم فى مزاياهم، فكنا اذا جمعتنا عطلة للاستراحة فى الليل او النهار وجرى الشعر وقرضه جريت فى حلبتهم بحيث لا يبين القصور فى عنهم لكن من طول تلك المدة لم يتفق لى نظم مائه بيت، حتى كان عام ١٣٢٥هـ. حين توفى استاذى الشيخ محمود ووالدى القاسم بن صالح حيث انصرفت برهة غير يسيرة عن الجد الى الهزل وجعلت استريح الى كتب الحديث والتاريخ والسيرة وفنون الادب وآلف نوادى الأدباء والمحدثين وهى تؤثر طبيعياً على روادها. وأكد رغبتى فى ذلك اعتقادى الباقى للآن واعتقاد اصحابى اولئك ان الاجتهاد الكامل يتوقف بنوع خاص على معرفة الفنون الادبيه وان طالب العلم يجب ان لا يكون قاصراً من ذلك ليتسنى له يوماً نيل مرتبة الاجتهاد. وبفضل اعتقادى طالعت الكثير من كتب اللغة والحديث والتاريخ وسائر معاجم الأدباء والعلماء ومعاجم اللغة ومواقع البلدان اما عن كتب الادب فحدث عن مطالعتها ولا حرج وساعد على ذلك سرعة حفظى واستظهارى لما أقرأ» . . ثم يضيف المترجم:

«هكذا كان جواب الشيخ على سؤالى ولكن من مطالعاتى عن الشيخ ومراجعة ادوار حياته التى قضاها فى النجف والبحرين يعرف أنه لم يعد نفسه لان يكون شاعراً لذلك لم يدون من شعره الا القليل ولا تجدله الا وريقات مبعثره ومسودات مشوهه قد يصعب على غيره قراءتها وربما كانت القطعة الواحدة متفرقة فى اوراق صغار كثيرة «زبانة سجارة» وغلاف دفتر، كل ذلك كما قال لى شخصياً هو «فتور للهمة وكسل عن العمل ولكونى عشت فى زمن كنت ارى انى ما خلقت فيه لاكون شاعراً

حتى قادتني الظروف الى غير الخطة التي اردت سلوكها وأردت ان تنتهي
اليها حياتي . وهذا ما كنت أشير اليه بقولي :

قد كنت إن حلب الأ قوام محفلة تركتها واحتلبت الهمم والسغبيا
أسقى الكروم لهم حتى اذا ازدهرت جنوا ولم اجن منها دونهم غيبا
ولم اكن حائراً فيما فعلت وما اخطأت قصدي ولكن الزناد كبا»

فمن أجابة الشيخ الحلبي على سؤال المترجم نكتشف حيرته
النفسية، فقد اتخذ الأدب والشعر واللغة في البدء وسيلة لاستكمال
المقومات والعناصر التي يتطلبها فقه اللغة سيلا الى فقه الدين والشرع .
وقد برز تفوقه وعلت مكانته في الأثنين . . . حتى اكتشف - حينما وصل
الى طريق الالاعودة مع الشعر خاصة - أن الأعراف والتقاليد تتطلب من
العالم الشرعي المجتهد ان يضع بينه وبين الغرام بالشعر مسافة كافية
تحول دون التأثير على قيمته العلمية أو مقامه الديني في أعين الناس .
ولكن الحلبي الجريء كما هو معروف عنه، لا يؤمن بمجارات الرأي العام
أو مجاملة العوام، وليس من طبعه منافسة معاصريه على الزعامة الروحية
عن طريق حشد التأييد من الجماهير واسترضائهم . . لهذا فقد مضى في
حال سبيله يحمل بيده الكريمة كتاب الفقه وفي جيب من جيوبه مكان
آخر لديوان شعر . .

وهو إذ يشعر ان هواية الشعر اخذت منه اكثر مما أعطت، تفلت
من لسانه لا شعوريا - أبيات شعرية أو عبارات يعبر فيها عن مشاعر
ممزوجة من الحب والكراه حتى وإن جاء ذلك التعبير في اطار من
الظرافة واللطف . . فكأن الشعر عدو في ثياب صديق، أو عدو ما من
صداقته بد . . ولعل السخرية من بحور الخليل ابن أحمد وقوافيه والتمنى
لها أن تمسخ تماثيل سوداء يتخذها الناس هزوءاً وسخرية، هي من هذا
القبيل، في قوله من قصيدة الدلة أنفة الذكر: -

ولو ان القريض يصبح بستاناً فما فيه نخلة ذات غلة

ان ارض الاداب لم تك يوماً من قديم الأزمان أرضاً مغلّة
 انا والله لا أرى الشاعر الفطحل يجني بالشعر، غير المذلة
 ليس ينفك حائراً لوتراه لم تخله إلا غريقاً بوحله
 قلل الله منه كل كثير وكفانا بوافر العز، ذلة
 وأرانا بحوره غائضات وقوافيه غائصات برممه
 واعاريضه تقطع أوصالاً ومنها الروي، يعدم وصله
 ليراها الخليل وهي تماثيل من السود في البريه.. مثله
 اذن فان ذلك السؤال من المترجم كان لفته جيدة اعطتنا تفسيراً لا
 نجزم بصحته قطعاً بقدر ما نجازف في الاعتقاد بصحته مع توفر الشواهد
 من شعر الحلبي ونثره، وما توارد من أخباره.

أما في غير هذا .. فان المترجم للحلي لم يصف شيئاً جديداً
 زيادة على ما أورده الكتاب الآخرون عن حياته ومقامه في علوم الدين،
 ولعله لا يضح - رغم شهرة الحلبي عند عارفيه - ان نتجاوز التطرق ولو
 بإيجاز الى تلك السيرة العطرة.

فهو الشيخ عبدالحسين بن قاسم بن صالح بن محمد علي بن حسن
 بن هليل بالتصغير. من اسرة تعرف في الحلة بأل هليل وينتهي نسبه الى
 كعب وقيل الى شمر.

ولد في الحلة في حوالي سنة ١٣٠٠ هجرية ودرس في الحلة
 صغيراً ثم هاجر الى النجف لطلب العلم سنة ١٣١٤ وما ان كملت سنة
 ١٣٢٠ هجرية الا وهو ممن يومي اليه في اتقان العلم والتفوق وتأهل منذ
 يومئذ لتدريس كتب الفقه والأصول. وفي خلال ذلك لم يبارح دروس
 مشائخه في الفقه واصوله لاسيما استاذه المحقق الاخوند الشيخ ملا
 محمد كاظم الخراساني.

كما لازم دروس الفقه على الشيخ محمود ذهب والسيد محمد

السيد محمد تقى آل بحر العلوم الطباطبائي المتوفي سنة ١٣٢٥ هجرية .

ثم تتلمذ الحلبي على العلامة الشيخ فتح الله الشيرازي الاصفهاني النجفي المدعو (بشيخ الشريعة). وقد اجازه في الرواية وكانت تلك الاجازة شفاهاً ثم كتبت له بخط يده، وقد زُعم انه لم يكتب لاحد مثلها، وهي مبسوطه جداً. كما درس الكلام والحكمة النظرية والرياضيات والهيئة. ومشهور عن الشيخ الحلبي انه سريع الحفظ حتى انه حفظ شطرا من كتاب القاموس المحيط وفهرست كتاب الوسائل في الحديث ويستحضر الكثير من كتب الادب بشواهدا الشعرية.

ويقول المترجم «وقد سألته عن ذلك فقال: في هذا بعض المبالغه ولا يستبعد اني من قبل الحرب العامة كنت الم بشطر وافر من هذه المبالغه» وكان يحفظ الكتب التركية والفارسية وهو لا يحسنها وقد كان يتكلم بها في الجواب على الأسئلة. اما المؤلفات فللشيخ الحلبي مصنفات عديدة في الفقه واصوله وشروحه وتعليقات ورسائل مفردة متنوعة. ولم يطبع من هذه الكتب سوى الجزء الاول من كتاب «النقد التنزيه لرسالة التنزيه» ويتضمن ذكر الشعائر الحسينية وأصولها. وسبب عدم نشر كتب الشيخ الحلبي هو سفره الى البحرين وتركها - حسبما يقول المترجم - لدى من لا يعرف لها مقداراً فتلف منها وتبعثر الشيء الكثير. . أما مكتبته فقد اهداها الى مكتبة «امير المؤمنين» قبل سفره الى البحرين.

أما عن مواقف الشيخ الحلبي الوطنية فيقول المترجم:

«له مواقف وطنية كثيرة منها اشتراكه في الثورة العراقية الكبرى والنداء الذي وجهه مع علماء الدين في النجف لاعلان الجهاد المقدس وقد اشترك فعلا في حمل السلاح والذود عن حمى الوطن وتحرير البلاد من نير الاستعمار والاعتصاب، والقصيدة التي اشترك بها في مهرجان الشعر الذي اقامته هيئة الإذاعة البريطانية في البحرين والتي فازت

بالجائزة الاولى خير دليل واعتراف حق باشتراكه فى معارك الوطن».

عنوان هذه القصيدة (الحنين الى الوطن) وقد احرزت فوزاً باهراً فى المبارات الشعرية الدولية التى نظمتها اذاعة لندن فى الأربعينات. يقول فيها:

لولا انتزاحي عن أهلي وعن وطني
له صبوت وما فى صبوتي عجب
فارقته ويرغمى أن تباعدنى
إن دام حزنى فلا والله ما نظرت
إذا شجانى أنى عنه مبتعد
قالوا هواه من الإيمان قلت لهم
إنى امرؤ لا أرى الإيمان يحفزنى
عبدته وهو أحجار ولا عجب
كفى بأنى لم أشرك بيوحدته
لقد بكيت وأبكيت الصخور معى
أن الغريب وإن عزت مكانته
تظنه بهناء العيش مغتبطا
قالوا أتبكى على الأحجار قلت لهم
بمعشرى وبآبائى وبى رفعت
إنى لأعذل من يبكى على أحد
أرض رسى مغرسى فيها فطاب وكم
بها نشأت وفى أبياتها انتزعت
لها تحملت ما تفنى النفوس به
ما للنفوس سوى أوطانها ثمن
كم غمرة خضتها للذب عنه وما
ونار حرب له كنت اشتملت بها

لم يجف جفنى يوما لذة الوسن
إنى شربت هواه العذب فى لبنى
عن قربه مهن جرت إلى محن
عيني إلى منظر من بعده حسن
فإن ذكراه سلوانى من الشجن
نحوا حديث «من الإيمان» عن أذنى
له ومن فوق إيمانى أرى وطنى
من مسلم فى هوى أوطانه وثنى
سرا وأنى ما داهنت فى علنى
من غربة لى جزت أعظم المحن
هيهات ينفك عن وجد وعن حزن
لكن عيش غريب الدار غير هنى
بهن مرمس آبائى الكرام بُنى
منها المقاصير فى الأرياف والمدن
ولتى وأعذر من يبكى على الدمن
منه تفرع للعلياء من غصن
تمائمى وبها اقتاد الهوى رسنى
يا حى من بقيت أوطانه وفنى
وليس للوطن المحبوب من ثمن
غامرت بالنفوس فى يوم من الزمن
كالماء أفرغه برداً على بدنى

إن عربد المدفع الرعاد قمت له
 وإن دوت من فم الرشاش زمجرة
 أبيت فى خندق ضنك فأحسبه
 أصافح الترب فيه وادعا وأرى
 وأستلين به الأحجار أحسبها
 إنى أغار عليها أن تدنسها
 أعيدها أن يحل الضيم ساحتها
 يا أيها الوطن المحبوب لا برحت
 إنى لأنعم عينا فى هواك وإن
 أفديك بى إن غدا فى لحظ باصرة
 شوقا، وما قمت من خوف ومن جبن
 حسبته نغمة الأوتار فى أذنى
 غمداً أقام به سيف بن ذى يزن
 أنى على المسك ثاو لا على درن
 مهذاً ولو لا هوى الأوطان لم تلن
 أو أن تمد لأذناها أكف دنى
 وإن تهى - لا وهت يوما - وأن تهن
 منك المواطن فى أمن من الفتى
 أوليتنى منك ظهر المركب الخشن
 موتى ومحياك مقرونين فى قرن



ثم نعود الى مؤلفات ومصنفات الشيخ الحلى وهي كثيرة منها ما هو موجود ومنها ما فقد أو تفرق وكلها مخطوطة لم تطبع. وقد استطعت ان احصى منها حتى الآن ما يلي استناداً الى ماتوفر منها مخطوطاً أو ما ذكر فى ترجماته القليلة:

- ١ - الفلك القديم والحديث: وهو كتاب وجيز فى علم الهيئه يتضمن فى كل باب ذكر المذهبين مجرداً عن البرهان.
- ٢ - ينابيع الاحكام فى اصول الفقه.
- ٣ - اللمحات القدسية: وهو كتاب كبير يتضمن مسائل كثيرة من مشكلات الفقه.
- ٤ - منظومة فى الاخلاق والآداب من الف بيت.
- ٥ - مصارع الكرام فى وفيات النبي والأئمة عليهم السلام.
- ٦ - الشجرة الملعونة: كتاب فلسفى يتضمن مثالب بنى أميه

ويتكفل الرد على التصولي في كتابيه .

٧ - دين الفطرة: كتاب ديني فلسفي يلائم روح العصر الحاضر يقع في جزئين الأول في اراء الملل الكبرى في العالم والثاني في محاسن الشريعة الاسلامية أصولا وفروعا .

٨ - النقد النزيه: وهو الكتاب الوحيد الذي طبع منه الجزء الأول .

٩ - الاصنام المعبودة في الاسلام: كتاب يتعرض فيه لأصل الشيعة ويرد على كتاب «فجر الاسلام» لأحمد أمين .

١٠ - مخطوط في تفسير آيات القرآن الكريم .

١١ - مخطوط يتضمن تراجم للعلماء .

١٢ - رسالة في ترجمة استاذه شيخ الشريعة .

١٣ - شرح العروة الوثقى وهو مخطوط من ٣٢٦ صفحة .

١٤ - جعفر بن محمد - لم يكمل بسبب وفاته .

أما اعماله الاخرى وكتاباتة فتشتمل على ما يلي:

(١) الكميت بن زيد الأسدي (٢) الشاعر البطل ابو فراس (٣) تحقيق النسخة المشوهة من ديوان «مهيار . . الديلمي» ثم طبعها . ويقول عن ذلك «جعفر الخليلي» ان ملكاته في التحقيق والبحث وإكمال الناقص وتصحيح ما وقع فيها من غلط . . . كانت موضع اعجاب الجميع (٤) مقالات عن المستشرقين نشرت في الاعتدال النجفيه عدد ٢ السنة الثالثة تموز ١٩٣٥ . (٥) دراسة عن الشعبية نشرت متسلسة في الاعتدال واسهم فيها بنظرات وافكار جديدة . وتكفي مادتها لكتاب مستقل .

نشرت متسلسة في الاعتدال النجفية - العدد ١٠ السنة الثالثة مارس ١٩٣٦ . (٦) حياة الشريف الرضى . . وكان على ما يبدو في شكل كتاب

قيّم لكن لجنة علمية من منتدى النشر اختصرته ونشرته كمقدمة للجزء الخاص من كتاب «حقائق التأويل». استعان بها الدكتور زكي مبارك في كتاب «عبقرية الشريف الرضي». حيث قال الدكتور (على الصفحة ٢٨٢/ الجزء الثاني) ما يلي: وكان في النية ان اكتب فصلا عن الشريف مؤلفاً. ثم رايت الوقت أضيق من ان يوجد بدراسة انفع من الدراسات التي قام بها (منتدى النشر) حين طبع كتاب (حقائق التأويل). كما نسبت مجلة (هنا البحرين) في ذكرى الحلبي بتاريخ ٢٩/٣/٥٧م الى الدكتور زكي مبارك قوله عن الحلبي: «من يقرأ للعلامة الحلبي شعرا أو نثرا يكبر في همته، واني لم اكن اعتقد بان يكون هناك رجل اديب كالحلبي كما أنه لايمكن ان يكون أديب مثله». أما ديوان اشعار الحلبي أو ما بقي منه اليوم فيحتوى على اكثر من مائتين وعشر قصائد وقطع واييات زوجية أو مفردة من الشعر يزيد عددها عن ٣٤٩٠ بيتاً.

ومواضيع القصائد متنوعة في الديوان، ودراسة ديوان الحلبي تحتاج الى بحث مطول مفصل وتحليل ادبي نقدي لا تتسع له هذه الاطلالة على شعره. ولكن بإمكاننا ان نتعرف عشوائيا على مواضيع شعره من بعض عناوين تلك القصائد، مثل:

وطنى وقومى - أيها الأنسان - الرقى المعكوس - المتكبر - خنزير الذهب - الحب الطاهر - جامعة الدول العربية - الحق والقوة - زهرتى - البلبل السجين - رهين المحبسين - نص المعاهدة - مولد الحسين - ميدان الحياة - ليالي لרصافة - اسرار الهوى - اشكال وألوان - دعابات بريئة . . . تنظيم الرياحين.

وقد لفت نظرى فى العنوان الأخير تعدد الأشعار عن جمال الطبيعة ولا سيما الرياحين والأزهار وهو بها جدّ مفتون وهذه بعض أبيات منها، . . . يقول فيها:

بالروض تعبث من حين الى حين أموكل أنت تنظيم الرياحين

إن كنت تهواه مفتونا فلا عجب
وإن أقمت سجيناً في حدائقه
ناسب بنظمك ما بين الزهور تفرز
فلا تضم لآس غير سوسنة
وحاذ بالسرو باناً كي تقابله
شمر بجذك عن ساق الغصون فلا
ودارها تمتطي الأعواد صاعدة
بالياسمين وهذا منتهى قسمي
كمّ عيوناً لغضّ النرجس انفتحت
وسلّ حزني إذ خد الشقيق بدا
قالوا الغصون يببرين ولم أره
قالوا الشذا هو من دارين قلت لهم
قالوا لقد جنّ هذا الشيخ قلت لهم
اني امرؤ بهجة الأزهار تسحرني
هذا جنوني ولكن لا أعيش به

ثم ينتقل الى زهرة «عباد الشمس» فيخاطبها قائلاً:

يا زهرة الشمس حسبي إن أراك ضحى
لقد نظرت لوجه الشمس حين بدا
شخصت للقرص لما بان أوله
طوعاً نظرت إليه أم مقاسرة
رأى بك الفرس برهاناً لما عبدوا
هل اقتدوا بك أم أنت اقتديت بهم
خذي كما أمك مخضراً يلاث على

وعلى نفس الوزن ينتقل الى الكلام عن ابنة الفرس وسفورها
بحيث يمكن اعتبار القصيدة ثلاث قصائد مستقلة.

ولا بدّ هنا من التنويه - ونحن بصدد ديوان شعر الحلبي بالجهد الذى بذله ولده فى البحرين محمد هادى، وهو لم يتجاوز الخمسة عشر عاماً حيث قام وهو بهذه السن المبكرة بنسخ ديوان شعر والده الشيخ بخط يده وكذلك بعض الاوراق الاخرى قبل ارسال أصولها المكتوبه بخط الشيخ الى الحلة وذلك بناء على طلب من اكبر اولاد الشيخ وهو الدكتور على الحلبي رحمه الله.



بقى لهذا الحديث عن الحلبي شطر لا يكمل بدونه انه سؤال طالما رددته الادباء والكتاب فى تناولهم لسيرة فضيلة الشيخ الحلبي وهو لماذا ترك النجف الذى يعرفه جيداً ويهواه الى مجتمع مختلف فى جزيرة البحرين؟ يلي ذلك سؤال آخر لماذا سمح له اصدقائه وعارفوه و«الحوزة العلمية بالذات» ان يهاجر من النجف؟ تلك العبارات التى كتبت فى هذا المعنى وفى طياتها توبيخ للذات النجفية ان صح التعبير ممزوجة بعتاب. يقول الاستاذ جعفر الخليلى (صفحة ٢٦٤ / هكذا عرفتهم). «ومثل هذا الموقف النابى، المخجل من الحكومة كان موقف النجف واكثر. تلك المدينة التى نهلت من فيض الشيخ عبدالحسين نحو خمسين سنة كأستاذ لمعاهدها وكركن من اركان ادبها الرفيع وكعميد من عمداء الفقه والبحث والتحقيق. تلك المدينة التى تساوى العالم والجاهل والكبير والصغير فى معرفة الشيخ عبدالحسين بحقيقته. لا ادري كيف رضيت لنفسها ان تراه يغادرها الى البحرين بصفة رئيس للتميز الشرعي دون ان تحرك ساكناً؟ وهى تعلم - اي النجف - ان الشيخ عبدالحسين قد افنى زهرة عمره فى سبيل عزتها العلمية. وشهرتها الادبية. وهو عمر لو قضى الشيخ عبدالحسين بعضه - والبعض اليسير منه - فى مصلحة خاصه لبني لنفسه ما بنى. وعمر ما عمر. وكانت التبعة تقع فى الدرجه الاولى على الزعماء الروحانيين. وكان بوسع هؤلاء الزعماء وحدهم ان يحولوا بين الشيخ

وبين السفر من اجل العيش، وكان المسؤول الاكبر فى ذلك السيد ابو الحسن الزعيم الزوحاني الكبير» .

وهكذا اقبل الناس فى النجف والعلماء خاصةً، بعضهم على بعض يتلاومون فى امر هجرة الحلى من النجف الى البحرين . اما الشيخ الحلى نفسه فقد شد رحاله الى البحرين وهو يقول فى أبيات من شعره عنوانها «مغنية الحى» مايلي : -

ترحل لتدرك ما تطلب اذا عزّ فى حلك المطلب
صل الجذب بالجذب حتى يبين لمرتاده المرتع المخصب
تغرب، وغنّ .. فانى رأيت مغنية الحى .. لا تطرب
حدث ذلك فى النجف . اما فى البحرين فالقصة لها وجه آخر .

لقد كان القضاء الشرعى الجعفرى عند حلول عام ١٩٣٥ سبباً لصداق مزمن لدى الحكومة او لدى مستشار الحكومة «تشارلز بلكريف» بالذات فعلى النطاق الشعبى كان هناك استياء بالغ لدى الجمهور سببه اختلاف قضاة الشرع وتنافسهم وتضارب الاحكام التى يصدرونها باسم الشرع الدينى .. ولم يجمع معظمهم ربما - إلا امر واحد وهو معارضتهم لتدخل الحكومة فى تنظيم القضاء الجعفرى وتصميمها على تنظيم وادارة دوائر الاوقاف وشئون اموال القاصرين .

وقد استتب للحكومة أمر انشاء دائرة الاوقاف الجعفرية، ودائرة اموال القاصرين، واستبعدت من عارضها من العلماء والقضاة من مناصب الدولة . اما امر الاستياء من تضارب الاحكام والتأخر فى اصدارها فقد عمد المستشار كما يبدو لمعرفة الآراء لحل ذلك، واستقر رأيه على استخدام قاض شرعى من النجف لتمييز الاحكام الشرعية قبل نفاذها . وسمعت انهم اشارو عليه بتكليف المرجع الدينى الاعلا فى النجف بترشيح من يرى، وقام والدى رحمه الله بأعتبره ممثلاً عن المرجع

الديني آنثذ وهو السيد ابو الحسن بالكتابة اليه فجاء الترشيح لهذا المنصب بأسم (الشيخ عبدالحسين الحلبي) الذي ملأ هذا المنصب بجدارة وكفاءة، لا مثل لها.

وفى غمرة انشغاله بالتمييز والقضاء لم ينس الشيخ ان ينشئ مدرسة دينية وفقهية تخرج منها عدد من علماء الدين فى البحرين، هذا الى جانب تشجيع الادب والثقافة والممارسات الفكرية. ولهذا السبب فأث ما يرد من سؤال فى البحرين عن قدوم الشيخ الحلبي اليهم يتعلق بماهية التعجب والاستغراب من قبل المجتمع النجفى. أليست المهمات التي قام الشيخ الحلبي بأنجازها فى البحرين هى من صميم اهتمامات رجال العلم.. وترجمة لمسؤولية تعميم المنفعة من طلب العلم بين الناس؟

ولكن الحلبي سرعان ما أحس بالغربة بعد وصوله الى البحرين، وظل متعلقا بالبيئة العلمية التي ألفها فى النجف وألفته، وافتقدها فجأة فشعر بمرارة وحرقة لازمته خلال ما يناهز العشرين عاما فى البحرين حتى توفى فيها فى مساء يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٥٦ ودفن فى جوار مقابر العلماء بالمنامة، وبقيت هذه المرارة فى شعره من بعده حيث يقول:

لقد بكيت وأبكيت الصخور معى من غربة لى جرّت أعظم المحن
ان الغريب وإن عزت مكانته هيهات ينفك عن وجدٍ وعن حزن
تظنه بهناء العيش مغتبطا لكن عيش غريب الدار غير هنى

لقد عاش الشيخ الحلبي فى البحرين غريبا، ومات فيها غريبا وذلك رغم ما حفلت به حياته فيها من مظاهر الود والحفاوة والاحترام والتقدير، وما تخللتها من صداقات متينة واجواء ثقافية وأدبية كان دائم الحضور فيها. ولا اعنى بالغربة فقط ابتعاده عن مسقط رأسه فى الحلة او رفاق دربه فى النجف، فقد كان لقاؤه يتجدد فى كل عام مع البيئه

العلمية والمجتمع الأدبي الذين افتقدتهما. كما كان دائم الافصاح عنها فى شعره.

اما الغربية التى لم يفصح عنها جلياً فشعوره الدائم فى البحرين وكأنه فى سجن يضيق عليه حق الاختيار، ويفرض قيوداً من المفاهيم البالية لا يرتاح اليها. ومركزه كقاضٍ للتمييز الشرعي لا يسمح له ان يقول ما يشاء مجازاة ومجاملة للجمهور. كان بشهادة العارفين - حجة فى الفتوى ولكن الناس لم تعرف من تلك الفتاوى سوى الاحكام النهائية اما الحيثيات والدراسات العميقة فكانت تقبع فى ظلام السجلات وتحت اكوام من غبار النسيان، وكان بشهادة المقربين اليه مثالا فى التواضع ولكن فهمه للتواضع يختلف عن الاخرين.

لقد اصّر منذ قدومه ان لا يمكن احداً من تقبيل يده.. واذا هم شخص بذلك كان يسحب يده بسرعة، فاعتبر الناس ذلك منه احراجاً، او تكبراً، واعتبره اخرون اهانة وتحقيراً فامتنعوا عن زيارته بل ان جمهوراً كبيراً قابله بالامتنعاض والاستنكار لا لشيء إلا لأن فى فمه ستاً من ذهب! رغم ان الضرورة أوجته الى ذلك.

كان يود المرور فى الاسواق ومجالسة الاصدقاء ولكن الجمهور اعتبر ذلك خروجاً على التقاليد. وكان يحب مجالسة الشباب من الادباء والمثقفين ومحادثتهم.. فداوم على حضور حفلات نادى العروبة والاشترار فى مناقشاتهما، ولكن القلة من الادباء واصحاب الفكر كانت تتردد عليه فى مجلسه، تحاشيا للاحراج ممن تعودوا على زيارته متمسكين بنظرتهم اليه كرجل دين متمم، لا ادبياً متفتحاً او مفكراً. وكان الحلى يتأفف من كل ذلك ويرى فيه جهلاً يتستر بالعلم وحماسة تحتمى بالعرف والتقاليد. لقد كانت التوافه تشغل بال الجمهور والمظاهر تستحوذ على اعجابهم، والتباهى بالعلم والادب اصبح ميداناً للتفاخر الأجوفاً..

ولم تكن صراحة الحللى المعهودة لا سيما حينما يتعلق الامر بالحكم الشرعى، او التقييم الادبى، لتعجب من حوله. ولكن كل ذلك لم يقف حائلا بين الشيخ الحللى وتأدية واجباته بجهدٍ واخلاص نادرين سواء فى مكتبه او اثناء عزلته الاختياريه فى المنزل مع المراجع والكتب كما ثابر على المساهمة فى النشاط الفكرى والثقافى والادبى بأبحاث ومساهمات فى مجال الشعر والنثر. وقد افتتح مدرسة علمية وتخرج على يده عدد من العلماء الافاضل.. ولكن الكثير من انتاجه العلمى والادبى لم ينشر بعد ولم يعرف طريقه الى القراء والمهتمين. وحتى بعد موته رحمه الله لم يحظ بالاهتمام الواجب من قبل الدارسين والكتابين والناقدين فى هذا البلد.. او ذاك، وتلك هى الغربة الاخرى التى اشرت اليها فى فقرات سابقة.

زار الشيخ الحللى فى أوائل الخمسينات الاستاذ رشاد بيبي من اذاعة الشرق الادنى واجرى معه مقابله نشر عنها فى حينها ومما قاله عن الحللى: «اما الحللى فهو شيخ قد تخطى الثمانين، ولكنه فى همة الأربعين، يستقبل الناس فى بيته على ارائك من خشب او كراسى خيزران، وكل ما فى حجرة الاستقبال يدل على التقشف والزهد، بل ضيق ذات اليد والشيخ طلق المحيا انيس المعشر، حاضر البديهة ولاغرو فى ذلك، فهو مميز الشيعة وكلمته الفصل، غادر الحلة بلده شاباً الى البحرين، فأخذها مقرا وهو بالاضافه الى تبحره فى العلوم الدينية، شاعر طار صيته فى جميع الاقطار، رايت له ديوان شعر مخطوطا تناول فيه شتى المواضيع باسلوب جمع فيه بين جزالة القديم وسهولة الحديث. وقد تكرم الشيخ فأنشدنا بعض اشعاره، فهزنا وبهرنا، وحين عرضت عليه ان نسجل بعض هذا الشعر لكى لا نستائر باللذة والفائدة دون المستمعين، اجاب بتواضع العلماء:

(ان كنت ترى يا بنى ان فيه ما تنفع اذاعته، فشأنك وهاك المخطوطة

اختر منها ما تشاء) ولكنى رجوت الشيخ ان يختار، ففعل وسجل بصوته
المتهدج وانشاده الفطرى ما يعكس شخصيته وعنوان نفسه».

عند الاستماع الى القصيدتين اللتين سجلهما الحلى للاذاعة او
قرائتهما نكتشف ان الشيخ قد افرغ ما فى نفسه من مشاعر واحاسيس فى
ثنايا أبيات القطعتين الشعريتين وما بين سطورهما حين عبر من خلال
معالجة الموضوعين عن كثير مما يحس به او يتألم منه، او يستنكر
حدوثه.

ففى قصيدة (البلبل السجين) يتكلم عن ظلم الجناة قائلاً:

«يا كثير التغريد والحركات منك يجنى عليك ظلم الجناة»
كما يتكلم عن مسايرة الزمان وعن اضطهاد الاحرار وظلم السجون
لينتهى منها قائلاً:

«رب سجن خير وأرحب بطننا لأولى الفضل.. من صدور الفلاة»
أما القصيدة الاخرى فهى عن ابى العلاء المعرى، وقد رأيت ان
اختم بها هذا الحديث - حيث يقول فيها:

| | |
|----------------------------|--------------------------------|
| انتَ فيما ارتأيت حرّ طليقُ | ليس يُثنِيكَ عنه سجن وضيقُ |
| خيرُ سجنٍ لديك ماتمّ فيه | لكَ عهد من الخلودِ وثيقُ |
| نعمة السجن حُزتها أتراه | فاز فيها من قبلك الصديقُ |
| أيها الفيلسوف حسبك اراء | تسامت .. يزينها التطبيقُ |
| صفحة أنت من «تنوخ» أرتنا | حكماً ما أتى بها الاغريقُ |
| سرتَ والناس فى طريقٍ ولكن | بك - لا بالجمهور - غصّ الطريقُ |
| جئتَ تسعى لهم بفلسفة سوداء | ما لآمالٍ فيها .. بريقُ |
| فتشاءمتَ والحياةُ اذا فكر | فيها الحكيمُ ، شؤمَ محيقُ |
| وتبرّمتَ بالنظامِ ومن ذا | يرتضي ما به تضيع الحقوقُ |
| ورحمتَ الحيوانَ وهو غريب | فوق ما يرحمُ الشقيقَ الشقيقُ |

رُبَّ عدلٍ به التقاليدُ جاءت هو - فيما لديك - جور دقيقُ
رب حكمٍ كالرّقِ في الناس لكن ليس فيهم - فيما تراه - رقيقُ



وسواء لديك، في فضله، الجبرُ وشيخُ الأسلام والبطريقُ
قد دخلتَ الجَحيمَ لكن تجافى عنكَ - لما دخلتَ - فيه الحريقُ
ورأيت العذاب في النار صبرا فيه يشقى الفقيه والجاذريقُ
وبدار النعيم طفت فأطفى حرق القلب منك فيها الرحيقُ
كما بها شمت ظالما وأثيما هو بالنار. . لا النعيم خليقُ
لو تروم العقول حلا لهذا - وهو شر - ناءت بما لا تطيقُ
شاعر، شاعر وكم من شهير لغط خير شعره ونعيقُ
ضيقتُ موقف الفطاحل منه سعة الفكرِ واللسانِ الذليقُ
صقل الجِسُّ منه قلباً ذكياً لمعت فيه مِنْ جلالٍ - بروقُ
فراى ما ترى العيونُ بوعي إخفايا عنها البصيرُ معوقُ
شاهد الكون وهو يعرضُ ألواناً .. علاها التزويرُ والتزويقُ
فتَوَلَّى عنه وَأولاهُ نقداً هكذا يفعلُ الحكيمُ الشفيقُ
يمزج الشك باليقين فيبدو منهما للحكيم سرّ عميقُ
فتحسّ الأيمان منه بقلب عنه ينبيك مقول زنديقُ
حار فكرياً .. بعالم قلّ مالا يتخطاه جاهل مرزوقُ



شاعر الكون قف على ربوة التاريخ واخطب فانك المرموقُ
حولك الناس عالم وحكيم وأديب وشاعر منطيقُ
جلبتهم لنفسها اللذة الرعاء واقتادهم اليه، الفسوقُ
قادة الاجتماع أو حوا ولكن دبّ منهم في جسمه التفريقُ



وبعد - يخيّل اليّ - بعد مرور أربعين عاما على وفاة الشيخ الحلّي - أن الروبّيّة العيدية التي همتُ بها طفلا، ليست هي كل ما هو موجود تحت بساط الشيخ الحلّي الحافل بالمفاجآت الممتعة والمفيدة، فالحلّي عالماً وفقهياً، وشاعراً واديباً، ومحققاً وناقداً والحلّي إنساناً... كل هذه الاشياء ما تزال راقدة في مكانها في انتظار الأيدي المسعفة والعقول المهمة باحياء التراث لانتشالها من تحت ذلك البساط. انها دعوة اوجهها الى كل المهتمين في سبيل تحقيق تراث الحلّي ونشره على العالم العربي لافي النجف وحده.

والوارد في هذا المقام تشكيل لجنة تعنى بذلك التراث.. تراث فضيلة الشيخ عبدالحسين الحلّي.. الذي عاش وحيداً ومات غريباً..



(*) ١٩٩٧

أوراق إسلامية



الورقة الرابعة

ـ ٤ ـ

لنأغة القرآن أم كريمة
وأعظم بتاريخ العروبة من أب
(شاعر)

الإسلام قول وعمل

حينما اخذت القلم لأكتب في هذه المناسبة، بدأت اتفحص جوانب «المشكلة الإسلامية» التي تثيرها في هذا العصر اقلام الكتاب ويتفتن في إبرازها الإسلاميون، علني اجد فيها منفذاً للقول او اعثر بين ركامها على مادة تصلح لإرسال الحديث على النحو المؤلف في هذه الاجتماعات التي نحتفل فيها بذكرى إسلامية جليلة. وكان مما أثار انتباهي بصورة خاصة، وانا اتطلع عن كذب الى ذلك الركاب من الأقوال والأحاديث التي تدور حول قضايا الإسلام في السياسة والحكم والاجتماع والعلم، ما لاحظته من ان هذه المشكلة الإسلامية التي تضخم بها رأس المجتمع الإسلامي منذ ان فقد سيطرته في العالم، هذه المشكلة لا وجود لها إلا في أدمغة أصحابها.

وكنت كلما أردت ان أدير القول حول ناحية من نواحي الدين الإسلامي الحنيف وجدتني انتقل بصورة آلية للحديث عن المسلمين أنفسهم في موقفهم من الإسلام ووعيهم لمبادئه وتطبيقهم لنصوصه واحكامه. وهذه حقيقة واضحة بسيطة لولا ان جمهور المسلمين قد تجاهلوا او درجوا على تجاهلها، فوصفوا الإسلام بادواء أنفسهم، وأحاطوه بمخازي أطماعهم، وطمسوا معالمه في حياتهم، ثم نادوا فزعين يتوهمون ان في الإسلام «مشكلة» تعوقه عن السير، او عله تقف به دون التطور. وكأنهم في تظاهرهم هذا بالإشفاق على مستقبل الإسلام والخوف عليه من التخلف عن ركب الحضارة والعلم، يجهلون ان حقائق

الإسلام الثابت لا يمكن ان تتغير كما لا يمكن لأية حقيقة ثابتة او سنة محكمه في هذا الكون ان تتبدل او تتغير، وان أحكامه وقوانينه ومبادئه وتشريعاته لا يمكن ان تخرج بحال من الأحوال عن مجال الحكمة الألهية الثابتة في تنظيمها، لتساير رغبات البشر اذا كانت تلك الرغبات خارجة عن نطاقها المشروع في دين الله، أو تماشي تيار حضارة وعلم يتحدى كل منهما حكم الإسلام او ينافي شريعة القرآن. نعم، يفهم الإسلام ان تتحرر النفوس المريضة من ربة الجهل وتتجرد العقول من خزعبلات الباطل فتجبل النظر بالعين المبصرة الواعية في آيات الله البيّنات تستخلص منها الحكمة وتستمد منها النور والأيمان. وهكذا يحتم الإسلام ان تكون جميع التشريعات مستمدة من روحه، فليس من الإسلام في شيء ان يدخل الاسلام شيء من باطل العصر، او تساور أحكامه نزوة من رغبات النفس المريضة. وبالمثل فان الإسلام لا يسمح ان يؤخذ تجزئة او اقساطاً فهو نظام يشمل الحياة الإنسانية بجميع مرافقها فيقيمها على دعائم من الأيمان الراسخ ويسيرها وفق نظام شامل دقيق.

قلت في أول حديثي ان المشكلة هي مشكلة المسلمين لا مشكلة الإسلام، واود ان أضيف أيضاً ان مشاكل الحضارة ومخازي الحياة السائدة هي ليست من مشاكل الإسلام ولا من قضاياها. والذين يحاولون ان يحملوا الإسلام تهمة العجز عن معالجة مشاكل المدينة الحديثة وقضايا الاجتماع وغيرها كما هي منتشرة اليوم، عليهم ان يثبتوا أولاً اذا كان شيء من هذه المشاكل التي يجاهدونها ناشئاً عن تطبيق نظام الإسلام الصحيح حتى يصبح مسئولاً عنها مطالباً باقناع الناس حول وجهة نظره فيها، بعد ان انفضوا عنه الى طواغيتهم فارتضوا غيره حكماً واتخذوا سواه بديلاً. انهم يحبسون الاسلام في زنزانه ضيقة من مقولاتهم لا تتجاوز بضعة أركان هي من الدين بعضه لا كله ثم يضيّقون عليه الخناق في دائرة سلبية من حياتهم لا تتجاوز عدة طقوس او مجموعة مراسيم

يؤدونها مكرهين ويأتونها متثاقلين . أو هل ينتظر هؤلاء العاجزون المقعدون من الإسلام وهو الحبيس بين جدرانهم ان يحقق لهم المعجزة فيمهد لهم نعيم الحياة او يستخلفهم في الأرض او يصرفهم في شئونها؟

لقد بات من الحقائق الواضحة ان سعي المسلمين الإيجابي نحو بناء مجتمع إسلامي سليم أمر لا مفر منه ولا بد من تحقيقه اذا ما أرادوا الحياة او طمعوا في نيل العزة والكرامة . فما هو هذا السعي يا ترى وكيف يكون؟

ان الفئة الغالبة من الناس لا تزال تتصور ان حال المسلمين بخير ما دام فيهم من يدعو الى التمسك بالإسلام ويتمنى النصر للمسلمين بعد كل صلاة او في شتى المناسبات السانحة، وهذا هو مصدر الخطأ الأكبر في حياتنا . ذلك لأن كثيراً من هؤلاء يحسبون انهم يحسنون صنعاً بتزيين الخير للناس وهم يتعدون عنه، وتحبيب الأيمان الى القلوب مع خلوهم منه، ثم هم يصبحون مع ذلك اسوة سيئة لغيرهم فيستسلم المجتمع لداء النفاق وتستنيم الجماهير لخدرا الأمنيات وإغفاءة الذكريات .

لذلك، لا أبالغ إذا قلت ان السعي الإيجابي يجب ان يبدأ من هنا . . من ضمير الفرد المسلم أولاً، وان المعركة هي معركة النفس قبل كل شيء . وان كل تقدم يبدو بعيد الاحتمال ما لم تظهر في المجتمع الإسلامي تلك الطائفة من الدعاة الذين يحسنون فهم الإسلام قولاً وعملاً ويضربون لغيرهم المثل في صحة الأيمان والتفاني في العقيدة والتضحية من اجل الواجب ابتغاء مرضاة الله دون التماس أجر أو انتظار كسب . والله عز وجل يقول ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ . نريد رجالاً كذلك البقية الصالحة التي وصفها الخليفة عمر بن عبدالعزيز بقوله (ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيروا في ظلمتها ولم يشايعوا أهلها على شبهتها، مصابيح النور في افواهم تزهو، وألسنتهم بحجج الكتاب تنطق، ركبوا نهج السبيل وقاموا على العلم الأعظم، هم خصماء الشيطان

الرجيم وبهم يصلح الله البلاد ويدفع عن العباد).

هكذا بدأ الإسلام وبدأت قبله جميع الأديان: آحاداً عظماً وافراداً كراماً أقاموا نفوسهم على النهج القويم وربطوا ابراراً على قلوبهم ثم جابهوا الباطل فهزموه بقوة أيمانهم وطهروا الارض من رجس الأوثان ودولة البهتان... ونحن اليوم نستقصي جوانب حياتنا فلا نجد ما يدل على تمسكنا بحقيقة الإسلام قولاً وعملاً، أو إقتدائنا بسيرة رجالاته المؤمنين الزاخرة بالبطولة والمليئة بالتضحيات، ولكننا مع كل هذا التخلف المريع في مضممار الحياة الحرة الكريمة لا نزال نتشبه بالمظاهر وقد استعضنا عن أتباع سبيل الصالحين قبلنا بتعداد مآثرهم والترحم على سيرتهم كلما حانت مناسبة للقول أو سنح مجال للخطابة، حتى ليتصور أحدنا وهو في نشوة من ذكرى الماضي انه لا يزال يجري في نفس الميدان الذي جرى فيه من كان قبله، وما هي الا لحظات معدودات حتى ينتهي ميدان الخطابة لينكفيء كل فرد خفيف الظل سريع الحركة الى حيث يأخذ موضعه في عجله المجتمع الدائرة ويتوارى بعيداً عن الأنظار. ان سيرة الرسول الكريم التي يجب ان تظل شاخصة أمام كل مسلم طيلة أوقاته، لا تذكر عندنا الا بالمناسبة في معراج أو مولد أو عيد، اما في سائر أيامنا وفي غمرة حياتنا فأننا نضع سيرة الرسول على الرف، أو نفردها ركناً بعيداً عن نطاق تفكيرنا ودائرة أعمالنا.

في مفهوم البرامج الإصلاحية الهزيلة، وفي عرف المجاملات التي حجبت عن أعيننا صراحة الحق، أننا نؤدي واجباً كبيراً ونقدم للإسلام خدمة جلى بمجرد تنظيم الاحتفالات بالمناسبات الإسلامية.. أما في حكم الحق والواقع فإننا لا نعمل شيئاً، وما إقامة الاحتفالات على هذا النحو الرتيب وبهذا الشكل الباهت الا مظهراً آخر من مظاهر الفراغ الذي نحسه والحيرة التي نتقلب فيها. ألا فلنسأل أنفسنا بعد هذه السنوات الطويلة عن رصيدنا من الإصلاح الذي نشده والغاية التي نسعى اليها..

لا اخالني بحاجة الى ان اجيب ان مجتمعنا لا يزال يتردى من سيء الى أسوء بل اخشى أن أقول أن عوامل النكسة الأولى في تاريخنا المظلم لتوشك اليوم ان تكتمل أسبابها لترجع بنا قروناً الى الوراء، ولا يعلم الا الله أي مصير تعس سوف يكون بانتظارنا هناك.

إن بوسع كل منا، بل ان بوسعنا جميعاً أن نعمل كثيراً لتدارك الحال ودرء الخطر إذا ما أردنا لأنفسنا ان نحيا كراماً وان ننال العزة والسيادة. وعندما يعقد كل منا النية الصادقة على العمل ويتفاني كل فرد في انكار الذات متوخياً كل فرد في مجتمعنا روح الاخوة وتأخذ المشاريع الاجتماعية النافعة سبيلها الى التحقيق، حينئذ فقط يكون لهذه الاجتماعات اثرها القيم في أيقاظ الوعي الشامل، وإدارة الرأي الصالح وتحقيق العمل المثمر.

١٩٥٤ (*)



نهضتنا بين العروبة والإسلام

- ١ -

بين عشرات الاتجاهات الفكرية المعاصرة ومعسكرات الرأي الموجودة اليوم في وطننا العربي، ينتصب اتجاهان كبيران يتميز كل منهما عن الاتجاهات الأخرى بصلته القوية المباشرة بحياة العرب، وثقافتهم وتاريخهم ورسالتهم الحية. هذان الاتجاهان تكتلا في جبهتين، هما المعسكر العربي والمعسكر الإسلامي. ونحن حينما نقوم بتحديد أسس نهضتنا، على ضوء من الدراسة الواعية المستنيرة التي تستهدف قيام يقظة عربية شاملة وبناء مجتمع سليم مستوضح لأسباب وجوده، ومستوعب لمقومات رسالته الخالدة، فإننا نؤدي واجبا ثقافيا وفكريا لاغنى لنهضتنا عنه ولا مناص لمفكرينا عن معالجته ومواجهة ما يثيره من قضايا حيوية هامة.

ولعل أول سؤال يعترضنا ونحن بصدد البدء في تناول هذا الموضوع الخطير من مختلف نواحيه هو: هل هناك فارق جوهري بين الثقافة العربية والثقافة الإسلامية منهجا وهدفا، وهل من الممكن حقا قيام معسكرين مستقلين على أساس الفصل بين العروبة والإسلام؟ هذا السؤال هو ما سأحاول الإجابة عليه في هذا البحث، وقد رأيت ان أوّجل الجواب ريثما يتسنى لنا ان نبدأ باستعراض عناصر هذه المشكلة من حيث نشأتها التاريخية، ومن حيث اختلاف وجهات النظر فيها.

نظرة تاريخية:

إذا ما تركنا جانبا العوامل التاريخية الموعلة في القدم والتي ترجع إليها أصول تكوين الجنس العربي ومقومات نشأته البدنية والنفسية والعقلية وتأثير عوامل البيئة والمناخ والوراثة في كل ذلك، وبحننا أصول هذه القضية وعوامل تكوينها المباشرة فاننا نرجع بطبيعة الحال الى بدء ظهور الإسلام في بلاد العرب وانتشار الدعوة الإسلامية فيها. ففي هذه الفترة بالذات انقسم العرب، ربما لأول مرة في تاريخهم، على صعيد عقائدي، الى معسكرين منفصلين، هما: عرب الجاهلية، وعرب الإسلام. وليس معنى هذا ان العرب لم يعرفوا في تاريخهم الطويل قبل الإسلام دينا أو عقيدة انقسموا من حولها، فالتاريخ يؤيد ان العرب قد عرفوا عقيدة التوحيد منذ اقدم عصورهم وقد حملوا هذه العقيدة مع ما حملوه في موجاتهم التاريخية المتعاقبة التي استقرت على حدود شبه الجزيرة العربية فكونت عددا من الحضارات كالحضارة اليمنية، والفينيقية و البابلية وغيرها مما هو معروف في التاريخ. والقرآن الكريم يشير الى ان العرب كانوا على دين إبراهيم الخليل، وهو دين الفطرة أو دين الحنيفية الذي كان عليه معظم العرب. وما دين الإسلام - كما يشير القرآن الكريم - الا امتداد لرسالة إبراهيم الخليل عليه السلام، فهو الذي سمي العرب بـ.. (المسلمين من قبل) وهو الذي دعا ربه ان يجعل من ذريته أمة (مسلمة)... ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ - البقرة -، وفي آية أخرى ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ - سورة الحج -.

والى جانب دين إبراهيم، طرأت على العرب أديان أخرى كاليهودية والمسيحية كما ان الوثنية قدر لها ان تداخل حياتهم بفعل اختلاطهم

بالأمم المجاورة حتى استشرى أمرها قبيل البعثة النبوية ومع ذلك فان هذه الوثنية، التي استكان لها معظم العرب قبل الإسلام لم تحل بينهم وبين معرفة الله تمشياً مع ما تقتضيه فطرتهم العربية وطبيعة حياتهم فكانت عبادة الأصنام كما وصفها الله عز وجل على لسانهم ﴿ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى﴾ .

- ٢ -

انما تطرقنا الى تاريخ العرب قبل الإسلام وما عرفوا خلاله من عقائد واديان لنستخلص ظاهرة واحدة تتصل بموضوعنا . . هذه الظاهرة هي ان التيارات العقائدية والفكرية هذه لم يقدر لها ان تقسم العرب قبل الإسلام الى شطرين متباينين على صعيد عقائدي، كما كانت الحال حينما جاء الإسلام وانقسم العرب من حوله انقساماً تاماً الى عرب مسلمين وعرب مشركين بينهما خط فاصل، وفيما قبل ذلك عاش العرب، على ما نعلم، عرباً في نطاق أفعالهم وأقوالهم ومعقولاتهم وصلة بعضهم ببعض في الاحساب والأنساب، رغم ما كان بينهم من تباين في الاتجاه الديني، اللهم ألا بقدر ما كان هذا الخلاف يتعلق بعدد من لهجات العرب وعاداتهم في نطاق إقليمي . بل لقد عرف العرب في أنحاء الجزيرة العربية عدداً من المناسبات خرجوا فيها من نطاق القبيلة الى مجال عربي أوسع، وكان ذلك غالباً في الظروف التي رافقها تهديد خارجي مباشر كما حدث مثلاً في موقعة ذي قار . وقبل ان نتجاوز هذه الظاهرة الفريدة لا بد وان نستخلص في ضوئها عدداً من الحقائق لها صلتها بهذا البحث :

وأولى هذه الحقائق، ان ظهور الإسلام جعل للعروبة مفهوماً خاصاً ما اكتفى من الدين الإسلامي بكونه مجرد شعار رمزي، أو ظاهرة روحية تمس جانبا من حياة الفرد العربي وانما كان عنصراً أساسياً في علاقة العربي بأخيه . ولقد قام هذا المفهوم على أساس مزدوج يعكس جانب منه انصهار العروبة بالإسلام، وليس أدل على ذلك من المعارك التي

دارت من غير هوادة بين العربي المسلم وبين العربي المشرك دون ان يكون لروابط النسب واللغة والأرض والتاريخ أدنى اعتبار، فالوحدة العربية التي تمت في صدر الإسلام، والتي أشاد بها القرآن الكريم بقوله ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما الفت بينهم ولكن الله الف﴾ كانت وحدة أساسها الإسلام. وفي الوقت نفسه نلاحظ ان الجانب الأساس الثاني لهذا المفهوم كان يقوم على اعتبار ان الدين الإسلامي خارج جزيرة العرب كان نشره يعني ضمنا (تعريب) الأقطار غير العربية.

لقد كان الصراع الفكري بين مفهوم العروبة الجاهلي، ومفهومها الإسلامي مريرا وقاسيا، أدى الى حرب طاحنة انتهت بانتصار الجانب الإسلامي، وتاريخ هذا الصراع وأثره في النفوس، وما رافقته من أحداث ملء بالعبر. من ذلك مثلا ان عمرو بن العاص كان من غلاة العرب المتحمسين في مقاومة الدعوة الإسلامية، وقد تطوع في سبيل ذلك ان يذهب بصحبة عبدالله بن أبي ربيعة الى النجاشي ضد جعفر بن عم النبي (ص)، وكان مما قاله ﴿أيها الملك انه قد ضم الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم على آبائهم واعمامهم وعشائهم لتردهم الينا﴾. ان عمرو بن العاص الذي يؤلب نجاشي الحبشة على اخوانه العرب للايقاع بهم قبل ان يسلم هو نفسه الذي فتح مصر بعد ان اسلم.

اما الحقيقة الثانية التي نستخلصها من تاريخ هذه الفترة فهي ان تقبل العرب للمفهوم الإسلامي لم يأت اعتباطا أو مجرد مصادفة، وانما جاء ناتجا عن عاملين: الأول استعداد العرب بطبيعتهم للإسلام، والثاني توفر عناصر عربية حية جاء بها الإسلام واستطاع بواسطتها ان يمزج بين المفهوم العربي والمفهوم الإسلامي بصورة دقيقة بحيث يتقبلها كل عربي سليم الفطرة، ويجد فيها مجالا واسعا لتحقيق صفاته العربية الأصيلة التي

مازال يعتز بها. اما استعداد العرب للإسلام فتدل عليه شواهد كثيرة لا مجال لحصرها هنا، منها اصطفاء الله العرب دون غيرهم لتأدية رسالة الإسلام، والله اعلم حيث يجعل رسالته، ومنها كون التوحيد الذي جاء به الإسلام هو دين الفطرة وانه قد عرفه العرب من قبل كما تؤكد آيات القرآن الشريفة... ﴿افلّم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آبائهم الأولين، ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون...﴾.

اما العناصر العربية الحية التي توفرت في الإسلام فكثيرة نذكر منها: ١ - نزول القرآن بلغة العرب وان الله بعث محمدا من العرب. ٢ - عروبة الإسلام لغة وحكما وبيانا، ﴿انا أنزلناه قرآنا عربيا. . وكذلك أنزلناه حكما عربيا. . ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقراه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ الى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن. . ٣ - ومن الشواهد على توفر عناصر عربية معينة في الإسلام ان الرسول (ص) إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق الإسلامية ماهي في مجموعها إلا مكارم عربية صقلها الإسلام ووجهها على نحو يوسع من مدلولها الإنساني ويبعدها عن الإسراف المفرط والتعصب المتطرف. فالشجاعة والكرم والصفح عن الإساءة وكظم الغيظ وإغاثة الملهوف وجميع هذه الصفات الخلقية تحولت بالإسلام من مزايا فردية عند العرب الى مبادئ عامة، ولم يزد الإسلام عليها الا من حيث الصقل والتهديب. كما ان الإسلام ساهم في القضاء مبرما على عدد من العادات الذميمة التي كانت عند العرب والتي لم يخف عقلاؤهم استنكارها كأد البنات، والإسراف في القتل بالظنة وغير ذلك.

والحقيقة الثالثة التي تواجهنا في هذا المجال هي ان العبقرية التي تفجرت عنها الامكانيات الواسعة للمجتمع الإسلامي في جميع الحقول عبقرية عربية في البدء. وقد فسح الإسلام المجال للامم الأخرى غير العربية ان تشارك في مجهودها من هذا التراث بعد ان فرض عليها ان

تتعرب لغة وثقافة وتفكيراً. فالإسلام أشاع بهذا المعنى ثقافة عربية إسلامية مشتركة بين معتقيه على اختلاف أجناسهم.

- ٣ -

والآن بعد هذه الوقفة القصيرة، نترك هذه الحقبة الحيوية من تاريخ العرب لننتقل عبر مراحل التاريخ الأخرى، نتبع مصادر القضية العربية الإسلامية تاركين فرصة الرجوع الى هذه المبادئ التي استخلصناها منذ برهة الى محلها المقبل من هذا البحث.

في أواخر عهد الخلفاء الراشدين نقف عند ظاهرتين طرأتا على المجتمع العربي الإسلامي وكان لهما أثر كبير في تطوير الأحداث آنذاك. الأولى - شيوع مظاهر الترف والتحلل الذي أصاب العرب نتيجة لتدفق الثروات وتسرب مظاهر الابهة والملك، والثانية - دخول الأمم غير العربية في الإسلام. فتدفق الثروات أثار في المجتمع العربي الإسلامي مشكلة التوزيع والعدالة الاجتماعية. ودخول العناصر غير العربية في الإسلام بدأ يهدد السليقة العربية بالتبدل والعجمة وما يتبع ذلك من تأثير على المفهوم الإسلامي بين حدين أولهما غموض النصوص وحدائث العهد بالتفكير الإسلامي وثانيهما خطر العقلية الوثنية والتقاليد القومية لهذه الشعوب التي غلبها الإسلام. وقد شعر الخلفاء الراشدون بخطر هذين الطوفانين، وتسجل هذه الفترة المحاولات الجبارة التي بذلها الخلفاء الراشدون للتغلب على هذين الخطرين بما انتهجوه من سياسة حكيمة عادلة وتطبيق لمبادئ العدالة الاجتماعية، وكان مما أوصى به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) بهذا الخصوص قوله لعماله موصياً بعرب البادية ﴿واوصيك بأهل البادية خيراً، فانهم اصل العرب ومادة الإسلام﴾، اما حرصه على تحقيق العدالة الاجتماعية فمما يدل عليه قوله في آخر أيام حياته ﴿لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء﴾.

ولكن السيل ظل جارفا وجاء حكم الأمويين فكان من أولى النكسات الخطيرة للمفاهيم العربية الإسلامية. فالعروبة الخلقية التي وجدت تعبيراً صادقاً في ظل الإسلام أصبحت في عهد الأمويين - عروبة تقوم على التعصب للنسب والوراثة. كما انحرف ميزان توزيع الثروة ومفهوم العدالة الاجتماعية انحرافاً خطيراً. وتغير نظام الإسلام السياسي والشوري إلى الملكية الوراثية. وقد ساعد انغماس الفئة الحاكمة في الترف وجمع الثروات إلى بدء تكون عدد من عناصر النكسة في الحكم العربي التي عاناها المجتمع منذ ذلك الوقت والتي قدر لها أن تستكمل أسبابها في أواخر العصر العباسي باقصاء العنصر العربي عن مجال النفوذ والحكم حيث انتهت الخلافة بعد صراع طويل، إلى أيدي العثمانيين الأتراك.

لقد وجدت الحركات الشعبية المعادية للعرب والخارجة على المفهوم الإسلامي مرتعاً خصباً لبذر سمومها وذلك نتيجة لرد الفعل الذي أحدثه خروج عدد من الحكومات العربية الإسلامية عن قاعدة العدالة والحرية والتسامح التي جاء بها الإسلام، ويعتبر قيام الدولة العباسية أول انتصار للعناصر غير العربية، وبزوال الحكم العباسي انتقل تراث الحكم الإسلامي وما تبعه من تركة ضخمة إلى الأمم الإسلامية الأخرى من غير العرب، بعد أن تخلى العرب عن آخر معاقل نفوذهم وانكمشوا في زاوية من زوايا التاريخ. وهنا مر العالم الإسلامي بتجربة أخرى تقابل تجربة العرب الأولى بالإسلام ولكن في اتجاه مضاد.

فالتجربة الأولى كانت تجربة عربية، مادتها العرب، وقوامها وعي العرب وإيمانهم واستعدادهم للتضحية والجهاد، أما التجربة الثانية فقد كانت إسلامية غير عربية حمل العثمانيون الأتراك لواءها ومن ورائهم خليط من أمم الأرض التي دانت بالإسلام في وقت استكان فيه العرب إلى رقاد عميق... ونود أن لا نتجاوز هذه المرحلة قبل أن نستخلص

عددا من الحقائق المتصلة بموضوعنا:

١ - كان زوال النفوذ العربي إيذانا بزوال نفوذ المسلمين كأمة متحدة ذات أثر إيجابي في توجيه العالم وتطويره.

٢ - كانت الدعوة الإسلامية بالنسبة للحركات غير العربية مجرد شعار يخفي وراءه تنازعا ضاريا لنيل السلطة والحكم.

٣ - كانت الرغبة في التخلص من النفوذ العربي وتقويض الأسس العربية التي قامت على دعائمها نهضة الإسلام، هي الدافع الحقيقي لمعظم الدعوات التي سادت هذه العصور والتي قدر لها أن تتسلم زمام السلطة وتعمل ما وسعها على تشويه تاريخ العرب ونضالهم ومسح المقومات العربية الأصيلة في المجتمع.

٤ - تخلي العرب عن تعهد الحركة العلمية والفكرية والتشريعية في العالم الإسلامي في ظل الأوضاع الآنف الذكر كان ذا أثر بالغ السوء أدى الى جمود التشريع الإسلامي وتحجره وتخلفه عن اللحاق بركب الزمن.

٥ - فساد الحكم باسم الإسلام وسوء تطبيق مبادئه وما نجم عن هذا من فوضى دينية وتسخير الدين في سبيل خدمة المآرب الشخصية والصراع الطائفي كل ذلك أحدث رد فعل خطير في نفوس النشء العربي أشاع فيما أشاع موجة من الكره والاستياء والحذر من الأوضاع الإسلامية القائمة.

٦ - لم تستطيع العواصف الشعبية العنيفة وطوفان الأهواء التي مزقت الوطن العربي ومسخت تاريخه لم تستطيع جميعها القضاء على الروح العربية التي كانت تتوق للوحدة والتحرر وجمع الصفوف، فبقيت جذوتها مشتعلة في نفوس العرب تنتظر الظرف المناسب لانبعاثها من جديد.

٧ - استطاع الحكم العثماني على مساوئه ان يضع حاجزاً جباراً على جناب الغرب حالت بينه وبين التوسع الاستعماري والصليبي على حساب الوطن العربي والإسلامي في آن واحد.

- ٤ -

على مثل هذه الحالة من الفوضى السياسية والاجتماعية والدينية والأخلاقية، فاجأت العرب أنوار الحضارة الغربية الساطعة في أوائل العصر الحديث، ولم يكن واقع العرب، من جميع الوجوه بما في ذلك واقعهم السياسي الذي فرض عليهم تبعية مطلقة لسلطة غريبة عنهم تحكمهم باسم (الخلافة الإسلامية) بعد ان تجردت هذه الخلافة من كل معانيها القومية، ولم يكن في هذا الواقع ما يسمح لهم بمقابلة التحدي الذي واجههم به العصر الحديث. واذا كانت مقاومة الغزو دون الاستسلام أمراً حتمياً وطبيعياً فقد وجدت حركة المقاومة العربية للتحدي الأجنبي الصارخ مجالاً لتنظيم سياسي اتخذ عدداً من الصور والأساليب في فترات متعددة من تاريخ الأمة العربية الحديث، حتى استطاع العرب ان ينتهوا الى المرحلة التي وصلوا إليها اليوم، اذ تمكنت الأمة العربية ان تحقق خلالها عدداً من الصفات اللازمة لإثبات وجودها كأمة ذات سيادة وذات وزن دولي وهنا أيضاً لابد لنا ان نقف قليلاً لنستعرض أسس القضية العربية الإسلامية والشكل الذي اتخذته في مرحلة نضال العرب الحديث...

ان أول ما يمكننا ملاحظته هو ان بوادر المقاومة العربية بدأت أول ما بدأت في أواخر الحكم التركي باتجاه إسلامي بحت، وانتهت اليوم باتجاه يوشك ان يكون قومياً بحتاً. الاتجاه الأول كان طبيعياً في وقت كان العرب فيه يدينون بالتبعية للحكم العثماني ويواجهون تحدياً غربياً ممزوجاً بالتبشير الديني. وكان هذا الاتجاه مبنياً في الأصل على أساس ان النقص الذي يعانيه المسلمون يمكن ان يتلافى عن طريق تجديد بعض

المفاهيم الإسلامية المندثرة، وإلهاب الحماس الديني في أرجاء المجتمع الإسلامي لمقاومة القوة الغازية. وكان الأمل في ان يهب العالم الإسلامي كله من رقادته ويستعيد مجده وماضيه. وهكذا نشطت هذه الدعاية على يد طائفة من الدعاة الإسلاميين كالأفغاني والكواكبي ومحمد عبده، وعقدت المؤتمرات الدورية التي اقيمت في مواسم الحج آنذاك. ولم يقدر لهذا الاتجاه القائم على الدعوة لجامعة إسلامية عامة ان ينجح بالطبع فقد كانت تعوزه العوامل المهمة القائمة على تفهم أكثر عمقا لأسرار النكسة الإسلامية من جهة وتخطيط أكثر شمولاً ووضوحاً للعوامل التي تحول بين العرب وبين اجتماع شملهم واستعادة القيم الروحية التي أضاعوها.

وبالإضافة الى النقص من الوجهة الإسلامية الذي اصطبغت به الدعوة الإسلامية المنبعثة من أرجاء المجتمع العربي، فقد كانت هذه الدعوة فاقدة لأسباب الفتوة والقوة والتطور مع الزمن وهي العوامل التي امتاز بها وضع العالم الغربي في حملاته العدوانية المتكررة على الديار الإسلامية والوطن العربي. ثم تمضي التجربة العربية الحديثة مترنحة في نهضتها بين الاتجاه الإسلامي والعربي كما يصوره لنا الشيخ عبدالله العلايلي، في كتابه دستور العرب القومي حيث يقول:

«لم يكن الفرق قبل الحرب العامة في سنة ١٩١٤ بين القضية الإسلامية والقضية العربية الا على وجه طفيف يتصل ببعض العنعنات، هذا الفرق الذي اتخذ درجة الوضوح التام بعد الحرب بأمد غير قصير أيضاً، واسبابه في نظري ترجع الى:

١ - الاستعمار الأوربي المشفوع بالتبشير الديني أثار المشاعر وملاً النفوس رغبة حادة بشيء جديد، وبتحديب الاستعمار على بلاد العرب في مصر والجزائر تحدد هذا الشيء الجديد نوعاً من التحديد فاصبح إسلامياً عربياً بعد ان كان إسلامياً فحسب. وبسبب وجود الدولة الإسلامية المركزية الماثلة في الدولة العلية صار هذا الشيء الجديد إسلامياً عربياً

يدور على قطبها (أي قطب الدولة العلية).

٢ - حركات البلقان الاستقلالية وعجز الدولة العلية عن إخمادها جعل العرب يفكرون في مستقبلهم حيث لم تعد الدولة العثمانية ضمانا كافيا له، ورؤية أمير عربي عجزت الدولة عن دفع الخطر عن بلاده وهو الأمير عبد القادر الجزائري بينهم قلل ثقة العرب بالدولة العلية وجسم أمامهم خطر المستقبل فرغبوا بأن يحفظوا قواهم في حدود بلادهم.

ويضرب لنا الشيخ العلايلي مثلا على ذلك في أثناء الحرب الطرابلسية حيث دعا العرب الى عمارة كل قطر واعداده للدفاع عن نفسه وتشكلت الأحزاب العربية كحزب اللامركزية القاهري برئاسة رفيق بك العظم، وجمعية الإصلاح البيروتية، والمنتدى الأدبي وجمعية البصرة الإصلاحية برئاسة طالب بك النقيب، ففكر العرب في اللامركزية وصاغوا فكرتها صوغا محكما بشكل نظرية يبشرون بها في الوسط العربي على إنها اقتراح لشكل الدولة، وبذلك اصبح هذا الشيء الجديد إسلاميا عربيا يدور على قطب نفسه في صلة رمزية بالدولة العلية.

٣ - رغبة الشباب التركي بالانقلاب وإزالة هيكل الحكم القديم الذي باد جعلت آمال العرب تقوى في انهم، لابد، فائزون بشيء من التشكيلات الجديدة، فأيدوا جمعية الاتحاد والترقي وساهموا في الانقلاب بقوتهم. ولكن انكشف الليل عن انتكاسة مختلفة من جانب الترك جعل العرب يلمسون خطة تأمر رهيبة سوف تنتهي بتحطيم كيانهم فانطلقوا يبشرون بالانفصال ولو أدى الى العنف، أضف الى هذا الشعور بالضغط والاضطهاد وصراع أمير اليمن في قسوة وبمادة عربية تقريبا، وكان للاحتكاك بين العرب في الصراع ما قذف في أفئدة العرب وعيا جعل هذا الشيء الجديد إسلاميا عربيا فقط... أي لم تعد له صلة بالدولة العلية.

٤ - اتصال العرب بالثقافة الأوربية واعتناقهم للنزعة القومية الجديدة

في أوروبا وتشبعهم بفلسفتها جعلهم يزودون الحركة بسلاح جديد نشط الاقليات الدينية الأخرى للمساهمة في الحركة التحررية العربية فأصبح هذا الشيء الجديد عربيا يدور على نفسه مع صلة رمزية بالإسلام.

٥ - اتصال العرب السياسي بأوروبا بعد الانتداب وانتقال الحركة القومية الى حركات إقليمية بما تسرب من إغفال سياسي جعل هذا الشيء الجديد «عربيا» يدور على قطب القومية العربية فقط.

وعلى هذا تركز الفكر العربي في وضع الدولة مؤخرًا.. ثم يضيف الشيخ العلاللي على هذا الاستعراض بقوله (فان ما تركز عليه الفكر العربي من اعتداد بالقومية العربية فقط هو وحده المركبات في أبسط مظاهرها).

ولي على ما أوردته من كلام الشيخ العلاللي ملاحظات أدونها فيما يلي:

١ - ان الانفصال الذي تم على مراحل الآنفه الذكر بين الدعوة العربية والإسلامية، إنما جاء استجابة لظروف وملابسات خاصة في مرحلة معينة من مراحل الوعي والتحرير العربي، وهذا لا صلة له مطلقا بزعم إخفاق الشعور الإسلامي كوسيلة فعالة لدعم الحركة العربية التحررية. ان الشعور الإسلامي الصادق كان وما يزال عاملا مهما لاستثارة عوامل النضال و التحرر بين الجماهير العربية، والحركة الاستقلالية في مصر وسوريا والعراق والمغرب العربي وارجاء متعددة من الوطن العربي توضح لنا قوة شعلة الجهاد والتضحية التي قدح الإسلام زنادها في النفس العربية الأولى ولا زالت جذوتها باقية الى يوم. لقد وحد الإسلام نضال الشعب الجزائري، أما في هذا الجزء من وطننا العربي فقد رأينا ولمسنا ما كان لكلمة (الله أكبر) وهي شعار الجهاد الإسلامي من أثر سحري في نفوس الجماهير التي حاربت في معركة بور سعيد وهي احدث مراحل الصراع العربي.

٢ - ان سعي العرب لتحقيق اتحادهم وحریتهم واستقلالهم كان يتطلب منهم دخول الوحدة من أقرب أبوابها واسهل طرقها، فكان البدء باختيار اتجاه عربي وليس من المعقول ان يستطيع العرب القيام بعملية تجديد البناء الإسلامي وتراثه الضخم بما يتطلبه من مشقة وجهد، في الوقت الذي يفتقر فيه العرب الى مقومات وجودهم كأمة. يقول الأستاذ ساطع الحصري: (ان تحقيق الوحدة العربية اسهل بكثير من الوحدة الاسلامية، وفكرة الوحدة الاسلامية أوسع وأشمل من مفهوم الوحدة العربية، غير انه ليس من الممكن ان نقول بالوحدة الإسلامية دون ان نقول بالوحدة العربية).

- ٥ -

نكتفي بهذا القدر من استعراض القضية العربية الإسلامية من وجهتها التاريخية لنتقل الى مرحلة اخرى من مراحل البحث نتناول فيها تحليل آراء القوميين والإسلاميين من زاوية كل منهم الخاصة. ولا بأس ان نبدأ أولاً بوجهة النظر القومية:

أولاً - مفهوم القومية وأركانها: لم يتفق دعاة القومية على تحديد دقيق لمفهوم (القومية العربية) فمنهم من يحدد القومية العربية بأنها شعور العرب بوجودهم الاجتماعي شعوراً ذاتياً لا موضوعياً بحيث يلزمهم خيال الجماعة العربية كمركب نفسي وحيوي ملازمة وجدانية بالغة وفي جبر غريزي... ومنهم من اكتفى من هذا الشعور المتناهي في العمق الى مجرد توفر (الشعور الجامع للامة العربية التي تسكن الوطن العربي) بحدوده كما ذهب الى ذلك الدكتور منيف الرزاز. أما أركان القومية فلزالت بدورها موضع تضارب شديد من ناحية وغموض غريب من ناحية أخرى، على حد تعبير الأستاذ ساطع الحصري.

يقول الدكتور منيف الرزاز: ان من أصعب الأمور وأشقها ان تحدد

تماما أركان أية قومية، فاللغة وحدها لاتصلح ان تكون ركنا من أركان القومية، وكذلك الدين والبيئة الجغرافية والتاريخ والمصالح المشتركة لا يصلح كل منهم اساسا للقومية. . ثم يجيب الدكتور منيف الرزاز على السؤال (مم تتكون القومية العربية) بقوله: الحقيقة ان القومية لا تحدد بأي عامل من هذه العوامل وانما تحدد بشعور مجموعة من الناس بأنهم أبناء قومية واحدة، وهؤلاء قد تجمعهم هذه العوامل التي ذكرناها، وغيرها جميعها أو بعضها، وقد لا يجمعهم الا القليل، ولكن العامل الأساسي الأوحد الذي يفوق كل هذه العوامل قوة ومثانة وهو شعور أبناء الأمة بأنهم أبناء أمة واحدة، فاذا اضعف هذا الشعور فلن ينفع القومية اجتماع كل أركانها، واذا قوي هذا الشعور ما ضرها ان لا تشترك الا في أسباب قليلة جدا، من أسباب القومية الموحدة. وكذلك اختلفت الآراء في تعريف (من هو العربي) وفي ذلك يقول الأستاذ ساطع الحصري مشيرا الى التبلبل في تحديد مفهوم العرب والعروبة (فهناك من يقول ان العربي هو الذي يتكلم العربية، ومن يقول هو من يريد ان يكون عربيا، ومن يقول هو من يفخر بالعروبة. على ان الاتجاه الغالب في تعريف العربي هو من كانت لغته العربية وعاش في الأرض العربية أو تطلع الى الحياة فيها، وآمن بانتسابه الى الأمة العربية.

وكذلك اختلف في حدود الوطن العربي كما اختلف في النظرة الى البقاع التي اغتصبت خلال أزمنة التاريخ كالأندلس مثلا، مما حدا ببعض القوميين ان يشرك في صفة الوطن العربي ضرورة الدفاع عن الكيان فأضيف الى تعريف الوطن العربي بأنه كل بقعة أصبحت ضرورية للدفاع عن كيان العرب.

ولا داعي لأن نسترسل في استعراض الآراء حول هذه الموضوعات ولكننا نشير الى ظاهرتين: الأولى، انه ليس لمفهوم القومية من الأسس الواضحة المخططة ما هو أكثر وضوحا من عنصر اللغة والوطن، أما باقي

الصفات كالإيمان بالانتساب للامة العربية أو التطلع الى الحياة العربية فلا تزال غامضة وليس باستطاعة أحد ان يفرق بها بين العربي وغير العربي أو يصدر حكما دقيقا على مقادير تأثير كل منهما بهذه العوامل. والملاحظة الثانية هو خلو هذه التحديدات من الإشارة الى (عروبة الخلق) وهي العنصر الأساسي الذي كان يتمايز به العرب فيما بينهم والذي كان له الفضل الأول في أن تكتسب كلمة العروبة خصائص خلقية معينة. وقد أشار الى هذا المعنى الأستاذ عبد اللطيف شرارة بقوله: (الواقع الذي لا واقع غيره هو ان هناك عروبة كما ان هناك إسلاما أو كما ان هناك نصرانية وبوذية، أي ان العروبة عقيدة لها مبادئها وشرائعها التي تعكس عن الروح العربية الأولى وتمثلها تمثيلا صادقا صحيحا. ثم توجه في ذات الوقت سلوك العربي والمستعرب على السواء وتدفع بهما نحو مثل عليا قويمه ثابتة. ويستشهد الاستاذ عبداللطيف شرارة لاعطاء العروبة معنى خلقيا خاصا، من جملة ما يستشهد به، قول الإمام الحسين بن علي لجند يزيد: ﴿ان لم يكن لكم وازع من دين وكنتم لا تخشون المعاد، فارجعوا الى أنسابكم وأحسابكم ان كنتم عربا كما تزعمون﴾.

ثانيا - الصفات القومية: تنص الدساتير القومية على عدد من صفات الأمة العربية، وهذه الصفات لا تخلو بدورها من لبس وغموض... يقول دستور «البعث العربي» (الأمة العربية وحدة روحية ثقافية وجميع الفوارق بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي). وتصف مادة أخرى الرابطة القومية بأنها الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية. فهل تعتبر رابطة الإسلام بين العرب على هذا الأساس رابطة عرضية زائفة؟ وهل يفهم من ذلك ان ليس من حق العربي المسلم ان يستشعر رابطة روحية خاصة مع أخيه المسلم؟... تحدد مادة أخرى رسالة الأمة العربية بأن (الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ وترمي الى تجديد القيم الإنسانية وحفز

التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم... .) وهذه أوصاف عامة تحتاج الى التوضيح على ضوء حقائق ذات صبغة أصلية في تاريخ العرب وليست مفترضة افتراضا.

يشرح الكتاب القوميون هذه الرسالة الخالدة للامة العربية بقولهم إنها كانت منذ أربعة عشر قرنا تتمثل في الإسلام. أما اليوم فأنها كما يعبر الدكتور منيف الرزاز، (تبعث من جديد برسالة مستمدة من حقيقة وجودها، كأمة عربية ومن تاريخها الذي جبل مع طبيعتها، ومن كونها حملت رسالة في الماضي وستحمل رسالة في المستقبل... .) ما هي إذن هذه الرسالة الجديدة، وأين شريعتها التي جاءت على أنقاض رسالة الإسلام، والتي أصبحت لا تصلح اليوم لنهضة العرب، كيف ومتى وضعت أسسها، ومن الذي يملك ان يسبغ على هذه الرسالة الجديدة صفة كونها دون غيرها رسالة الأمة العربية اليوم. وهل يجوز مثلا ان يختلف مدلول هذه الرسالة باختلاف الدعوات والاتجاهات القومية. وكذلك ما هو موقف هذه الرسالة المستجدة من الإسلام، هل تنسخه، ام تجاربه في اتجاهه، ام تنسجم معه ام تعارضه. وما هو موقف العربي المسلم حينما يكتشف ان هناك تعارضا بين الإسلام الذي يدين به وبين إيمانه بمبادئ قومية معينة؟

٣ - موقف القومية من الإسلام: الذي عليه اغلب الدعاة القوميين ان الإسلام كدين شيعىء بين الأنسان وربه، واما كونه نظاما للدولة والمجتمع فلم يعد يصلح لهذه الصفة. ويرى القوميون ان الإسلام لبي حاجة العرب في زمان معين ومكان خاص، وقد اختلف الزمان وتغير المكان فلا يجوز ان نحبس الطاقة العربية في عقائد ونظم لا تلائم العصر وان لاءمت حياة العرب الأولى. ومفهوم الدعوة الإسلامية سواء من الوجهة الروحية الصرفة او الاجتماعية، يختلف عند عدد من القوميين شدة وضعفا، فمن هؤلاء من يدخلها ضمن مجموعة دعوات رجعية تمثل

المبادئ والأفكار المتهرثة التي لفظتها الحياة الحديثة على حد تعبير الأستاذ نديم البيطار، الذي يعتبر الإرادة القومية هي وحدها شريعة الحق والحقيقة التي يجب ان تحكم الحياة العربية. وتبعا لهذا المفهوم الذي يجعل الإرادة القومية فوق كل اعتبار آخر يواصل الأستاذ البيطار قوله (هذه الجامعة العربية سوف تخلد الى الأبد، وبها يجب ان يرتبط العربي بطاعة عمياء وولاء لا يسأل ولا يستفهم، يؤمن إيمانا عميقا بتفوق امتنا على كل أمة، فكل شئ فيها سام وجميل وفي كل عمل من أعمالها وكل نتاج من إنتاجها كل الخير وكل الحق فالأمة آله! نوجه إليه عبادتنا ونحن القوميون نحبا، نعبدها، وفي عبادتها نجد كل قوة وسمو، فهي وحدها التي تجعل ينبوعا حيا من الخير والحق والجمال ينبع من أنفسنا...).

وتمشيا مع هذا الشعور الذي يجرد القومية من كل رقابة روحية خارجة عن نطاقها استعمل عدد من القوميون تعبير (الدين الجديد المنبعث) كما كتب أحدهم في إحدى مجلاتنا المحلية، في وصف القومية العربية. الا ان هناك من الكتاب القوميون من يقر بأن الدين الاسلامي يشكل ركنا من أركان القومية العربية المهمة رغم ان الدين لا يمكن ان يحدد القوميات. وهذا ما ذهب اليه الدكتور الرزاز على أساس ان الاسلام لم يكن دينا فحسب بل كان تاريخا وحضارة وحياة عقلية وان الاسلام قد أدى الى توحيد العرب جميعا مسلمين ومسيحيين في اطار فكري معيشي واحد. ويوضح الاستاذ ميشيل عفلق هذا الرأي بقوله: (البعث العربي حركة قومية توجه الى العرب كافة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وتنظر الى الاديان نظرة مساواة في التقديس والاحترام، ولكنها ترى الى جانب ذلك في الاسلام ناحية قومية لها مكانتها الخطيرة في تكوين التاريخ العربي والقومية العربية وتعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بتراث العرب ومميزات عبقريتهم)... وهذا المفهوم يعترف بأن الاسلام هو انبعاث للامكانيات العربية في السابق ومن حيث هو مصدر

خلفي يستقى من منبعه فضائل الايمان والمثالية، الا انه لايعترف بالاسلام كمصدر للقيم التي يجب ان تقوم على اساسها حركة البعث العربي ويوضح الاستاذ ميشيل عفلق ذلك في موضع آخر بقوله: (فالقيم عند العرب في الجاهلية كانت تستمد من المجموع، والفرد مقيد بها، والقيم في الاسلام لم تعد تستمد من المجموع كما ان الفرد ليس هو الذي يفرضها، انها تصدر من مكان هو فوق المجموع والفرد معا. أما في هذا العصر فالفرد يستمد القيمة من نفسه وهكذا لم تعد القيم فوق الفرد والمجموع معا بل اصبحت قيما فردية يخلقها كل فرد بنفسه).

- ٦ -

تلك هي أهم الأسس التي تقوم عليها النظرة القومية فيما يتعلق بالاسلام، والآن نعود الى الجانب الآخر لنتعرف على موقف الدعاة الاسلاميين ونظرتهم للقومية العربية.

يمكننا ان نلخص موقف المعسكر الاسلامي من الدعوات القومية في عدد من النقاط، اعتمدت في ايراد معظمها على ما قرأته لعدد من الكتاب الذين يمثلون الاتجاه الاسلامي الحاضر كالسيد قطب وسعيد رمضان وغيرهم.....

١ - يؤمن دعاة الاتجاه الاسلامي بأن الاسلام نظام حياة كامل يصنع الفرد المسلم الذي يحكمه الوازع العميق من صلته بالله ورقابة الله عليه، والاسرة المستقرة المتراحمة التي تقوم على أصرة الزواج المقدس والتوزيع العادل لتبعات الحياة بين الرجل والمرأة، والمجتمع المتكامل الذي تنظمه معايير العدالة الاجتماعية والاخلاق الكريمة التي فرضها القرآن وبلغها النبي، والدولة القوية التي تنبثق عن اصل الشورى.

٢ - ان الاسلام جمع شمل العرب وصنع مجدهم وعرب أكثر أقطارهم التي يتخذونها اليوم وطنا ودارا، وانه بعدما جحد العرب هذا

الدين غافلين أو عامدين ديست أرضهم وانتكس مجدهم وتقطعت
أواصرهم.

٣ - الدعوة الى الاسلام لاتغني ان ينكرعلى غير المسلم تمسكه
بدينه، ولا يقوم في ظلها ادنى ظلم في التعامل وممارسة الحقوق
والواجبات باسم الدين.

٤ - ينكر الدعاة الاسلاميون ان تكون الرابطة القومية هي الرابطة
الوحيدة عند العرب، اذ ان من حق العربي المسلم ان يستشعر رابطة
خاصة تجاه أخيه المسلم بغض النظر عن جنسيته.

٥ - يعتبر الاتجاه الاسلامي التعابير التي ينادي بها القوميون،
امثال (الطبيعة العربية، والمزايا الخاصة المتجلية عند العرب، او الرسالة
الخالدة، وتجديد القيم الانسانية...) وغيرها باعتبارها كلها تعبيرات
غائمة لا تصلح اساسا لوضع نظم اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية.
فالتبيعة العربية التي يستمد منها القوميون اسس النظم التي يضعونها
لاتجعل للعرب طبيعة غير طبيعة الناس، ولكنها كفيلة بان تجعلهم اصلح
الناس اذا صلحوا وقد تجعلهم أفسد الناس اذا فسدوا. ولا بد اذن من ان
تخضع هذه الطبيعة لنظم وقوانين خارجة عن سلطانها كيلا ينحرف
مدلولها ويفسد مفهومها... وهو مايتوفر بالاسلام وكذلك فان المزايا
الخاصة المتجلية في نهضات العرب المتعاقبة لا تجعل للعرب رسالة
خاصة متميزة عن غيرهم... والمقاييس التي تنطبق على العربي وعلى
غير العربي قسمان: احدهما قديم قدم الحياة البشرية على الأرض وهو
ما اودعه الله في ذات كل انسان من فطرة تهديه الى الخير وتجعله
مسئولا عن فعله، وثانيهما، رسالات الأنبياء ومجموع هذه الرسالات هو
وحده الذي يمكن ان يقال عنه (الرسالة الخالدة) التي صحبت ركب
الانسانية في تاريخها الطويل، والتي يرجع اليها الفضل فيما بقي للناس
من الفضائل والقيم.

٦ - تمتاز رسالة الاسلام بعالميتها التي تستند الى قاعدتين: الأولى: الروح الانسانية التي تعلقو على العصبية القبلية والاقليمية والجنسية والدينية، وتكفل بين الجميع لقاء كريما على القيم الخلقية التي اشتركت فيها الأديان جميعا. والثانية: ضوابط دينية دقيقة محدودة تنظم السلوك و المعاملات في الفرد والاسرة والمجتمع. وهي موضوعة بحيث تمسك بعنان النشاط البشري كيلا تجمع به شهوة او نزوة وبحيث لاتقيم حاجزا أمام تقدم الفكر والعمران. فهي في نطاق المعاملات لا تعدو ان تكون دوائر عامة (أوتلاينز) ومن شأن هذه الضوابط ان تقيم امة مضبوطة الفكر والعاطفة والسلوك، امينة بواقعها وبروحها الانسانية على ضمان تطور مستمر الى الأعلى في حياة البشر الروحية والمادية.

٧ - ينكر دعاة الاتجاه الاسلامي على العرب ان يتخلوا عن رسالة القرآن او ان يعزلوا قضاياهم عن قضايا مئات الملايين من المسلمين في الارض ولذلك فهم يدعون الى الجامعة الاسلامية وهم يعتبرون السياسات القائمة في العالم الاسلامي اليوم لا تمثل الاسلام ولايمكنها ان تنطق باسمه وانها لاتمثل جماهير المسلمين.

ذلكم هو أهم ما يتصل بآراء اصحاب الاتجاه الاسلامي فيما يختص بالدعوة القومية العربية.

- ٧ -

يأتي دورنا الآن للاجابة على سؤال افتتحنا به هذا البحث وأرجأنا الجواب عليه الى هذا الموضوع. هل هناك حقا فارق جوهري بين الثقافة العربية والثقافة الاسلامية ومنهاج كل منهما؟ وهل من الممكن عمليا قيام معسكرين منفصلين يعتمد كل منهما على أساس الانفصال بين العروبة والاسلام؟....

بامكاننا ان نجيب بالنفي القاطع، فالربط بين العروبة والاسلام أمر

أثبتته واقع التاريخ، وهو محصول نستخرجه من أقوال المتناظرين في هذه المعركة بالذات: يقول الاستاذ ميشيل عفلق: (ان حركة الاسلام المتمثلة في حياة الرسول الكريم ليست بالنسبة للعرب حادثا تاريخيا فحسب، تفسر بالزمان والمكان وبالاسباب والنتائج، بل انها لعمقها واتساعها ترتبط ارتباطا مباشرا بحياة العرب المطلقة)... ويقول في موضع آخر: (ان العرب ينفردون دون سائر الامم بهذه الخاصة، ان يقظتهم اقترنت برسالة دينية، فلم يتوسعوا بغية التوسع بل ليؤدوا واجبا الهيا كله حق وهداية ورحمة وعدل وبذل... ومادام الارتباط وثيقا بين العروبة والاسلام وما دما نرى في العروبة جسما روحه الاسلام، فلا مجال اذن للخوف من أن يشتت العرب في قوميتهم).

فالاسلام كما يستنتج من قول الاستاذ ميشيل عفلق ضروري للحركة العربية كي تحفظ توازنها وحتى لا يشتت مفهوم القومية... ولنقارن هذا الكلام بكلام آخر لأحد انصار الاتجاه الاسلامي، هو الشيخ سعيد رمضان... يقول المذكور في معرض حديثه عن القومية: (نحن عرب نعتز بلغتنا العربية وبوطننا العربي، ونعتز باستعدادنا الخصب للانبعاث والابداع الذي تجلى أثناء تاريخنا، ونعتز بثروة المشاعر الحية المذخورة في كيانتنا، ونعتز بوحدتنا كأمة تجمعها اللغة الواحدة والوطن الواحد والمصالح المشتركة مهما تناءت ديارنا، وقوميتنا بهذا المفهوم السهل حقيقة لا يمكن ان نختلف عليها...) ويقول في موضع آخر... (ان القاعدة التي نلتقي عليها نحن العرب على اختلاف ارائنا ومعتقداتنا، هي الوحدة الصادقة في اللغة والوطن والمصالح المشتركة، وللعربي المسيحي ان يطمئن كل الاطمئنان الى ان العربي المسلم اشد حفاظا على ذلك، على اللغة التي هي لغة قرآنه وعلى الوطن الذي هو ميراث اهله ودينه وعلى المصالح التي سوى الاسلام فيها بين الناس...).

ويشير الشيخ سعيد رمضان الى الضوابط التي تعرض لها الاستاذ

ميشيل عفلق والتي جاء بها الاسلام، فيقول (ان عالمية الدعوة الاسلامية تستند فيما تستند الى ضوابط دقيقة محدودة تنظم السلوك والمعاملات في الفرد والاسرة والمجتمع . . وهي في نطاق المعاملات لا تعدو ان تكون دوائر عامة (اوتلاينز) ومن شأن هذه الضوابط ان تقيم امة مضبوطة الفكر والعاطفة والسلوك امينة بواقعها وبروحها الانسانية على ضمان تطور مستمر الى أعلاه في حياة البشر الروحية والمادية) ويقول الاستاذ ميشيل عفلق عن حقيقة ارتباط العروبة بالاسلام . . (قوميتنا كائن حي متشابك الاعضاء وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل، فعلاقة الاسلام بالعروبة ليست اذن كعلاقة أي دين بأية قومية، وسوف يعرف المسيحيون العرب حينما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة، ويسترجعوا طبعهم الاصيل ان الاسلام لهم ثقافة قومية يجب ان يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الاسلام حرصهم على أئمن شيء في عربوتهم . . . وأذا كان الواقع لا يزال بعيدا عن هذه الامنية، فان على الجيل الجديد من المسيحيين العرب مهمة تحقيقها بجرأة وتجرد وتضحية في سبيل ذلك بالكبرياء والمنافع اذ لاشيى يعدل العروبة وشرف الانتساب اليها . .).

نجد من هذه النصوص ان هناك تقاربا في المبدأ بين وجهة النظر القومية والاسلامية، والواقع ان دعاة العروبة ودعاة الاسلام يلتقون في كثير من المبادئ والنقاط حينما يجيى دور كل منهما للحديث عن الآخر في مناسبة من المناسبات العامة، ولكن الخلاف سرعان ما يتسع ويشند حالما توضع هذه المبادئ بين ايدي الجماهير التي تؤمن بها ولكنها مع ذلك تعطيها فهما خاصا يختلف عن مدلولها الاصلي في قليل أو كثير. والذي نظنه ان لسعي كل فريق في سبيل اكتساب التأييد العاجل من الجمهور، واستثارة العواطف المتأججة، والتمشي مع متطلبات الكسب الحزبي، كل ذلك له اثر لا ينكر في توسيع شقة الخلاف. فالسياسة

الحزبية لكل جانب تلعب ولاشك دورا خاصا في تشوية المفاهيم التي ينادي بها كل جانب وفقدان الثقة المتبادلة. وفيما يلي نستعرض عددا من وجوه الخلاف المستحکم بين الاتجاهين.

أولا - يقرر القوميون ان الاسلام لا يجوز مطلقا ان يتدخل في شئون السياسة والحكم، بينما يقرر دعاة الاتجاه الاسلامي من الجانب الآخر، ان الاسلام يجب ان يحكم، وهذا الحكم هو من طبيعته واصوله المقررة... يقول المرحوم الشيخ حسن البنا (اذا قيل لكم الام تدعون، فقولوا ندعوا الى الاسلام الذي جاء به محمد بن عبدالله والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه، فان قيل لكم هي سياسة فقولوا هذا الاسلام، ونحن لا نعرف هذه الاقسام...). أما القوميون فيعللون نظرتهم بأن الاسلام كدين هو مصدر روحي لا ينكر أثره الاخلاقي في المجتمع، اما الاسلام كنظام للحكم فانه لم يعد يصلح للوقت الحاضر، ولا يتمشى مع متطلبات العصر الحديث. ان في كلا الحكمين عمومية واطلاقا يتنافى مع الصلة القائمة بين العروبة والاسلام والتي لا تسمح حتما باصدار حكم عام ومطلق من هذا النوع.

- ٨ -

نجيب على وجهة النظر القومية بأن أحكامهم لها ثلاثة أوجه: الاول ان يكون هذا الرأي تقريرا لواقع التاريخ وهو مالا يصدق على الاسلام الذي كان طيلة عصوره دينا للفرد ونظاما للمجتمع والدولة. واساءة تطبيق الاسلام او سوء استغلاله لا يقوم دليلا على عدم صلاحيته، لأن كل مبدأ مهما كان ساميا ونزيها عرضة لأن يستغل او يساء تطبيقه. والوجه الثاني أن يكون هذا الرأي مستندا الى قواعد وأصول ليست من الاسلام، فلا تقوم هذه النظرة اذن حجة عليه، كما انها تفقد قيمتها الجدلية بالنسبة لمعتنقي الدين الاسلامي والمؤمنين به، اما الوجه الثالث فهو أن يكون هذا الحكم صادرا عن تفهم نزيه لمبادئ الاسلام ودراسة

لأصوله المقررة، وفي هذه الحالة يترتب على من ينادي بعدم صلاحية الاسلام للحكم ان يدعم ذلك بادلة من الاسلام نفسه وهو ما لا نعتقد ان القوميين بصدده، فلم نعهد من القوميين من قام بدراسة علمية لاصول الحكم في الاسلام وتوصل بمجهوده الى هذا الراي، دون ان يكون متأثرا بالعاطفة او المصلحة الحزبية.

اما من جانب الاسلاميين، فانهم باصدارهم حكما قاطعا بأن الاسلام يجب ان يحكم في جميع الظروف والاحوال يتجاهلون حقيقتين: الاولى ان ما يجب عمله شيء وما هو ممكن عمله شيء آخر، والاسلام لا يمكن ان يصل الى الحكم بمجرد ان هناك (اعتقادا) بين الناس بضرورة تحقيق ذلك دون ان تتوفر الوسيلة العملية لتحقيق هذه الخطوة. ان سيادة النظام الاسلامي عملية لا يمكن ان تتم اعتباطا وهي تتطلب توفر مقدمات معينة اهمها استعداد المجتمع لتقبل هذا النظام و العمل به، وتبلور ذلك التنظيم في شكل ثابت من اشكال الحكم والسياسة والنظام الاجتماعي، وكل ذلك غير متوفر في الوقت الحاضر بالصورة اللازمة. أننا نعترف ان في الاسلام من المرونة والخصوبة ما يجعله قابلا لتنظيم الحياة الحاضرة على الوجه الاكمل ومعالجة الادواء التي يعجز بها المجتمع الحديث، كما نعترف بقيمة الدراسات الاسلامية التي يقوم بها نفر من الشباب العربي المسلم بغية سد الثغرات في هذا النظام، ولكن هذه الدراسات لا زالت بحاجة الى التنظيم، وتوحيد وجهة نظر المسلمين من حولها. ولا بأس ان نستعرض هنا بعض الامثلة على الاختلاف بين وجهات النظر الاسلامية حول عدد من المبادئ: في السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع وغيرها...

١ - تقوم نظرة الاسلام السياسية للحكم على اساس الشورى، والشورى نظام له مزاياه التي ينفرد بها الاسلام فهو من وجهة اعتراف بمبدأ اشراك الامة في ادارة شؤونها، ولكنه لا يضع زمام الأمر بيد

الأغلبية العددية كما هو شأن النظم الديموقراطية القائمة. فقد يكون الحق في مفهوم الاسلام بجانب القلة المؤمنة الواعية، ورأي الاغلبية هو الراجح في الاسلام اذا كان متمشياً مع الحق والمبدأ، ولذلك لامجال في نظرة الاسلام للدعايات والحملات الحزبية التي تنظر الى المواطنين باعتبارهم مجموعة من الاصوات الانتخابية. فكيف يكون وضع نظام الشورى اليوم وماهي صفة تطبيقه المقترحة حتى يمكن ان تقاس بالنسبة لأنظمة الحكم الاخرى، المطبقة اليوم؟ وكذلك كيف يمكن للأمة ان تنظم رقابتها على مجلس الشورى، وكيف تحدد صلاحيات الحاكم الاسلامي بالنسبة لاتجاه من يعتقدون بالبيعة الدينية والطاعة المطلقة، وبين من يقيدون ذلك برأي الامة واجماعها؟ وما هو الضمان الذي يحول دون استبداد الحكومة الاسلامية باسم الدين وجر المجتمع الى صورة من صور الانتكاسات الاستبدادية الفردية الخطيرة.

والخلاف لايزال قائما بين جمهور الفقهاء المسلمين من دعاة النظره التقليدية وبين دعاة الاتجاه الاسلامي الحديث حول عدد من المسائل. فمثلا يقر الاسلام كما هو المفهوم لدى الفقهاء مبدأ الملكية الفردية ويضع في قبالتها شروط التملك المشروع مثل عدم كونه من ربا أو قمار أو غش او غبن أو احتكار أو ربح فاحش أو غصب... الخ، ونزع الملكية الفردية وتجريد اصحابها منها على هذا الأساس جائز في الاسلام شرط توفر ادلة الاثبات المباشرة. والنظرة الحديثة في الاسلام تاخذ بهذا الاتجاه كما تدعو الى توسيعه بحيث يشمل حق الدولة في نزع الملكية أو تحديدها طبقا لمبدأ عام مقرر، كأن يقال مثلا ان الاقطاع حرام... فلا يعود من الواجب دراسة كل قضية بمفردها واستخراج أدلتها الخاصة المباشرة... ويدعو الاتجاه الحديث الى الاستفادة من مبدأ المصالح المرسله (وهي الاحوال التي لم يرد فيها نص) ومبدأ سد الذرائع (أي دفع الاخطار المحتملة الوقوع) في وضع التشريعات الاسلامية وسن

قوانين الضرائب العامة وتأمين المرافق الحيوية للمجتمع، وذلك بالإضافة الى المصادر الاخرى المقررة في الاسلام كالزكاة والصدقات الخ... ولكن هناك من فقهاء المسلمين من لا يعترفون بتطبيق مبدأ المصالح المرسله على هذا النحو ولا يقرون بالمبدأ القائل بأن حاجة المجتمع تبرر حرمان الفرد من حقوقه الشرعية التي اكتسبها بطريق شرعي. والحدود الاسلامية وتطبيقها لا زالت موضع خلاف، فالنص الاسلامي يقضي مثلا بقطع يد السارق، بينما اتجه الدراسات الاسلامية الحديثة يدعو الى تعطيل تطبيق حد السرقة على اعتبار ان المجتمع يجتاز حالة طارئة من حالات الفقر والمجاعة وعدم تكافؤ الفرص وانعدام التكافل الاجتماعي بين المواطنين، وهو ما يشبه حالة عام المجاعة التي عطل فيها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب تطبيق حد السرقة، وهذا نوع من التعميم لا يراه فقهاء الاصول في الاسلام.

أما من الناحية الاقتصادية فتواجهنا من جملة المشاكل مشكلة الغاء الربا في المعاملات. ونظام الفائدة يشكل دعامة اساسية للاقتصاد الحديث ولممارسات المصارف التجارية وهيئات الادخار والاستثمار. وحل الموضوع بطريقة تتماشى مع الاسلام يتطلب اولا دراسة مستفيضة لجميع أنواع الفوائد المعمول بها وتصنيفها تبعا لانطباق مفهوم الربا عليها وذلك بعد الاتفاق على المفهوم الأصلي للربا الذي تعرضت له آيات القرآن الكريم بالتحريم... هذا من جهة ومن جهة أخرى توضيح نموذج لنظام اسلامي اقتصادي آخر لا يقوم على الربا ويفى مع ذلك بحاجة المجتمع وتنفيذ المشاريع الاصلاحية والاستثمارية و العمرانية الهائلة التي تفتقر اليها البلاد.

لقد دعى عدد من اصحاب الدراسات الاسلامية كالاستاذ المودودي الى تعميم النظام التعاوني، الذي يقي المجتمع شرور الربا ويقيم دعائم الاقتصاد على اساس التعاون لا الاستغلال.. ولكن كيف يمكن تحويل

مؤسسات التعامل في العالم المعاصر كالبنوك ومؤسسات الاستثمار والصناعة والاقراض العامة الى مؤسسات تعاونية تقوم على أساس اشتراك المساهمين وجميع من يتعامل معهم جميعا في الربح والخسارة. وما هي الضمانات والاحتياطات التي يمكن اللجوء اليها لتلافي حدوث انهيار في الكيان الاقتصادي اذا ما رؤي تعديله على هذا الاساس.

هذه بعض أمثلة فقط، اذ لا حاجة بنا لأن نذهب بعيدا في الاستشهاد، وليس القصد من تلك الأمثلة التي أوردتها أننا يجب ان نشترط اجماع فقهاء المسلمين على رأي واحد قبل تنفيذه فهذا أمر مستحيل بالطبع في أي نظام، كما اننا نؤيد كل الدراسات التي تستهدف سد الثغرات العميقة في الجهاز الاسلامي المعطل، ولكن مثل هذا العمل لايمكن ان يفرض فرضا وانما يجب ان يتم تعميم الاتجاه الاسلامي استنادا الى حرية المجتمع في اختيار الاتجاه الصالح والمناداة بتطبيقه مع توفر البدائل المنافسة لاختيار الأفضل. ولهذا السبب اصبح من الواجب على دعاة الاتجاه الاسلامي تهيئة الرأي العام للمناهج التي ينادون بها وتوضيحها بحيث لا تترك مجالا لثغرات تتحدى التشريع أو تستعصى على الحل. ولا اعتقد ان الجهود الاسلامية قد توصلت فعلا الى هذه المرحلة.

- ٩ -

لو طلب مني أن أخلص الفرق بين دعوة القومية العربية ودعوة الاسلاميين بالنسبة لنظام الحكم والمجتمع لقلت ان القومية تتجه الى المجموع أولا فترقيمه على أساس الوحدة والحرية والمبادئ الاجتماعية العامة، فاذا ما انهارت مقومات الامة كمجموع انهارت معها أسس القومية وتلاشى مفهومها العام. أما الاسلام فانه يتجه أول ما يتجه بدعوته الى الفرد المسلم فاذا ائتلفت بهذه الدعوة امة من المؤمنين المسلمين فان الله انزل مع الايمان الكتاب اساسا للمبدأ، والميزان تطبيقا للحق والعدالة،

وأُنزل الحديد رمز البأس والقوة فيه بأُس شديد للناس . وهكذا تبدأ مرحلة المجتمع الاسلامي بعد مرحلة الفرد المسلم، فاذا انهار كيان المجتمع فان اسس الدعوة الاسلامية لاتنهار تبعا لذلك وانما تستمر مسئولية الفرد المسلم تجاه ربه وبني جنسه بالايمان والاستقامة والعمل الصالح ولو انهارت دون ذلك الامم وتبعثرت الحضارات وانتكست موازين المجتمعات . هذا هو الاسلام في جوهره وفي خطابه للفرد المسلم . ليس مشروطا بقيام حكومة اسلامية بالمفهوم العصري للدول كما ينادي به الاسلاميون ولكنه في نفس الوقت يتسع لقيام دولة ذات مبادئ اسلامية، اذا اقتضت ذلك مصلحة الاسلام والمسلمين . . . الأمر الذي ينكره دعاة الأتجاه القومي .

٢ - وجوه الخلاف الرئيسية بين القوميين والاسلاميين هي فيما يختص بالوحدة العربية والوحدة الاسلامية . وقد كتبت في هذا الموضوع مئات المقالات والأبحاث . . . يقول القوميون نحن عرب قبل ان نكون مسلمين . ويقول الاسلاميون نحن مسلمون قبل أن نكون عربا، هذا الخلاف اذا حللناه نجده بدوره غير مستند الى اساس منطقي . . . فالقوميون من جهة يعترفون بالاسلام كدين، كما بيناه في موضع سابق، ويعترفون بأنه ثقافة قومية لا غنى لكل عربي عنها . . . وهذا معناه ضمنا الاعتراف بحق العربي المسلم في الايمان بوجهة النظر الاسلامية، ومن جملة ما تستدعيه وجهة النظر هذه ان المسلمين اخوة بغض النظر عن أجناسهم . فاذا جئنا الى مناصري الاتجاه الاسلامي فاننا نجدهم من جهة يعترفون بدور العرب في القيام باعباء الرسالة الاسلامية، كما انهم يقرون الرابطة العربية التي تجمع العرب في لغتهم وثقافتهم وتاريخهم، وقوميتهم بغض النظر عن عقيدتهم الدينية . . . ويعترفون بان الوحدة العربية هي الخطوة الأولى للوحدة الاسلامية . . . وهذا معناه ان كلا من الطرفين يتخلى في اغلب الاحيان عن التزام النتيجة المنطقية للمقدمات التي يعترف

بها فيما يخص الجانب الآخر. وخصوصا حين يتجاوز الأمر نطاق الأقوال الى الافعال أو على الاخص في غمار الممارسات السياسية والحزبية.

٣ - العوامل التي أدت الى خلاف في الرأي السياسي بين القوميين والاسلاميين ان الفئة الاولى تبني نشاطها على أساس عدم التعارض بينه وبين شعور الاقليات العربية الدينية، بينما تبني الفئة الثانية سياستها على اساس الاستفادة من تاييد مجموعة الامم الاسلامية والتعاون معها. والخلاف بهذا الصدد مصدره الاول كما يبدو هو الكسب السياسي لا التفكير العقائدي، فقد وجدنا ان سيادة النظام الاسلامي لا تتعارض مع حرية الاقليات الدينية الأخرى، كما ان تعاون العرب واتحادهم على الصعيد العربي بادي ذي بدء لا يتعارض مع الدعوة لوحدة المسلمين. ثم هناك ايضا سوء فهم القوميين لمعنى سيادة النظام الاسلامي. وهم يتصورون على ما يظهر من المخاوف التي ما فتئوا يجسمونها حول الحكومة الاسلامية، ان حكم الاسلام يستدعي حتما اعادة نظام الخلافة وتقديس رجال الحكم باسم الدين وشن حروب الغزو والفتح، والقضاء على الحريات العامة باسم المحافظة على الدين أو اتهام كل من يجاهر برأيه بالكفر والزندقة والمروق، واضطهاد الفئات من غير المسلمين. وهذا الفهم الخاطيء انما جاء كما اعتقد كرد فعل للشعور الذي خلفه لدى الناس اساءة تطبيق الاسلام من قبل الحكومات المتعاقبة. وقد قلنا انه ليس في سوء تطبيق أي نظام ما يطعن في صحته أو صلاحيته. والواقع ان تطبيق النظام الاسلامي انما يعني في المرحلة الرئيسية ان يتجه العرب الى دراسة التشريع الاسلامي دراسة عصرية واعية واستنباط الاحكام التي تتماشى مع الاسلام وتسد في نفس الوقت الفراغ الكبير الذي يعانيه مجتمعنا الحاضر، بل عصرنا كله الذي يتأرجح اليوم بين نظم مادية تجردت من عناصرها الروحية والخلقية. . . . وهذه الاحكام الاسلامية

يتسع نطاقها أو يضيق تبعاً للمجال الذي تطبق فيه، ففيما يتعلق بالعبادات والأحوال الشخصية مثلاً نجد لها وافية كافية تتناول أدق المشكلات وأكثرها تعقيداً، أما فيما يتعلق بالمعاملات وبالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فإن الإسلام يكتفي هنا بأن يرسم الدوائر العامة ويضع الأطار الذي يحفظ النشاط البشري ويقيه شر الزلل وتجاهل القيم الانسانية والتلاعب بالمبادئ وتكييفها تبعاً لمتطلبات المصلحة الخاصة.

والغاية الواضحة من وضع هذه الدوائر ورسم تلك الاطارات بالنسبة للمجتمع الاسلامي انما هي لايجاد الانسجام بين مجهود الفرد والجماعة بحيث لا يصبح هذا المجهود موزعاً بين عقيدتين فردية يؤمن بها الفرد، واجتماعية تناقض هذا الايمان. ان النتيجة التي يجرها تردي المجتمع العربي في نظم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية تتنافى مع مبادئ الإسلام انما هي فقدان الفرد ثقته بالجماعة والمبدأ التي تسير عليه، وحينما تفقد القوانين ايمان الافراد بها على اعتبار انها تتعارض مع ما يدينون به، فان وازع الدولة يضعف في نفوس الافراد وتصبح علاقة الفرد بهذه المبادئ والقوانين والتشريعات علاقة مصلحة ومسايرة، لا ايمان وعقيدة... ولا يخفي ان من ميزة الدين الاسلامي انه يثير في نفس المسلم وازع الضمير فيوفر بذلك الكثير على جهاز المراقبة في الدولة نتيجة لنزعة الافراد الفطرية للتمرد على كل نظام أو قانون لا ينسجم مع معتقداتهم ولا يتمتع عندهم تبعاً لذلك بوازع الضمير المسئول ورقابته.

تلك هي أهم عوامل الخلاف، على ان هناك آراء أخرى كثيرة واتهامات يثيرها كل من دعاة القومية والاسلام، نشير منها مثلاً الى ترديد القوميون اتهام الدين بأنه حركة رجعية وانه أصبح لا يماشى تطور الزمن أو انه يقوم على العاطفة أو أنه فقد مركزه في المجتمع كما قرر ذلك بعض الباحثين. بينما يتهم الاسلاميون القوميون بالنزعة الالحادية والاستهتار بقيم السلوك الخلقية ويعتبرون في مواكبة هذه الظاهرة

للاتجاهات القومية بادرة خطيرة تنزع عن المجتمع العربي درعه الروحي الذي يقيه من مغبة تسرب المبادئ الهدامة اليه لتحطيم كيانه. ويرون ان القومية اذا تجردت من وازع الدين ليس بمقدارها ان تقاوم العقائد الالحادية والمادية الأخرى. ان في هذه الاعتراضات ما هو صحيح ولكن معظمها تهجم لا يستند الى اساس سليم. فاتهم الاديان بأنها تقوم على العاطفة وتهمل العقل لا ينطبق على الاسلام الذي كانت رسالته الاولى اعادة سلطان العقل وتغليب المنطق السليم على العاطفة العمياء، والتشريعات الاسلامية والفقهاء الاسلامي واصول التفكير الاسلامي كلها قامت على العقل والمنطق بشهادة اعدائه انفسهم ماعدا الاصول التعبدية التي تستند الى السيرة والقدوة الحسنة والايمان بالله.

- ١٠ -

والآن... نحن مدعوون جميعا ان نستنتج من كل ما قلناه شيئا ذاقمة وفائدة، يرسم الطريق لنهضة مجتمعنا العربي بين اتجاه قومي بحت وآخر اسلامي خالص... فماذا نحن فاعلون؟...

لا أراكم الا وقد ادركتم الآن من سياق حديثي والاتجاه الذي سلكته في البحث، الخطوط الكبرى اللتي يقوم عليها الرأي الذي أومن به. انه اتجاه عربي اسلامي ما في ذلك من شك، ولكن له مدلوله الخاص الذي لايقوم على ماتدعو اليه المنظمات القومية او المنظمات الاسلامية... وهو بعد كل ذلك رأي لا يكثرث بالشطر القائل ان مصلحة الدعوة أو الحزب فوق كل اعتبار، ولذلك فهو غير منساق في اتجاهه ليطماشى مع ضرورات الكسب الحزبي المؤقت والذي ينشده كل من دعاة المعسكرين للوصول الى السلطة.

أما الأسس التي استخلصها لتكوين هذا الاتجاه فهي:

أولا - لا تعارض بين العروبة والاسلام. فالعروبة كما يقول الاستاذ

ميشيل عفلق جسم روحه الاسلام، والعرب كما وصفهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (مادة الاسلام).

ثانيا - بدأت الفكرة القومية بصفاتها اتجاها سياسيا يهدف الى تحقيق الحرية والوحدة، وانتهت اليوم الى تبني مبادئ في السياسة و الاجتماع والاقتصاد تجنح نحو الاشتراكية وماشابه من نظريات عصرية. فالقومية على هذا الأساس تفتقر الى مبدأ كامل وعقيدة روحية شاملة في الكون والحياة.

يقول الشيخ عبدالله العلايلي: (ان القومية مهما تجردت فهي عملية ليس فيها الاستعداد لتنقلب رمزا مثاليا يستعلي على النفوس ويسيطر من انحائها، والقومية في نفسها خالية من الرمز فلا بد من ايجاد رمز مثالي لها، وهو لا يخلو ان يكون اما المذهب الاخلاقي واما الدين الالهي او اما الدين الطبيعي) فضمن هذه العقيدة وذلك المبدأ تستطيع الحركة القومية ان تضع اسس تشريعاتها ونظمها سواء الذاتية منها ام المكتسبة، والاسلام يمثل هذه العقيدة التي تحتاج اليها القومية في حركتها سواء ما اتصل منها بذات المجتمع العربي او ما ارتبط برسالة انسانية شاملة. ان في الفكرة القومية من عناصر التأليف والتوحيد والتنظيم ما يكفل توحيد المجتمع العربي وتقويته ولكنها كدعوة عالمية تفقد جاذبيتها بالنسبة لشعوب العالم. القومية تضع المصلحة فوق كل شيء والاسلام يعمل للمصلحة القومية ضمن اطار انساني يعطي الضمانات و يتيح الفرص المتكافئة لاتباعه على السواء.

ثالثا - لا ضير ان يتجه المجتمع العربي اتجاها عربيا وان تنشط المنظمات القومية لتوحيد العرب وتقويتهم وتركيز استقلالهم، ولكن على اساسين: الاول... ان لا يتعارض مثل هذا النشاط القومي مع الاسلام كدين ونظام، والثاني... ان يضع القوميون نظرتهم للإسلام كدين وتراث ونظام يحدد الاطار القومي حتى لا تجمع به الاهواء، موضع التنفيذ

فيأخذوا على عاتقهم أيضا عبء بعث التراث الاسلامي وتجديد مفهومه ودراسة نظمه ومحاولة الاستفادة منها لتحل محل النظم الأخرى المقتبسة كيما يتم الانسجام بين عقيدة العربي الاسلامية و بين النظم التي يخضع لها، وان يعتبر هذا الواجب ضمن مسئولية الحركة القومية ذاتها.

رابعاً - في غيبة تواجد مشروع اسلامي متكامل ومقبول في ضوء المعاصرة والتجديد يجدر بالدعوات الاسلامية في هذه الاونة ان تركز جهودها اولا لسد الثغرات التي احدثها عجز العالم الاسلامي وجمود التشريعات وتاخر العقلليات التي سيطرت على مقدراته ردحا من السنين... وان تعمل على احياء معنى الاسلام في نفس الفرد وتوضيح المناهج الاسلامية للرأي العام بصورة تؤدي الى الاقتناع الحر وتكفل للمجتمع تطوره.

خامساً - يجدر بالمنظمات الاسلامية ان تطبق بدورها المبادئ التي يدعو اليها الاسلام فيما يتعلق بوحدة العرب والتأليف بينهم وذلك بمناصرة الاتجاهات العربية المناصرة فعالة واعتبار ذلك ضمن مسئولية الحركة الاسلامية ذاتها.

سادساً - يجب التمييز بين الدعوة للأخوة الاسلامية القائمة على تعاون المسلمين، وبين الدعوة للاتحاد الاسلامي القائمة على اساس اتحاد الحكومات الاسلامية القائمة اليوم. فليس من مفهوم الاسلام بالضرورة في شيء التمسك باتحاد حكومات تدعي انها حكومات اسلامية اذا كان في ذلك تعارضا مع المصلحة العربية خصوصا اذا كانت هذه الحكومات لاتمثل الاسلام باعتراف الدعاة الاسلاميين أنفسهم، كما انها لاتمثل جماهير المسلمين ايضا... والجماهير بدورهم لا يمثلون الاسلام الذي ابتعدوا عنه في حياتهم اليومية وتمسكوا من تعاليمه بالمظاهر والقشور.



هذه هي معالم نهضتنا العربية الاسلامية . انها نهضة لا نريد لها ان تكون مجردة من عنصرها الروحي فاقدة لانسجامها بين عقيدة الفرد ونظام الجماعة كما يظهر في الجانب القومي ، ولا شاذة مجردة من مادتها العربية كما يتجه اليه الاسلاميون . . . انها تنسجم مع ارادة وشعور الغالبية العظمى ممن يتكون منهم مجتمعنا العربي الاسلامي ، الا انها لاتعارض مع مصلحة الأقليات الدينية وحقوقها



وبعد - فلا شك ان من الصعوبة بمكان ايفاء هذا الموضوع الذي تحملت مسؤولية القول فيه ، حقه من الدراسة المستفيضة ولعل عذري فيما قد يبدر من قصور بهذا الصدد ، انني لست من المتخصصين في الدراسات العربية او الاسلامية ، كما اني لا أمثل اتجاها معيناً من هذه الاتجاهات المتصارعة بمادة حزبية خالصة أو غرض سياسي ، ويكفي انني اقول ما قلته بصفتي فرداً عربياً مسلماً .

البحرين - ١٩٥٨ (*)



(*) محاضرة أُلقيت في النادي الأهلي بالمنامة .

«تعليق»

بعد مرور فترة من الزمن تربو على الأربعين عاماً، ما يزال «المشروع الإسلامي المتكامل» المشار إليه في المقال - غير واضح المعالم، أو محدّد القسّمات، رغم ما يُبذل في سبيل ذلك من جهود.

كتبت مجلة «العربي» الكويتية في افتتاحيتها (حديث الشهر - بقلم الدكتور محمد الرميحي/ العدد ٤٦١ - إبريل ١٩٩٧) بعنوان: مستقبل حركات الإسلام السياسي: غموض في الرؤية.. وقصور في فهم شكل الدولة.. ونسبت إلى الكاتب الفرنسي (أوليفر روي) - من كتابه بعنوان «فشل الإسلام السياسي» قوله مشيراً إلى محاولة تيارات الحركات الإسلامية السياسية في أن تقدم خطاباً جديداً يهدف إلى بناء دولة مختلفة لم تعرف في السابق - ما يلي:

١ - «معضلة هذا الخطاب - كما يراها المؤلف - ليست في محاولة التجديد برفض القائم، ولكن في عدم وجود تصوّر محدّد واضح وعقلاني ومقبول أيضاً للمؤسسات السياسيّة التي تزعم إنشائها لإدارة هذه الدولة».

٢ - وفي موضع آخر ورد ما يلي:

«ويبقى السؤال كيف يمكن إقامة المجتمع الإسلامي؟ هناك فوارق في الإجتهاادات بين المعتدلين والجدريين خلال تاريخ الحركات الإسلامية، كلهم متفقون على أهمية الوصول إلى السلطة ولكن المعتدلين متحمسون لأسلمة المجتمع من أسفل إلى أعلى كالّدعوة، وإنشاء المؤسسات والحركات المدنيّة في الوقت الذي يتم فيه الضغط على

القيادات الحاكمة من خلال التحالفات السياسية، وكذلك الإهتمام بالشرعية في إصدار القوانين.

ومن جانب آخر، جاء في مقال من مراسل جريدة الحياة في طهران - السيد غسان جدو (الحياة: العدد ١٢٤٩٧ - ١٨ مايو ١٩٩٧ - ص ٤) هذا الكلام المنسوب إلى حجة الإسلام محمد ري - شهري في برنامج تلفزيوني في إطار حملة الإنتخابات الرئاسية ما يلي:

١ - (...). وعندما سئل عن فهمه للإقتصاد الإسلامي وتصوره له، تحدّث ري - شهري بجرأة وقال: «بعد الثورة وخلال مراحل مختلفة لم نقدّم نموذجاً للإقتصاد الإسلامي. وأكد أن كل ما طبّق حتى الآن هو عبارة عن برامج نُسخت عن الإقتصاد الغربي. ولم يجد حرجاً في القول أنه لا يملك رؤية متكاملة لما ينبغي أن يكون عليه الإقتصاد الإسلامي.. ورأى أنّ الحل يكمن في أن يجتمع رجال الدين وخبراء الإقتصاد لتحقيق الغرض المطلوب».

٢ - كما يضيف فيما بعد: ... أعتبر ري - شهري أن الركيزة الأساسية لتغيير الأوضاع نحو الأفضل تكمن في إصلاح ثقافي شامل ينعكس ألياً على المجالات الإقتصادية والسياسية وغيرها..).

انتهى

﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾

والحمد لله رب العالمين

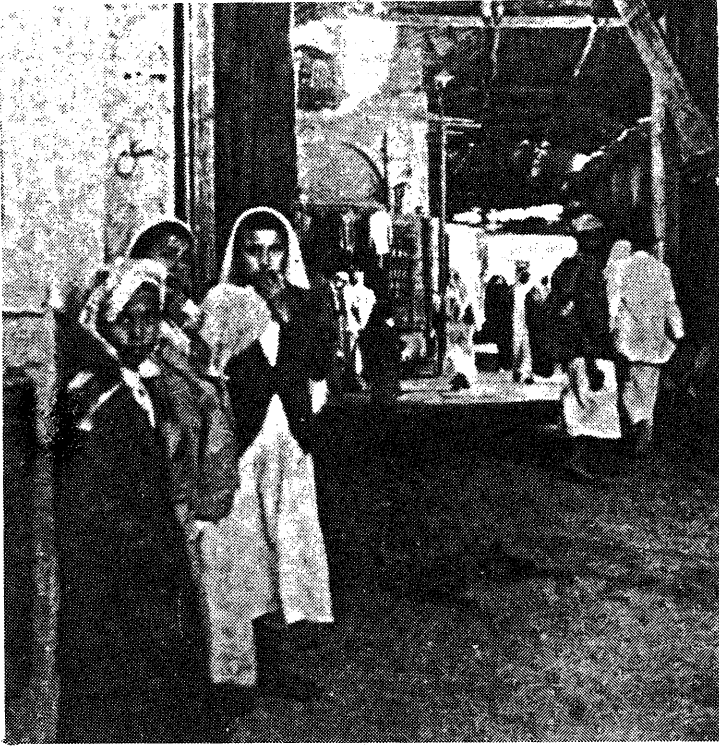




المؤلف في فترة ختم القرآن الكريم مع أخيه الأكبر حسين (١٩٣٧م) (صفحة ٣٧)



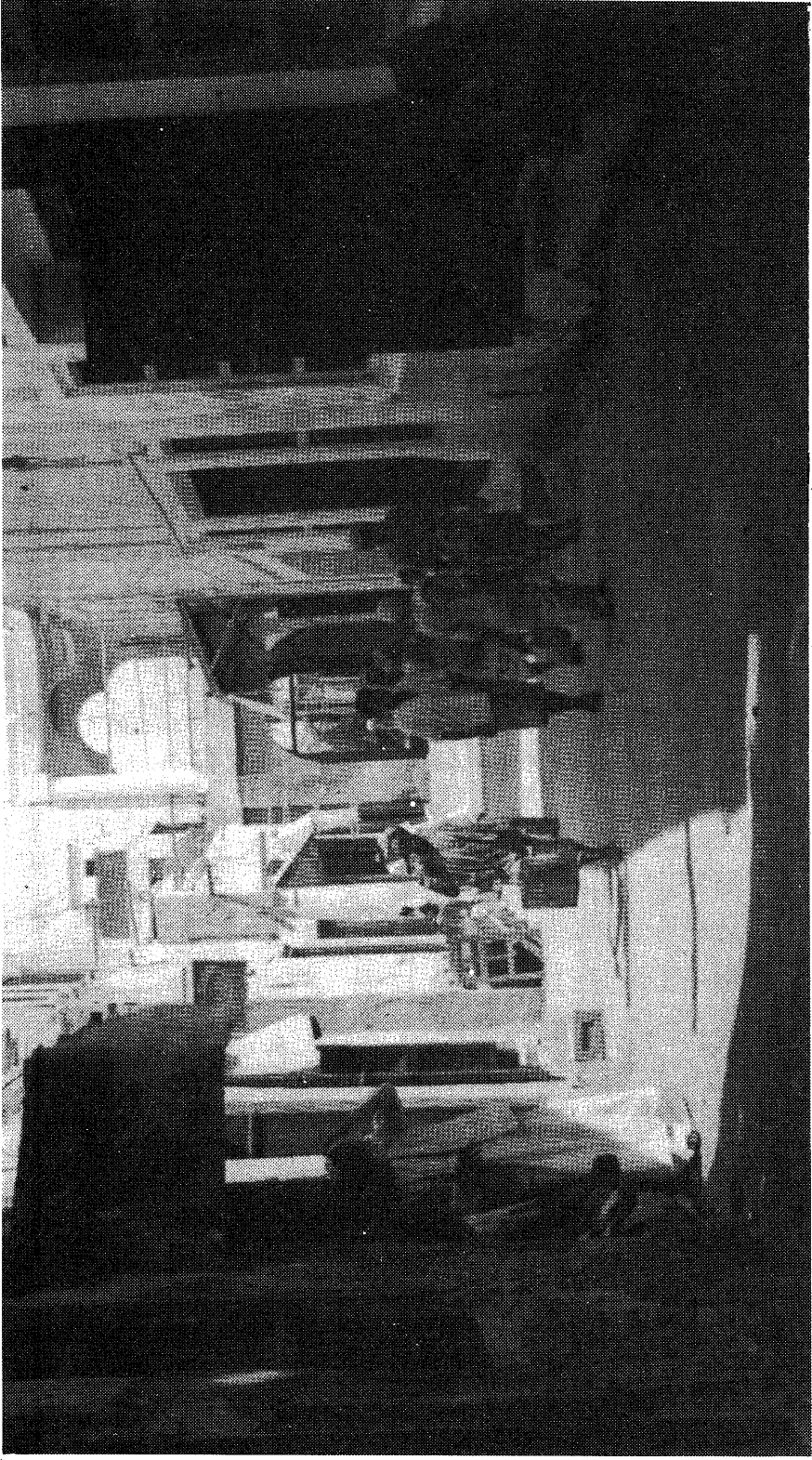
(١) ثانوية البحرين - ١٩٤٤ (٢) بعثة بغداد - ١٩٤٥



سوق المنامة في أوائل الثلاثينات (صفحة ٢٨)



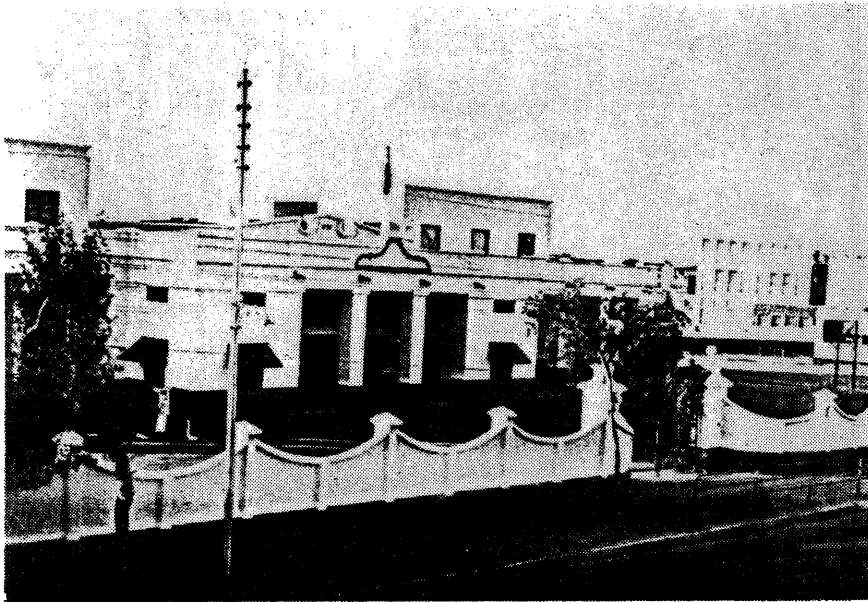
(تصغير) قدور الطبخ (صفحة ٢٩)



جانب من سوق المنامة في الأربعاءات (صفحة ٣١)



قلعة البحرين (البرتغال) (صفحة ٣٨)



المدرسة الخليفة الابتدائية (صفحة ٤٢)



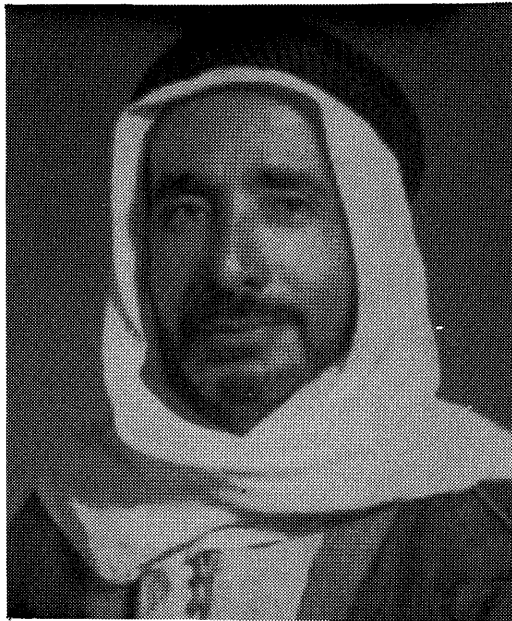
مبنى البنك الشرقي ١٩٢١ الذي تحول إلى «الكلية» الثانوية عام ١٩٤٠ ص ٤٦



حفلات نادي العروبة في أوائل الخمسينات وفي الصف الأول سمو الشيخ عبد الله بن عيسى آل خليفة رئيس التربية والتعليم وعن يمينه المحاضر السيد صدر الدين شرف الدين - وعن شماله رئيس بعثة التعليم المصرية (صفحة ٥٦)



الرحلات . . من أمتع الذكريات (صفحة ٦٤)

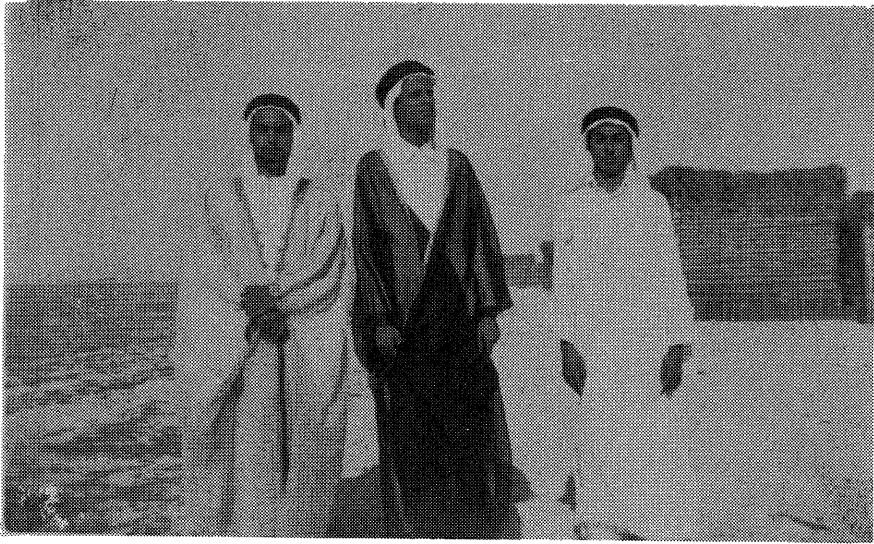


أحمد صبري شويمان (الشيخ أحمد موسى) صاحب «الأنصار» (صفحة ٦٩)

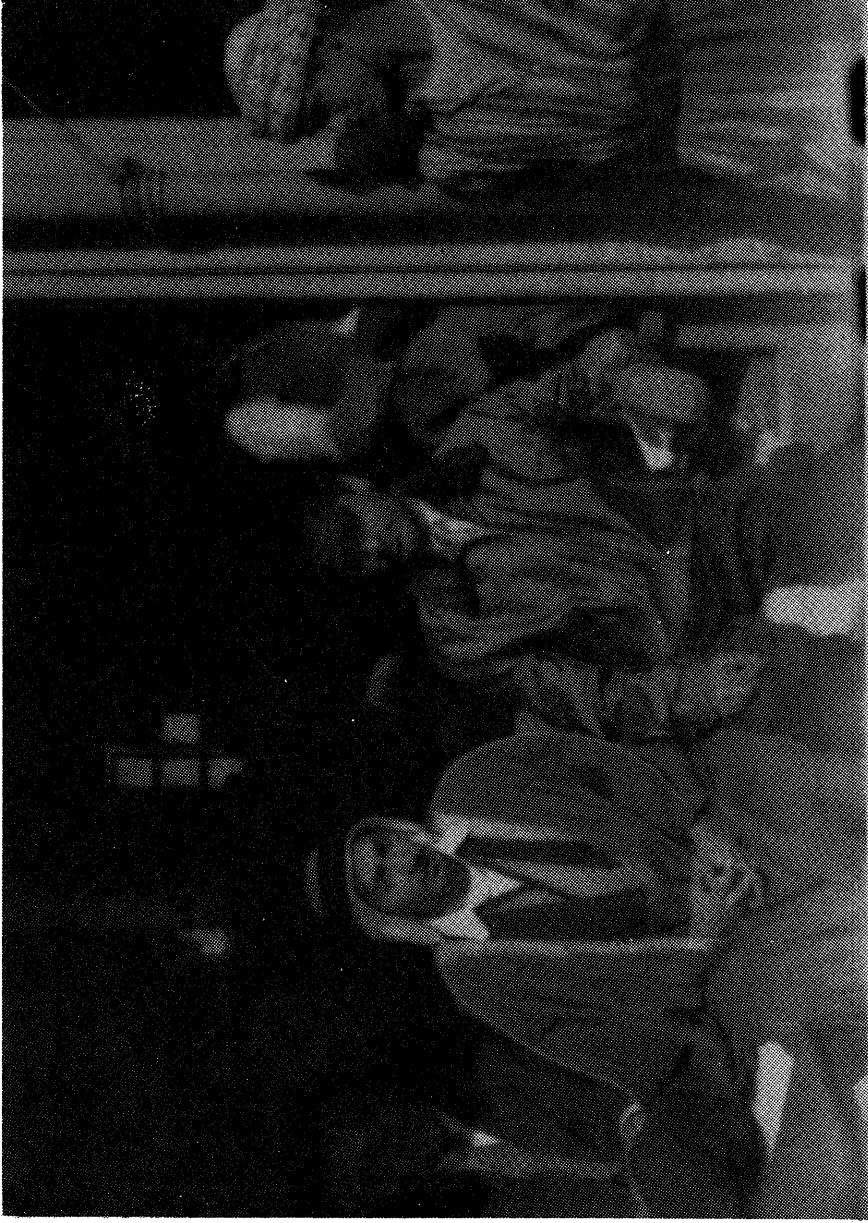


الواقفون من اليسار:

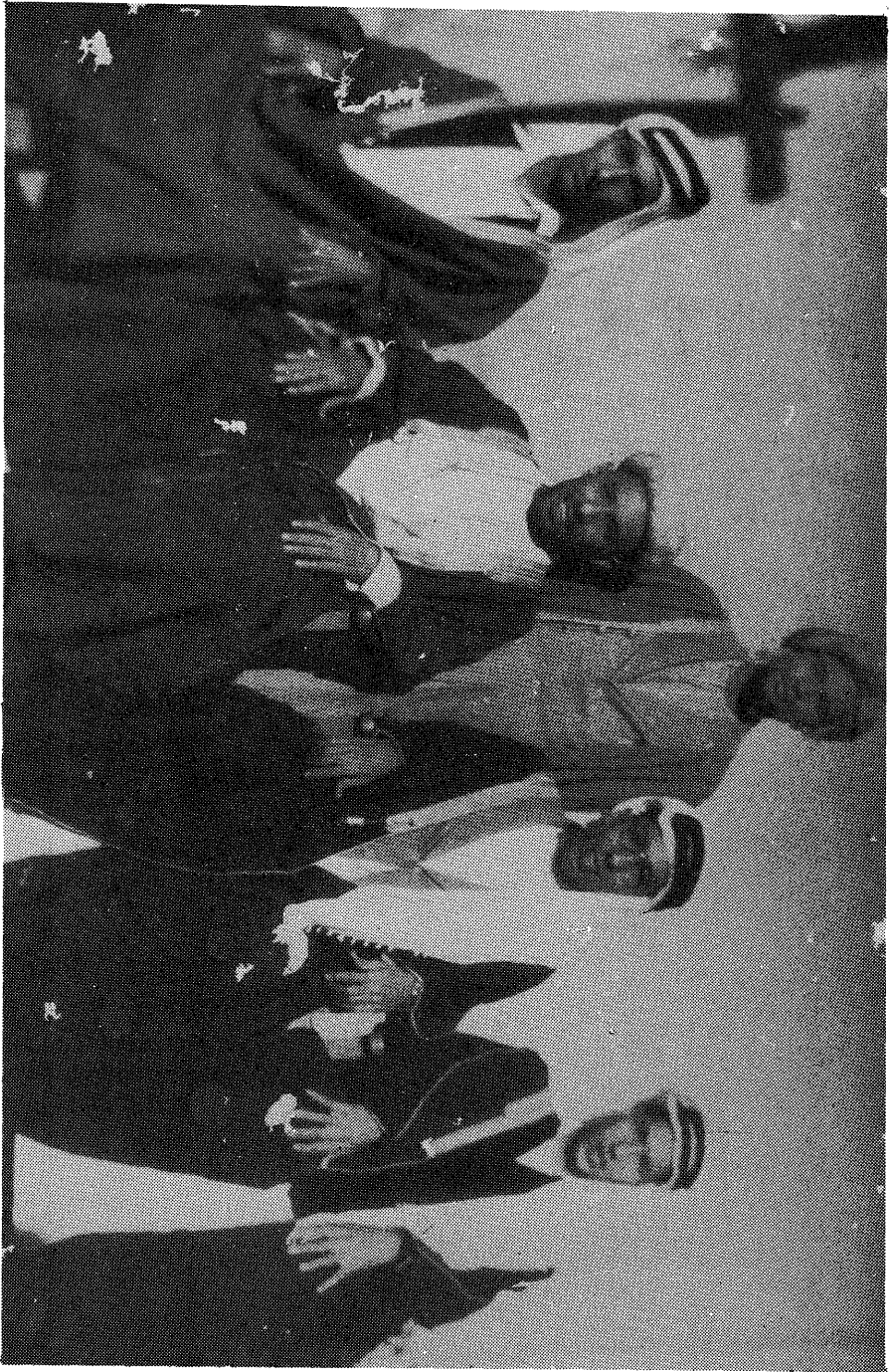
١ - عبد العزيز القاضي ٢ - دعيج بن علي الخليفة ٣ - علي التاجر
الجالسون: د. حسين البحارنه - عبد الله الطائي (صفحة ٧٥)



أخذت في ٢٧ رجب ١٣٦٧ على شاطئ البدعة بالمنامة المؤلف مع الشيخ خالد
بن محمد ودعيج الخليفة (صفحة ٨٥)



المؤلف في مقهى شعبية بشارع الرشيد ببغداد (صفحة ٩٩)



تجارة والد المؤلف في عمان مع أعيان عائلة «المصفور» في الخمسينات وما قبلها (صفحة ١٠٢)

Saud Abdulaziz Alfulaij

Export - Import & Commission Agent.

Telegram: "Alfulaij"

Jolia Bazar.

1947 2/12/2 Karachi-2 لاهور

فقد كنت في الارض فوجدتني محمد بن محمد البازي المكي
بعد التبر. اريد انتم هتم لاهور بامر الزام وبانتظار بشاركم
منذ كاننا قدام من داركم فقولت لاهور فتمت اللادعوى
للهي فعميد لاهور قدتم لم تبار و بينتم الداعي لذلك وما اصب
الزواج اكد لاهور

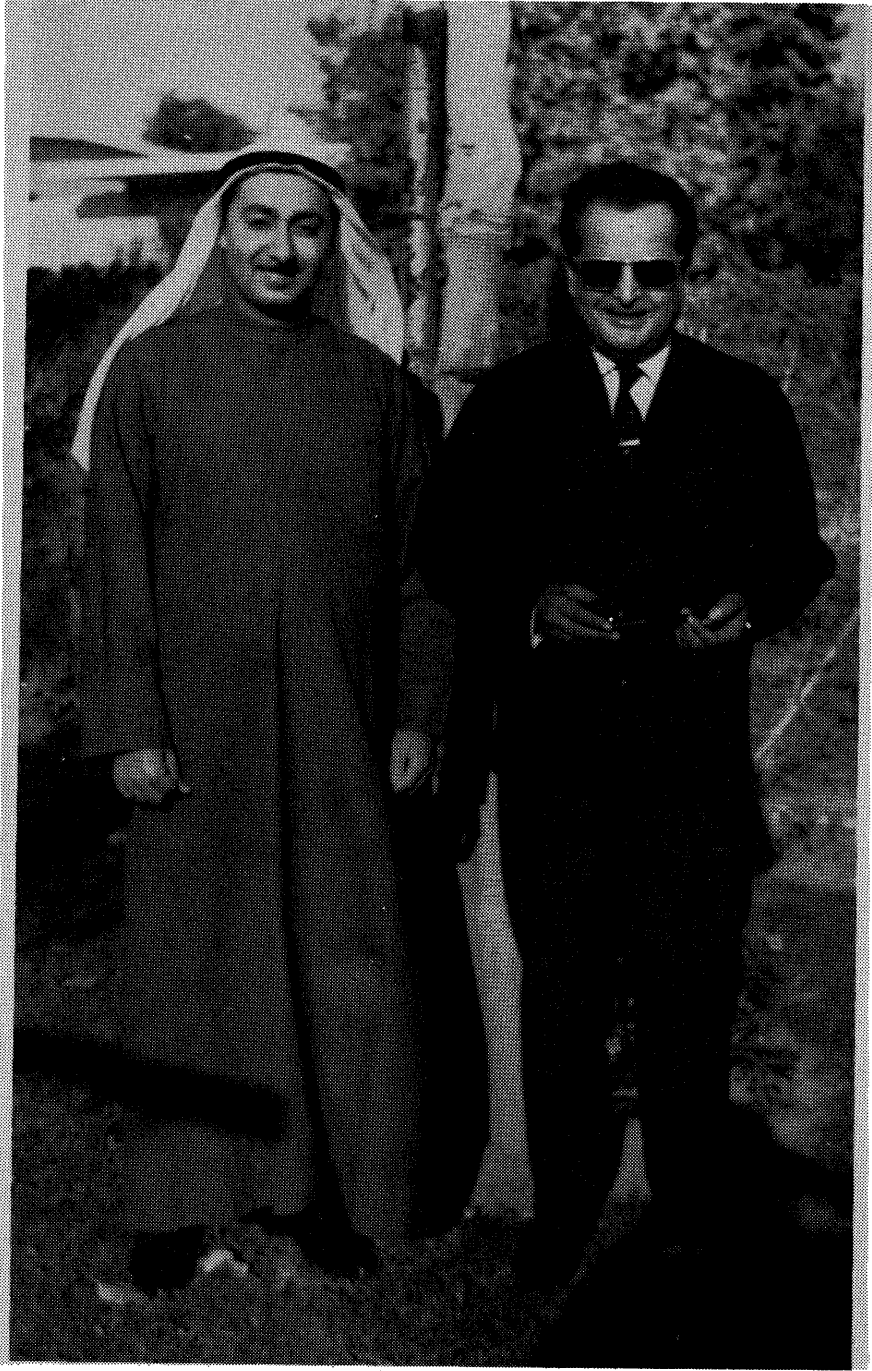
فلم لا تطلبوا الزام هناك لان لاهور ما وها
صود هانتر حتى رده به و تطلبتم ذلك. ثم رستم قدام كان
بم اسم بالبره. صاصم باسمه كان في لاهور بانه رطبا
عندتم رده به تم لم تبار الزام. صاصم رستم

(التاجر الكويتي المعروف سعود عبد العزيز الفليج يقول إن ماء بمبي وهواءها غير

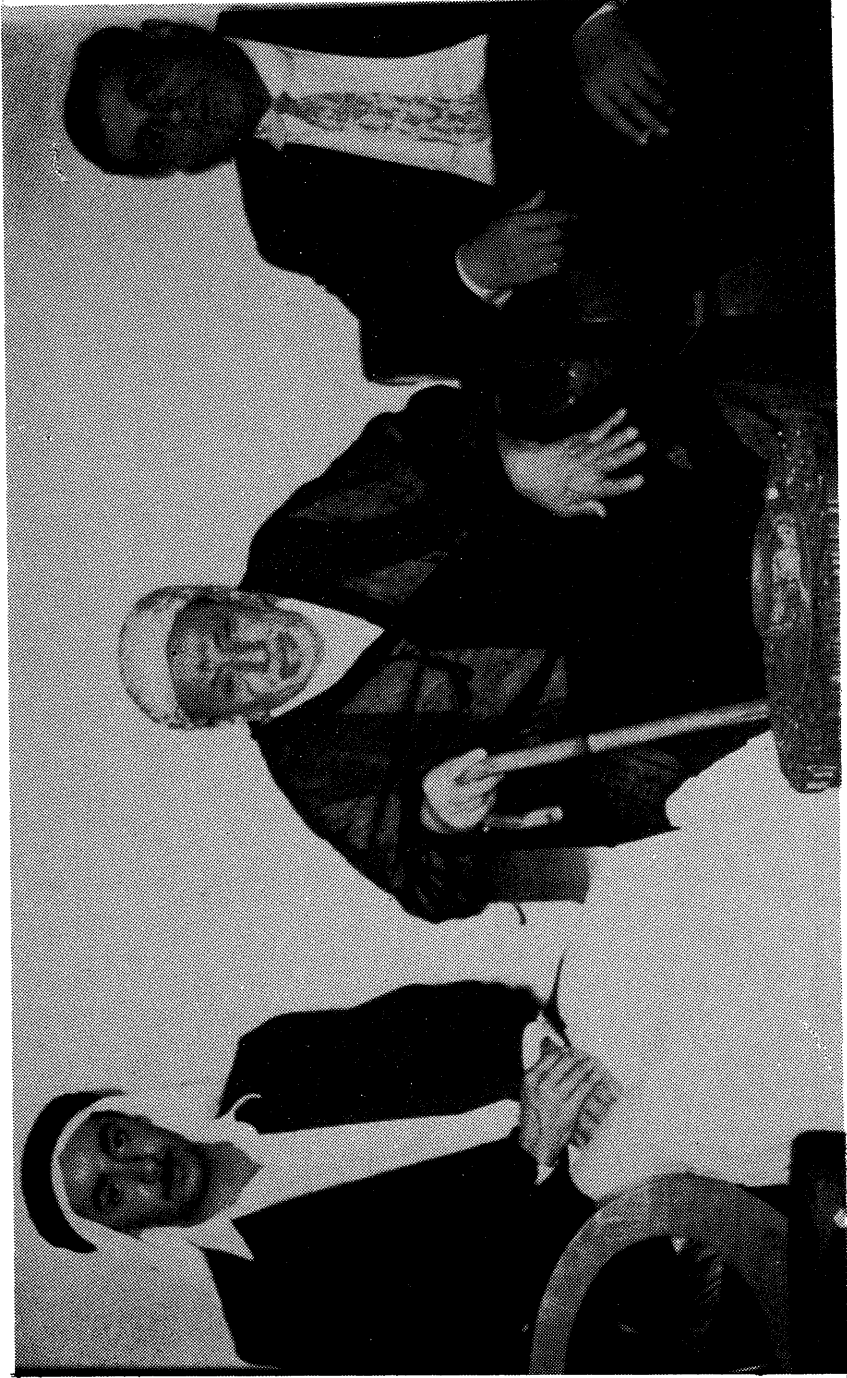
صحيين) (صفحة ١٠٦)



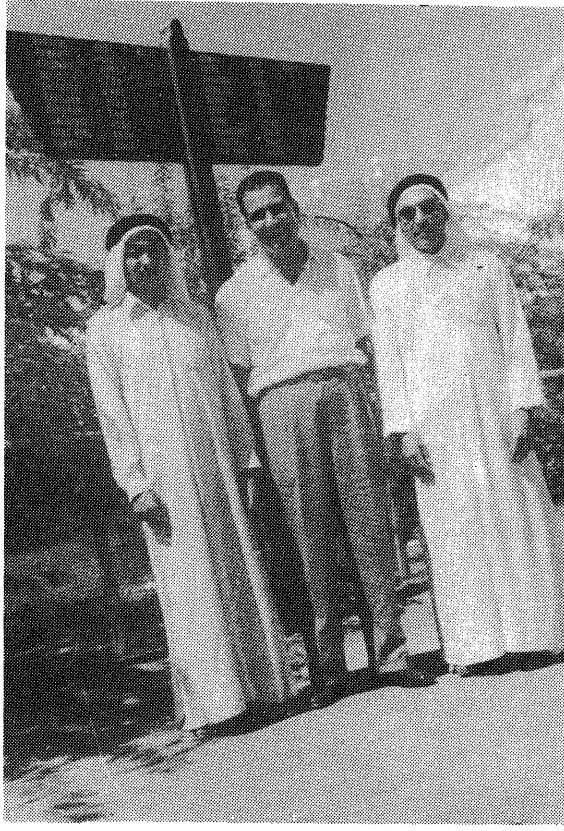
المؤلف في بداية العمل التجاري (صفحة ١١٠)



مع الأديب أحمد الراشد المبارك. في الخمسينات (صفحة ١١١)



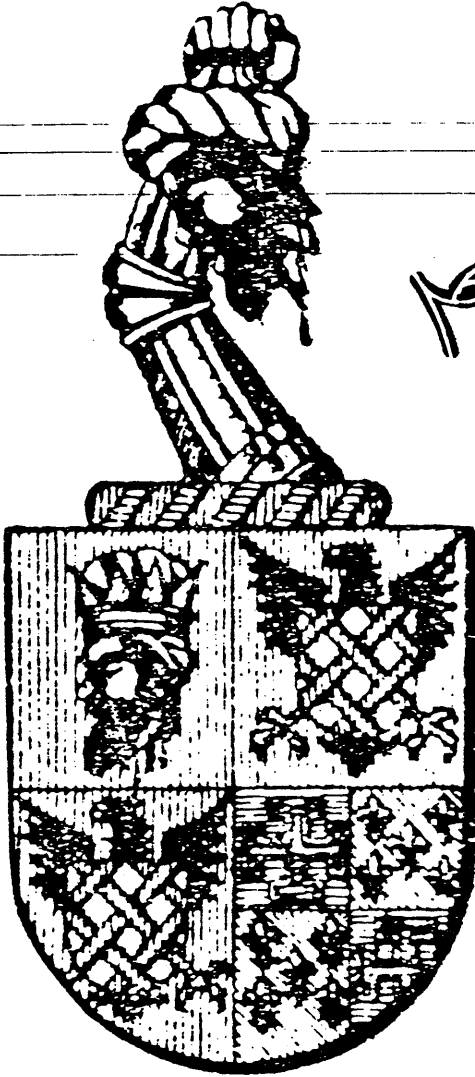
المؤلف مع والده وضيف الأسرة محمد حمدان (من لبنان) خلال الخمسينيات (صفحة ١١٢)



مع أخي صادق وجاسم الباقر وكيل (ميتسويشي) بالمطار، صيف ١٩٥٨
(صفحة ١٢٦)



ساحة البرج - بيروت في الخمسينات (صفحة ١٦٦)



Correia Barém

أَسْنِ زَيْحَم

صَنِ الْبَلَرِيْنِ

عَلَى

دِرْعِ قَائِدِ

بِرَغْفَالِي!

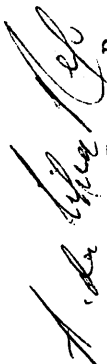
in Portuguese archives,

Besides, there are many documents, scattered over several collections, regarding Bharein. Several of these documents have already been printed. Others are still unpublished.

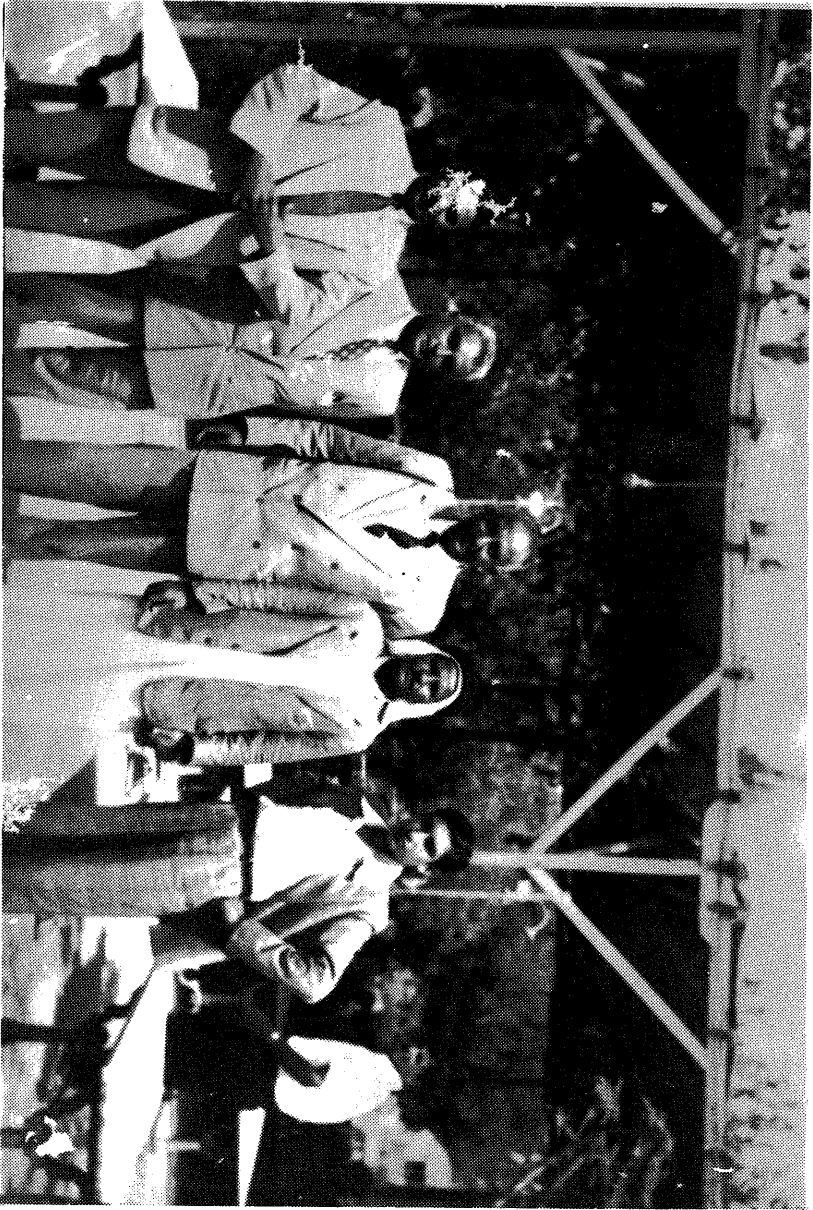
A plan then for a study of the relations between Bharein and Portugal would follow a double research task: a) to locate and summarize all the relevant printed documents; b) to investigate about the rest.

Of course, such a task would require a running knowledge of the Portuguese language. In case a Bharein historian would come to Lisbon, and if he could take as his assistant a Portuguese research officer, matters would be much easier.

I am sure this task would be most welcome. We in Lisbon would try our best to help it as much as we can.


(Prof. A. da Silva Rego)

«صورة من مذكرة الأب البروفسور (داسيلفارجو) يشير فيها إلى إمكانية ترجمة
الوثائق البرتغالية عن البحرين للعربية» (صفحة ١٧٨)



سباحة في لبنان مع الأستاذ إبراهيم المبيض ١٩٥١ (صفحة ٢٧٠)



مع المرحوم صالح شهاب - والأستاذين علي التاجر وإبراهيم حسن كمال - مؤتمر
الأدباء - الكويت ١٩٥٨ (صفحة ٢٧١)



المؤلف في سطور

لمحات من السيرة الذاتية لتقي البحارنة

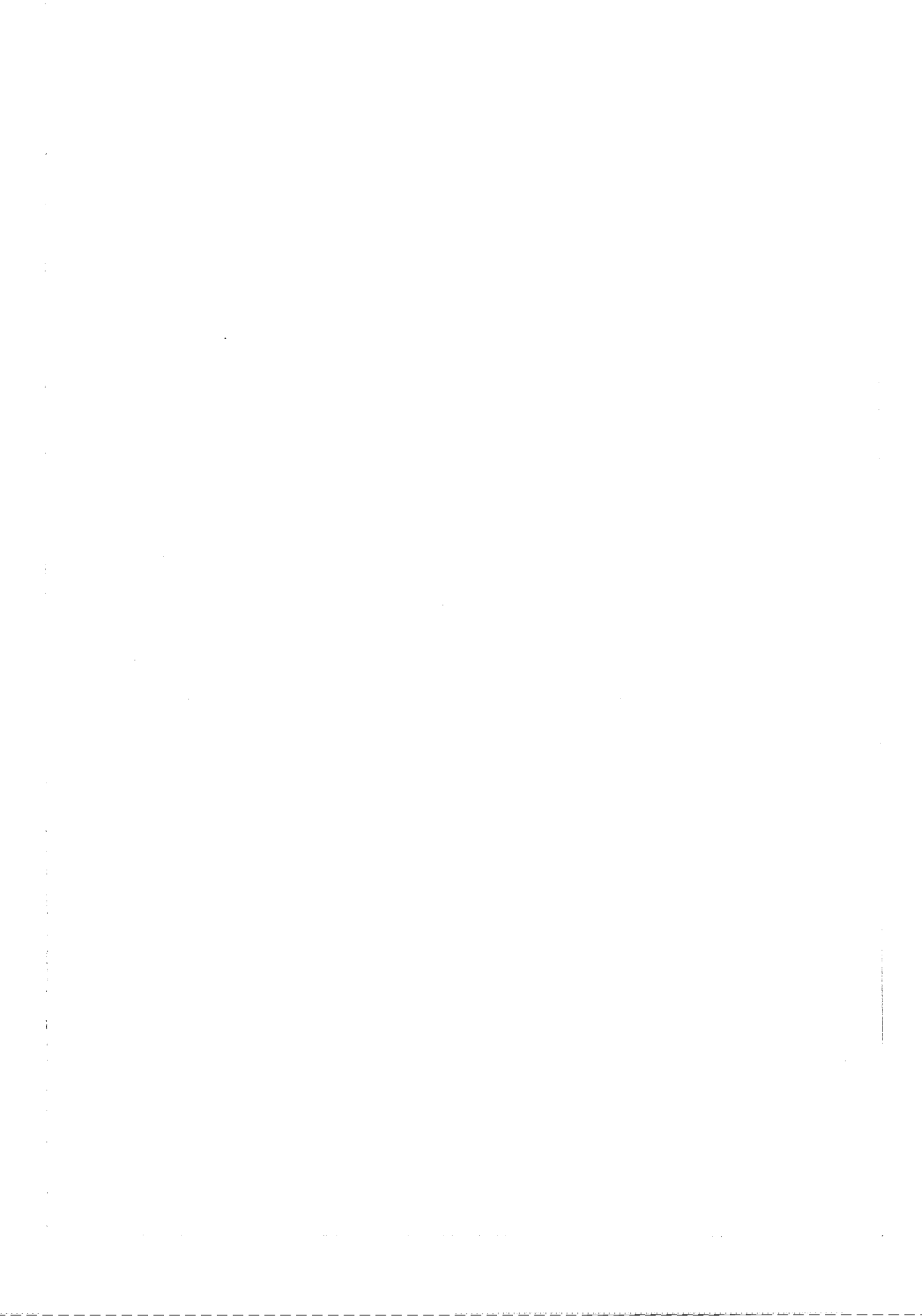
- ولد في البحرين في مدينة المنامة عام ١٩٣٠م.
- تلقى تعليمه في مدارس البحرين وبغداد.
- درس الأدب والاقتصاد والشؤون العربية والإسلامية.
- شارك في أنشطة الأندية الوطنية والثقافية والاجتماعية.
- زاول الأعمال الحرة وأصبح عضواً في مجالس إدارة عدد من المصارف وشركات التأمين وغرف التجارة والمؤسسات المالية.
- شغل منصب سفير البحرين في مصر ومندوبها الدائم لجامعة الدول العربية ٧١ - ١٩٧٤م.
- شارك في مؤتمرات وندوات ثقافية واجتماعية وأدبية واقتصادية محلية وعربية.
- كتب مقالات ودراسات في الشعر والأدب والاقتصاد والشؤون العربية والإسلامية في صحف البحرين والمجلات العربية.
- أرخ سيرة «نادي العروبة» خلال خمسين عاماً ونشرها في كتاب صدر عام ١٩٩٢م.
- عضو مجلس الشورى ورئيس لجنة الشؤون الخارجية بالمجلس منذ عام ١٩٩٣م.
- له ديوان شعر مطبوع باسم «بنات الشعر».

الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| الإهداء | ٥ |
| تقدمة بقلم الأستاذ إبراهيم العريض | ٦ |
| كلمة المؤلف | ١١ |
| ١ - الورقة الأولى: طفولتي [البحرين في الزمان الأول] | ١٣ |
| ١ - ذكريات الجناح الطائر | ١٥ |
| ٢ - أولاد الحارة | ٢٣ |
| ٣ - حديث المدرسة | ٣٨ |
| ٤ - المدرسة الثانوية | ٤٧ |
| ٥ - مع نادي العروبة | ٥٧ |
| ٦ - دعوة الأنصار | ٧٠ |
| ٧ - بغداد - دار السلام | ٩١ |
| ٨ - بدايات الأعمال الحرة | ١٠١ |
| ٢ - الورقة الثانية: أوراق مسافر | ١١٧ |
| ١ - الفردوس المفقود | ١١٩ |

- ٢ - ثلاثة شهور في لبنان ١٣٥
- ٣ - أوراق برتغالية ١٧٠
- ٣ - الورقة الثالثة: أوراق أدبية ١٨٥
- ١ - مقدمة في الشعر ١٨٧
- ٢ - ابن مقرب ٢٠٧
- ٣ - الفتوة عند العرب ٢١٦
- ٤ - أمسية أدبية ٢٢٤
- ٥ - حكايات منسية ٢٣١
- ٦ - العريض كما عرفته ٢٦٦
- ٧ - فضيلة الشيخ الحلبي ٢٧٧
- ٤ - الورقة الرابعة: أوراق إسلامية ٣٠٩
- ١ - الإسلام قولٌ وعمل ٣١١
- ٢ - نهضتنا بين العروبة والإسلام ٣١٦
- تعريف بالمؤلف ٣٥٢
- الفهرس ٣٧٣









هذا الكتاب

بقلم الأستاذ إبراهيم العريض

(... إن كل حادي عند قبي، بإضافة إلى كونه عامراً بالوصف، يتجاوز قيمته المحلية عندما تهتم ريشته بإخراج الخاص، فيصبح وكأنه صفحة ناطقة في سفر "الحياة البشرية". بحيث أنك - يا صديقي - هذا تحريك تامس "الالهية" في صورة سمها توتاً بقلمه، ظل تعانقها على طول الخط، منبهراً بـ "كيفية" إخراجها في إطلالها.

... وإذا تأملنا ملياً، فلا يقصر الأمر علينا وحدها ولا على تاريخ البحرين، فقد ارتفع الأثر - بمايزخر به من قيم - بحيث يرى كل أريب حديثاً باسمه في الخارج، ممن غابت عنهم تلك الظروف بأهوائها، عوداً على بدء، كيف اقترن الصدق في التعبير عنها، بالجمال الذي يكتنفها من كل صوب في التصوير... في لوحة فنية رشيقة. وهذا هو الشيء الذي ينفرد به اليوم لهذا العبقرى بين كل الذين لمعت أسماءهم في كتابة الذكريات عهد الآخرين سواء هنا أو هناك.

... إنني أنتهز هذه الفرصة فرحاً، لأعبر لتقي عما كنت أمسه يوماً، وللاذات أرى دليلاً من حديث إذا وكل بارة يقوم بها. وأخرها، بإضافة إلى هذه الذكريات، الشعر بصفته الحقيقية الذي ظل يرافقنا، نظراً ونشوراً، طوال حياته. إنني أضمت إلى صدري كرميل (٠)

إبراهيم العريض